المستشار محمد مرشدى بركات

عبقرية العقاد

عملاق الفكر العربي

الطبعة الثانية
منقحة و مزيدة

تقديم
الدكتور السفير
عبد الله الأشعل



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بركات محمد المرشدي .

عبقرية العقاد | محمد المرشدي بركات .

ـ القاهرة. مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٦م، ص؛ ٢٥سم.

١- العقاد ٢- الأدباء المصريون - تراجم

أ- العنوان ٩٢٨,١

رقم الإيداع : ٢٠١٦/٢٧٢٠١

الطبعة الأولى: ٢٠١٦م



القاهرة : ميدان حليم خلف بنك فيصل(الفرع الرئيسي) شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

ت: 27877574/ 0100104115/ 0100004046/ 0129961635

Email:tokoboko_5@yahoo.com

إهـــــداء

.. إلى **أبى** - رحمة الله عليه - الذى بث فى حب القراءة منذ نعومة أظفارى .. وكان وراء قراءاتى لأدب الأستاذ العقاد .

.. وإلى **أمى** - غفر الله لها - التى ما فتئت تحمل إلى الكتب حتى امتلأ البيت الذى نقطن فيه بروائع الأدباء والمفكرين .

.. وإلى أستاذى العلامة الدكتور **فؤاد عبد المنعم رياض** أستاذ القانون الدولى بجامعة القاهرة وقاضى محكمة العدل الدولية، وقاضى طابا الذى أفاء على بكريم محبته، وغزير علمه بما يذكر له بالعرفان والتقدير.

.. وإلى إبنى **خالد** .. وكريمتى **سارة** اللذين نبغا فى دراستهما فسارا على درب جدهما القاضى العادل الكريم.

.. أما الأستاذ **محمد البحيرى** المدير العام للنشر الثقافى بدار المعارف ومجلة أكتوبر فله منا أعمق التحية وأجزل الشكر الذى لم يتوان عن إمدادى بالمراجع التى طلبتها .. بأريحية تذكر فتشكر .

.. وللآنسة **منى لوقا ثابت** تقديرى الخاص على ما بذلته من جهد يذكر لها على كريم صبرها على نقل هذا الكتاب وغيره من الكتب على الحاسب الآلى .

إهداء خاص

إلى قريتى منية المرشد التى ملكت على جوانحى واستقر حبى لها فى سويداء قلبى فهى مسقط رأسى ومثواى وموئل أجدادى وأبائي. فلطالما رأيت فيها بشاشة الأحباب واعتمل فى عقلى من خلالها الأمانى العذاب : هذه القرية التاريخية التى أنجبت لمصر بعض قاداتها وزعمائها على نحو ما هو وارد فى كتابنا «خواطر قاضٍ» الصادر من دار المعارف.

المستشار

محمد مرشدى بركات

سبتمبر ٢٠١٤

المستشار محمد مرشدى بركات

عبقرية العقاد

عملاق الفكر العربي



تقديم

الدكتور السفير عبد الله الأشعل

مقدمة:

المستشار الأديب القاضى محمد مرشدى بركات، من أسرة قضائية عريقة ، عملت فى سلك القضاء لأجيال عديدة ولما تزل تعمل فى الحقل القضائي.

ولقد جمعنى به حب العقاد، ومن يحب العقاد، لابد و أن يتمثل عملاقاً، يقابله عملاق آخر فى الفكر والأدب هو الدكتور طه حسين. نشأ كلاهما فى صعيد مصر، الذى أنجب العظماء .. ولم تشفع هذه النجابة فى أن تخرج صعيد مصر من ربقة الجمود و التخلف، وإهمال الدولة لهذا الجزء الذى لا يتجزأ من الوادى الخصيب بضفتيه الفكرية و القيمية.

أما العقاد، فقد اتصل به صديقنا المستشار اتصالاً مباشراً و وثيقاً. تتبع خطاها، وتَمَثُّل أسلوبه. و كنت – شخصياً– اتمنى أن اكتب بأسلوب العقاد، غير المسبوق.

وقد بلغ تعلق صديقنا المستشار بالعقاد أنه سطر له سفرا رائعاً، عن عبقريته ، الذى اتشرف الآن بتقديم طبعته الثانية.

الذى لا شك فيه أن العقاد قد أبدع، فى مختلف فنون الثقافة والفكر العربى، بعد أن تذوق ينابيع الفكر العالمى، بلغاته المختلفة، كروافد هامة عند أبداع عبقرياته.

وبداهة أن هناك فرق بين العبقريات وبين التراجم ، للشخصيات التى تناولها العقاد ، فالعبقرية على خلاف الترجمة ، تسبر غور الشخصية ، أو إن شئت فقل إن العبقرية هى فلسفة الشخصية. للتعرف على مفتاحها الاساسى ، الذى يحكم كل

تصرفاتها. وإذا كان العقاد قد كتب العبقريات، فقد رد له – صديقنا الكاتب – الجميل ، بأن درس عبقريته، هو الآخر. و الكاتب – بهذه المثابة– يعد بحق فى مستوى هذه العبقريات التى عشقها و كتب عنها.

من ناحيتي، تركت كتابات العقاد لأكثر من أربعة عقود كنت خلالها خارج الديار متنقلاً ، جواباً بين سفارات العالم المختلفة ، ولما عدت إلى بلدى ، رجعت لإبداعات العقاد، قرأتها بعين متأملة تعززها خبرة السنين ومسيرة الأيام ، لا شك أن قراءة إبداعات العقد هى متعة متجددة تثرى العقل والوجدان معا.

آثر صديقنا المستشار أن يُعرف العبقرية ، فى صورها العلمية، واستفاض صاحبنا الكاتب – المرهف الحس والمستنير الرؤية– فى تأمل جوانب عبقرية العقاد.

و لا يطيق القيام بهذه المهمة ، وتحمل هذه التبعة ، إلا من كان فى مثل قامة كاتبنا الكبير. حقا أنه يمتلك ثقافة موسوعية فى نطاق الزمان و المكان يعززها فلسفة وخبرة قضائية منقطعة النظير . عباراته فى قوة الصخر و جزالة اللغة، وفى عذوبة الشلال المتدفق فى إنسياب الفكر المتألق ، ناهيك عن الأمانة العلمية الذى استقى منها محتويات هذا الكتاب ، مسجلاً أياها بين دفتى كتابه بأمانة كاملة.

و لقد تسلح كاتبنا لهذا العمل بلغة عربية فريدة . والمام كامل بكل ماكتب العقاد، وما كُتب عن العقاد . فضلا عن ضمير القاضى الذى أنصف العقاد به بقدر ما استطاع .

اعتبر صديقنا – القاضى الأديب– العقاد رئيساً لجمهورية الفكر، مستندا إلى حيثيات لجنة جائزة الدولة ناهيك عم أثبته الكاتب من العبارة الخالدة التى قالها العقاد وهو يلقى خطابه أمام رئيس الدولة بمثابة نيلها لهذه جائزة الدولة التقديرية ، إذ قال فيه :

«إن جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم».

كان العقاد مفكرا واديبا وناقدا وانساناً، ولذلك يخطيء من يظن أن العقاد حبيس الأدب وإن كان هو عميداً للمفكرين و الآدباء، حيث ضرب بسهم وافر فى المجالات الأدبية كلها. كما أن العقاد هو والمفكر والكاتب السياسى، والبرلمانى والمؤرخ.

وهو الذى قدم للقارئ العربى النظم المختلفة للنقد الأدبى، يوم أن كانت المدارس النقدية تتسم بالدقة وتتميز بالجدية. وكان كبار رجال الفكر يقرأون له ويدعون الاجيال الناشئة إلى الأقتراب منها والإغتراف من معينها.

والجانب الثانى فى عبقرية العقاد الخاص بعلم المعانى، و استفاض فى شرحه. وقد انتقل المؤلف فى رسالته القشيبة إلى العقاد الاديب والعالم، الفيلسوف و المفكر، العقاد بطل الملاحم الأدبية ورائد الأدب المقارن ومعلم فنون القراءة، العقاد فارس المعارك السياسية، الذى يُعلى فيها كلمة الحق، وقيم الوطنية الصادقة فى اباءٍ و شمم، فى فكر مستقل و إبداع نادر.

ومن مظاهر عبقرية العقاد التى سجلها كاتبنا العظيم دراسته لوضع المرأة من منظور اسلامى ومعاصر. ومن عجب، ، أن هناك رآيا سائدا يقول به من يدعون فهم العقاد ، أن العقاد كان عدو للمرأة، متعللين بعزوفه عن الزواج ، غير مدركين أنه بهذه العقلية وهذا القرار، سوف يظلم من يتبع نهج العقاد .

ومن الجدير بالذكر أن العقاد هو الذى حلل بدقة، نفسية المراة، وعلاقة العقل بالجسد ، فى رائعته سارة . حقا.. لقد كان أكثر من أنصف المرأة ، وربما كان من مظاهر إنصافه لها، أنه قرر الا يتزوج، حتى لا يجور عليها بانشغاله بمهمته المقدسة.

والمستشار بركات، يتوج موقفه من العقاد بهذا الكتاب ، بعد أن وقف على تلّة

عالية، من الإنتاج الفكرى والمقالات المتتابعة حول العقاد . هذا الإنتاج الذى يستحق القراءة ، للتحليق فى آفاق الفكر العميق . وقد ذيل صاحبنا هذا الكتاب الممتع ، بمأثورات للعقاد ربما لا يعلم القارئ عنها الكثير، هذا بالإضافة إلى تقديمه نبذة وافية عن حياة العقاد الحافلة .

إن هذا القدر الكبير من الإعجاب ، الذى يحمله الكاتب للعقاد، يجعله يصنف مسيرة عمره كلها باعتبارها إحدى العبقريات.

لا جدال .. أن كاتبنا يتفق معى، فى أن العقاد لا يمكن أن يُختزل فى كتاب واحد. ذلك أن عبقريته تتجاوز حدود الزمان والمكان. ولا أظن أن مصر سوف تجود بمثله فى المستقبل المنظور. أن العقاد يمثل مجموعة كبيرة من القيم التى نحن فى أشد الحاجة إلى استحضارها، لإعادة بناء مصر، بعد أن تراخى أبناؤها لعقود طويلة فى إدراكهم وإستدراكهم لها.

■ **القيمة الأولى** .. هى اجادة اللغة العربية التى اجادها صديقنا اجادة تامة. وكانت أداة ضرورية لكى يستمتع بلغة العقاد الفريدة.

■ **القيمة الثانية** .. هى الإباء والكبرياء المستنير.

■ **والقيمة الثالثة** .. هى إعمال العقل الذى تسطع أنواره فيبدد ظلمة الجهل وسُحب الخُرافات.

■ **القيمة الرابعة** .. هى أن الفقر – بمعناه الحقيقي – هو فقر العقل وضآلة النفس. لقد كان العقاد يبذل كل ما يمتلكه من المال ، لكى يطلع على روائع الفكر العالمى باللغات الأجنبية ، و بعيدا عن هذا الذى عاش العقاد فى محرابه لكن لو أراد أن يخرج من هذا المحراب لأستمتاع برغد العيش بأستخدام قلمه أيضا ولكن بأسلوب أخر لا يرضى عنه العقاد نفسه.

■ القيمة الخامسة .. هى أن العقاد أثبت أنه ليست المدرسة هى المسار الوحيد أو الأمثل لتلقى العلم . حقيقةً أنه أنشأ طريقا موازياً للمؤسسات التعليمية ليصل إلى آفاق رحبة من العلم والمعرفة . فهو قد استعلى على الشهادات فى وقت كانت مصر المتحضرة تُقدره هو وأمثاله وتنهل من معين مواهبه . وتضعهم فى المكان الذى يستحقون فيه التتويج . لم يحفل بوظيفة ، ولم يخضع لسلطان ، إلا لسلطان العقل.

■ القيمة السادسة .. هى قيمة العدل ، الذى رآه هدفاً أمثل. وأدراك أن العلاقة بين الواقع وهذا العدل ، هى علاقة التفاعل الخلاق بين المثال والواقع . لم ينقم على غيره من الأثرياء ، الذين يرفلون فى الجهل والثراء.

وخلاصة ذلك كله .. يرى الكاتب أن العقاد كان نسيج وحده ، ولذلك قرر أن يكون من رواده ومريديه فى سن باكرة من عمره.

وقد أسعدنى غاية السعادة أنه يتفانى فى حب العقاد ، وأن يترجم هذا الحب إلى عمل، يهدى الآخرين إلى عظمة العقاد و يقدم للقارئ فكره المستنير . وهذا تقليدا عظيم ومنهج محترم لتخليد العظماء. لا أظن أن صنع التماثيل ووضعها فى أكبر الميادين إلا تنبيها مادياً إلى وجود العملاق ، فحرى بوزارة الثقافة أن تضع تعريفاً بالعظماء على شوارعهم وتماثيلهم كما يحدث فى الدولة الأجنبية عامة و فرنسا على وجه الخصوص.

ومن الجدير بالذكر أن الأجيال الحالية لا تعرف شيئاً عن هؤلاء العظماء ، سوى ما هو موجود فى الكتب المدرسية، والقصص المقررة لأغراض تعليمية والتى أحيانا لا تأخذ حقها من الدراسة والبحث.

ومهما أسهبنا فى تبيان مناقب العقاد ، فإننا لم نوفِ هذا الرجل العصامى العبقرى حقه. كما أن هذه السطور لن توفِ المؤلف، حقه أيضاً وانما هى مناسبة رائعة لمشاركته فى الإعجاب بالرمز الذى عاشت على ثقافته العبقرية الأجيال المتعاقبة .

وبهذه المناسبة أود أن أبدد وهما ، ران على عقول كثيرة ، لعقود متواصلة .. وهو أن العقاد وطه حسين لا يجتمعان. وهذا خطأ كبير ، لأن كليهما أسهم فى اثراء الفكر العربى والنقد العربى، لأن كلهما وجهان لعملة واحدة وإن اختلف الأسلوب و اتفق الهدف . لذلك على كل من يتصدى لفكر هذين العملاقين ، ولابد أن يتمتع بزاد هائل من الفكر والأدب والثقافة ، وغيرهم من فنون المعرفة . أن حصر أحدهما فى الأدب وحده ، إهانة لهما وتقليل من شأنهما واهدار لرمزيتهما.

أما الخطل الثانى .. فهو أن اسلاميات العقاد ، اساءت إلى الإسلام . والذين خرجوا بهذه النتيجة يعانون من قصور فى الفهم ، وعوار فى الادراك ، وعمى فى الرؤية . ذلك أن هذه الاسلاميات دفعت عن الاسلام سهام خصومه ، وقدمت الفكر الإسلامى فى أنصع معانيه. واوضحت قيم الاسلام السمحة النيرة ، بقلم يفخر بإسلامه، ويقدم الإسلام فى ثوبه الصحيح.

ومن ناحية أخرى .. فإن تقديم عبقرية العقاد لصديقنا المستشار محمد محمد مرشدى بركات، لا يعنى أننا قمنا بتقديم الكاتب تقديما شاملاً. فلقد أتحف قلم صديقنا، المكتبة العربية، بالكثير من المصنفات، الذى يعتبر شبابنا فى مسيس الحاجة إلى التزود منها والنهل من معين أبداعها وخلاصة خبراته. وأخص بالذكر منها تلك الخواطر، وأعنى بذلك خواطر قاضي ، وهموم مصرية وغيرهما . تلك الأمور التى سجلها المستشار بعين القاضى وأسلوب الأديب وعمق المفكر . لا شك أن هذه الواحات يستمتع به القراء من مختلف مشارب الحياة ، بما فى ذلك شباب القضاه وشيوخهم أيضاً. نظرته موضوعية ، معالجته منطقية ، وعبارته الموجزة ، الماmه شامل لكثير من الهموم المصرية . اهتم بمشاكل عديدة ، نذكر منها مشاكل الشباب ، مشكلة اطفال الشوارع ، العشوائيات ، الأمية ، البطالة ، البيئة ، تعاطى المخدرات ، إنحدار الاخلاق ، وتدهور التعليم ، وبطء إجراءات التقاضي.

ولكن لفت نظرى أنه أدرك مشكلة لا تريد الحكومات المصرية المتعاقبة أن تتصدى لها وتقوم بتأجيلها لترثه الاجيال القادمة وأعنى بذلك «مشكلة أم الرشراش المصرية» . أنها فى واقع الأمر ، جزء من مشكلة أكبر، وهى وضع العلاقات بين مصر وإسرائيل فى سياقها الكامل . وفى هذا الملف الكبير، لابد أن تعى الاجيال القادمة ، أهمية الحفاظ على حدود مصر الدولية مع إسرائيل وفلسطين والسودان وليبيا.

ولاشك أن شهداء سيناء وكذا أسراها الذين كانوا أسرى لدى إسرائيل وقتلتهم غيلة ، سيظلوا فى قلوبنا وعقولنا عبر الأزمنة .

ولا أريد أن اجور فى هذه المقدمة على صديقنا المستشار بأن اعبر عن رأى فى الكثير من القضايا فليس هذا سياقه ولكنى اكتفى بأن أجدد شكرى لسعادة المستشار محمد محمد مرشدى بركات ، على أعماله الجليلة ، وإهتمامه بقضايا الأمة ، وعلى حبه للعقاد ، الذى سيشكره عليه معى ، الاجيال التى ستسمتع بهذا الكتاب فى طبعتها التالية .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

الدكتور السفير عبدالله الأشعل

الزمالك يناير ٢٠١٦

العقاد.. والقلم

كان أستاذنا العقاد فى فكره أمضى شبا من سنان .

وكان لقلمه صولة وجولة ، وكأن القلم فى يديه وديعة الرحمن

وكان ملكًا للفكر ، وكان الأدب له بمثابة الصولجان .

طّوف شرقًا وغربًا ، شمالًا وجنوبًا ، بين مذاهب الفكر العالمية ، ومنها بداهة ميدان الفكر العربى . وفى مساربها ، أمعن نظره وأنعم فكره ، وغاص يستخرج من هاتيك المسارب لؤلؤها .

وخرج علينا بفكر ثاقب جديد ، بإبداع يلين له حتى الحديد ، فقد كان لقلمه شأنًا عظيمًا عاش به وله .

كان عالمًا ، أديبًا فيلسوفًا . كان مثل أفلاطون لم يصل إلى الفلسفة إلا عن طريق السياسة . فقد ظلت الفلسفة الحقة لديه ، هى السياسة الحقيقية .

عاش بقلمه ولقلمه ، ولم يرتض لقلمه عنه بديلا .

عندما عرض الملك عليه أن يختار ما بين رتبة الباشوية وعضوية مجمع اللغة العربية ، إختار المجمع الذى يتفق فى مرماه ومغزاه ورسالته ، مع رسالة قلمه .

زاره الملك فاروق فى بيته ، طالبًا منه مجموعة من كتبه ، فلم تزده هذه الزيارة شأنًا من شأنه .

كما زاره الزعيم مصطفى النحاس فى بيته ، وكذلك فعل كبار القوم فى مصر ، منهم إبراهيم باشا عبد الهادي ، الذى ترك له مظروفًا به بضعة آلاف

من الجنيهات ، إذ كان العقاد يمر بمحنة مادية آنذاك ، سارع العقاد عند اكتشافه لهذا . إلى أن يرسل المظروف مع خادمه ، كي يلاحق إبراهيم باشا عبد الهادي ويسلمه إياه مع تشكراته . وكذلك كان الشأن مع الكثيرين من عظماء مصر ، الذين أكبروه ووقروه منهم محمود فهمى النقراشى باشا الذى كان على صداقة وطيدة معه . ناهيك عن زعيم الأمة سعد زغلول ، الذى كان ينزله من نفسه منزلة كبيرة غير مسبوقة .

كان تقدير هذه الزمرة ، من علية القوم ، للأستاذ العقاد ، إنما تقديرًا لقلمه، ورسالة قلمه ، ونزاهة هذا القلم .

ومن هنا أيضًا .. رفض العقاد قبول منصب مدير الجامعة ، ومنصب مدير دار الكتب المصرية . وآثر أن يعيش - مع قلمه - فى عزلته بين كتبه وبين العظماء الذين تتحدث عنهم هاتيك الكتب، إذ كان يكفيه أنه كاتب الشعب الأول وأنه صاحب القلم الجبار كما نعته زعيم الأمة، وإن كان هذا الذى اعتنقه العقاد من خلال رفضه لمناصب الدولة من العسير أن يعتنقه كاتب أخر إلا أن التاريخ يحدثنا أن الفيلسوف الإيطالي بندتو كروتشه Benedetto Croce رفض أن يكون أول رئيس لجمهورية إيطالية مفضلًا أن يكون الفيلسوف على أن يكون الرئيس !.

فلا مشاحة أنه ليس هناك أعظم من الفكر، وليس هناك أعظم من القلم.

و(القلم) كما ورد فى لسان العرب أداة والجمع أقلام .

وقد ورد فى العقد الفريد (لابن عبد ربه) عن القلم : ما الإنسان إلا القلب واللسان . إنما لك ما أمضيت . لا تتكلف ما تفيد ولا تتضيع ما وليت القلم أحد اللسانين .

روى عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب بين يدي رسول الله .. فقال لى :

ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمتملى وأفضل للحاجة .

تقول الشاعرة إيميلى ديكنسون Emily Dickinson :

Aword is dead when it is said،Some say. I say it just Beging to live that day

وترجمتها إن البعض يقول أن الكلمة حين تقال تموت لكنى أزعم أن الكلمة حين تقال تبدأ رحلتها فى عالم الخلود أو عالم الملكوت.

يقول ابن كثير : « إن القلم هو جنس القلم الذى يكتب به»

يروى عن رسول الله ﷺ : «إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب. قال: يا رب وما أكتب؟ قال : أكتب القدر وما هو كائن للأبد».

ألم يذكر الله لنا إنه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم؟

قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (العلق: ١ – ٤) .

ألم يشرف الله القلم بذكره فى محكم آياته فقال : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١ : ٦).

وقد قيل: «سبق القضاء وجفت الأقلام».

وقد قيل – كذلك – :«قلم ، لأنه قلم أى قَطَع وسوى كما يقلم الظفر».

وكذلك قيل للسهام أقلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران : ٤٤).

وذكر القلقشندي: أنها سميت أقلامًا لاستقامتها كالقداح كما ذُكر أن القلم مأخوذ من القلام وهو شجر الرخو، فلما ضارعه القلم سمى قلمًا.

قال ابن المعز: «القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة، يستيقظ واقفًا وينطلق سائرًا، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يُقبل بساط سلطان ، أو يفتح نوار بستان».

وعن عبد الحميد الكاتب! أنه قال: «القلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة».

وقال ابن أبى داود : «القلم سفير العقل ، ورسوله الأنبل ، ولسانه الأطول، وترجمانه الأفضل».

ويرى البعض أن عبارات الأقلام ، فى خدود كتبها أحسن من عبارات الغوانى ، فى صحون خدودها.

ومن بين الأقوال المأثورة عن القلم: «إنه لم يكتب الله تعالى كتابًا قط ، إلا به».

والذى لا مراء فيه ما قيل: أن عقول الرجال تحت أقلامها.

كان الأستاذ العقاد مفكرًا موسوعيًا قل أن يجود الزمن بمثله ، بما خطه قلمه، بروائع تواليفه وإبداعاته.

كان العقاد ، وكما كان الفيلسوف أبو حامد الغزالي حجة الإسلام فى القرن الخامس الميلادى ، كان العقاد كذلك ، حجة الإسلام فى القرن العشرين ، بل حجة الفكر والأدب فى جميع ما خطه قلمه ، فعندما كتب (عبقرية المسيح) .. وترجم إلى الإيطالية ، منحته أكبر الأكاديميات هناك الدكتوراه الفخرية ، وقد أخذتهم الظنون هناك ، بأنه خلع عباءة الإسلام وأضحى نصرانيًا .

وكم كان يتمنى ، أن يمتد به العمر، ليكتب عبقرية موسى ، ناهيك عن بوذا وكونفشيوس ، وكذلك عبقرية الغزالى ، وعبقرية جمال الدين الأفغانى ، وكذلك كتاب عن الكون .

وصفه زعيم مصر الخالد سعد زغلول بأنه «جبار القلم» .

ولقد تبارى المفكرون والباحثون فى الكتابة عنه ، والإشادة بمجده الأدبي، فهو الأديب اللوذعى والفيلسوف الألمعى ، والشاعر العبقرى ، حتى بلغت الرسائل الجامعية فى أطروحات الدكتوراه الخاصة بها ألف وكتب ، حوالى ثلاثة عشر رسالة جامعية .

فى مقال للدكتور حسين محمود عباس محمود العقاد خمسون عامًا ، من الحضور المتجدد قال :

إن معظم المتخصصين فى الآداب الشرقية والغربية ، يعرفون هذا الكاتب العبقري جيدًا . فعندما يذكره دارس مستعرب ، متخصص فى مجال الدراسات الشرقيه والعربية ، مثل فرانشيسكو ميديتشي يوردون فى أبحاثهم ما يؤكد تقديرهم له .

أما الموسوعة الإيطالية وهى تعادل فى أهميتها وشهرتها وموثوقيتها الموسوعة البريطانية {بريتانيكا} ، فقد ذكرت بكل تقدير هذا الكاتب الفذ. وكتب عميد المستعربين جلهم وهو فرانشيسكو جابرييلي يقول عنه إنه حصل على شهرة واسعة بدراساته النقدية والاجتماعية ، والتى اشتهرت بأسلوبها المتين ، والتدفق الشديد للأفكار، كما كَرَّس العقاد نفسه أيضًا للفكر السياسي، فقد أثار زوبعة كبيرة عام ١٩٣٥م ، بكتابه (الحكم المطلق فى القرن العشرين) الذى شن فيه هجومًا لاذعًا على النظام الشيوعى .

كما أتم فرانكوفيتش داميانو رسالته عن ديوان عباس محمود العقاد، أما فى الأدب ، فقد أتمت مارينا بوكالاتي رسالتها عن عباس محمود العقاد . وأخيرًا رسالة ليديا ميكيلي التى درست صورة المسيح ، فى أحد أعمال عباس محمود العقاد عام ١٩٧٠ - ١٩٧١ تحت إشراف ماريا نالليلنو أيضا .

وكانت الدراسات الأعمق عنه هى ما كتبها المستعرب فنشنزو ستريكا ، الأستاذ بجامعة نابولى الشرقية ، ونشرها عام ١٩٧٢، لأنها تناولت بالتحليل شخصية عباس محمود العقاد ، بطريقة شابهت تناول العقاد نفسه لشخصيات تاريخية ، تناولها فى عبقرياته ، معتبرًا إياه ، أكبر كتاب العرب المحدثين، وينقل عن العقاد حديثه عن الدين ، وأن العقل يعجز عن فهم فكره أو مفهومه . ولكنه يستطيع أن يفهم بلا شك ، أهمية الإيمان بالدين ، ومن ثم لا يمكن احتواءه فى فكرة (فالله قريب إلى كل ما يخطر على العقل ، والذى يخطر على العقل موجود ، حتى وإن كان لا يوجد شيء مشابه له فى الوجود) .

ثم يفرد الباحث مساحة ـ ليست قليلة ـ لعرض كتابى عبقرية المسيح وحياة المسيح ، وألمح إلى الهجوم الذى تعرض له العقاد ، بسبب هذين الكتابين، وكما سبق وأن ألمحنا ، حتى وصل إلى حد اتهام العقاد باعتناق المسيحية، وهو الأمر الذى نفاه العقاد نفسه فى مقدمة حياة المسيح .

كانت شخصية العقاد ، أشبه بشخصية الأديب العظيم{جيتا} يوهان فولفجانج فون جوته ((Johann Wolfgang von Goethe) ، (٢٨ أغسطس ١٧٤٩ – ٢٢ مارس ١٨٣٢) ، الذى كتب عنه أستاذنا (العقاد) عبقرية جيتي .. قائلًا : إنه من هؤلاء العبقريين ، الذين لا ينبئ قليلهم عن كثيرهم ، لأنه لم يجمع نفسه فى قطعة واحدة ، ولا موضوع واحد . فهو كثير الجوانب كثير التجزئة .

جمع فى مواهبه ، حديقة عامرة ، لا شجرة واحدة ، فهو شاعر، حكيم ومصور، عازف بالموسيقى ووزير، باحث فى النبات والتشريح وطبقات الأرض والنور.

كانت الكلمة لدى الأستاذ العقاد هى حياته ،عاش بها وعاش عليها . وهو نفسه الذى مجد الكلمة ، فقال عنها فى أحد كتبه :

الكلمة .. هى أكبر الفتوح الإنسانية فى عالم الكشف والاختراع ، لو لم يخترعها الإنسان لوجب أن يخترع ما يساويها ، وينوب عنها . لأنه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبين أبناء نوح ، ولا تفاهم على شيء من الأشياء بغير الكلمة، أو ما يدل دلالتها .

انسلخ العقاد عن حزب الوفد ، ووقف موقفًا مغايرًا من سياسته ، فى كثير من الأمور، وخاض المعارك فى سبيل حرية الكلمة.

كانت مسرحية [جان دارك] للكاتب العالمى برنارد شو George Bernard Shaw قد قُررت ليدرسها طلاب الجامعة المصرية ١٩٢٧ – ١٩٢٨ مما أثار زوبعة شديدة ، وصل غبارها إلى مجلس النواب المصرى . حيث تقدم أربعة من نواب المجلس ، لاستجواب الحكومة المصرية ، فيما ورد بين دفتى هذه المسرحية . حيث كان قد ورد فيها اسم النبى محمد ، كَراعٍ للغنم.

انبرى العقاد لهذا الاستجواب ، مذكرًا نواب المجلس بموقف الكاتب العالمى من قضية [دنشواي]! إذ جرَمَ فيها ، ما اقترفته السلطات البريطانية ، فى حق المصريين ،الذين حكم على البعد منهم ، فى محاكمة هزلية ، بإعدامهم شنقًا وسجن الباقين.

وذكر العقاد ، أن العبارة المشار إليها ،بالنسبة إلى النبى ، إنما وضعت على لسان شخص من شخوص الرواية ، منسوبًا إلى الكنيسة فى العصور الوسطى ، لا على لسان المؤلف.. وأضاف العقاد أن أتباع محمد ﷺ أوفر أدبًا من هذا ، فى كلامهم عن السيد المسيح {عليه السلام }وأنهم يوقرون الحواريين ، ولا يقولون عن واحد منهم ، انه صياد سمك.

وفى هذا الدفاع من العقاد عن برنارد شو، يتأكد لنا دفاعه عن حرية الرأى ، وحرية الكلمة.

فى البدء كانت الكلمة ، وسوف تعيش كلمات العقاد وتحيا كتبه وتواليفه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المستشار

محمد مرشدى بركات

العباسية ٢٠/٦/٢٠١٤

عبقرية الزمان والمكان

كان لأسوان أهميتها فى الزمن القديم ، حيث كانت عاصمة الدولة الجنوبية، ومنها ملوك الأسرة الخامسة، التى استغرق حكمها ، من منتصف القرن ٣٦ حتى آخر القرن ٣٤ ق.م .

وفى عهد الدولة القديمة والحديثة ، ظلت أسوان قلعة الدفاع عن مصر، ضد الإغارات التى كانت تأتى من الجنوب . وظلت محافظة على استقلالها فى عهد الهكسوس ، وعليها اعتمد أحمس [مؤسس الاسرة الثامنة عشر] عام١٦٢٥ ق.م فى محاربة الهكسوس، وطردهم من مصر، وتعقبهم حتى بلاد الشام .

وقد اتخذ ملوك الدولة القديمة والحديثة أسوان قاعدة للحملات الاستكشافية فيها وراء الشلال، والتى وصلت حتى بحر الغزال، ومن بينها رحلات الأمير خزف حور فيها بين (٢٣ ق.م) ، وهو أول رحالة مستكشف فى تاريخ البشرية .

وانتعشت فى الزمن القديم ، صناعة قطع الأحجار من الجرانيت فى أسوان، لإقامة المعابد والمسلات. وبأسوان مسلة نائمة ، لم يتم تمام قطعها ، وهى تبين الطريقة التى كانت تتبع فى قطع تلك الأحجار. وهى ماتزال موضع دراسة الباحثين، سواء من حيث قطع هذه الأحجار أو نقلها ، فى وقت لم تتوفر فيه القوى والآلات الميكانيكية الحديثة .

وفى عهد الدولتين القديمة والحديثة ، زخرت جزيرة الفنتين المعروفة الان باسم جزيرة أسوان ويعود أسمها الى ذكرى قطع رأس فالنتينوس ليلة ١٤

فبراير عام ٢٧٠ فيما سجلته الموسوعة البريطنية من أن فالنتينوس هذا رفض الخضوع فى فترة حكم الامبراطور الوثنى كلاديوس الثانى لأومر ذلك الامبراطور الوثنى بعبادة ١٢ من الالهة الرومانية ورأى أن كل مخالف لذلك يستوجب الموت وإذا رفض فالنتينيوس أن يعد غير الله أمر بقتله قرب البوابة الرئيسية التى حملت اسم porta valentine ودفن بقرب كنيسة praxedes تخليدا لذكراه فما كان من ابنته إلا أن زرعت شجرة أنبتت زهورا حمراء وأضحت هانيك الظهور عنوانا للحب ومن ثم عيدا له . وهذه الجزيرة هى الموقع الأصلى لمدينة أسوان التى تذخر ـ بالمعابد، وخاصة تلك التى أقامها ملوك الدولة الحديثة ومنهم تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وأمنوفيس الثالث.

ويقول الدكتور سليم حسن وجوتيه إن أسوان حلت محل الفنتين كعاصمة للمقاطعة الأولى، منذ العصر الصاوى والإثيوبى . وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم فى أواخر عصر الدولة القديمة . حيث كان من أهم واجبات الإقليم ، تأمين الحدود الجنوبية . كما كانت أسوان مركزًا لتجمع الجيوش، حينما حاول ملوك الدولة الوسطى مد سلطانهم جنوبًا .

ولعبت أسوان دورًا خاصًا ، أثناء جهاد المصريين لطرد الهكسوس، وتكوين الدولة الحديثة . وقد أشتهر قائدان من أهل هذا الإقليم ببسالتهما ، وهما أحمس بن أنانا وأحمس بن نخت وبمقبرتهما بالمحاميد نقوشًا ، تحدثنا عن أعمالهما الباهرة ، وجهادهما المجيد فى سبيل وطنهما.

وفى عهد البطالمة ، كانت لأسوان أهمية كبيرة . وقد استغل أراتوستين أحد علماء الإسكندرية، وعميد مكتبتها ـ فى القرن الثالث قبل الميلاد ـ موقع أسوان، ليقيس محيط الأرض وقطرها . فحفر بئرًا ، مازال موجودًا فى جزيرة الفنتين ،

لا تتعامد عليه الشمس ، إلا ساعة الإنقلاب الصيفى (٢١ يونيو) . وسوف يأتى الحديث عنه فى الصفحات التالية .

وفى عصر البطالمة أيضًا ، نالت جزيرة فيلة موطن عبادة الآلهة إيزيس الكثير من اهتمامهم، فأكملوا معبدها الكبير، وشرعوا فى إقامة غيره من المعابد، مثل تلك التى أقاموها فى جزيرة الفنتين .

وفى عهد الرومان ، ظلت لأسوان أهميتها القديمة، حيث سار الرومان على نفس نهج البطالمة ، من حيث إنشاء المعابد على الطراز المصرى القديم ، بهدف التقرب من المصريين . فأنشأ الإمبراطور (تر اجان) معبدًا صغيرًا بجزيرة فيلة أطلق عليه اسم (كشك) .

ولأسوان فضل فى انتشار المسيحية ، عندما أصبحت دينًا رسميًا فى القرن الخامس الميلادى ، إذ لجأ إليها الرهبان الهاربون من اضطهاد روما . ونشروا بها المسيحية ، وحولت المعابد المصرية القديمة إلى كنائس . وكانت جزيرة فيلة مركزًا لأحد الأسقفيات . وانتشرت المسيحية فى بلاد النوبة والسودان . ومازالت بعض قرى النوبة تحمل أسماء مسيحية حتى الآن ، مثل توماس وماريا وغيرهما .

وفى العصر الإسلامى ، نرى أن الإسلام قد انتشر فى هذا الإقليم منذ بدء ظهوره . إذ عثر على شواهد مكتوبة بالخط الكوفى ، يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الأول الهجرى .

وازدهرت أسوان ، إذ ظلت حتى القرن العاشر الهجرى ـ والسادس عشر الميلادى ـ طريقًا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، ومنها تنقل التجارة من وإلى اليمن والهند . واشتغل أهلها بالتجارة فى العطارة وسن الفيل والصمغ . كما أنها كانت مركزًا هامًا لنتاج البلح ، وطريقًا للحج . عندما انقطع الطريق

المعروف عبر فلسطين ، أبان الحروب الصليبية ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين .

وفى العهد الإسلامى ، كان لأسوان شهرتها الثقافية ، فقد كان بها ثلاث مدارس ، أقدمها مدرسة أسوان . وقد درس بها العلامة إسماعيل بن محمد بن حسان الأنصارى المتوفى عام (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) والمدرسة السيفية التى تولى التدريس فيها العلامة عمرو بن محمود الأنصارى المتوفى عام (٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م)، والمدرسة النجمية وتولى التدريس فيها علماء أجلاء منهم العلامة الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن المفضل ، توفى عام [٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م] .

وإذا كان الفيلسوف هنرى برجسون ، كما ذكرنا فى كتابنا هموم مصرية ، قد قال : ما الفرد إلا جزء من والديه .

فإننا نقول إن الوالدين ما هما إلا جزء من البيئة التى نشأ فيها كل منهما ، والتى شهدت مدارج طفولتهما، فطبعتهما بطبعها ، وبالتالى أثرت فى ذريتهما .

وهكذا .. كانت أسوان بالنسبة للعقاد ، فمع النشأة الدينية التى تشربها من والديه وعلى نحو ما سلف بيانه، وهو لم يزل بعد غض الإهاب ، فجرت فيه أسوان ـ بسحرها وجمالها ، بمعابدها ومآذنها ، بقدم آثارها وعبق تاريخها ـ موهبة الشعر السرمدى ومحجة الفكر الخالد الأبدى .

هذا هو جانب مما حفظته ذاكرة التاريخ عن أسوان، التى كان لها بارز الأثر فى التكوين الثقافى للعقاد ، فى شعره وأدبه ونثره .

نشأة العقاد

ولد العقاد فى أسوان ، تلك البقعة الجميلة من بقاع مصر، صاحبة المجد القديم وعبق التاريخ التليد . تشبعت عيناه بسحرها ، وتملت عيناه من جمالها ، وأفعم ذهنه بها . ترعرع فى كنف أسرة لها من الدين ما وقر فى اليقين . هذا الطفل الألمعى العبقرى ، خطى بثبات نحو المجد ، بمواهبه الفريدة . فمنذ أن عرف طريقه إلى عالم الصحافة بدءًا من ١٩٠٧م ، فى مدينة القاهرة ، كانت ملامح بلدته - بما يمتزج بها من مكونات الشخصية المصرية - لا تفارقه ، وهو يشق طريقه ، فى مجال الفكر والثقافة والأدب ، بخط بيانى ثابت ، دائم التوجه نحو الشمس ، لا يحيد عنه أبدا . قوامه الحفاظ على كرامته ، والدفاع عن مصريته، والنضال من أجل أن يرى مصر عزيزة الجانب ، رفيعة الشأن . كان يزود عن حقها فى الحرية والاستقلال ، مهما كلفه ذلك من ثمن باهظ .

مضى فى حياته وكأنه يتمثل بقول الشاعر :

أنت لو كنت فى الحياة قنوعا لم ترعك الحياة فى آمالك

ولد الأستاذ العقاد لأبوين من أهل السنة : الأب على مذهب الشافعى والأم على مذهب أبى حنيفة، وفتح عينيه على الدنيا وهو يراهما يصليان ويستيقظان قبل الفجر لأداء فريضة الصلاة، وربما زاره أحد أخواله فى تلك الساعات الباكرة ذاهبًا إلى المسجد القريب أو عائدًا منه إلى داره .

فتَحَت أذُني، كما فتحت عَينى على عبارات الحب الشديد للنبى وآله فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت ، نترقبها نحن الصغار، ونفرح بها لأننا نحن

القائمون بالخدمة فيها . وأسماه النبى وآله تتردد، بين جوانب البيت ليل نهار، لأنها أسماء أخوتى أجمعين : محمد وإبراهيم والمختار، ومصطفى وأحمد والطاهر ويس، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى ، لأننى ولدت قبل ولايته . وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب حلمي جريًا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة . وبقيت منسوبًا إلى اسم محمود وهو كذلك من أسماء النبى . ولم يكن لأبى أخوة ، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة ، واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة .

ورثت هذا الحب الشديد للنبى وآله ، عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد المستغرب من أهل السنة ، لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، لكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية ، منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيرًا ، فى دراسة تاريخ الإسلام .

استفدت منه أننى كنت شديد التريث ، فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة ، التى كانت تقوم على ، إنكار حق ، أو إنكار فضل ، أو إنكار نسب ،أو إنكار ما ، من ضروب الإنكار، التى تمس تواريخ أهل البيت النبوي، من بعيد أو قريب .

ولم أستفد منه بحمد لله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل . لأن قداسة العظمة الإنسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر، التى تمس تواريخ العظماء أجمعين وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمتنى بحمد الله، من غوائل هذا الصَغار .

.. ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى ، أننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام، وأنه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث

الإشاعات ، ولم أعطها من بادئ الرأى شأنا أكبر من الإشاعات ، التى تسرى على الأفواه بغير دليل، أو يجيئها الدليل المختلق ، من صنع أصحاب المنافع والمآرب ، فى سياسة الحاكم الغالب . فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين.

(ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى أننى قاربت سير العظماء الإسلاميين والنبويين ،لأرضى ذهني، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا استمد من ذهنى شواهدها وآياتها . فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية باذخة ، تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم . وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك ، وتلاوة الفاتحة والسلام). كما ذكر العقاد فى كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون! .

ولد العقاد فى اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٨٨٩ [كما تقول شهادة الميلاد التى استخرجها من دار المحفوظات] ، [وفى ٢٨ من شهر يونيه كما تقول المشدة] ، والمشدة هو اللقب الذى أطلق على السيدة والدته . ومن عجب أن يقع الالتباس فى تاريخ مولد العقاد ، الذى نعيش معه فى عصر واحد .

ولكن العقاد ، الذى يحقق التواريخ ، ويكتب التراجم لا يتركنا فى حيرة بين التاريخين ، فيقبل دعوى المَشَدَة ، ويرفض الشهادة الرسمية ، التى عينت تاريخ ميلاده .

تقول والدة العقاد إنها وضعته قبل الشهر بيومين وكان والده لم يصرف راتبه ، وانتظرت يومين حتى صرف ذلك الراتب ، وأنفقت منه ما كانت فى حاجة إليه . أما عن شهادة الميلاد ، فالقول فيها أنها سجلت مولده يوم التبليغ عنه ، لا يوم ميلاده .

ومن هنا يحتفل بيوم ميلاده فى ٢٨ من يونيه كل عام .

وفى مدينة أسوان .. البلد السياحى البديع ، ولد أديبنا ومفكرنا الكبير . فى بيت من بيوتها الكريمة . وكان والده محمود إبراهيم مصطفى العقاد ، مديرًا لإدارة المحفوظات بمديرية أسوان . وقد اشتهر بالتقوى وكرم الأخلاق ، مما حبب الناس فيه ، وجعلهم يلجئون إليه فى كثير من شؤونهم . وعرف بالتنظيم والتنسيق فى عمله . وقد تسلم محفوظات الإدارة ، وهى على أسوأ حال من الفوضى والاضطراب ، فعكف على تنظيمها وترتيبها ، حتى أصبح من اليسير الاستدلال على ما تفرق من أوراقها المكدسة .

ومما يؤثر عن والده ، أنه كانت فى عهدته مستندات أملاك مديرية أسوان . وقد هاجر الكثيرون من سكانها إثر غارات الدراويش ، وتركوا بيوتهم ونزحوا عن أراضيهم بضع سنوات . فلما عادوا إلى ديارهم ، وجدوا آخرين - من المقيمين فيها - يحتلون أملاكهم ويدعون امتلاكها . ولم يكن لدى هؤلاء المهاجرين المساكين ما يثبت ملكيتهم ، إلا ما يحفظه مدير المحفوظات ، من المستندات والوثائق ، التى لا يعرفها أحد غيره . فواصل الليل بالنهار، فى استخراج تلك الوثائق لأصحابها ، على الرغم من وسائل التهديد والإغراء ، التى كان يصطنعها الملاك المحدثون .

قال محدثى .. وهو من أبناءِ أسوان : ولو أراد هذا الرجل الغِنَى ، لكانت هذه فرصة كبيرة ، تجعله من ذوى الثراء . وما عليه إلا إتلاف هذه الوثائق ، أو التوانى فى استخراجه لها ، لتثبت تلك الأملاك لمدعيها. ولكنه كان على جانب كبير من التقوى والأمانة وحب الحق ، تلك الصفات التى اتصف بها العقاد .

أما والدة العقاد ، فقد عرفت بما عرف به زوجها من التقوى وحب الخير. وكان جدها الأول قائدًا بالفرقة الكردية ، التى أرسلت إلى السودان ، فى حملة التأديب سنة١٨٢١ ، وقد عاش فى أسوان بعد الحملة . ومن أبنائه محمد أغا

الشريف [جد العقاد لأمه] ، وتلقب بابنه الشريف . وكذلك يسرى هذا اللقب على أسرتها جميعًا.

ويعزى لقب الشريف ، إلى نسبة هذه الأسرة إلى الرسول صلوات الله عليه. أما المَشَدَة فهى كلمة غريبة على النساء . ويلقب بالمشد رئيس العمال الذى يسوقهم إلى العمل . ويتصف بالشدة عادة . وكانت والدة العقاد من هذا النوع ، المنظم المثابر الشديد فى معاملة أهل المنزل . فلم يروا غير هذا الاسم يطلقونه عليها .

فى هذه الأسرة الكريمة ، نشأ العقاد بين والد تقى ورع رضى الخلق ، منظم فى عمله حريص عليه ، وأم تقية قوية ، امتازت بالذكاء والتدبير، والتأثير على كل من حولها ، من أبناء الأسرة والجيرة والأقربين فاكتسب الكثير من صفات والديه.

ورث العقاد عن أمه ، قوة الإيمان والصبر والاعتكاف ، كما ورث ذلك عن أبيه .

يقول الفيلسوف الفرنسي: هنرى برجسون Henri Bergson

١٨ أكتوبر١٨٥٩ – ٤ يناير ١٩٤١] ، وكما ذكرنا فى كتابنا هموم مصرية : (ما الفرد إلا جزء من والديه) .

وهكذا كان العقاد جزءًا من والديه.

أثر النشأة المكانية فى أدب العقاد
(العقاد شاعرًا)

للبيئة تأثيرها البالغ على الإنسان مهما كان فى أى زمان ومكان .

وقد ترجمت كلمة (Ecology) إلى اللغة العربية بعبارة علم البيئة التى وضعها العالم الألمانى إرنست هيجل Ernest Haeckel عام ١٨٦٦م بعد دمج كلمتين يونانيتين هما (Oikes) ومعناها مسكن، و(Logos) ومعناها علم . وعرفها بأنها العلم الذى يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذى تعيش فيه، ويهتم هذا العلم بالكائنات الحية وتغذيتها .

فالتفاعل بين الإنسان والبيئة ، قديم قدم ظهور الجنس البشرى على كوكب الأرض . فالبيئة منذ أن استوطنها الإنسان ، قبل أكثر من مليون سنة ، كانت ومازالت ، تؤمن له إشباع الكثير من رغباته وأحتياجاته

وللبيئة الثقافية تأثيرٌ، فى تنشئة الولد . وقد ذكر علماء النفس ، تأثير الثقافة على الجنين ، فكيف بالوليد

ونقصد بالبيئة الثقافية ، المعرفة والعقائد ،العلم والقانون ، الأخلاق والعرف والعادة ، وما أشبه ذلك. بل ذكر جماعة من العلماء ، أن التفوّق العلمى والفكرى هما من نتاج البيئة الثقافية.

ولقد أثرت نشأة العقاد فى أسوان ، تأثيرًا شديدًا ، من خلال مجدها الغابر، وإرثها الثقافى الضارب فى أعماق التاريخ .

لصنوه وصديقه ، وأحد أصحاب مدرسة الديوان، الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني كلمات بليغة فى الحديث عن العقاد ، كأديب وشاعر موج فوق موج، ودفاع بعد دفاع ، ورغوة من ورائها رغوة ، وحركة فى إثر حركة ، وأواذى مصطفقة ، ورياح مصطخبة ، ومد وجزر وضوضاء ، وكأنما انطلقت شياطين الأرض تعوى . وظلام يصد العين عن النظر، وصفاء شفاف يغرى بالخوض والسبح، وسحب ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب ثم تقلع . وأمساء محلولكة عادية ، وأصباح مشرقة زاهية ، وضخور ناتئة ورمال بليلة ، وسفائن ماخرة أو مغرقة محطمة ، ورعود مجلجلة ، وأغاريد وأهازيج هافية ، وآفاق تصفو وتغيم ، وأنجم زهر تخفق على اللج ، ودر وأصداف ، وحصر وحجارة ، وأعشاب نابية وأحياء متصارعة ، وصور يختفى فيها الزائل فى ثنايا الثابت، وتجتمع فيها الجنة والنار، والحاشية الرقيقة والجوف الغائر، ويلتقى عندها الحاضر والماضى ، والسكوت والحركة الدائمة ، والفناء والخلود ، واللحظات والآباد، والبر والبحر، والشرق والغرب ، والليل والنهار، والشمس والقمر .

وكل نفس .. ترى هذا البحر الزاخر بشتى الصور والحالات ، ولكن ليس كل أحد ، بقادر على أن يرسمها لك ، ويلقى بها إليك .

يقول الدكتـــور شوقى ضيف فى كتابه مع العقا د :

اختار القدر للطفل ، أن يولد وينشأ فى هذه البلدة، وأهداه منها كل ما يرمز إليه محيطها ، أهداه قوة الشلال وهديره، وشيئًا من جهامة المعابد ، وما يرين عليها من حزن، ومحبة أسلافه فى الكشف . وسنرى أنه انتحى بهذه المحبة، إلى الكشف عن ضروب المعرفة وصنوف الآداب . وأهداه صلابة الجرانيت فى الثبات على المبادئ والآراء . وصوب نظره من أشعة الشمس إلى أشعة المعارف والفنون ، يريد أن تغمر كل جوانبه الذهنية . وملأ نفسه من جميع أقطارها

بوقار النيل واستقامته ، واتخاذه فى كل عام نفس طريقه لا يحيد عنه . مع شيء من السماحة والبشر، اللذين يكتنان فى نفس كل مصرى . وليس ذلك فحسب، فقد بسط تحت بصره طائفة من النقائض ، ليمد بصيرته ويجعلها كونية شاملة ، فهنا حياة الناس ولازروع ، وهناك موات الصحراء والهمود . وفى بلدته معيشة تسرف فى الصاخبات والصاخبين من السائحات والسائحين الأوربيين ، وأمامها آثار الأقدمين . حضارات متباينة : حضارة التقاليد ، وحضارة الغربيين ، وحضارة الفراعين . مما كان له أثره البالغ فى سعة نظرته وأفقة . ولن يتركه القدر فسيعينه بأساليب أخرى تصقل شخصيته وترسم وجهته.

كان العقاد هو وقرناؤه ، وهم فى سنهم الباكر من حياتهم ، قد سمع عن الحملة التى جردت لاستعادة السودان ، بين سنى ١٨٩٦، ١٨٩٩ ، فكانوا يلعبون لعبة الجيوش التى دأب من هم فى حداثة سنهم أن يلعبوها . مقسمين أنفسهم إلى جيشين : جيش مصر وجيش السودان ، وكذلك جيش الترك وجيش الإنجليز، وكان العقاد هو قائد الجيش المصرى .

فلم تكن هذه اللعبة لجيوش الأطفال لعبة عسكرية فحسب - بل كانت أيضًا لعبة أدبية - تفتحت بها موهبة عباس محمود العقاد الشعرية كما عبر الدكتور ضيف . ففجر هذا العبث الصبيانى موهبة الشعر على لسان العقاد وهو دون العاشرة، وتخرج فى المدرسة الابتدائية ١٩٠٣ وهو يحمل بين جنباته شغفًا بحياة الجندية . فتمنى لو انتظم فى المدرسة الحربية ، فأصبح العقاد قائد الجيش المصرى على نحو ما ذكر آنفًا ، قائدًا للمدرسة الأدبية فى مصر. بل فى العالم العربى برمته .

كان العقاد بل وجل أبناء أسوان ، كما عبر الدكتور زكى نجيب محمود هم أبناء الشمس بأوثق معنى بالبنوة ، فاستمدوا حياتهم من ضرامها ، وصلبت

أعوادهم من حرها.

لا جرم إذن .. أن جاء شعر العقاد فى بواكير حياته مستمدًا من بيئته .

يقول العقاد :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن

وفى قصيدته عن أسوان وقصرها الفرعونى العتيق الذى زاره الشاعر هنا نقف أمام الجلالين جلال المعمار الهندسى وجلال التعبير الفنى عند الشاعر يقول العقاد:

رعى الله من أسوان دارا سحيقة ... وخلد فى أرجائها ذلك القصرا

أقام مقام الطود فيها وحوله ... جبال على الشطين شامخة كبرا

وليلة زرنا القصر يعلو وقاره ... وقار الدجى الساجى وقد أطلع البدرا

قضى نحبه فيه الزمان الذى مضى ... فكان له رسما وكان له قبرا

فياوجه أوزيريس هلا أضأتها ... وأنت تضئ السهل والجبل الوعرا

فما رفعت إلا إليك تجلة ... ولا رفعت إلا إلى عرشك الشكرا

ولست ضنينا بالضياء وإنما ... لكل إله ظلمة تحجب الفكرا

وينطلق صوت الكروان ، بدعائه الرخيم فى غلس الليل . يستيقظ بعض الأنام ، وهم يظنون أن هذا الصوت العذب ، ما هو إلا صوت من شياطين الجن، فتدبج يراعة العقاد هاتيك الأبيات الرائعات ، دفاعا عن الكروان فيقول:

هل يسمعون سوى صدى الكروان ... صوتا يرفرف فى الهزيع الثانى

من كل سار فى الظلام كأنه ... بعض الظلام تضله العينان

زعمـوك غيـر مجـدد الألحـان ظلمـوك بـل جهلـوك يـاكرواني

قـد غيرتـك ومـا تغيـر شـاعرا عـشرون عامـا فـى طـراز بيـان

اسـمعتنى بـالأمس مـا لا عهـد لـى بـسماعه فـى غـابر الألحـان

ورويـت لـى بـالأمس مـا لـم تـروه مـن نغمـة وفـصاحة ومعـان

أنـافى لـسانك حيـث أطلقـه الهـوى مرحـاوان غلـب الـسرور لـساني

أنـافى ضـميرك حيـث بـاح فمـا أرى سـرا يغيبـه ضـمير زمـاني

أنامنـك فـى القـب الـصغير مـساجل خفـق الربيـع بـذلك الخفقـان

أنا منك فى العين التى تهب الكرى وتـضن بالـصحوات والأشـجان

طر فـى الظـلام بمهجـة او صـافحت حجـر الوهـاد لهـم بـالطيران

تغنيـك عـن ريـش الجنـاح وعزمـه فرحـات منطلـق الهـوى نـشوان

فرحـات دنيـا لا يكـدر صـفوها بـالمين غيـر سـرائر الإنـسان

علمتنـى بـالأمس سـرك كلـه سـر الـسعادة فـى الوجـود الفـاني

سـر الـسعادة نفـرة ومحبـة فـيكم تؤلـف نـافر الأوزان

الكـون انـتم فـى صـميم نظامـه وكـأنكم فيـه الطريـد الجـاني

انـتم سـواء كالـصديق وبيـنكم بعـد كمـا يتباعـد الخـصمان

قـل مـا شـتهيت القـول يـا كروانـى فـى لهـو ثرثـار وحلـم رزان

سـأعيش مثلـك لـى وللـدنيا معـا وأقـول مثلـك كيـف يزدوجـان

وأظـل تـزدحم الحيـاة بمهجتـي أبـدا ويجتنـب الزحـام مكـاني

فــى عزلــة أنــا والحبيــب تؤمنــا ... دنيــا الجمــال ونحــن منفــردان

لا عيــب أنــك فــى لـسانك أعجـم ... إذ كنــت نــاطق مهجــة وجنــان

أملـك هـواك فـإن ملكـت فلـم فتـى ... خــان الــوداد فلــست بــالخوان

وهاهى ذى أحدى قصائد العقاد الرائعة وكل قصائده رائعات ينطبق عليها ما عبر به تلميذه الوفى الفيلسوف الألمعى الدكتور زكى نجيب محمود حيث كتب عن شعر العقاد يقول :

البصر الموحى إلى البصيرة، الحس المحرك لقوة الخيال، المحدود الذى ينتهى إلى اللاحدود ذلك هو شعر العقاد، بل ذلك هو الشعر العظيم كائنًا من كان صاحبه .

فالعقاد يقف فى شعره أمام عمارة نحتت أحجارها بإزميل وأحجارها من جرانيت أسوان لا يبهرك الجمال فى تلك العمارة بقدر مايبهرك الجلال فالعقاد كما يرى تلميذه زكى نجيب محمود شاعر الجلال، ولنا فى تفسير نزوع الشاعر هذا المنزع رأى مستمد من التركيبة النفسية للعقاد المنبهرة بالبطولة الممجدة للأبطال ولعل قامته الهرقلية وعصاميته الأسطورية زادتا فى تقديره لنفسه ومواهبه ومن ثمة إعجابه بشخصه وهو موقف يؤدى بصاحبه إلى العزلة فى جبل الأولمب مع آلهة الإغريق ويصبح الجليل والعظيم هو ما ينزع إليه ذلك الشخص ولسنا ننفى صفة الجمال الفنى فى شعره ففى بعض قصائده لمحات فنية جميلة إقرا شعره فى وصف الشاعر واكتناه أغوار نفسه واستمتع بكلماتها الفنية الجميلة:

يجنــى المــودة ممــا لا حيــاة لــه ... إذا جفــاه مــن الأحيــاء خــوان

ويحــسب الــنجم الحاظــا تــساهره ... والــودق يبكيــه دمــع منــه هتــان

إذا تجهم وجه الناس ضاحكه ... ثغر الورود ومال السرو والبان

تقضى له ألسن الدنيا بما علمت ... كأنما هو فى الدنيا سليمان

والشعر ألسنة تقضى الحياة بها ... إلى الحياة بما يطويه كتمان

لولا القريض لكانت وهى فاتنة ... خرساء ليس لها بالقول تبيان

مادام فى الكون ركن فى الحياة يرى ... ففى صحائفه للشعر ديوان

وقد أرسل إليه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين كتابًا ، قال له فيه ، بعد تأليفه قصته دعاء الكراون :

سيدى الأستاذ الكبير .

أنت أقمت للكروان ديوانًا فخمًا للشعر العربى الحديث . فهل تأذن لى أن أقيم له هذا العش المتواضع وأن أهديه إليكم تحية خالصة من صديق مخالص .

للأستاذ العقاد عشرة داووين شعرية ، تنطق بعبقرية العقاد الشعرية ، وموهبته الفذة الأدبية ، ترى فيها قصائده أقرب إلى هرم الجيزة أو معبد الكرنك أو مسجد السلطان حسن . منها إلى الزهرة والعصفور وجدول الماء . القصيدة الكبرى من قصائده ، أقرب إلى تمثال رمسيس، منها إلى الإناء الخزفى الرقيق ، أو إلى غلالة شفافة من حرير . فلو عرفت أن مصر قد تميزت فى عالم الفن ، طوال عصور التاريخ ، بالنحت والعمارة ، عرفت أن فى شعر العقاد الصلب القوى المتين ، جانبًا يتصل اتصالًا مباشرا بجذور الفن الأصيل فى هذا البلد . كما يعبر الفيلسوف زكى نجيب محمود .

وهو ذا الدكتور محمد مندور ، الذى طالما نشبت بينه وبين العقاد المعارك الأدبية ، ولا جرم أن نذكر أن أخر معركة أدبية بينهم كان كاتب هذه السطور سببًا فيها ، قبل وفاة العقاد بأشهر قلائل . وسوف يأتى التحدث عنها.

يقول الدكتور محمد مندور ـ خصمه اللدود ـ فى كتابه فن الشعر :

وأما العقاد .. أديبنا الطموح الواسع الآفاق ، فقد قال الشعر، فى الاتجاهات كافة . فله شعر الوجدان ، وله الشعر الفلسفى ، بل وله أيضًا شعر المناسبات. ولكننى عن نفسى أفضل ما قاله من الشعر الوجدانى الخالص ، الذى تروقنى منه أمثال قصيدة نفثة التى سبق ذكرها .

وعلى آية حال فإن دعوة مدرسة الديوان التى تزعمها شكرى والمازنى والعقاد وانسل الأول منها خارجًا . ومضى المازني والعقاد فى طريقهما ، فى الدعوة فى توجيه الشعر العربى الحديث الوجهة الوجدانية .

وإن كان شكرى لم يتح له من الشهرة وذيوع الصيت ، ما أتيح لصديقيه وزميليه فى مدرسة الديوان : العقاد والمازنى . بالرغم من اعترافهما بسبق شكرى وتفوقه عليهما ، ثقافة وفكرًا وإبداعًا . فالعقاد يقول عنه فى مقال نشره بمجلة الهلال عام ١٩٥٩ : عرفت عبد الرحمن شكرى قبل خمس وأربعين سنة، فلم أعرف قبله ولا بعده ، أحدًا من شعرائنا وكتابنا ، أوسع منه اطلاعًا ،على أدب اللغة العربية ، وأدب اللغة الإنجليزية ، وما يترجم إليها من اللغات الأخرى . ولا أذكر أننى حدثته عن كتاب قرأته ، إلا وجدت منه علمًا به ، وإحاطة بخير ما فيه . وكان يحدثنا أحيانًا عن كتب لم نقرأها ولم نلتفت إليها ، ولاسيما كتب القصة والتاريخ . وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد على أوفاها لأنه يطلع على الكثير، ويميز منه ما يستحسنه وما يأباه فلا يكلفه نقد الأدب ، غير نظرة فى الصفحة والصفحات يلقى بعدها الكتاب ، وقد وزنه وزنًا لا يتأتى فى الجلسات الطوال . ويعترف المازني فى مقال له بجريدة السياسة ، نشره فى إبريل سنة ١٩٣٠ بفضل شكري عليه ، عندما

بدأت صلته به فى مدرسة المعلمين العليا . يقول المازني: كنا يومئذ طالبين فى مدرسة المعلمين العليا، وكانت صلتى به وثيقة ، وكان كل منا يخلط صاحبه بنفسه . ولكنى لم أكن يومئذ سوى مبتدئا، على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين فى الأدب ، ورأى حاسم فيما ينبغى أن يكون عليه . ومن اللؤم الذى أتجافى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدى وسدد خطاى ودلنى على المحجة الواضحة. وأننى لولا عونه لكان الأرجح أن أتخبط أعواما أخرى، ولكان من المحتمل جدًا أن أضل طريق الهدى .

ولا جرم أن نذكر نتفًا من شعر هذا الشاعر العبقرى يقول فى إحدى قصائد ديوانه الأول ١٩٠٩ :

ألومه فى التجنى ثم أعذره	والدمع يفصح عما كنت أستره
يبيت ممتلئ الأجفان	منهمًا وحليف الليل يسهره
ياليته كان يدرى كيف يرحمنى	أو ليتنى كنت أدرى كيف جره
لكل حب شفيع من صبابته	ودمعه، وشفيع الحسن منظره
إذا نظرت إليه حرت من وله	يا ليت قلبى يقسو حين أنظره
أبيت أعذل قلبى فى محبته	والعين فى عبرات الدمع تحدره
فهل تعاون قلبى فى حوائجه	يا أيها الأمل الممنوع مصدره
بالله يا نسمات الريح سائرة	نحو الحبيب الذى قد طاب عنصره
استودعيه سلامًا كله شجن	من المحب الذى قد مات أكثره

وبعد أن صعدت روح عبد الرحمن شكري إلى بارئها فى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ (ولن أنسى هذا اليوم) حيث أبكانى الشطر الأول من

قصيدة العقاد فى رثائه شكرى تنبأ فيه بقرب رحيله من حياة الدنيا، وكنت آنذاك (كاتب هذه السطور) متعلقًا به أشد التعلق، نشرت فى اليوم التالى لوفاة شكري، فى جريدة الأخبار قال فيها :

بعد إبراهيم، شكرى اليوم أودى	قرب الرحل لقد قاربت جدا
قرب الرحل ورحب بالنوى	النوى فى العيش أن تمسى فردا
فيما كان البعد فيما اختلفا	فيما كان البعد إمعانًا وصدا
إيه شكرى قضى الأمر	فما من يد قادرة أن تتصدى
أفلا كان لقاء بيننا	قبل أن يفترقا لحدا ولحدا

خاطب روح شكري بهاتيك البيت ، يعبر فيه أن شكرى مات نسيا منسيًا ، بعد أن جفاه أهل وطنه وأضحى لا يذكره أحد من أبناء وطنه.

معشر لو قيل عن شمس الضحى إنها ليل لعدوا النجم عدا

تحت عنوان الشاعر العملاق عباس محمود العقاد يكتب الشاعر صالح جودت فى كتابه بلابل من الشرق :

كان يقرأ كثيرًا . وكان يقرأ فى السياسة ، فيجد مصير الوطن ضائعًا بين الأحزاب والاستعمار، ضياعًا يشبه اليأس . وكأن يقرأ فى الدين ، فيشده الشك إلى دائرته بعنف . وهو يقول فى وصف هذا الشعور فيما بعد ، إنه يكفى الإنسان عقيدته ، ليفقد إيمانه بالحياة .

وفاجأته قصة ذلك الحب اليائس فى تلك الآونة ، فقرر أن يضع نهاية لحياته. دخل غرفته ، وأعد السم، ثم راح يتطلع إلى صورة محبوبته ، ليتزود منها بنظرة الوداع . فما لبث أن ظفر من عينيها بنظرة ردته عن فعلته ، فعاد يتشبث بالحياة ، ويستشعر لذتها .

وخرج العقاد من هذا الحدث فى حياته بأن المؤمن بالله هو وحده الذى يحس بقيمة الحياة ، لأن الحياة فى نظر الملحد، تبدأ وتنتهى بنهاية الأفراد . أما المؤمن، فللحياة عنده قيمة سامية ، لأنها موضع رعاية الخالق .

أما المحاولة الثانية ، فكانت سنة ١٩٣٥ ، بعد أن اشتدت خصومته مع حزب الوفد ، وتعطلت الصحف التى كان يعمل بها ، فقاسى مرارة البطالة وحرقة العوز، فآثر الانتحار، على أن يقبل عونًا من أى إنسان. ومرة أخرى ، رده الإيمان بالله إلى حب الحياة .

شعر العقاد .. هو الشعر الجميل والجليل - كما سبق ذكره - وفرق بين الأول والثانى ، فالأول من شأنه أنه يهز النفس بعاطفة (الحب) أوما يشبهها فى التأثير. فالمحب أميل إلى الحنين والذوبان والفناء فى موضوع حبه . وأما (الجليل) فيهز النفس بعاطفة (الإعجاب) لا الحب، وعاطفة الإعجاب مركب يأتلف من عناصر أولية منها : الهول والروعة والرهبة والقداسة.

وهو الشعر الذى ينحاز إلى حب البشر، وعشق الطبيعة بطيورها وزهورها وجمالها ، فإذا كانوا نقاد الغرب قد قسموا الشعراء إلى فئتين : محبى البشر philanthropist وكارهى البشر Misanthrope ، كما ذكر الأستاذ العقاد فى الفصول . فلا مشاحة أن العقاد كان من الفئة الأولى .

وإذا كان حب الشيء الجميل ، يدفع صاحبه إلى الذوبان والفناء وما يشبه الغيبوبة . فالإعجاب بالشيء الجليل ، يدفع صاحبه إلى كمال الوعى وشدة التنبه وإرهاق الحواس ، وشعور المرء شعورًا كاملًا بوجود نفسه .

(الجميل) يبعث فى النفس لذة مباشرة، أما (الجليل) فيبعث فيها لذة عن طريق غير مباشر، فالنظر إلى امرأة جميلة أو إلى زهرة رقيقة، يطلق فى النفس دوافعها الحيوية المباشرة، كدافع الجنس مثلًا، ولذلك كان للأشياء (الجميلة)

جاذبية سريعة الأثر، ولذلك أيضًا كان من السهل على هذه الأشياء الجميلة أن (تلعب) بالخيال لعبا فيه خفة اللعب ونشوته وطلاوته. أما (الجليل) فهو على خلاف ذلك ، يلجم الحيوية إلجامًا مؤقتًا، فتنصرف هذه الدوافع إلى مسالك أخرى غير المسالك التى تكون فيها الاستجابة غريزية مباشرة . فوقوفك أمام الطود الشامخ لا يستثير فيك لذة كلذة الجنس مثلًا ولكنه يدعوك إلى الوقار والتسامى والإعجاب، وهاهنا ترى الخيال لا (يلعب) لعب النشوان، بل يتمجد فى عمله جد الإرادة المصممة الماضية .

مزج العقاد فى شعره بين (الجليل) و(الجميل) بالمعنى الذى يجعل شعره يجمع بين شموخ الجبال وصلابة الصوان وعمق المحيط . فيه من الحب جناح العزة لا جناح الذلة ، وفيه من الشعور صحوة لا نعاسة. فيه من الإرادة عزمها لا تراخيها وضعفها . فيه من الإنسان كبرياؤه لا تخاذله وخنوعه . فيه من الخيال جده لا لعبه . فيه من الروح أعماقه وذراه . فلا عجب أن يمس ديواناته العابثون فيتركوه قائلين ، هذا فلسفة وليس شعرًا . (المرجع السابق)

والذى لا لجاج فيه أن شعر العقاد هو الشعر الخالد فى ميزان الأدب وفى ميزان التاريخ .

فى عام واحد ، جمعت المصادفة بين قصيدة ت . س . أليوت االمسماه الأرض اليباب ، وقصة جيمس جوبس بولستز ، وهما يحتويان ما هما عليه من عسر وعمق معًيا ؟ . ثم هل كانت مصادفة أيضًا أن يسبقهما مباشرة شعر بول فاليري فى قصيدته مقبرة عند شاطئ البحر عام ١٩٢٠، وأن يلحقهما فورًا قصة الجبل المسحور للأديب توماس مان عام ١٩٢٤، وقصة فيرجينيا وولف المسماه (مستر دالواي) عام ١٩٢٥، وقصة الحصن عام ١٩٢٦ للأديب كافكا؟ أكانت مصادفة أن تزدحم كل هذه الآثار الأدبية فى خمسة أعوام ،

تعقب الحرب العالمية الأولى . وهى كلها آثار، تلتقى فى صعوبة الأخذ وعسر المنال ، وفى بعد الغور واتساع الأفق ، وفى الانطوائية التى تأنف أن تضرب فى زحمة النا كما تساءل الدكتور زكى نجيب محمــود . ومن ثم فلم يكن من قبيل المصادفة أن تجئ قصيدة العقاد المسماه ترجمة شيطان فى أوائل هذه الفترة نفسها، والتى تمتد فى نسق رائع غير مسبوق إلى ما يزيد عن الثلاثمائة بيت .

يقول أيضًا الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه القيم مع الشعراء ، إنه لو كانت هذه القصيدة قد نظمت بالإنجليزية والفرنسية ،لاتخذت موضعها فى الأدب الأوربي، وكانت فى طليعة القصائد التى تتميز بالتفرد والعظمة . فهى وحيدة نوعها فى الشعر العربى كله . وهى آية فريدة تستطيع أن تجمع حولها خيوط عصرها ، كما هى الحال دائمًا بالنسبة إلى الآثار الأدبية الكبرى .

ومن هنا قال عنها عميد الأدب العربى ، وهو يمجد زميله عملاق الأدب العربى (فى حفل تكريم أقيم للعقاد عام ١٩٣٤) . أقامه زمرة من كبار أدباء مصر ومفكروها بمناسبة نظمه للنشيد القومى ، والذى جاء فيه :

للعلا والفدا قد رفعنا العلم
في عنان السماء
حى مهد الهدى حى أرض الهرم
حى أم البقاء
مصر أم البناة كم بنت للبنين
من عريق الجدود
من يهبها الحياة أمة الخالدين
وهبته الخلود
كل غال يهون فارخصى يا نفوس
وهبته الخلود
فليكن ما يكون إن رفعنا الرؤوس
ولتعيش يا وطن
ولتعيش يا وطن

وقد كنا ونحن صغاراً، لم نزل – بعد – فى المرحلة الأولى من التعليم فى مدرسة أحمد طلعت الأولية بالإسكنرية ترتفع عقائرنا بأنشاد هذا النشيد الوطنى قبل أن ندلف إلى فصول الدراسة

يقول طه حسين:

«إننى أجد عند العقاد مالا أجد عند غيره من الشعراء، لأنى حين أسمع شعر العقاد، أو حين أخلو إلى شعر العقاد (وما أبرع الدكتور طه فى هذا الاستدراك السريع، لأن شعر العقاد يحتاج إلى خلوة الدرس العميق، وليس هو شبيهًا بضربات الطبل التى قد تهز الآذان هزًا ثم لا يصل منها إلى النفس شيء) كما قال قائل فإنما أسمع نفسى أو أخلو إلى نفسي، إنما أرى صورة قلبى وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه . إننى لا أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل، أو أين قرأت هذا؟ أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام، أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام؟ كلا ؛ إنما تقرؤون العقاد فتقرؤونه وحده . لأن العقاد ليس مقلدًا، ولا يستطيع أن يقلد، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته».

ويردف العميد قائلًا :

«إنه مهما كرّم العقاد ، فإن مكرميه لن يبلغوه حقه من التكريم ، بالقياس إلى إحسان العقاد إليهم ».

ثم قال :

تسألونى لماذا أؤمن بالعقاد فى الشعر الحديث، وأؤمن به وحده؟ وجوابى يسير جدًا ـ لماذا ؟ لأننى أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء، وإن شئتم فإنى لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء، لأنى حين أسمع شعر العقاد ، أو حين أخلو إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسى أو أخلو إلى

نفسي . وإنما أرى صورة قلبي، وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه وحين أسمع لشعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربى الحديث إنما أرى شيئًا لا أراه عند غيره من الشعراء. تستطيعون أن تنظروا فى أى ديوان من دواوين العقاد، لا أطلب منكم أن تقرءوا شعر العقاد الآن ، إنما أنظروا فى الفهرست وحده ، فسترون من هذه النظرة اليسيرة فى هذه الصفحات القليلة ، أن العقاد شيء آخر، وأن شعر العقاد شيء آخر. وأنه أرسل ليتحدث إلى نفوسكم أحاديث لم يقل بها أحد من قبل :

ثم لماذا أيضًا .. لماذا أكبر العقاد ، وأؤمن به وحده دون غيره ، من الشعراء فى هذا العصر؟ لأن العقاد أيها السادة .. يصور لى هذا المثل الأعلى فى الشعر الذى أحببته ، وتمنيت وجاهدت فى أن يحبه الشباب. هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين جمال العربى القديم وبين أمل المصرى الحديث .

ثم ما الذى يعجبنى من العقاد الشاعر أيضًا ؟ يعجبنى منه شيء لا يعجب الناس كثيرًا ، أو هو يعجب الناس جميعًا ، ويخافون أن يظهروا إعجابهم به ، أو هم لا يشعرون أنهم يعجبون به . ذلك أن العقاد متمرد. يعجبنى تمرد العقاد الذى أثر فى كاتب من الكتاب الأجانب ، حين نظر فى شعر العقاد ، فكتب عنه منذ أسابيع ، فى مجلة فرنسية ، يقول : إن أدب العقاد أشبه بالهواء الطلق ، هذا التمرد، هذه الريح العاصفة هى التى تعجبنى ، لأنها صورة من الحرية ، من حرية الفن التى لا تعرف حدًا ولا أحدًا ولا غاية ، والتى لا تنتهى إلى غاية ، إلا التمست غاية أبعد منها . يعجبنى العقاد لأنه ساخط دائما ، والرجل الكريم هو الساخط دائما ، يعجبنى لأنه لا يرضى ولا يطمئن ولا يستقر، إنما الرضا والاطمئنان والاستقرار آية من آيات الضعف ، وعلامة من علامات الخمود .

ويردف الدكتور طه حسين قائلًا : ثم يعجبنى العقاد ، لأنه يلتمس موضوعاته حيث يلتمس الناس الموضوعات ، ثم يلتمس موضوعاته حيث لم

يستطع شعراء العرب أن يلتمسوا موضوعاتهم . العقاد يلتمس موضوعاته معنا فى الأرض، ومع الشعراء فى السماء، ويطير على جناح الكروان ويسابق الطير. لكنه يلتمس موضوعاته أيضًا فى الجحيم ، والغريب أنه حين يهبط إلى الجحيم ليلتمس موضوعاته الشعرية يتقن ويجيد ويبلغ حدًا مدهشًا يخيل إلينا أنه من المردة والشياطين الذين يعيشون فى الجحيم . لا أريد أن أرسل هذا الكلام إرسالًا ، فقد يغضب العقاد. وأؤكد لكم وأؤكد للعقاد أمامكم وأنتم شهود ، أنا نحن الأساتذة أعلم بالعقاد من العقاد .

ولست أخفى عليكم أنى قرأت له قصيدة لن ينقضى إعجابى بها، وقد أقرؤها عشرين مرة أو ثلاثين، والسبب فى ذلك أنى أجد فيها كلما قرأتها معنى جديدًا أو معانى جديدة، ثم هذه الطرافة المدهشة، وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها فى الشعر القديم فلن تجدوا لها شبيها، هى طويلة، ولكنها على طولها قصيرة تبلغ عشرين بيت ومائتين.

أما موضوعها فشيطان، فأراد العقاد أن يترجم لشيطان، ويظهر أن العقاد سئم ترجمة الناس، وسئم نقد الناس وما يكتبون وما ينظمون، فأبى إلا أن يبحث فوفق إلى شيطان خلقه خلقًا ومشى معه فأبعد فى المشي، إنه فخلقه فى فجر قصيدته وصعد معه السماء وهبط به إلى الجحيم، ومن حسن الحظ أنه قتله فى آخر القصيدة، هذا الشيطان الغريب، خلقه وأذن له كما أذن للشياطين أن يغوى الناس ما استطاع، فهبط إلى بلاد الزنج، ولكنه لم يكد يرى تلك البلاد وأهلها حتى ضاق بالأرض وسكانها، ورأى أنه أرفع من إغواء الزنوج، فارتحل عنهم مطوفا بالأرض، ومازال يطوف حتى بلغ بحر العجم حيث البلاد المتحضرة، وهناك استطاع أن يخدع الناس، فأخرج لهم شيئًا يسمى الحق، ولكنه الاعتداء الشنيع المنكر الذى أفسد الحياة الإنسانية إفسادًا، ثم كلفه أن ينوب عنه فى فتنة الناس .

نظر إلى الناس وقد وقعوا جميعًا فى شركه وخضعوا لفتنته فاحتقرهم، وكفر الشيطان بالشر، أرأيتم شيطانًا يكفر بالشر؟ والطريف أن الشيطان خالف طبيعته وظفر بها لن يظفر به شيطان، ظفر بالعفو، وأذن الله له فى أن يصعد إلى الجنة، ويعيش بين الملائكة عيشة راضية فى مكان لا سبيل إلى تصوره فى الشعر بأجمل من تصوير العقاد، ولكنه شيطان لا يرضيه شيء لا يقنع بشئ، وما أسرع ما ضاق بالجنة ورفاقه الملائكة حتى خيل إلى الذين يرافقونه أنهم ينظرون إلى الجحيم وقد تجسد فى وجهه، ثم يوحى الله إلى الجنة فإذا هدوء شامل، وسلام كامل، وأمن وسكينة، وإذا الشيطن قائم أمام جلال الله .

أترون أنه خضع أو اضطرب أو أحس شيئًا مما تحسه النفس وهى فى مثل هذا الموقف؟ كلا، ظل مرفوع الرأس شامخ الأنف متحديًا، ينكر على الله آياته، ويتحدى الله أن ينزل به المكروه، ثم ينزل المكروه به فإذا النار قد استحالت حجرًا .

ومع ذلك فطبيعته لم تتغير حتى بعد المسخ، بعد أن صار حجرًا هامدًا، طبيعته مفسدة دائمًا، أيست تتخذ الصور الخلابة من هذا الصخر؟ هذا الشيطان الذى أحياه العقاد وأماته، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع، هذا الشيطان اسمحوا لي، وليسمح لى العقاد وأنا أعترف بأنى متأسف جدًا هذا الشيطان هو شيطان العقاد وشعره، وهذه النفس الطامحة التى لا حد لآمالها، هذه النفس التى لا يرضيها إلا لتتحرك حركة لا حد لها، حتى إذا خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود فإن آثارها ما تزال قائمة، تعمل فى النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد فى القبر، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن،والذى نلحظه فى كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابهين أمثال العقاد

أعترف أنى عندما قرأت القصيدة وقرأتها وقرأتها فكرت فى شعراء آخرين ليسوا عندنا ولا هم بين شعرائنا، ولكنهم يعيشون فى أوروبا، يعيشون فى أوروبا القديمة والحديثة، فكرت فى جوت (يقصد العميد قصة فاوست للشاعر الألماني جيتى GOETE أو جوت كما سماه) حين يصور إبليس وهو يتحدى خالقه، فكرت فى بول فاليرى وهو يصور الحية حين أغوت حواء، وفكرت فى ملتون حين صور الجنة الضائعة، ومع ذلك فهل كان العقاد مقلدًا لهؤلاء الشعراء؟ هل أخذعنهم؟ أو هل أخذ العقاد عن شعراء العرب القدماء؟

كلا لم يأخذ العقاد عنهم بل أضاف لهم وبهذه القصيدة بزهم وعلا بها عليهم.

وأردف العميد قائلًا :

ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه ! .

ولا مندوحة لنا أن نعقب على هذا السطر الأخير مما ذكره الدكتور طه حسين آنفًا فإن بعض الأدباء من عجب عقب على ذلك بقوله أن الدكتور طه حسين قد رشح الأستاذ العقاد أميرًا للشعراء، حتى تخلو له إمارة الأدب؟!.

والذى لامشاحة فيه أن قصيدة ترجمة شيطان فإن دلت على شيء فإنها تدل على عبقرية العقاد الشعرية . يقول الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي :إنها القصيدة العبقرية والتى تؤكد على عبقرية العقاد والتى يقول فيها ، وهي التى بلغت ثلاثمائة بيت وهاك هى أبياتها التالية :

صاغهُ الرحمنُ ذو الفضل العميم غسق الظلماء فى قاع سقرْ
ورمى الأرضَ به رمى الرجيم عِبرةً. فاسمعْ أعاجيب العبرْ

خِلقــةً شــاء لهــا الله الكنــوُد وأبــى منهــا وفــاء الــشاكر
قــدَرَ الــسوء لهــا قبـل الوجـود وتعــالى مــن علــيمٍ قــادر
قــال كــونى محنــةً للأبريــاء فأطاعــتْ ، يالهــا مــن فــاجرة
ولــو اســطاعت خلافــاً للقــضاء لاســتحقتْ منــه لعـن الآخـرة
سُــنةُ لله فــاقفوا إثرهــا عــصبة الــسواس وامــضوا راشــدين
علّــمَ الأقيــال قِــدْماً ســرّها فأقــامو دينــه فــى العــالمين
سُــنةُ لله ومــا أوســعها رحمــةً منــه بجبــارى الأمـــم
ويحهـم! لـو لـم يكـن أبـدعها كيـف يـدرون بأسـرار الـنقم ؟؟
فلــه الحمــدُ علــى مــا فقهـوا مـن دهـاء المُلـك والكيْـدِ الحـذر
فــإذا رامــوا نكــالاً شــبهوا مــن أرادوه بــشيطان قــذر

****

قــال : كــونى محنــةً للأبريــاء واخــسأى أيتُهــا الــنفس العقــيم
أيــه ا الــشيطان أضــلل مـن تـشاء سـوف تأويـك وتأويـه الجحـيم
فهـوى الـشيطان صـفر الـراحتين خـاوىَ الـزاد ويـا بـئس الـسفر
أيْنَ يمضى؟ أين ا فقُ الأرض أين ؟ ورحـابُ الكون ملأى بـالأكر
بيْــدَ أنّ الــشر مــازال أريبــاً وســبيلُ الغــىّ ممهــودُ الجنــاب
لــنْ تــراهُ حيــثُ تلقــاهُ غريبــاً أبــدَ الــدهر ولا نــزر الــصحاب
هــبط الــشيطان فــى وادى القــرود أوْهــمُ الــزنجُ كمــا قــد خُلقــوا
أمــةٌ مـن صــنعة الخــلاق ســود أخطــأوا الــصبغة أو قــد حُرقــوا
أرضُــهم أنجــبُ مــن أبنائهــا وحــصادُ الــزرع فيهــا دائــم
لا ينــامُ الظـــلُ فـــى أرجائهــا وهــم ظــلٌ عليْهــا قــائم

واستوى بيْن رُباها والحوافى فإذا السمْتُ بها سمْتُ السباع
سيِّدُ القوم كسيِدِ القفر حافٍ وهما بعدُ سواءٌ فى المتاع
وإذا الكعبةُ فى الأرض الشرى ورسولُ العلم ضاريها الشرود
بين قنص أو هراش أو كَرى يذهبُ التاريخُ فيها ويعود
ولقدْ همَّ وما أعجلهُ ! يسألُ الإنسَ بها لو يفقهون
أو يُنادى الوحشَ لو أصغى له ألكم فى القوم صهرٌ وينون؟؟
سَخِرَ الشيطانُ من قسمته ومن الأرض وما فوق السماء
ومضى يهجُسُ فى محنته ألهذا تُستذلُ الكبرياء؟!
أن يكن إغوائىَ الزنج لزاماً فمن العُجم الضوارى عجبى
ماله يأنفُ أنْ يغوىَ حاماً ذلك المغوىّ ذوات الذنبِ ؟
ومشى ينغم فى غير طرب نغم الغبطة باليوم العبوس
نغماً يرصد من خلف الحقب يوم تند كُ على الأرض الشموس

****

لا نُطيلُ القولَ فالخطبُ يسير وحياةُ الإنس والجن هذر
خرجَ الشيطانُ فى الأرض يسير ومن الله إلى الله الصدَر
لمحةٌ جازت به مشرقها ثمَّ ردتهُ حيال المغرب
ويشاء الله أن يوبقها فاشتهاها شهوة المغتصب
وارتضى منها مقاماً رغداً حول بحر الروم أو بحر العجم
يتلهى فى مغانيها سدى أو لأمر خفيت فيه الحكم
ورمى أولَ فخ فأصابا ودعاه الحقَ واستلقى فنام
وأناب الحقَ عنه فاستجابا فإذا الحقُ لجاجٌ واختصام
وإذا الحقُ طلاءُ الخبثاء رسنُ الواهن ، سيفُ المعتدى،

ضِـلةُ الجُهــال، لَغــزُ الحُكمــاءِ ، ذلــةُ العبــدِ ، غُــرامُ الــسيّدِ
وإذا الحــــقُ طعــــامٌ ووكــــون وإذا الحــــقُ بريــــقُ الــــذهب
لـو يمـوتُ النـاسُ أو لـو يـشبعون ذهـبَ الحـقُ ذهـاب الـسغب
يالهــا مــن لفظــةٍ زوقهــا آضَ فرضــاً بعــدها الفعــلُ الــذميم
ويحــه ! فــى نأمــةٍ أطلقهــا غلــبَ الــنحسُ ولــم يُغْــنِ النعــيم
نــامَ لمّــا صــنع الحــقَ وأغــضى ولــو اختــارَ لأغــضى أبــدا
غيْــرَ أنّ الــشرَ لا يــألفُ غُمــضا ربحــتْ صــفقتهُ أو قــدَ فقــدا
فأطــارتْ سِــنةً فــى هُدبــه بهجــةُ الــزرع الــذى كــان بــذر
كــادَ أن يــشكُرَ نُعمــى ربــه لــو يــسيغُ الــشُكرَ شــيطانٌ كفــر
وتمــادى بعــدُ فــى شــرّته كلمــا أنبــت زرعــاً ينعــا
فــرأى الــشوكة فــى دولتــه وجنــى الــوفرة ممّــا زرعــا
ألــفُ جيــلٍ بعــد ألــفٍ غيّــرتْ صــاحبَ الآبــاء فيهــا والبنــين
ورأى منهــا فنونــاً ورأتْ منــه فــى صُــحبتهِ أىّ فنــون
أتلفتــهُ مثلمــا أتلفهــا عجبــاً ! لا بــل عــلامَ العجــب ؟
أتــرى الــشيطانُ يــدرى ضــعفها وهــو مــن ذاك بــرئ أجنــب ؟
فاشــتهى الخمــرَ ورنّــات المثــانى وأحــبّ الغيــدَ عُــذرىّ الهــوى!
لعبــاً ينهــلُ آنــاً بعــد أن نُهــلاً مــنهُنّ يُنعــشْنَ القــوى
لا نُطيــلُ القــولَ فــالقولُ هــذرٌ وحيــاةُ الإنــس والجــنّ هبــاء
إنْ يــذُمْ للنــاس سُــلطانُ القــدرْ فعلــيهم بــل علــى الكــون العفــاء!
أنــفَ الــشيطانُ مــن فتنتــه أممــاً يــأنفُ مــن إهلاكهــا!
ورأى الفــاجرُ مــن زُ مرتــه كعفيــفِ الــذيلِ مــن نُــساكها
مالــه يُفــسدُ خلقــاً عــدموا آيــة الرُشــدِ ، وهــبْهم رشــدوا

وعـلامَ الـسلبُ ممّـا غنمـوا وهـمُ لـو غنمـوا لـم يُحـسدوا
كلهـم طالـبُ قـوتٍ ، والثـرى ذلّ قـومٌ أو تعـالوا، مُخـصبُ
وقُصارى الأمـرِ فـى هـذا الـورى راسـبٌ يطفـو وطـافٍ يرسـبُ
مُـذ رأى الـشيطان عُقبـى شـرّه كفـر المـسكينُ بالـشرّ العقـيم
وأراهـا بذعـة مـن كُفـره دونهـا الكُفـرانُ بـالخير العمـيم
****

ياإلـه الكـون يـا خيْـرَ إلـه يْـنَ مـن قـدْركَ أصـنامُ القِـدَم
مـن كـربِ الكـون لا بـل مـن سـواه عـادلٌ فـى الخلـق بـرٌ بـالأمم
أنـت يـا ربُ لطيـفٌ فـى القـضاء فاصـعق اللهـم مـن يجحـدُ لُطفـك
قسمًا باسـمك يـا ربَ الـسماء مـا أرى فـى النـاسِ من يُدّركُ وصفك
يكفــرُ الــشيطانُ بالــشرّ العُقــام فتُعــدُ الكُفــرُ منــهُ نــدما
وتنجيــه إلــى دار الــسلام وقــديماً قلــتُ لا يغــشى الحِمــى
فــضلك اللهــمّ مــن غيــر حــساب وكــذا اللهــمّ آلاءُ العلــيم
فـاعجبوا مـن نعمـة اللـه العُجـاب وانظـروا كيـف تلقاهـا الـرجيم
****

نـزلَ الـشيطانُ مـن جنّتـه منـزلاً يرضـى بـه الفـنُ الجميـل
ومـشى فاختـار فـى مِـشْيته هـضْبةً عنـد مـصب السلـسبيل
هـضْبةٌ فيهـا نخيـلٌ وثمـر وبـراكينُ خبـا منهـا الـضرام
وحلاهـا دون أنمـاط الـصور قالـبُ الحُـسن كمـا شـاء التمـام
قالـبُ الـصنْع الـذى ينقـل عنـه كـلُ ذى فـنٍ أعاجيـب الفنـون
شـركٌ لا تفلـتُ الألبـابُ منـهُ حفظتـه روضـةٌ تُـسبى العيـون
كمُلـتْ زينتُهـا مـن كـل فـنٍ وكـساها الزهـو ولـدانٌ وحـور

وعلـى أحواضـها الطيـرُ تُغنّـى يـا كـريمٌ ، يـا حلـيمٌ ، يـا غفـور
وحوالَيْهـا علـى رحـب المـدى زُ مـرُ الأمـلاك مـن خلـف زُمـرُ
كُلّمــــا راح عليهـــا أو غــــدا شـــيّعتهُ بنــــشيدٍ مُبتكـــــر
ونُفـيضُ الوصــف لـولا أنّنــا نـصفُ الـدارَ لكـم يـا داخليهــا
فاصبروا فالصبرُ مفتاحُ المُنى واسمعوا كيف غوى الشيطانُ فيها

****

أزفـت سـاعتهُ ذات شـتاء أو علـى قـولٍ مـضتْ حـين مـضى
وإذا حـدثتْ فـى أمـر الـسماء فـاترك التـاريخ سـطراً أبيـضا
وقُبيـل الـصُبح أو نحـو الأصـيل عنـد بـاب القُدس أو بـاب الحـرم
ركـب الـشيطان فـوق السلـسبيل مركبـاً يُزجيـهُ سلـسالُ الـنغم
وفـشتْ حوليـه أرواحُ الـسلام كـلُ زهـرٍ باعـثٌ منـه شـذاه
ســارياتٍ مثلمـا تـسرى المُـدام أو كمـا رقّـتْ علـى الخـدّ الـشفاه
وهو ما بين وصيفٍ وملك فى رواقٍ من رضى لو كان يرضى
سـبّحوا اللـه وقـالوا المُلـكُ لـكْ وهـو يـزدادُ علـى التـسبيح قبْـضا
نظـرتْ صُـحبتهُ الوجـه العبـوس فـرأوا فـى الخُلـدِ شـيئاً عجبـا
مـا رأوا مـن قبـلُ مـا لـونُ النحـوس لا ولا يـدرون إلّـا الطربـا
والتقــتْ أعيــنهم فابتــسموا كابتــسام الطفــل فــى مهــد الرخــاء
وتمــادى الأمــر حتــى سـئموا فتمــشت فــى الخلــيط الثؤبــاء
قـــال أدنـــاهُم إلـــى مجلـــسه وهـــو لا يعلـــم أن قـــدْ أغلظـــا
مـا لمـولاى أرى فـى نفـسه بعـض مـا خُبـرّتُ عـن وادى اللظـى
أتـــرى الويـــلَ إذن والــــشجنا فتــــرةً تُطبـــقُ أهـــداب الرقـــود
أكـذا الـوادى الـذى قيـل لنـا فـى صـبانا أنّـه مرعـى الجحـود؟

فـانثنى العـابسُ وقـاد الجبـين صـارخاً صـرخة مقـضىّ الهـلاك
أىّ وادٍ ؟؟ قـال : وادى الكافرينـا ، قـال : دعْ هـذا فمـا أنـت وذاك
قـلْ لنـا كيـف ترانـا هـا هُنـا ؟ قـال : مـا ذا ؟ إنّنـا للفـائزون
قـال لكنّـى أرانـا كلنـا وأراكـم قبـلُ أشـقى مـا يكـون

****

أيُّهـا القـارئُ وقيّـتَ العثـار وبلغـتَ الخُلـدَ موفـورَ القـدم
هل شـهدتَ الجيشَ فـى هـول الفـرار أوْ رأيتَ الطيْـرَ راعتهـا الـدِيَم
إن تكـن لـم ترهـا فارصـد لهـا تـدرِ مـا فزعـةُ أمـلاك الـسماء
فزعــةً للّـه مـا أجملهـا صـانها الـرحمنُ عـن سـفك الـدماء
سـاءهم فـى الخُلـدِ ألّـا يُحـسدوا ومـن الحُـسّادِ مـن تطلّبـه
راعهـم فـى الخُلـدِ ألّـا يـسعدوا مُنكـرُ الـسعدِ كمـن يـسلُبه
ولقـدْ علمهـم شـيطانُهُ علـمَ مـا لـم يعلمـوا مـن غـضب
مـا لهـم قـد فـاتهم شُـكرانُه أو لـيْس الغـيْظُ بالمُكتـسب ؟؟
لـو تراخـى خطـبُهم لا حتملـوا عُـدد الـرجم لـذاك المُعتـرك
لطْـفُ اللّـه فلـو قـد عجلـوا لخـلا مـن نجمـه هـذا الفلـك
مـنٌ للّـه لا يحـصُرُها صـيْرفىٌ روضـتْ أعـدادهُ
خَفِـراتٌ لـم يـزل يُظهرُهـا كُلمـا هـام بهـا عُبّـاده
هـو أوحـى الـوحىَ فـى جنتـه فـسرى فـى المـلأ الأعلـى الـصدى
حـين نـادى قـرّ فـى وقفتـه كـلُ غـضبانٌ ولبّـى واهتـدى
فـإذا الجنـةُ أمـنٌ وسـكون كـسكون الليـل فـى ضـوء القمـر
خشعتْ حتـى الشوادى فـى الغصون وصـغتْ حتّى وريْقـاتُ الـشجر
سـاعةً ثُـمّ انجلـى موقفُهـا عـن جـلال اللّـه فـرداً فـى عُـلاه

غابت الأملاكُ لا تعرفُها وبدا الشيطانُ معروفاً تراه

وبدى الشيطان معروفاً ترى كبرياء الكُفر فى وقفته

عالىَ الجبهة يأبى القهقرى وتوّجَ النارُ من نظرته

وتنحّى كلُ مشهودٍ فما ثمّ إلا اللهُ والطاغى المريد

ويكادُ الكونُ ما بينهُما يغلبُ الشكُ عليهِ فيبيد

ساعةُ أخرى وقدّ حُمّ القضاء وانقضى العفوُ وحقّ الغضب

ساعةُ للنحس حلتْ والبلاء ومتى حلتْ فأين المهربُ ؟ ؟

حاقتْ اللعنةُ . حاقتْ كلُها وقضاها المُنعمُ المُنتقمُ

وجناها وهو لا يجهلُها ذلك الجانى الذّى لا يندمُ

هاتفٌ فى الخُلدِ لمّا هتفا نفذ السهمُ فمن ذا ا لهاتفُ ؟

أهو الرحمنُ ؟ ؟ لا وأسفا بلْ هو الروحُ العصىُّ العاصفُ

هو روحٌ يحسدُ اللـه وما أعجبَ الحاسدَ للـهِ الصمد

كلما أبصره مُحتكماً أصغرَ الكون وأزرى بالأبد

هو ناع سمُجتْ فى عيْنه نعمُ اللـه فأمسى يجتويها

حبةٌ يزرعُها فى كونه تلكُم النُعمى ، فأين الجودُ فيها ؟ ؟

هو طاغ يأنفُ الصغوْ إلى سائلٌ يسألهُ عمّا جنى

يحسبُ الصغوْ عقاباً قدّ غلا كيف لو أعذرَ أو لو أذعنا ؟ ؟

فرمى بالهُجر لا يحفلهُ حيثُ لا يبدأُ خلقٌ بالكلام

ويجدُ القولَ أو يهزلهُ ولعيْنيْهِ وميضٌ وابتسام

قال : سبحانك يا مولى الموالى وتعاليتَ ولسنا نعتلى!

لا سلامَ اليومَ يقريّه مقالى أيُها المولى فهلْ تغفرُ لى ؟ ؟

أيّها المولى ونوليك العزاء ويُعزّى سيّدٌ يفقدُ عبدا

فاقدُ العبدانِ أولى بالرثاء من فتىً يألمُ للأربابِ فقدا
أيُها المولى ولا تغضب على عبدك العاصى إذا لم تُرضه
عبدَ سوءٍ رفض الخُلدَ فلا تَيلُ بالجودِ قُصارى رفضه !!
لا تُعاجلنى بلومٍ إنّنى قائمٌ عنك بلومى وانتقادى
أنا من ينصفُ من يقرفُنى ونَجىُ بالذم منى لا يُصادى
لائمى أنت على كُفر النعم وكذا يبدأ باللومِ الكريم
ليتنى ذاك الكفورُ المُتهم إنّما الكفرُ أخو الخيِّر القديم
آخذى أنت بقومٍ شكروا بعض ما قيضتَ لى من نِعم
كيْف لا يشكرُ قومٌ ذكروا لك بالحمدِ حلولَ النِقم
تهبُ العُشبَ لآساد الشرى وتُعدُ الجوع منهن كنودا
فازت الشاة فلا غروْ تَرى أنها تبلغُ بالأكل الخلودا
كمْ عهدنا عاهلاً فى مُلكه يحكُمُ الناسَ بما لا يفقهون
لا يوبقُ السائلَ عن مسلكه ويبيحُ الأمنَ من لا يسألون
هكذا مُلكُك يا ربَ القضاء دولةٌ تحمى على الطرْف النظر
حظٌ من يدنو من السترِ الشقاء وسعيدٌ من لها عمّا استتر
فاغنَ بالراضين عن أقدارها أنّهم نعمَ عتادُ المالكين
واجعل الفردوس من أقطارها حيثُ يرضونَ وما هُم ساخطين
وإذا ما رنَّمَ الضبُ الكُدى فقلْ الكُديةُ فردوسُ السماء
أو ليْسَ الخُلدُ ياربَ الهُدى منزلاً لا يتخطاهُ الرجاء ؟؟
لا تُعاجلنى فقدْ لا يتقى سيّدُ الكون لساناً يكذبُ
أنْ يكنْ وزرُ ضلالى مُزهقى آخر الأمر ، فحتفى مُكْتَبُ
لا لعمرى بلْ هو الصدقُ وما أجملَ الصدقَ بشيطانٍ غوى

إنّما الصدقُ نباتٌ ما نما قطّ بالخيرِ ، وقدْ ينمو الهوى
إنّما الصدقُ وبالٌ يُفترى وأحقّ الحق ما يوحى الرجيم
أبطلُ الباطلُ لا يؤذى الورى وأحقُّ الحقّ يودى بالصميم
أمُجيبى أنت أم عند الصدى أبد الدهر سؤالى والجواب
أهى الراحةُ فى الخُلد سُدى ثمرُ الكون جميعاً واللباب
كيف يرضى خالدٌ يفصله أمدٌ بينكما لا يُعبرُ
أيعافُ الشأوَ أم يجهله أمْ يُرجّيه فلا يقتد
عفوك اللهُمَ لا خُلدَ هُنا ومتى كان خلودٌ فى قيود ؟ ؟
سيظلُ الخُلدُ وسواس المُنى وصدى الليل وأحلامَ الرقود
وسيبقى الكونُ فى جوهره أبداً شيئين مهما اقتربا
خالقٌ قامَ على عُنصُره ومخاليقَ رأوه احتجبا
صانعٌ يُحييّ البرايا مُنعماً وبرايا صُنعُها منٌ وجود
كلا هذين موجودٌ فما أبعدَ البون لعمرى فى الوجود!!
أيُها الفانون فى هذى الدُنى خُلدُكم يا قومُ آجالٌ تَوالى
تحسبون الخُلدَ فى نيْل المُنى قدْ خُدعتُم ! فاشكروا الله تعالى
قدْ خُدعتُم فاسألوا الدود أما يبلغ المأمولَ من شهوته
واغبطوه فهو أرقى سُلما أوَ ما يوغلُ فى حمأته ؟ ؟
اسألوا يا قومُ أن لا تسألوا وتمنّوا للأمانى الكمالا
وإذا أعجزكم يا قوْم أن تفعلوا فاشكروا من يحرم الخلقَ السؤالا
عفوك اللهم أو لا عفو لى طال بى حلمُك فابعث وجلك
أنت لا تخطرُ لى فى أملى لا تكن توبةُ نفسى أملك
وادعُ فى خلقك يسجدُ من رجا خُلدك الأعلى فما نحنُ سجود

لنكــونَنّ إذا صــحّ الحِجــى ، حجــراً صــلداً ولا هــذا الوجــود

****

لا نُطيلُ القولَ . أمّا المُنتهى فقريبٌ ، وجرى ما قدْ جرى

السنى أظلمَ والنجمُ سها ولهيبُ النارِ أمسى حجرا

لا انتقاماً حَيطتْ فتنتهُ حاشا للهِ ولا الحِلمُ نفد

إنْ تكنْ قدْ خمدتْ جذوتهُ فمن الرحمةِ بالخلقِ خمد

حين جارت فتنةُ الغاوى على عِصمة الأملاك فى غِرّتها

عجّل اللهُ به ما أجّلا وحمى الدولة فى بيضتها

قال كنْ عبدى فلمّا أن أبى قال كنْ صخْراً كما شئتَ فكان

لهبُ طارَ فلولا أن خبا لتغشّى الكونَ نارٌ ودُخان

ولقدْ قال أناسٌ شهدوا مصرع الشيطان هل طبعٌ يزول ؟ ؟

ناره تخبو فلا تتقدُ وهوْ فى الصخرة يستهوى العقول

فإذا أبصرتَ من صخرته دُميةً ساحرةً أو صنما

فابتعد منه ومن رُقيتهُ واتّق اللهَ وحوقل ندما

وتعجّبْ من شواظٍ ردّهُ طارقُ اليأسِ صفاةً جلمدا

وتدبرّ كيف أبقى كيْدهُ ومحى روحاً وأفنى جسداً

ولقدْ أسمعُ فيما زعموا نبأً من نحو إبليس أتى

قال (لا تأسوا ولا تنتقموا معشرَ الجن فما برّ الفتى

ما أرى هذا الفتى من دمِنا ومتى استغوى الشياطين الشرك ؟

أترى شيطانةٌ من قومنا أغوت الأملاك فهو ابنُ ملك!

ذاكَ أو كيف أطاشت فمَهُ غيْرةٌ منهُ على القول الصُراح

أكبا الثرثارُ أم أسقمهُ أرجُ الجنّة أم ملّ الكفاح ؟؟

فتلاحـــىَ القـــومُ ثُـــمّ استـــضحكوا ودعـــا مـــازحُهم شـــرّ دُعـــاء

قـــال فلتـــسلكهُ فـــيمن ســـلكوا أيُّهـــا المـــولى ســـبيلَ الـــشُهداء!

وتقـــضتْ بيـــنهم ســـيرتُهُ ومـــضى كـــالطيفِ أو رجـــع الـــصدى

بـــاءَ بالـــسخطِ فـــلا شـــيعتهُ رضـــيتْ عنـــهُ ولا أرضـــى العِـــد ا

وكـــذا العهـــدُ بمـــشبوب القِلـــى عـــارم الفطنـــةِ جيّـــاشَ الفـــؤاد

أبـــداً يهتـــفُ بـــالقولِ فـــلا يُعجـــبُ الغـــيّ ولا يُرضـــى الرشـــاد

* * * * * * *

وقد عقب الدكتور عبد الفتاح الديدى – صاحب أول كتاب عن عبقرية العقاد– فى مقاله: ملحمة ترجمة شيطان للعقاد :

هى الملحمة التى استحق العقاد من أجلها إمارة الشعر العربى سنة (١٩٣٤) ونوّه بها الدكتور طه حسين فى خطاب امارة العقاد للشعر الذى ألقاه بالأوبرا بهذه المناسبة

و مما يذكر فى هذا الصدد أن العقاد فى مقال بأحد أعداد المقتطف سنة ١٩٣٤ كتب يقول :

إنه كاد يمزّق هذه الملحمة ويسقطها من ديوانه سنة ١٩٢١، لولا إصرار بعض أصدقائه على إبقائها واستمرار نشرها فى الديوان بالجزء الثالث. وهكذا بقيت هذه الملحمة وصارت حدثاً خطيراً من أحداث الشعر العربى فى التطور والنماء .

ها هو ذا الشاعر يحي العقاد عملاق الشعر بهذه المناسبة فيقول:

قد حملت اللواء من بعد (شوقي) وتـــنـــــسمت ذروة الإنـــــشـــــاد

أنت فى ســاحة القصيد أمـــيـــر قـــد سَـــمَا عرضـــه عـــن الأنـــداد

يذكر الأستاذ عبد المعطى حجازي فى كتابه مدينة النور إنه عندما يمم وجهه شطر مكتبة العقاد فى مصر الجديدة فى الذكرى المئوية لميلاد الرجل العظيم قال:

نحن إذن فى برزخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس فى مدينة الشمس الخالدة، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان! .

هكذا كان العقاد يمجد النور وهو يتحدث عن مكتبته، لكننى فى الطريق إلى داره كنت أجد الحر ولا أجد النور، أصطدام بزحام من السيارات والبشر، ومن العمارات والمحلات، والأبواق ومكبرات الصوت . كم هائل من المواد والمعادن والأشياء والآلات والأشخاص تنكسر عليه الأشعة وتتقاطع وتنعكس فتصبح شواظًا من نار وأشعة الشمس فى حاجة إلى ظل يقطعها ويمازجها، وفضاء يروضها، ويصفيها حتى تصل إلى العين وقد صارت محض نور .

هتف حجازى قائلًا : هذه دار العقاد !

وأردف قائلًا : كان العقاد قد اتخذ فى الشعر والأدب موقفًا أقرب إلى موقف المحافظين الذين ثار عليهم فى شبابه . والميل إلى المحافظة طبيعى مع تقدم السن، لأن الخبرة تسقط جانبًا مما يدفع الشاب فى فورة حماسته وامتلاء يديه بالأحلام وفراغها من التجارب ولأننا حين تتقدم بنا السن نتخفف من خصومة الشيوخ الذين رحلوا، وندخل فى خصومة الشباب الذين دخلوا، فإذا كان العقاد طرفًا فى مثل هذه الخصومة فهو مقاتل طويل النفس مهما يكن موقعه .

حين كان شابًا ثوريًا كان شديد العنف مع شوقى فى الشعر، ومع القصر والأحزاب المحافظة فى السياسة . وحين علت سنه كان شديد العنف مع

الشعراء والكتاب المجددين، ومع الجماعات السياسية الثورية .

والمعركة بالنسبة للعقاد معركة تستحق الأهُبة والاحتشاد مهما يكن موضوعها، فانتزاع النصر من سياسي رجعي أو تقدمي كانتزاعه من مفكر تقدمي أو شاعر طليعي والهزيمة التي نلقاها في معركة انتخابية ليست أهون من هزيمة نلقاها في معركة فكرية، ومادام العقاد قد دخلها، فلابد أن ينتصر، هي ليست مجرد رأي، لكنها معركة رأس وجسد، بل هي تتحول في النهاية لتكون معركة جسد أولًا أو معركة جسد وحسب، لأنه يدخلها بعد أن يجرى حساباته مع نفسه، فإن اطمأن إلى صوابه هو امتشق الحسام لا باحثًا عن الحقيقة فقد حسم هذه المسألة من قبل، وإنما باحثًا عن الانتصار .

يقول العقاد إنني أكره الهزيمة في كل مجال، ولكن يشهد الله أنني أعاف النصر إذا رأيت أمامي ذل المنهزم وانكسار المستسلم، ولولا أن هزيمتي أبغض إلى من هزيمة خصمي لأبغضت النصر الذي يفضي لا محالة إلى انهزام واستسلام.

والعقاد هنا صادق كل الصدق، وهو بهذه الكلمات يشرح نفسه ويكشف استارها كما لم يفعل أحد من نقاده .

كانت أسوان مهد طفولته ميدانًا للجنود المصريين والسودانيين والإنجليز، وكان هو يرى نفسه مهيئًا لحياة الجندية، جديرًا بانتزاع النصر لبلاده، ولهذا كانت لعبته المفضلة مع زملائه في المدرسة تأليف الجيوش والقتال على سنة الفرسان القدماء، إذ يبدأون بالأنشاد الحماسي، ثم ينخرطون في المبارزة . ومن المؤكد أن العقاد الشاب والعقاد الشيخ كانا امتدادا لهذا العقاد الطفل أو تحقيقًا لأمنيته، سوى أن القلم أصبح في موضع الحسام .

ولقد كان العقاد يعامل أقلامه التي كسب بها معاركه الكبرى معاملة

الفارس لسيوفه وخيوله وبيارقه . يقول عن قلم من هذه الأقلام التى احتفظ بها (وقلم ثالث أخرجته لخصم من خصومى السياسيين، وأقسمت له لتسقطن الوزارة النسيمية قبل أن ينبرى هذا القلم.

أما هذا الخصم السياسى الذى يعنيه فهو مصطفى النحاس زعيم الوفد وكان توفيق نسيم حين وقعت هذه الواقعة رئيسًا للحكومة التى تلت حكومة صدقي، وتعهدت بإعادة العمل بالدستور المعطل وإجراء الانتخابات.

ومن أغرب ما قرأناه نحن فى هذه الخصوص، أن الملك فؤاد حينما وقع على الاختيار لتعيين توفيق نسيم رئيسًا لوزراء مصر تخلصًا من مصطفى النحاس باشا رافضًا إسناد هذا المنصب ل محمد محمود باشا بقالة أنه أي محمود باشا أراد أن يكون قائمقائم ملك؟، وكان توفيق نسيم رئيس ديوان الملك آنذاك رشحه لذلك المنصب . فقال له الملك فؤاد : يانسيم إسمع أولًا ما سأعرضه عليك: أنا عاوز إسماعيل صدقى وأنت عاوز محمد محمود فعلشان ما تشعرش إنى فرضت عليك حاجة ضد إرادتك

فقال توفيق نسيم : أستغفر الله يا مولاى أمر جلالتك

فقاطعه قائلًا : اسمع بس كلامى للآخر أنا عندى حل كويس وعادل : إيه رأيك لو عملنا قرعة بينى وبينك؟

فقال توفيق نسيم : يا مولاى استغفر الله أيه الكلام ده يامولاى أمر جلالتك فوق كل رأى يامولانا أنا برأت ضميرى وقلت اللى فى نفسى والأمر الأعلى لجلالتك

فقال فؤاد الحاوى : لأ أنا عاوزك تكون مستريح ومبسوط علشان تشتغل مع الرئيس الجديد بنفس حنعمل قرعة إيه رأيك؟

فابتسم توفيق نسيم وإزداد إنحناء ودعا لجلالته بطول العمر !؟

ولما لم يكن مع أحدهما قطعة نقود بعشرة قروش نادى الملك حاجبه الخاص وسأله عن أم عشرة فأخرجها من جيبه وناوله إياها .

وقال فؤاد لرئيس ديوانه : تختار إيه؟ فقال توفيق نسيم : بس إيه لزمة ده كله يا مولاي؟

فقال فؤاد : تختار إيه (الملك) ولا (النَّقْشة)؟

فابتسم نسيم وقال : الملك طبعًا يامولاى

فقال فؤاد : وأنا النقشة .

فقال نسيم : الملك يبقى نجيب محمد محمود والنقشة

نجيب توفيق نسيم

فقاطعه فؤاد قائلًا : إبعد محمد محمود عن الملك الملك يبقى نجيب إسماعيل صدقى والنقشة يبقى محمد محمود

فقال توفيق نسيم : وهو كذلك يامولاى وأطاح فؤاد بقطعة النقود فى الهواء ثم سقطت بعد لحظة على المكتب فصاح قائلًا: الملك يبقى إسماعيل صدقى أنا متأسف علشانك يانسيم ولكن الزهر عاوز كده ! يبقى إسماعيل صدقي؟!.

فقال نسيم بصوت البائس اليائس : أمر مولاي؟ !

وتم الاتصال بإسماعيل صدقى فألف الوزارة الجديدة .

(كريم ثابت أسرار السياسة المصرية الجزء الأول تراث الجمهورية)

ومما يذكر فى هذا الصدد أن النحاس باشا أرتأى أن يوقف الحملة التى كانت تسنها الصحف الوفدية المعارضة على الحكومة، حتى يعطيها فرصة للوفاء بالعهد الذى قطعته على نفسها . والتزم الكتاب الوفديون بما رآه النحاس إلا العقاد الذى قرر أن يتابع مقالاته ضد وزارة نسيم حتى تفى بما تعهدت به،

ولهذا إستدعاه النحاس وأمره أمام عدد من الزعماء الوفديين بالانصياع للقرار الذى اتخذه بوصفه رئيسًا للحزب، فما كان من العقاد إلا أن أجابه :أنت رئيس الحزب، لأن هؤلاء قد انتخبوك، أما أنا فكاتب الشرق بالحق الآلهي، ولسوف أواصل الكتابة ضد الحكومة، وأنا واثق من أنها سوف تسقط قبل أن تنتهى برية هذا القلم .

تلك هى قصة هذه المعركة بشيء من التفصيل، ولا أدرى مدى انطباق الرواية الشائعة على الحقيقة الواقعة، لكنها كما تروى صورة من مبارزات الفرسان القدماء . مهارة فى اللعب بالسيف تظاهرها مهارة اللعب بالكلمات . والعقاد الواثق من مواهبه العقلية والنفسية هو العقاد الواثق من كفاءته الجسدية.

يتحدث صديق للعقاد عن ثقافته وعن أخلاقه فيقول ولا ننسى أن نذكر حدة بصره حتى كان يقرأ الصحيفة فى ضوء القمر، وأن نذكر طول قامته حتى أمكنه أن يلبس البنطلون الطويل وهو مازال فى السنة الأولى الابتدائية والذين شاهدوا صوره فى العشرينيات والثلاثينيات، وقرأوا سيرته فى تلك السنوات يعرفون أن العقاد كان نجمًا أشد لمعانًا من نجوم الغناء والمسرح والسينما . كان مزيجًا من الشاعر المفكر العاشق المناضل . دون جوان رصين، أو دون كيشوت وسيم قادر . كيف لا يطلب النصر إذن فى أى معركة يخوضها، أو كيف يقبل الهزيمة ويرضى بالاستسلام؟

ونقرأ عن معركته مع شوقى فتتذكر معركته مع الملك ويذكرك حواره الحاد مع النحاس بحواره الحاد مع أليس ، الأسم الحقيقى لبطلة قصته الوحيدة سارة كما سوف يأتى ، وكل هذا يذكرك بصراعه ضد الشعراء المجددين فى الخمسينيات والستينيات.

ويردف الأستاذ عبد المعطى حجازي قائلًا :

طاردنا العقاد كثيرًا وحاصرناه طويلًا لكننا كنا شبابًا فى نحو الخامسة والعشرين وهو كان شيخًا فى نحو السبعين تطاولت عليه فنظمت فى هجائه قصيدة بنيتها على التقاليد الموروثة إمعانًا فى السخرية وظل هذا يؤلمنى وكانت الزيارة الأولى لمكتبة العقاد بسبب هذا كانت غريزة طلب الثأر قد هدأت، علنى أنال صفحه أننى احترم الجميع وأقدرهم حق قدرهم، لكن العقاد من بينهم هو الذى أحس فى نفسى استعدادًا أكبر لفهمه، فلو قدر لى أن أكتب سيرة أديب عربى فسوف يكون العقاد صاحب هذه السيرة .

لقد دخل معاركه الأدبية والسياسية الشهيرة وكسبها بسلاح الكاتب الناقد لا بسلاح الشاعر المبدع : معركته ضد شوقى وضد الرافعي، ومعركته ضد الملك، ومعركته ضد حكومات الاستبداد والأيدى الحديدية، ومعركته ضد النحاس، ونجح فى أن يهز العرش الذى تربع عليه شوقى .

ولو وصلنا فى النهاية إلى ديوان العقاد لتجلت لنا شاعريته تامة كاملة، يقول العقاد فى قصيدته العقاب والهرم :

يهمّ، ويغنيه النهوض، فيجثم ... ويغزم، إلا ريشه لا يعزم

لقد رنق الصرصور وهو على الثرى ... مكبٌّ،وقد صاح القطا وهو أبْكم

يلملم حذباء القدامى كأنها ... أضالع فى أرْماسها تتهشّم

ويثقله حمل الجناحين بعدما ... أقلّاه وهو الكاسر المتقحّم

جناحين لو طارا لنصّتْ فدوّمتْ ... شماريخ رضوى واستقل يلملم

ويلحظ أقطار السماء كأنه ... رجيمٌ على عهد السموات يندم

ويغمض أحيانا، فهل أبصر الرّدى ... مقضّا عليه أمْ بماضيه يحلم

إذا أدفأته الشمس أغفى وربّما	توهّمها صيدًا له وهو هيثم
لعينيك يا شيخ الطيور مهابة	يفرّ بغاث الطير عنها ويهزم
وما عجزت عنك الغداة وإنما	لكلّ شبابٍ هيبةٌ حين يهرم

يلخص عبد المعطى حجازي رأيه فى شعر العقاد متسائلًا :

لو أننا أردنا أن نصف العقاد بكلمة واحدة ننفذ بها إلى جوهر شخصيته، ونحيط بسيرته فماذا نقول : هناك شعراء لم يعترف بهم أحد فى زمانهم وثائرون لم يخطر فى بال أحد أنهم شعراء، وهم فى هذا العصر الذى نعيش فيه يعتبرون كذلك . الشاعر الفنسى لوتريامون لم يتلف إليه أحد فى حياته القصيرة، حتى جاء السورياليون بعد وفاته بنصف قرن فجعلوه شاعرًا مشهورًا . وجبران خليل جبران الذى لم ينظم إلا قليلًا من الشعر بالعربية يعد الآن شاعرًا كبيرًا وهو يعتبر شاعرًا بنثره أكثر مما يعتبر شاعرًا بنظمه .

ولا بأس بكل هذا، لأن المقاييس تتغير والذوق يختلف وروح الشعر لا تفتأ تبدل أثوابها وتغير أقنعتها وتتشكل فى ألف صورة وصورة .

وإذا كان شعرنا اليوم يختلف عن شعر العقاد، فهذا ليس دليلًا ينفى شاعريته لأن شعرنا يختلف أيضًا عن شعر أمرئ القيس والمتنبى وشوقى وكلهم شعراء بشهادة التاريخ الذى لم يشهد لنا بعد كما شهد لهم .

وباستطاعة الواحد منا ألا يحب شعر العقاد، لكنه لا يستطيع أن ينفى شاعريته إلا بدليل يستند إليه، ولا أظن أحدًا يملك هذا الدليل بينما نملك نحن ديوانه الضخم وهو الدليل الساطع على شاعريته نعم فالعقاد كما قلت شاعر قبل أية صفة أخرى، وهو كما قلت أيضًا ليس شاعرًا بل هو شاعر عبقرى .

لا جرم لنا إذا ما ثار لنا سؤال: ما هو الشعر؟

يقول ابن رشيق القيروانى : الشعر ضرب من التعبير ينبع من العاطفة الصادقة يصدر عن الشاعر حين يستثار .

ويعتمد على الحس المرهف والذوق أكثر من اعتماده على العقل والمنطق، وقد وقف الكثيرون فى تعريفهم للشعر عند شكله وصورته وتباعدوا عن حقيقته وجوهره وسلبوه سحر تأثيره، وخرجوا به عن نطاقه ودائرة الشعور فالجاحظ مثلًا يقول عنه (هو صناعة، وضرب من الصيغ، وجنس من التصوير) وابن قتيبة يقول أنه الكلام الموزون الحسن اللفظ اللطيف المعنى، ويروى بيتين للمرقش ثم يقول والمجب عندى من الأصمعى حين أدخله فى متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حسن اللفظ ولا لطيف المعنى فكان صفات الشعر الجيد عنده هى هذه الصفات الثلاث .

ثم رأينا الأمدي فى موازنته والقاضى الجرجانى فى وساطته يعدلان عن تعريف الشعر ويلجآن إلى موازنه الأشعار بعضها ببعض وبيان جيدها من رديئها، وصحيحها من سقيمها ابتغاء الوقوف على جوهر الشعر واستكناه حقيقته .

ثم آتي قدامة بن جعفر وكانت الثقافة الهلينية الوافدة قد طغت على الثقافة العربية، فتأثر بالمنطق الأرسطى فى تعريفه للشعر كل التأثر فنراه يستهل الفصل الأول من كتبه نقد الشعر بتعريف الشعر بقوله : أن أول ما يحتاج فى العبارة عن هذا الفن معرفة حد الشعر الحائز له عما ليس بشعر، وليس يوجد فى العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه أنه قول موزون مقفى يدل على معنى فقولنا : قول دال على أصل الكلام الذى هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا، موزون يفصله مما ليس بموزون إذ كان من القول موزون وغير

موزون، وقولنا مقفى فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافى له ولا مقاطع وهكذا يمضى فى تعريف الشعر مستمدًا من منطق أرسطو على ما ذكر عن الحدود والتعاريف وما تتكون منه من جنس فصول بل أنه ليصرح بأنه استمد فى تعريفه للشعر من الحدود والتعاريف اليونانية، وقاس حد الشعر على حد الإنسان ثم جاء ابن رشيق فنقل عن قدامه، وقد كان معجبًا بآرائه كما أسلفنا تعريفه للشعر حين عقد فى العمدة بابا بعنوان (حد الشعر وبِنْيته) استهله بتعريف الشعر وبيان مقوماته على نحو ما يعرض الفقهاء لأركان شعيرة من الشعائر الدينية فيقول (الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهى : اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية، كأشياء أتزنت من القرآن، ومن كلام النبى ﷺ مع أن الرسول كان يستعذب الشعر الجميل ويعجب على وجه الخصوص بشعر إمرئ القيس ويقول عن شعره : إنه سيد الأشعار ، وواضح أنه نقل هذا التعريف وتعريف قدامة الآنف الذكر .

وعند أرسطو الشعر هو فن المحاكاة، ويقول شيشرون : ليس من الصعب على أى إنسان أن يربط لأول وهلة بين الشعر والموسيقى وأن يحث بنفسه العلاقة المباشرة بينهم تمتد جذورًا فى مفهوم الشعر نفسه .

الوزن والقافية أخص خصائص الشعر العربى منذ قديم الزمان، والبيت هو الوحدة الموسيقية فى القصيدة العربية والوزن والقافية اشترطها العرب فى كل ما يطلق عليه اسم الشعر قبل أن يضع الخليل بن أحمد ضوابط الوزن والقافية فتهدوا بطرفتهم السليمة، وحسهم المرهف إلى ما عسى أن يعترى الشعر من اضطراب فى الوزن واختلال فى القافية فهذا هو مطلع إحدى قصائد عبيد بن الأبرص :

أقفـــر مــــن أهلــــه ملحـــوب ... فالقطبيـــــــــــات فالـــــــــذنوب

وقد عابوا هذه القصيدة باختلال الوزن وقالوا : إن وزنها ردىء النغمة مكروه وجعلها أبو العلاء مضرب المثل فى اختلال الوزن حيث يقول :

وقد يخطئ الرأى امرؤ وهو حازم ... كما اختل فى وزن القريض عبيد

وهذا هو النابغة الذبيانى يقول :

زعــم البــوارج أن رحلتنـــا غـــدا ... وبـذاك تنعــاب الغــراب الأســود

بمخــضب رخــص البنــان كأنــه ... عــتم يكــاد مــن اللطافــة يعقــد

فيقوى ويخالف بين قافيتى البيتين، إذ تأتى واحدة بالكسر فى آخرها، وتأتى الثانية بالضم فيه ويسمع العرب ذلك فيقع من آذانهم موقع النفرة، ومن ذوقهم موقع الإنكار ولكنهم يهابون أن يسألوا الشاعر عن ذلك فقد يكون مذهبًا جديدًا كمذاهب المحدثين وقد يكون إبداعًا لم يسبق إليه، غير أن نفوسهم لا تطمئن إلى هذا الخروج عن المألوف، فإذا هم يحتالون للأمر، ويدسون على الشاعر جارية تتغنى المخالفة بينهما بالضم والكسر: والنابغة يسمع لها فإذا هو يفطن لذلك، وإذا هو يدرك أنه قد خرج على عمود الشعر بما خالف بين القوافى بالحركات، وإذا هو يعدل فى شعره بحيث يحقق تمام التشابه فى القافية وإذا هو يجعل البيتين هكذا :

زعم البوارج أن رحلتنا غدا ... وبذاك حدثنا الغراب الأسود

بمخضب رخص كان بنانه ... عتم يكاد من اللطافة يعقد

وللأصمعى رأى غريب فى الشعر فإنه يعتقد أن الشعر (نكد) بابه الشر فهذا حسان بن ثابت كان فحلًا من فحول الجاهلية فى الشعر فلما جاء الإسلام

سقط شعره .

(الدكتور سعد دعبس دور الريادة فى الإبداع الشعرى ص ٩)

وفن الشعر عند أرسطو لم يكن له أثرًا فى الأدب العربى ونقده لأن العرب لم يفهموه .

فقد كان عرب الجاهلية ينظرون إلى الشاعر نظرتهم إلى المقاتل دوره فى الشعر هو الدفاع عن شرف القبيلة .

فقد ترجم العرب المأساة بالمديح والكوميديا بالهجاء (الدكتور حسين نصار دور الدين فى الإبداع الشعرى ص١٦٨)

وكان ابن رشد يرى أن المحاكاة فى الشعر تقوم على الوزن واللحان والكلام . أما ابن سينا فيذكر عن الشعر أنه قائم على المحاكاة كما يلتقى معه أيضًا فى أن ثمة علاقة بين الشعر والفنون الأخرى .

وكان فرويد Sigmund Freud أحد أقطاب علم النفس الثلاثة يقول: إن الشاعر (الفنان) مثله مثل العصابى ينعزل بعيدا عن الواقع الذى لا يشبع غرائزه وينزوى داخل عالمه الخيالى الإبداعي، ولكنه على خلاف العصابي،يتمكن من ايجاد طريق العودة إلى الواقع . فانطلاقا من الإبداعات الفنية بإمكان التحليل النفسى اعادة بناء تكوينها الداخلى وبناء التطلعات الغريزيه الفاعلة فيها اى بناء عناصرها الأساسية الخالدة.

أما ما ينادى به اليوم بعض الأدباء من التحلل من قيود الوزن والقافية والدعوة إلى ما أطلقوا عليه اسم (الشعر المرسل) فليس من الشعر فى شيء ما أسموه الشعر المرسل ولا يمكن أن يدخل فى مفهوم الشعر، إذ فقد أخص خصائص الشعر وأعظم سماته . ومن ثم نرى ابن رشيق ينوه بأهمية الوزن والقافية حيث يقول عن أهمية الوزن : الوزن أعظم أركان حد الشعر، وأولاها

به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة . ويشيد بقيمة القافية بقوله (القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية).

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس والشعر منذ القديم جاء موزونا مقفى وهو لا يزال فى جل الأمم موزونا مقفي، ترى موسيقاه فى أشعار البدائيين وأهل الحضارة، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء، فليحاول النقاد إذا ما شاء لهم التصوير وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات، وتشابيه ومجازات وليؤلفوا لنا من مثل هذا علما أو فنا غير أنا نطمع منهم أن يصنعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى، وألا يقرنوها بشيء قد يعثرون عليه فى بعض الأشعار، إذ يتعثرون فى البحث والتنقيب فليس الشعر الموسيقى إلا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر القلوب، ومن تمام الموسيقى القافية الواحدة ذات الجرس المنتظم .

وهكذا كان أستاذنا العقاد فى دعوته للحفاظ على عامود الشعر على الوزن والقافية وعلى الدعوى إلى تجديد معانى الشعر وعلى نبذ ما أسماه بالنثر المشعور أو الشعر المنثور حتى إنه عندما كان مقررًا للجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب كان إذا ما قرأ شعرًا حديثًا عرض عليه يؤشر على الورق الذى كتب عليه : يحال إلى لجنة النثر للاختصاص .

فقد نادى بن رشيق بالفصل بين الشعر والفلسفة، فالشعر عنده ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع .

ومادة (شعر) فى اللغة لها معنيان ؛ معنى حسى وهو الشعر نبتة الجسم مما ليس بصوف ولا وبر، ويجمع على أشعار وشعور وشعار . والمعنى الآخر يقصد به العلم ؛ فمعنى شعر به هو علم به وفطن له وعقله .

ويقول الراغب الأصفهاني وسمى الشاعر شاعرًا لفطنته ودقة معرفته . فالشعر فى الأصل : سمة للعلم الدقيق فى قولهم : ليت شعري، وصار فى التعارف اسمًا للموزون المقفى فى الكلام .

ويقول بن الأثير بأنه العلم بالحواس وهى مشاعر الإنسان كالعين والأذن.

أما الأزهري فقال عن الشاعر إنه يشعر بما لا يشعر غيره .

فقد أشار بروكلمان أن أصل تسمية الشعر هو أن الشاعر فى الجاهلية كان يلبس زيًا خاصًا شبيهًا بالكاهن، ومن هنا أيضًا تسميته بالشاعر .

ويرى جرونباوم فى قوله : أن الشعر القديم كانت مكانته أشبه بمكانة العراف فإذا قالوا شاعر فإنهم يعنون بذلك العراف .

ومن هنا جاء اتهام كفار قريش للرسول ﷺ بأنه كاهن أو شاعر أو ساحر.

واشتق بعض النقاد لا سيما الفلاسفة من الشعر مصدرًا هو الشعرية، ولقد شارك الشعراء أنفسهم بما صاغوه من أبيات حول مفهومهم لهذا الفن ومن ثم قال عنترة العبسى :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدمِ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

و معنى البيت هو : هل تركت الشعراء موضعًا مسترقعًا إلا وقد رقعوه وأصلحوه؟ أى لم يترك الشعراء شيئًا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه أى لم يترك الأول للآخر شيئًا، فقد سبقوه من الشعراء قوم لم يتركوا له مسترقعًا يرقعه ومستصلحًا يصلحه .

وكان الجاحظ فى القرن السادس الهجرى أول من جمع بين الوزن والقافية وجعلهما حدًا للشعر .

ويرى (اليوت) أن سبب إخفاق الشعراء فى القرن التاسع عشر من

الأوربيين إنما يعود إلى أنهم قيدوا أنفسهم بالشعر المرسل الذى صار غير قادر على التعبير عن لغة الحديث.

(الدكتور حسين نصار – فى الشعر العربى – ص٥٣).

.. وهكذا كان يرى (طباطبا) إذ أنه لم يجز هذا النوع من الشعر.

وعندما عرض الأستاذ صلاح عبد الصبور على الأستاذ العقاد نتفًا من شعره المنثور مؤملًا أن يحظى بقبوله ورضاه، لم يقبله العقاد وألقاه جانبًا مع أن الدكتور زكى نجيب محمود قال عنه فى كتابه مع الشعراء : إنه لو سئل أنصار (الشعر الحديث) فى مصر: من هو شاعركم الأول؟ لأجابوا فيما أرجح هو صلاح عبد الصبور؟ ولو سئل صلاح : ماديوانك؟ لأجاب : هو ديوان الناس فى بلادي ، وعنوان الديوان هو نفسه عنوان لإحدى قصائده، فلابد أن تكون هذه القصيدة أثيرة عند الشاعر، فإذا أراد ناقد أن يختار قصيدة واحدة من قصائد هذا الديوان، لما كان فى اختياره لهذه القصيدة خطأ ولا إجحاف.

أقبلت على هذه القصيدة إقبال قارئ مستسلم خاشع للقطعة الفنية الماثلة أمام بصره، يحترم فيها كل كلمة من كل سطر، فينظر إلى الكلمة الواحدة نظرة تحيط بها من شمائلها وأيمانها، وتغوص فيها إلى القلب والصميم وأراد ناسجها أن ينسج منها نسجًا محكم الروابط بين اللحمة والسدى

بيد أن الأستاذ العقاد قد نحى هذا الشعر جانبًا ولم يلق له بالًا ولم يقره أو يعترف به بل وأبدى سخريته كتابة منه .

وإذ عاتبه الأستاذ صلاح عبد الصبور فى ذلك فى مقال كتبه فى جريدة الأخبار المصرية فى نهاية الستينيات رد عليه العقاد بمقال وسمه بعنوان الشعر السايب تأبه السليقة الشعرية وكان ما بين ما كتب أن هذه السليقة الشعرية عبر به العامة والناس فى أمثالهم التى يفصل عنها الفلكلور الشعبى ومنها قول

العامة : (يا أبرة مصدية على الكوم مرمية) وكذلك قولهم (ياطالع الشجرة هاتلى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالمعلقة الصيني)؟! .

انبرى شاعر لمقال العقاد بقصيدة قال فيها:

من اى بحر عَصى الريح تطلبه

إن كنت تبكى عليه ، نحن نكتبه

يا من يحدث فى كل الأمر ولا

يكاد يحسن أمرًا أو يقربه

تعيش فى عصرنا ضيفا وتشتمنا

إنا بإيقاعه نشدو ونطربه

وانا نمنح الأيام ما طلبت

وفيك ضاع من التاريخ مطلبه

كما رد عليه الأستاذ صلاح عبد الصبور بمقال عنونه باسم مودوَن والله العظيم! نشر فى جريدة أخبار اليوم فى ١٧ يونيو ١٩٦١.

فما كان من الأستاذ العقاد إلا أن قال فى ندوته الأسبوعية لجلسائه وتلاميذه: هاتوا لى هذا الولد لكى أناقشه.

وعندما قرأ الأديب حسن توفيق ما قاله العقاد فى ندوته وكان آنذاك يتمنى أن يلتقى والعقاد قال لأصدقائه – وكان محبًا لصلاح عبد الصبور - : إذا كان أستاذى صلاح عبد الصبور ولدًا! فى نظر العقاد.. ماذا سنكون نحن؟

وقال العقاد : إنهم يتعللون بالغيرة الشعبية فيزعمون أن إلغاء الوزن والقافية يقرب الأدب من الشعب، ويقولون ويعيدون إن الشعر الموزون المقفى ترف (برجوازي) يتعالى على المدارك الشعبية ويصعب على السامع (الشعبي)

أن يتتبعه بالفهم أو بالحفظ والرواية .

فالغيرة الشعبية على هذه النغمة حجة باطلة لأن العدو المبين للشعب هو الذى يحرم عليه التعليم ثم يفرض عليه الجهل ضريبة دائمة لا ترتفع عن كاهله الآن ولا بعد حين .

والأمر هنا أكثر من أمر الدعوى الكاذبة والحجة الباطلة لأن الآداب العامية إذا صح إطلاقها على أدب الشعب تقوم كلها على الأوزان العروضية التى قامت عليها أشعار اللغة الفصحي، وينظمها الشعراء الشعبيون على قواعد البحور والقوافى التى نظمها شعراء الفصحى من امرئ القيس إلى المتنبى إلى البارودى وشوقي، ومن نشأ بعدهم إى هذه السنة الهجرية أو الميلادية، فالمسألة إذن عند دعاة التجديد المزعوم مسألة جهل بالشعب وافتراء عليه . وليست كلها مسألة الحجة الباطلة والرأى الهزيل .

وثمة معركة أدبية قد نشبت بين أصحاب المذهب الشعرى الذى يدعو إلى الوزن والقافية وبين من يدعوا إلى التحرر من هذا، وكان على رأس الأولى الشاعر الأستاذ عزيز أباظة ، والثانية الأستاذ سامى داود و الفيتوري .

حيث كان عزيز أباظة قد قسم الشعر إلى أربعة مدارس أولها مدرسة العقاد و عبد الرحمن شكري وهى عنده مدرسة لونتها التيارات الفكرية والفلسفية والكونية تخاطب العقل وتنبثق منه ثم لا تلمس النفس ولا تحفل بالوجدان، والثانية هى مدرسة مطران و ناجي و أبو شادي وهى عنده قد درجت على سنن من تعاون الفكر والعاطفة وتفاعل الوجدان والعقل، والمدرسة الثالثة التى ينتمى إليها عزيز أباظة هى المدرسة الشوقية التى تقوم على صفاء الخيال وجمال التعبير ونقاوة الأسلوب ودقة المعنى والحرص الكريم على تقاليد الشعر، أما المدرسة الرابعة فقد عبر عنها أباظة بقوله : ثم أنشقت الأرض عن

المدرسة الرابعة ارتجلت أرتجالًا وفجأت الناس كما يفجأك النتوء فى عرض طريق مزدحم، وأنت اخذ سمتك إلى غاية جادة، فإذا أصوات ملهوجة تملأ سمعك بما هو أشبه بهذيان المحموم، تلك هى مدرسة الشعر المنثور أو النثر المشعور، التى عدلت عن اللإبانة إلى الرطان، ولجأت إلى علامات الاستفهام والتعجب تملأ بها السطور، لتقوم مقام الأبيات الكاملة، والقوافى المتماثلة، وقذفت برسالتها تحمل هذه التعبيرات : الأنين المشنون، والحزن الراقص، والصمت المقمر، والشمس المعربدة، واللانهاية الخرساء، إلى آخر هذا الفتح المبين فى لغة الجمال اللألاء . .

فى ٢٨ إبريل ١٩٥٦ وإذ ووجه العقاد بهذه الثورة الشبابية من أجل الشعر الحديث وأن الجامعيين ينحازون إليه نشرت جريدة الجمهورية للعقاد حديثًا معنونًا كلام الجامعيين لا يهمني ، أما طه حسين وهو الذى كان قد تعرض فى بداية حياته الفكرية للمحاكمة أشعلها كتابه (فى الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ بسبب إندفاعه الشديد إلى استخدام المنهج العقلى فى البحث والدراسة ومس بمنهجه هذا بعض المساس بالدين والقرآن الكريم مما جعله يقف أمام رئيس نيابة مصر آنذاك المثقف المستنير الأستاذ محمد نور الذى أصدر قراره التاريخى فى ٣٠مارس عام ١٩٢٧ وجاء فى حيثياته حفظ الأوراق إداريًا: فإن للمؤلف أى د. طه حسين فضلًا لا ينكر فى سلوكه طريقًا جديدًا للبحث حذا فيه حذو العلماء من الغربيين ولكنه لشدة تأثير نفسه مما أخذ عنهم قد تورط فى بحثه حتى تخيل حقًا ما ليس بحق، وما لا يزال فى حاجة إلى إثبات أنه حق . لقد سلك المؤلف طريقًا مظلمًا فكان عليه أن يسير على مهل وأن يحتاط فى سيره حتى لا يضل، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة، وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين بل إن العبارات الماسة بالدين التى أوردها فى بعض المواضع من كتابه فى الشعر

الجاهلي إنها قد أوردها فى سبيل البحث العلمى مع اعتقاده أن البحث يقتضيها، وحيث أنه من ذلك يكـون القـصد الجنـائى غـير متوفر،فلـذلك تحفـظ الأوراق إداريًا) .

وهكذا نجا د. طه حسبن من محاكمـة كـان يمكـن أن تـؤدى بـه إلى الـسجن بتهمة التعدى على القرآن والدين الإسلامى .

نقـول : أن طـه حـسين قـد أنـضم إلى هـذه المعركـة فكتـب مقـالًا فى جريـدة الجمهورية فى يوم ٢٩ إبريل ١٩٥٦ تحت عنوان التجديد فى الشعر قال فيه: إن الأصل فى الفن حرية خالصة من جهـة . وقيـود ثقـال مـن جهـة أخـرى ويؤيـد بذلك حق الشعراء الشبان فى التحرر من قيود الوزن والقافية قائلًا: ليس عـلى شبابنا من الشعراء بأس، فيها أرى، من أن يتحرروا من قيـود الـوزن والقافيـة، إذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم، لا يطلب إلـيهم فى هـذه الحيـاة، إلا أن يكونـوا صادقين غير متكلفين وصادرين عن أنفسهم غير مقلدين لهذا الـشعر الأجنبـى أو ذاك، ومبدعين فيها ينشؤون، غير مسفين إلى سخف القـول ومـا لا عنـاء فيـه ويختتم د. طه حسين مقاله بقوله وما أحر شوقنًا إلى لون جديـد مـن هـذا الفـن الأدبى الرفيع، يرضى حاجتنا إلى تصوير جديد للجهال .

يقول صاحب كتاب الأدب الأفريقـي أن ثمـة أدبًا يـسمى أدب المبـدئين أو أدب التلمذة Apprentice Literature قصد به ذلـك الأدب الـذى يحتـذى فى أسلوبه النهاذج الأوربية ويتخذ فى مـضمونه أيدلوجيـة خاصـة دون مناقـشة أو تفكير .

ولم يكن استاذنا العقاد إلا شاعرًا عبقريًا مجددًا فى الشعر ولم يكن من هؤلاء الذى ينتمون إلى أدب التلمذة .

يقول فى قصيدة له عصماء :

الشعر من نفس الرحمن مقتبس	والشاعر الفذ بين الناس
الشعر عندى طائر	فوق السحاب له ارتفاع
والشعر عندى روضة	فيه لأشواقى متاع
والشعر عندى ثورة	بين الضلوع لها اندلاع
والشعر عندى مركب	من خافقى له شراع
والشعر فى كفى مثل الشمس	ليس له قناع
والشعر فى قلبى مثل الموج	جوهره اندفاع
والشعر مثل الناس	يقتله التشرد والضياع

يستلهم العقاد فى قصيدته تلك المثل الأعلى لكى يلهم الأدنى ذلك أن شعر الشعر مقتبس من نفس الرحمن فيعود الشاعر بدوره لينقل القبس لكل إنسان إنه الشاعر يوحى إليه من باريه لكى يردده من آفاء الله عليه بتذوقه بملء فيه، يقول العقاد :

يجنى المودة مما لاحياة له	إذا جفاه من الأحياء خوان
ويحسب النجم الحاظا تساهره	والودق يبكيه دمع منه هتان
إذا تجهم وجه الناس ضاحكه	ثغرالورود ومال السرو والبان
تفضى له ألسن الدنيا بما علمت	كأنما هو فى الدنيا سليمان
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها	إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة	خرساء ليس لها بالقول تبيان
مادام فى الكون ركن فى الحياة يرى	ففى صحائفه للشعر ديوان

يحكى الدكتور زكى نجيب محمود نتفًا من ذكرياته فيقول :

اجتمعنا مرة على غداء فى منزل صديقنا الشاعر اللغوى الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم سابقًا، ودار حديث طويل بينى وبين العقاد عن مفهوم الزمن فى أفعال اللغة العربية، وقد زعمت وضربت أمثلة كثيرة لأؤيد زعمى بأن اللغة العربية لم تهيأ بتصاريف أفعالها لأن تشير إلى اللحظة الحاضرة، فليس فيها ما يقوم بالمهمة التى يؤديها فى الإنجليزية فعل الحاضر الكامل Present perfect ولا المهمة التى يؤديها فى الإنجليزية فعل الحاضر المستمر Present Continuous : لكن العقاد الذى تصدى فى أعوامه الأخيرة للدفاع عن اللغة العربية، كأنه فصيلة بأسرها من الفرسان أشرعت رماحها لتذود عن حصن تتهدده هجمات الهاجمين، أخذ يرد على فى هدوء أول الأمر، وفى انفعال غاضب آخر الأمر، متحديًا أن أجيئه بتركيب زمنى واحد من الإنجليزية لا يعطينى ما يوازيه دقة فى الدلالة على الزمن من اللغة العربية، وسكت تهدئة لثورته الغاضبة، لكنى لم أقتنع، وكان من ثمرة هذا الموقف أن أعد محاضرة للمجمع اللغوي، بعنوان (الزمن فى اللغة العربية) وهى مثبتة فى كتابه (اللغة الشاعرة) .

سأل سائل الأستاذ العقاد لماذا خلا أدبه من الطابع الذاتي؟

أجاب العقاد : إن أدبى لو جاء خلوًا من النظرة الذاتية والتعبير الشخصى لكان مثل معادلات الرياضة لا تثير الخصومات، ولكننى ماكتبت شيئًا إلا وهب الخصوم يهاجمونني، ولا يكون ذلك إلا لأن أدبى ذاتى فردى شخصي، يتمثل العقاد فيه

عاش العقاد طوال عمره عبر سنى حياته فى كهف الأسى لا يبرحه إذا ماأحاطت به الأحزان أو خطوب الزمان، وتجمعت الهموم وتكاثفت الظلال على أفق حياته حتى فكر فى ذات يوم فى الإنتحار بيد إنه أرخى لحياته حبال الصبر، ولاذ بقوة إيمانه بالله وبالمزيد من الثقة فى الغد المأمول .

هذا ناهيك عن ثقافته الإنجليزية الرفيعة التى أجادها حتى قيل عنه إنه كان يقرأ كتابا باللغة الإنجليزية وكأنه يقرأ كتابا بالعربية . فاعتنق ما دونته الشعوب الناطقة بغير العربية ومنها السعادة التى جاءت تقول :

Smile Now ... Tomorrow will be wose؟

وكان منهجه فى ذلك وفيما تغياه أشبه بفلاسفة اليونان الأقدمين (أبيقور Epicurus والرواقيين Stoics من أمثال : إبكتيتوس Epictetus)، على حد تعبير نيكولاس وايت Nicholas White فى كتابه السعادة موجز تاريخى A Brief History of Happiness الذى ترجمه إلى العربية سعيد توفيق .

تحدى العقاد الدهر ونحى من أمامه كل الصعاب التى اعترضت طريقه مؤمنًا أن قدرة الله فاقت كل القدرات.

فابتسم العقاد دائمًا فى وجه الحياة فابتسم وجهها له .

أوليس هو القائل:

إيه يادهر هات ما عندك من مصائب   وأنظر عزمات الرجال كيف تكون

ما تعسفت فى بلائك إلا   هان بالصبر منك مالا يهون

وأغذ السير فى طريقه غير عابىء بمحن أو إحن، يشق طريقه إلى المجد وجلاميد الصخر تحيط به من كل جانب، ومع ذلك كان يعشق الحياة كأنه مسوق إلى حبها كان يحب الحياة كما يحب العاشق معشوقته لا يفرق فى حبه لها بين حالات رضاها أو سخطها، أقبالها أو إدبارها أو على حد تعبيره أحببت الحياة عشيقة والآن صارت زوجة ، ولذلك فقد كان حريصًا أشد الحرص على العناية بها حتى لا يؤذيها بلفحة هواء أو شهوة طعام أو شراب، أليست الحياة ذخرًا وحارس الذخر فى خطر؟ كما يقول فى إحدى قصائده فكان يدثر نفسه فى

الشتاء، لا يرفع تلفيعة الصوف عن عنقه، ولا يخلع الغطاء عن رأسه إلا نادرًا، فطاقية فى داره وطربوش خارج الدار، ويلبس الصدار حتى فى قيظ الصيف، ويكاد لا يأكل لقمة طعام أو يشرب جرعة شراب خارج منزله كان الأستاذ العقاد هنا وكأنه يردد قول الشاعر الكبير ابن زيدون :

هو الدهر الذى أحدث الدهر ... فمن شيم الأبرار، فى مثلها، الصبر

ستصبر صبر اليأس او صبر حسبة ... فلا ترض بالصبر، الذى معه وزر

حذارك من أن يعقب الرزء فتنة ... يضيق لها، عن مثل أخلاقك، العذر

يقول الدكتور زكى نجيب محمود كان آخر ما رأيته منه رحمه الله اجتماع للجنة المشرفة على سلسلة تراث الإنسانية، وكنا عضوين بها، فقد كانت آخر جلساتها فى أواخر يناير الماضى (١٩٦٤)، وعندئذ فقط علم منى أننى ذاهب إلى بيروت لأقضى بجامعتها العربية حينًا، وقبيل سفرى بساعات قلائل وكان ذلك فى أول فبراير ١٩٦٤ حدثنى بالتليفون ليطلب منى أن أبعث إليه من بيروت بكتاب الغزالي تهافت الفلاسفة وكتاب ابن رشد إن وجدته تهافت التهافت ، لأنه يبحث عنهما فى مكتبته فلا يجدهما، وهو مشتغل بإعداد كتاب عن الإمام الغزالي، ولعله هو الكتاب الذى كان بين يديه حين وافاه الأجل .

لئن كانت الدولة قد كرمت مفكرها وأديبها العقاد مرتين بمنحة الجائزة الكبرى للآداب والفنون، ثم لئن كرمناه نحن تلاميذه وأصدقاءه عند بلوغه سن السبعين بكتاب تذكارى شاركنا جميعًا فى إخراجه، فإننى لعلى يقين من أن تكريمه سيزيد بزيادة قرائه على مر السنين، لأنه قد دخل بأدبه وفكره سجل الخالدين .

كان العقاد كما الشاعر الشيلي ريكاردو اليسير نيفتالى رييس باسولاتو بابلو

نيرود المعروف ب بابلو نيرودا Pablo Neruda الذى يعد أفضل شعراء القرن العشرين فى العالم والحائز على الجوائز التقديرية أبرزها جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٧١ وحصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة أوكسفورد مفتونًا بالحياة وبمباهجها يقول فى قصيدته الرائعة يموت :

(ميت ذلك الذى يخضع لعاداته، مكررًا حياته كل يوم .

ذلك الذى لا يغيّر ملابسه ولا ينحرف عن طريق عمله ولا ينظر إلى المغيب بعينين جديدتين.

ميت ذلك الذى يؤثر اللونين الأسود والأبيض والجنوح إلى الوضوح على سرب غامض من الأحاسيس الجارفة.

تلك التى تجعل العينين لامعتين، وتحوّل التثاؤب إلى ابتسامة، وتعلّم القلب أن يرتجف حين تدهمه المشاعر.

ميتٌ ذلك الذى لا يقلب الطاولة ولا يجرؤ ولو لمرة واحدة فى حياته على الهروب من النصائح المنطقية.

ميّت ذلك الذى لا يسافر ولا يطالع ولا يصغى إلى الموسيقى.

ميت ذلك الذى يرفض المساعدة ويقضى سحابة يومه متذمرًا من حظه العاثر أو من استمرار المطر فى الهطول.

ميت من يتخلى عن مشروع قبل أن يقبل عليه.

ميت من يخشى أن يثير الأسئلة حول ما يجهل، ومن لا يجيب عندما يسأل عن أمر يعرفه.

ميت من يجتنب الشغف ولا يجازف باليقين فى سبيل الشك من أجل أن يطارد بعض أحلامه.)

كما أنسل نيرودا هارباً من موطنه خوفاً من بطش حكامه به أنسل أيضاً العقاد من مصر هاربًا إلى السودان بعد أن دقت جيوش المحور باب مصر وأمست على بعد كيلو مترات من ولوجها العلمين إلى مدينة القاهرة إثر تهديد هتلر له بعد أن ألف العقاد كتابه هتلر فى الميزان . وتنبأ فيه بفشل هتلر فى الحرب وسقوطه الذريع فيها . فبعد المعارك الطاحنة التى خاضها البريطانيون والألمان حول طبرق، قرر رومل أن يقوم بمغامرة جرئية غير مسبوقة . فقد أراد أن يتقدم فى الصحراء للوصول إلى الخطوط الخلفية للقوات البريطانية، لكى يدمر المناطق الإدارية، وليبث حالة من الرعب فى قلوب البريطانيين . وفى صباح الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤١م قفز رومل إلى سيارة القيادة وصاح فى كورونيل وستفال سائق عربته التى كانت تقلهما قائلًا: سأتوجه إلى سيدى عمر ؛ لأقود الفرقة ٢١ بانزر إلى ممر حلفاوية كما كان الألمان أنذاك قد نجحوا فى استخدام شفرات مثل الاستخدام المتكرر لكلمة Fuhrer ضمن أساليب الخداع الحربى . (راجع ريتشارد مانسفيلد (حيل وأساليب الهاكرز)

وبهذه المثابة ينجح فى عزل الجيش البريطانى بأسره ؛ ثم يقضى عليه على حد تعبير رومل نفسه، وقاد بنفسه فرقة البانزر خلال الأسلاك الشائكة فى منطقة قصر العبد على الحدود المصرية وما أرتاح حتى نفذ ذلك ولكن الرياح أتت بما لا تشتهى السفن . فشل الهجوم الألمانى المباغت، وفى طريق العودة تعطل سيارة رومل بينما كان الليل قد أرخى سدوله على الصحراء وصل رومل إلى الأسلاك الشائكة البريطانية فتعداها دون أن يجد له منفذًا فما كان منه إلا أن دلف إلى مستشفى تابعة للقوات البريطانية وهو يتخذ هيئة المنتصر وأدى له الأطباء البريطانيون التحية العسكرية . وفر من بين أيديهم دون أن يطرف له جفن بعد أن سار هو وقواته على بعد ١٦٠ كم غرب الإسكندرية فطالبت القيادة البريطانية العسكرية الحكومة المصرية بإغراق الدلتا ومديرية البحيرة ؛

حتى تتحول الأراضى المصرية إلى بحر من الطين اللزق ليعوق جيش روميل ومركباته، وكان تشرشل قد نادى جيشه طالبًا منه أن يقاتل كما لو أن إنجلترا هى التى تتعرض للغزو وكان هتلر قد توعد العقاد بشنقه بحبل أطول من قامته على تعبير هتلر . بيد أن الريح قد أتت بما لا تشتهى السفن.

وذكر روميل فى مذكراته: أنه قد عسكر مع فيالق جيشه وجنوده فى مرعى مليء بالأزهار.. ولكنه اضطر للانسحاب.. وتساءل: أين سنكون بعد ذلك؟

وكانت القوات البريطانية فى الجنوب تقوم باختراق جيشه وعزله، وأعلنت إذاعة القاهرة أن روميل قد أصبح فى زجاجة، ولم يعد على القائد البريطانى سوى أن يضع عليها غطاءها.

يمم العقاد شطر السودان الشقيق، ليس جبنًا ولا هلعًا وإنما كان قد توجس خيفة من أن يمثل الألمان بجثته بعد قتله .

كذلك يحكى لنا بابلو نيرودا قصة هروبه عبر جبال الأنديز وهو يمتطى صهوة جواده بعد تهديد جنود حاكم بلاده له مقتحمًا أمواج المياه التى تنحدر من قمم الجبال الشاهقة جبارة قوية هادرة حاثًا جواده على مواصلة السير على الرغم من ارتفاع المياه وفى مكان قاسى لم يطأه قبله إنسان . حيث أضطر هذا الشاعر الفذ إلى تدوين قصائده على جذوع الأشجار .

* * * * * * *

العبقرية لدى المفكرين والعلماء

كلمة العبقرية : يعود أصلها إلى اعتقاد العرب الأقدمين بوجود الجن الذى يوحى بالشعر إلى صاحبه. حيث جعلوا لكل شاعر كبير جنيا يوحى إليه بالشعر. وكانوا يظنون أن هؤلاء الجن يسكنون فى وادى عبقر.

وقد عرفها فرانسيس جالتون Francis Galton العالم الانجليزى وأول رواد علم النفس التجريبى فى انجلترا. والذى اهتم بالوراثة وقوانينها وباثر الفروق الفرديه بين الناس. ويعتبر جالتون قائد حركة القياس النفسى وكان له سبق اختراع معامل الارتباط وطريقة التلازم وطريقة الاستفتاءات، وعمل مقياس لقياس العبقرية، وابتكر اختبار لقياس تداعى المعانى بأنها هبة الله للإنسان ،عرفها بأنها القدرة الممنوحة من رب العباد لمن شاء من العباد! .

وعرفها رينزيولى Renzulli: أنها السلوك الذى يتسم بالموهبة وهو نتيجة لتوفر ثلاث خصائص لدى الفرد. هذه الخصائص هي: قدرات فوق المتوسط فى مجال محدد (Above average Ability)، مستوى عال من الإبداع (Creativity)، ومستوى عال من الإصرار والالتزام لأداء عمل محدد (Task Commitment/Motivation). من الأفراد الذين يظهرون سلوكا يتسم بالموهبة عادة ما تكون لديهم القدرة على الجمع بين هذه الخصائص الثلاث وتفعيلها للخروج بنتيجة مبهرة فى أحد المجالات النافعة للبشرية.

أما روبيرت جانيه (Robert Mills Gagné) : فقد ربط التفوق العقلى والقدرات العقلية بالعبقرية .

وبمراجعتنا لسير العباقرة فى التاريخ نجد أن بعضهم كان متخلفًا من الناحية الدراسية ولم يفلح الكثير منهم فى دارسته المنهجية مثل المخترع الأمريكى توماس إديسون Thomas Alva Edison طرد من مدرسته بقالة إنه غير قابل للتعليم (فينسنت و فان جوخ و توركوات تاسو، Nikolai Kurbatov و جوناثان و سويفتو جون فوربس و ناش وأرنست همينجوي وغيرهم.

جاء فى لسان العرب أن عبقر موضع بالبادية كثير الجن، ويقال فى المثل: كأنهم عبقر، وقال ابن الأثير :عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئا فائق الجمال مما يصعب عمله ويدق، أو شيئا عظيما فى نفسه نسبوه إليها: والعبقرية هى صفة لكل ما بولغ فى وصفه، . وعبقرى القوم سيدهم، وقيل: العبقرى الذى ليس فوقه شيء، والعبقري: الشديد، والعبقري: السيد من الرجال، أيضا الفاخر من الحيوان والجوهر. والمرأة العبقرية هى المرأة، الجميلة، ويقال: العبقرية عبقرة، أى ناصعة اللون.

وفى التراث الغربى هناك ما يشير إلى أن أصل مصطلح العبقرية يعود إلى كلمة من الأصل اللاتينى Genius وهى تشير إلى الروح أو القوة الإلهية التى تحفظ الإنسان من المهد إلى اللحد . كما قد تشير إلى الروح الذكرى المهيمنة على بيت معين لأسرة معينة، وتوجد بشكل خاص فى «رأس العائلة » أو الأب، كما أنها توجد أيضا فى الجانب المقدس أو الروحى من كل فرد. والكلمة الإنجليزية « Genial بشوش » أو لطيف »أو أنيس « لها نفس الجذر، ويعتقد أن الروح يتم استرضاؤها واستمالة عطرها من خلال الاحتفالات والأفراح، حيث كان يتم الربط بين العبقرية وبين «الجن » و«الجنون » .

وفى التراث السيكولوجى الحديث هناك تعريفات عديدة خاصة بالمصطلح،

لكنها تتفق فيما بينها فى أنها تشير إلى القوى والطاقات والإنجازات العقلية الفائقة وغير العادية. والعبقرية فى ضوء هذه التعريفات هى محصلة لتفاعل خاص بين القدرات التى تنتمى إلى المستويات العليا

من القدرات الخاصة بالذكاء وأيضا المستويات العليا من القدرات الخاصة بالإبداع والخيال.

ويعتقد دين كيث سايمنتن ، أن مصطلح العبقرية هو مصطلح ينضوى تحت لوائه مصطلحان آخران هما: الإبداع والقيادة، ويطلق على هذين المستويين اسما عاما شاملا هو »العبقرية .

ولقد تسائلت مجلة نيوزويك الأمريكية عن سر العبقرية (ريدرز دايجست مايو ١٩٤٦) فقالت أن السبب فى هذا يرجع إلى اختلاف حظوظ الناس من الذكاء اختلافًا بينًا؟

كما أجابت الصحيفة المذكورة أن العبقرية الحقيقية وليدة شيئين متلازمين : وراثة صالحة مواتية، وبيئة صالحة مواتية وبخاصة فى فجر الحياة.

فقد درس جون ستيوارت مل ، اللغة اليونانية وهو فى الثالثة من عمره، ودرس أفلاطون اللاتينية والهندسة والجبر وهو فى الثامنة، ودبج كتابًا جيدًا فى تاريخ روما وهو فى التاسعة أو يزيد قليلًا . وكتب جوته كتاب آلام فرتر الخالد وهو فى الخامسة والعشرين .وألف ملتون أجمل شعره الغنائى فى اللغة الإنجليزية وهو فى الحادية والعشرين . ورسم رافائيل صورة العذراء وهو فى الحادية والعشرين، وبلغ بيل رياسة الوزارة فى أيرلندا وهو فى الرابعة والعشرين .

ومن الثابت علميًا أن الجنين يخلق قلبه قبل دماغه ويبدأ القلب بالنبض منذ تشكله حتى موت الإنسان، ومع أن العلماء يعتقدون أن الدماغ هو الذى ينظم

نبضات القلب، إلا أنهم لاحظوا شيئًا غريبًا وذلك أثناء عمليات زرع القلب، عندما يضعون القلب الجديد فى صدر المريض يبدأ بالنبض على الفور دون أن ينتظر الدماغ حتى يعطيه الأمر بالنبض.

وهذا يشير إلى استقلال عمل القلب عن الدماغ، بل إن بعض الباحثين اليوم يعتقد أن القلب هو الذى يوجه الدماغ فى عمله، بل إن كل خلية من خلايا القلب لها ذاكرة ! ويقول الدكتور Schwartz إن تاريخنا مكتوب فى كل خلية من خلايا جسدنا . (الدكتور صبرى السيد أكذوبة الذكاء والحقيقة الغائبة)

فهل كان قلب العقاد العبقرى هو الذى كان يوجه دماغه فى تواليفه الرائعة؟.

وهل كتب تاريخه على كل خلية من خلايا جسده؟ .

ولقد تميز العقاد منذ صغره بملامح العبقرية ناهيك عن الرجولة الكاملة والشجاعة الفائقة كما وصفه توفيق الحكيم .

كتب توماس كارليل فى مقاله عن الأبطال وعبادتهم والبطولة فى التاريخ ١٨٤١م «إن تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء » .

ولا مراء أن العقاد كان رائدًا عظيمًا من رواد الإنسانية.

كذلك تظهر فكرة التاريخ باعتباره سيرة شخصية فى أعمال المعاصرين المشهورين من العباقرة .

ففى سفر قصة الحضارة The Story of Civilization الذى كتبه وول ديورانت Will Durant هناك أربعة مجلدات متتالية بعنوان "عصر لويس الرابع عشر " و "عصر فولتير " و "روسو والثورة " و"عصر نابليون! والتاريخ وفقا لهذه العقيدة التى لم يتخل عنها الناس منذ وقت طويل صاغته

شخصيات بعض الأفراد الأفذاذ وإنجازاتهم. وهذه الشخصيات التاريخية البارزة تصوغ التاريخ بإحدى طريقتين رئيسيتين : وكان هناك من هؤلاء المبدعين الذين قدموا إسهامات خالدة للثقافة الإنسانية سواء أكانوا علماء أم فلاسفة أو كتابا أو مؤلفين أو موسيقيين أو فنانين فالمبدعون الذين هم من مصاف آينشتاين ، و سارتر ، و جويس ، وسترافنسكى قد تركوا تأثيرا دائما على أفكار عدد لا حصر له من الرجال والنساء وأحاسيسهم. أما من الناحية الأخرى فإن هناك القادة الذين يغيرون العالم بأعمالهم الكبيرة وليس من خلال أفكارهم أو تعبيرهم عن عواطفهم. فالقادة الذين هم من وزن هتلر وستالين وفرانكلين ود. روزفلت وماوتسى تونج، قد تركوا علامة دائمة على المسار الذى أخذه التاريخ. وهؤلاء المبدعون والقادة هم من تصبح سيرهم بمثابة كتب للتاريخ مثل بيتهوفن الذى الذى أظهر نبوغه فى سن الرابعة، حيث كان بإمكانه أن يجرى عملية حسابية لعدد من الأرقام والكسور مما ويصل للنتيجة فى ثوان ، وغيره عشرات . وكذلك فى الفيزياء والموسيقى، حيث تمكن العبقرى الموسيقى بيتهوفن! أن يؤلف أول عمل موسيقى له وهو فى الرابعة من عمره . ولهذا فقد بلغ قمة مجده قبل أن يبلغ الثلاثين .

والذى -لا مشاحة فيه - أن العقاد العبقرى قد بلغ قمة مجده كذلك قبل بلوغه الثلاثين وقرض الشعر ونبغ فيه فى سن باكرة من حياته وكتب فى الأدب والفكر وتعمق فيما كتبه بنظرة فلسفية عميقة لا تغيب عن كل ذى عينين .

هذا ناهيك عن آداب الفروسية Chevalerie المتأصلة فيه والتى تؤكدها معاركه الأدبية والسياسية أنه جعل من قلمه حسامًا شرعه فى وجه كل من يفتئت على حق مصر أو ينال من كرامتها مهما بلغت سطوته أو جبروته وبهذه العبقرية وتلك الفروسية كانت قامة العقاد قد ارتفعت إلى عنان السماء بجهده وعرقه وذكائه الوقاد.

وفى هذا يقول المتنبى :

لا بقومى شَرُفت، بل شرفوا بي وبنفسى فخرت لا بجدودى

وهكذا كان العقاد .

(كانت الفروسية) هى مفتاح شخصية العقاد وكانت أخلاق الفارس هى أخلاقه وصفاته، ومن ثم كرس حياته لمحاربة الطغاة ومنازلة البغاة لا يألو فى ذلك جهدا ولا تطيب نفسه إلا إذا أحرز على شانئيه النصر المبين بغزارة فكره ونبوغه الشعرى وطفرته الهائلة الغير مسبوقة فى نتاجه الشعرى والنثرى وفى ثقافته الموسوعية .

كما ربط البعض لانج إيكياوم بين المرض والعبقرية فيقول :

إن الارتباط بين المرض والعبقرية ليس ضرورة حتمية، ولكنه يعود فيقرر أن العبقرية تعتمد فى إزدهارها على عنصر المرض من نواح ثلاث أولها أن حالة المرض من شأنها أن تزيد من حدة انفعالات الشخص، لأنها تقلل من مقاومته، ومن قدرته على ضبط نفسه، وتجعله مرهف الحساسية لأبسط المثيرات، وثانيها أن المرض يجعل صاحبه يشعر بالتعاسة والقصور، وهذا مما يزوده برصيد من الدوافع لا يتوافر لغيره من الأصحاء . وثالثها أن بعض أنواع الاضطراب يصحبها نشاط فى قدرة الشخص على التخيل والانغماس فى هذا النشاط بدرجة لا تتوفر للأصحاء . وهذا مما يزيد من قدرته على الخلق والابتكار .

ولقد ألم بالعقاد مرض عضال منذ حداثة سنه وسواد رأسه ظل يعانى منه حتى بلغ المشيب ودفعه هذا إلى التألق والسموق مدفوعًا بغريزة متأصلة فيه بمجابهته لمعارك خصومه مهما كانت شدتها وقسوتها . فهل كان مرضه سببًا من أسباب عبقريته؟ ! .

وقد عزا أدلر! (١٨٧٠ ١٩٣٧) العبقرية إلى الشعور بالدونية وما يولده هذا من صراع لا سبيل إلى القضاء عليه إلا بالتعويض فى نفس الطريق الذى أتى منه القصور كما فعل ديموستينس! وبتهوفن! أو فى طريق آخر كما فعل بايرون! .

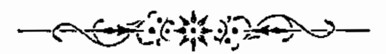
(راجع يوسف ميخائيل أسعد العبقرية والجنون مكتبة غريب)

وإن كان الأستاذ العقاد قد تخلف عن مواكبة الدراسة فقد انكب على النهل من مناهل المعرفة فى شتى نواحيها ومناحيها حتى بلغ بها ذرا المجد الأدبي.

العقاد إذن كان عبقريًا بالنشئة و عبقريًا بالوراثة وعبقريًا بالمرض الذى ألم به منذ نعومة ظفر وجعله يتحدى الصعاب، ويرقى إلى مدارج الكمال وينهض على تثقيف نفسه بنفسه وينهل من مناهل العلم والمعرفة ويغترف منها المزيد والمزيد . ناهيك عن الموهبة الفذة التى وهبه الله إياها . وقد درس Garner سبعة من كبار المبدعين المتنوعى المشارب والقدرات فى العصر الحديث، هم ألبرت إينشتاين ، وبابلبو بيكاسو وإيجور سترافينسكى وت. س. اليوت ومارثا جراهام وسيجموند فرويد وموهانداس غاندي.. ووجدو دورًا ديناميًا بارزًا لأسرهم فيهم (الدكتور محمد فتحى – الابداع والنبوغ ص٣٦).

* * * * * * *

لمحات العبقرية لدى العقاد



كان الأستاذ العقاد يمضى فى حياته وكأنه يعتنق الشعر الفارسى القائل :

وأجعل شعورك، فى الطبيعة قائدًا فهو الخبير بتيهها المسحور

وافتح فؤادك للوجود وخله لليم للأمواج للديجور

للثلج تنثره الزوابع، للأسى للهول للآلام، للمقدور

واتركه يقتحم العواصف، هائمًا فى أفقها المتلبد المقرور

حتى تعانقه الحياة، ويرتوي من ثغرها المتأجج المسجور

لقد كان العقاد جزءًا من والديه بالسجايا والصفات التى ورثها عنهما واستمدها منهما.

يقول العلماء أمثال فونتينل و أوجيست كونت، وسبنسر وغيرهم إن (الصفات الوراثية) هى كل شيء فى الإنسان، وإن الوراثة هى التى تقدر مصير الشخص ومستقبله من عدة نواحي سواء كانت الجسمية والعقلية أو الخلقية، وهى التى تشكل طباعه وميوله وغرائزه وانفعالاته العاطفية وغير العاطفة، وسائر قواه العقلية وغرائزه ونزعاته الفردية والاجتماعية، فى الصورة التى لابد أن تتفق مع قوانينها فيتم لها ما أرادت أن يكون .

فالإنسان كحيوان ابن الوراثة والبيئة فالوراثة تزوده ببعض الخصال والطبائع والشيم وتعده لجوانب معينة فى الحياة وتقوده إلى ميادين خاصة من النشاط والسلوك كما أن التربية والبيئة تنميان فيه الملكات الموروثة وتساعدانه كذلك على اكتساب خلائق جديدة .

فالوراثة تتحكم فى الخلق والخلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها بما لا مناص منه ولا فرار . ولقد سعى العلم الحديث إلى فهم عملية الوراثة التى بدأت مع أبحاث غريغور مندل Gregor Johann Mendel الراهب النمساوى وعالم النبات الذى اكتشف القوانين الأساسية للوراثة مستخدمًا نبات البازلاء لمعرفة من أين تأتى الصفات فى منتصف القرن التاسع عشر مع أنه لم يكن يعرف الأساس المادى للوراثة ولا الوحدات المنفصلة التى تسمى الجينات DNA، ولم يكن علم الوراثة قد عرف بعد وراثة السلوك Behavion genetics .

والوراثة الجسمانية هى التى تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات فى القبح والجمال .

ووراثة الغرائز لا تقل شأنًا عن الوراثة الجسمانية فهى تفعل فعلها ولا تحيد عن قانونها .

كذلك وراثة القوى العقلية فإنها تسير على غرار واحد هى ووراثة الصفات الجسمانية والغرائز فالذكاء والبَلَه والغطرسة والدَعة والعبقرية والغباء والفضائل والرذائل تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف فى الأسرة الواحدة حتى لتطبع كل أسرة بطابع خاص من تلك القوى والصفات.

ولنا فى التاريخ القديم والحديث أمثلة حية لهذا النظام العجيب (فالخطابة) مثلًا كانت الطابع الذى عرفت به أسر هرتنسيوس Hortensius (114 50) قبل ميلاد السيد المسيح وهو خطيب رومانى شهير كان خصم ل شيشرون ثم أضحى صديقه .

و كذلك كان الأمر مع كوريون Curions ذكورًا وإناثًا .

والشعر كان الصفة الغالبة على أسرة زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى كما كانت الجرائم من خصائص آل برجيا Borgia وهى أسرة إيطاليا من أصل أسبانى وكان أشدها أفرادها قسوة قيصر برجيا César Borgia وكان سياسيًا ماهرًا ولكنه كان مُرائيًا غليظ الكبد وقد اتخذه ميكافلي مثلًا فى كتابه الأمير .

والطغيان من شيم آل فسكنتى Visconti وهى أسرة إيطالية شهيرة اغتصبت عرش ميلانو وحكمت من سنة ١٢٧٧-١٤٤٧ .

وحب السلطان من أخلاق آل مدسيس Médecis وهم أمراء فلورنسا بإيطاليا وعرف منهم لوران الأول برعايته للآداب والفنون

والعناد والخيلاء من خلال آل ستورت Sturat وهى أسرة اسكتلندية كبيرة كان منها كثير من ملوك إسكتلندة وإنجلترا .

والكِبْر وحب الكفاح والشجاعة من طبائع آل جيز Guis وهى أسرة فرنسية مشهورة عميدها كلود دى لورين Claude de Lorraine نصر فرنسوا الأول على شرلكان .

والشعر والعلم والأب فى القرن التاسع عشر من مميزات كثير من الأسر الشرقية العربية نعد منها آل اليازجى وآل البستانى وآل الحداد .

هذا عن عمل الوراثة .

وربما تنكبت الوراثة فى تسلسلها الخط الموصول فاستكنت جيلًا أو أكثر بل ربما توارت قرونًا عدة قبل أن تنقل سمات العبقرية من فرد إلى فرد فى الأسرة الواحدة .

وإن كان هناك فريق آخر أمثال جان جاك روسو و جون لوك و آدم سميث يرون أن الفرد مدين بأهم صفاته للتربية المكتسبة .

ولحجة الإسلام الفيلسوف أبى حامد الغزالي قول مشهور يقول فيه: (إن الطفل جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش و صورة وهو قابل لكل ما ينقش عليه).

ونحن نرى مع أهمية الوراثة وتأثرها على الأبناء كما قرر جل العلماء إلا أن الصفات المكتسبة تلعب دورها أيضًا فى حياة الإنسان .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه ».

إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكثر فى دعائه متوجهًا إلى الله سبحانه وتعالى قائلًا : « اللهم حسن خَلقْى وحسن خُلقى »

أى أن الإنسان بمكنته وبصلته بالله سبحانه وتعالى أن يسلك مع أهمية الوراثة الطريق السليم المستقيم حتى لو كان والداه على غير ذلك .

فعمل البيئة مثل الذى يجلو فِرند السيف أو عمل الجوهرى الذى يصقل الدر ويثقبه أو عمل الصانع الذى يصنع من خسيس المعادن أشكالًا من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة فى صقل المواهب أو فى التخلق بأخلاق معينة أمر مسلم به حتى لقد تسرب هذا القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين : قل لى من تعاشر أقل لك من أنت وحتى ذهب الفيلسوف الفرنسي تين إلى القول إن قيمة الإنسان من قيمة البيئة التى يعيش فيها بل ذهب إلى إرجاع كل عمل أدبى أو فنى إلى عناصر ثلاثة هى العرق والبيئة والزمن .

ولعل تأثير البيئة على الفرد ما رواه محى الدين بن عربي قال:

حكى لنا بعض الأدباء على أن الجهم وكان بدويًا جافيًا لما قَدُم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التى يقول فيها يخاطب الخليفة :

أنت كالكلب فى حفاظك للود   وكالتيس فى قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمناك دلوًا   من كبار الدلا كثير الذنوب

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه متأثرًا من بيئته التى نشأ فيها وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به لعدم المخالطة وملازمة البادية فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح

(راجع الأستاذ عادل الغضبان الشيخ نجيب الحداد)

وهكذا كان الشأن مع العقاد اجتمعت فيه المزايا الجمة . منها (الوراثي) ومنها (الفطري) ومنها (المكتسب)، فقد ورث عن أبويه الجد والوقار ومحاسبة النفس والنزعة الدينية التى استكنت فى ضميرهما، إذ كانا شديدى الإيمان، كما ورث عنهما محبة النظام، إذ كانا يحرصان على الدقة فى مواعيد الصلاة ومواعيد وجبات الطعام، وسرى ذلك العرق إليه فى حياته الفكرية والمعيشية، فهو يستيقظ فى الخامسة صباحًا، ويفطر فى السابعة ويتصفح المجلات والصحف، حتى إذا كانت الساعة الثامنة انغمس فى كتابة بعض مؤلفاته لنحو ساعتين، يخلد بعدهما إلى الراحة قليلًا ومن بقية إرثه لأبويه أنه ظل يعيش فى نفس الإطار الذى كانا يعيشان فيه، وأقصد الإطار المتواضع فى الحياة الذى لا يعرف الترف ولا المتاع الناعم ولا الثراء العريض ولا تملك الضياع والعقار، ومن ثم يكون ميراثه الذى ورثه عن أبويه هو الذى وضعه فى هذا الإطار .

* * * * * * *

ملامح عبقرية العقاد الفكرية

كان العقاد كما يذكر الدكتور شوقى ضيف يُدمج فى عداد المزاج العصبى الحاد، فأصغر شيء يهيجه، ولعل ذلك هو الذى جعله يكثر من خصوماته السياسية والأدبية، وكان لا يدخل فيها غالبًا إلا إذا استفزه أحد خصومه، غير أنه كان إذا دخل فى خصومة لا ينكص على عقبيه أبدًا، بل يظل مناضلًا صائلًا جائلًا يدعو هل من مبارز .

وكانت حياته كلها حلقات نضال غير منقطع، وتوالت الحلقات، فمن نضال فى ساحة الأدب والشعر إلى نضل فى ساحات السياسة، وهو نضال طبعه بطوابع الفروسية، بل لقد تحلى بأنبل معانيها من الشجاعة فى القول والجرأة والصراحة وهى معان استحالت فى يده إلى أسلحة يضرب بها خصومه ذات اليمين وذات الشمال، وأيضًا فإنها استحالت فى يده من ناحية ثانية إلى أدوات بناءة يبنى بها صرح مجده الأدبى فى الشعر وفنون النثر .

وهذا النضال المتصل دعَّمه اعتداده بكرامته إلى أقصى حد، وهو اعتداد شابه غير قليل من الصلف والشعور بالاستعلاء، وكان ذلك ضروريًا فى عصره الذى نشأ فيه والذى كان لا يرعى للأدباء كرامتهم، فإذا العقاد الذى كاد أن يموت جوعًا فى بعض الأحايين والذى كادت تصرعه العلة إذا به ينهض من كبوته بماركب فيه من صلابة ويقف رافع الرأس حمى الأنف عزيز النفس ليناقش رئيس وزراء مصر النحاس وأعوانه ناهيك عن القصر الملكى وحاشيته على قدم المساواة، بل إنه يحاسبهم حسابًا عسيرًا، شاعرًا فى أعماقه بأن

مواهبه الأدبية ترفعه فوقهم درجات، بل لا بأس أحيانًا من أن ينزل على ظهورهم بسياطه . فلم يعرف فى حياته الزلفى أو الرياء .

حيث إنه لم يكن يجهل نفسه ولا أن يبخس مواهبه أو يحط من قدراته

ولقد صدق أبو الطيب المتنبى عندما قال :

ومن جهلت نفسه قدرها   رأى غيره فيه ما لايرى

وإن كان الدكتور طه حسين فى مقدمته لكتاب تقاليد الفروسية عند العرب قد أتى ببيت مغاير لبيت المتنبى إذ قال :

ومن عرفت نفسه قدرها رأى غيره فيه مالا يرى

ولقد عرف العقاد نفسه وأنزلها المكانة اللائقة به وبعقله وبتفكيره. إذ شحذه الفكر الألاق بأنه يتفوق على الآخرين ثقافة وفكرًا وفلسفةً ونبوغًا، ومن ثم رأى غيره فيه، وعلى غير الحق بما لا يرى هو لنفسه

كان أهم ما يميز العقاد ملكاته الذهنية الخصبة، إذ كان متقد الذكاء مشتعل القريحة حاد البصيرة، وقد صبغت هذه الملكات آثاره فى الشعر والنثر بأصباغ عقلية قوية، تتراءى تارة فى غوصه على المعانى حتى الأعماق ونفوذه من القشور السطحية إلى صميم اللباب، وتارة ثانية فى توليداته وتفريعاته على المعانى التى لا يزال يلح عليها بخواطره الغنية حتى تتحول النبتة المعنوية إلى شجرة باسقة وارفة الظلال، وتارة ثالثة فى أدلته المنطقية الصارمة التى يسند بها آراءه ويدعم أفكاره، وتارة رابعة فى تأملاته ودقة نقده للأدب والحياة

وليس معنى ذلك أنه كان خابى الوجدان، فقد كان إنسانى النزعة كما أسلفنا وكان قلبه ينبض بالشعور والحنان للإنسان والطير والحيوان كما عبر عنه الدكتور شوقى ضيف فى كتابه مع العقاد .

وكانت القراءة بجناحيها الفكر العربي، والفكر الغربى ميدان نضاله الأكبر، وكأنما أراد فى حزم أن يستدرك ما فاته من إتمام تعليمه وإحراز درجة جامعية، فإذا هو يحطم فى قوة قيود البرامج الدراسية والتخصصات العلمية إذ مضى يهجم على جميع فروع المعرفة هجوم الوحش على فريسته يلتهمها التهامًا، فاغترف من صنوف العلم والمعرفة فى الشعر والفن والدين والفلسفة والتاريخ بل فى العلم المجرد نفسه بجميع مذاهبها والتاريخ والسير والعلوم التجريبية والطبيعية والرياضية والإنسانية متمثلًا من كل ذلك زادًا وافرًا جعله فى طليعة المتخصصين فى سائر مجالى المعرفة حتى غدا كأنه موسوعة ضخمة، فإذا هو ينشر صفحاتها متلاحقة فى جميع كتاباته، وإذا إنتاجه يغزر غزارة غير مسبوقة . وكانت الإنجليزية أقوى وسائله إلى النهوض بفكره، فقد كان يتقنها ويفقه أسرارها وخصائصها فقهًا دقيقًا، وهو فقه جعله يتمثل تمثلًا رائعًا آدابها وفلسفتها مباشرة، كما يتمثل بواسطتها الآداب والفلسفات الألمانية والفرنسية والإسبانية وما شاء من آداب وفلسفات غربية مختلفة . ولم يكن يقبل على هذا التمثل معصوب العقل والبصيرة، فقد كان يحلل ما يقرؤه ويعكف عليه ناقدًا مسلطًا فى تضاعيفه أشعة مختلفة من ملكاته الذهنية، فإذا هو يصبح كأنه عملت له، عليها سمات فكره الدقيق وطوابعه .

وقد أتاح له ذلك أن يتخذ لنفسه مواقف واضحة إزاء المدنية الغربية وكل ما يتصل بها من مذاهب فكرية وأدبية، وهى مواقف تقوم فى جملتها على الاحتفاظ بشخصيته قوية وأن لا يقتبس من الغرب إلا ما يمكن لشخصيته من أن تنمو وتتطور تطورًا حيًا . وأما فى الآداب والفنون والنظم السياسية والاتجاهات الفلسفية فإنه يحثنا على أن نقف موقفًا وسطًا .

ولا يختلف اثنان فى أن العقاد كما عبر الدكتور شوقى ضيف هو أكبر كاتب عربى معاصر خالط الأوربيين فى أدبهم وفنونهم وعلومهم وفلسفاتهم

الميتافيزيقية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية، وآثار هذه المخالطة تشيع فى جميع كتاباته، حتى ليصبح جسرا مهما فى عبور العقلية العربية الحديثة من شاطئ الركود إلى شاطئ النهوض بفكرنا فى جميع اتجاهاته، وهو ليس جسرا ماديًا فحسب، بل هو عقل كبير، يتعامل مع الفكر الغربى فى إدراك دقيق، فهو يأخذ منه ويعطى من ذهنه الثاقب ومما تمثل فى ضميره من شخصيتنا القومية، بحيث أصبح له دوره الأصيل فى نهضتنا الفكرية، دور يقوم على نقل الفكر الغربى إلى أوعية لغتنا، مع فحصه وطرح مالا يلائمنا منه، بل أيضًا مع تصحيح الخطأ فى بعض شُعَبه وبيان ما فيها من عوج وانحراف .

وكتاباته تشيع فيها روح فلسفية قوية، غير أن من الصعب أن نستخلص له مذهبًا فلسفيًا محددًا، إذ مضى يفيد من كل المذاهب الفلسفية على اختلاف مناهجها، فلم يعتنق مذهبًا معينًا، بل سار على سنة انتخاب آرائه من كل شرعة فلسفية، وكأنه آمن بأن العقل أوسع نطاقًا من أن يحتويه اتجاه فلسفى واحد . وقد عاش منذ مطالع حياته يؤمن بالعقل وأن الإنسان مسؤول أمامه عن عقيدته، بل لابد للعقل أن يسند العقيدة ببراهينه المنطقية، وهى فكرة توهجت توهجًا شديدًا فى مصنفاته الدينية أثناء المرحلة الأخيرة لحياته . وركنان أساسيان تقوم عليهما آراؤه، أما الركن الأول فكرامة الإنسان الشخصية، وقد طبعها فى ضميره اعتداده الشديد بكرامته، فمضى يردد القول فى إيمانه بحقوق الفرد . ومن المهم أن نعرف أنه لا يلغى حقوق الجماعة كما يلغيها الوجوديون، إذ كان يرى أن الفرد متصل فى وجوده بالذات من جهة، ومن جهة ثانية متصل بالنوع حتى فى خلايا دمه ووظائف أعضائه وأنسجة أعصابه، بل هو لا يستقل عن نوعه فى هذه الجوانب بأكثر من عشرة فى المائة . ومعنى ذلك أن الفرد لا يستقل عن الجماعة فى تكوين جسده، وأيضًا فإنه لا يستقل عنها فى وعيه الباطن ووعيه المحسوس، مما يؤكد صلته بها صلة دائمة

وأنه لا يستطيع انفصالًا عنها ولا انقطاعًا . وأما الركن الثانى الذى تعتمد عليه آراؤه فهو الحرية، حرية الرأى والفكر، وبذلك أصبح داعيًا للحرية بالمعنى الدقيق، فهو يُضطهد من أجل تعبيره عن رأيه ومن أجل مقاومته للحكم الفاسد والاستبداد الظالم، وهو يحتمل ذلك فى سبيل نصرته للحرية، ولذلك لا نعجب إذا ظلت تيارًا دافقًا فى كتاباته

وملكات العقاد (العقلية) لا تطغى على ملكاته (الروحية)، بل هو يلائم بينهما بالقسطاس الدقيق، ولعل أول ما يبدو من ملكاته الأخيرة نزوعه القوى نحو المثل العليا فى الفضائل النفسية والمزايا الفكرية، مزدريًا فى سبيلها متع الحياة حتى متعة الزواج وإنجاب الولد . وقد ظل يعلى على تلك المتع متاع الضمير ومتاع الخلق الكريم ومتاع الفكر ومتاع الذوق والشعور مقتنعًا من مطالب العيش بما يكفيه، فمطالبه غير مادية، وهو لا يقيس الحياة الصحيحة بمقياس المادة والجسد، إنما يقيسها بمقياس الروح والعقل ومقاصدهما المثالية .

(الدكتور شوقى ضيف المرجع السابق)

ومن ثم فقد أصبح العقاد منذ أن طبع ديوانه الأول سنة ١٩١٦ معروفًا كأديب كبير فى مصر وكاتبًا تقرأ مقالاته من قبل شريحة واسعة من القراء وشرع آنذاك بعد أن أحس بمكانته المتميزة، فى نقد الأعلام الذين يهاب جانبهم .

وأسمْع صدى فكره وأدبه أسماع البلاد العربية برمتها .

وإن كان بعض الأدباء فى مصر قد استعظموا جرأة فكره وأدبه بيد أن العقاد لم يلق بالا إليهم ومضى فى تألقه الفكرى يشق لمجده الأدبى طريقًا فى الفكر غير مسبوق باقتحامه مسارب الثقافة المتشعبة والمتعددة والسيرة والرواية والدين والفلسفة ناهيك عن الشعر.

قال عنه (صنوه و صديقه) إبراهيم عبد القادر المازني :

بحر بلا انتهاء ! هذا هو الذى بين أيدى القراء : موج فوق موج، ودفاع بعد دفاع، ورغوة من ورائها رغوة، وحركة فى إثر حركة، ورياح مُصطحبة، ومد وجزر، وضوضاء كأنما انطلقت شياطين الأرض تعوى، وظلام يصد العين عن النظر، وصفات شفافة تغرى بالخوض والسبح . وفى موضع أخر من المقدمة يقول المازنى : وفى هذا الشعر ما فى الحياة والطبيعة، وليس كل ما فى الحياة معجبًا مونقًا، ولا كل ما فى الطبيعة الأزهار والرياحين فثم إلى جانبها الشوك والجبال الجرداء والبراكين الفائزة الثائرة بالخراب والدمار والنقمة والعقاد نفسه يقر أن فى ديوانه غباءً إلى جانب الحكمة، ويأسًا إلى جوار الرجاء، وبغضًا يناوب الحب، وكثيرًا غير ذلك مما ضاق عنه الشعر وأوجز فى بيانه الشاعر ويشير فالمازني فى هذا الجزء من مقدمته إلى أرجوزته :

هذا كتابى فى يد القراء
ينزل فى بحر بلا انتهاء
فيه من الحكمة والغباء
وفيه من يأس ومن رجاء
وفيه من صمت ومن ضوضاء
صورة محياى لعين الرائي
فليلق بين القدح والثناء
ما شاءت الدنيا من الجزاء

ويشير إلى النموذجين آخرين أحدهما للين والآخر للقوة ، فالأول عنوانه: (إلى السعادة) يقول فيه :

مـــه يـــا ســـعادة عنـــي	فمـــا أنـــا مـــن رجالـــك
لا تطمعـــى اليـــوم منـــي	بالـــسعى خلـــف خيالـــك
وقـــد جهلتـــك لمـــا	ســـحرتنى بجمالـــك
إن الحبيـــب بغـــيض	إذا اســـتعز بخالـــك
فـــلا تمـــرى ببـــالى	ولا أمـــر ببالـــك
أشـــقى الأنـــام أســـير	معلـــق بحبالـــك

والثانى عنوانه: (فرضة البحر) يقول:

قطـب الـسفين وقبلـة الربـان	يـا ليـت نـورك نـافع وجـداني
يزجـى منـارك بالـضياء كأنـه	أرق يقلـب مقلتـى ولهـان
وعلى الخضم مطارح من ومضة	تـسرى مدلهـة بغيـر عنـان
كمطـارح الأفكـار فـى لجـج علـى	لجـج مـن الـشبهات والأشـجان
تخفـى وتظهـر وهـى فـى ظلماتهـا	بـاب النجـاة وموئـل الحيـران

وهذا صدر القصيدة اجتزأناه لنقف على هذا النموذج من شعره.

والفن الثانى الذى رافق العقاد منذ باكورة حياته فن المقالة الصحفية بفروعها المختلفة، من أدبية وسياسية واجتماعية ونقدية، فقد كتب فى أكثر الصحف المصرية، منها البلاغ والجهاد وغيرهما، وتحوى مقالات العقاد الأولى إنتاجه النثرى الأول حتى إن ذلك الإنتاج كان له أثر فى اتجاه العقاد الفكري، فهو فى نشأته شاعر ولكن الإنتاج النثرى أغراه بالاتجاه إلى النثر أكثر من اتجاهه إلى الشعر، ذلك أن قبول النثر لدى المتلقين أكثر من قبول الشعر، ومن خلال ذلك القبول الذى شعر به العقاد خفف من الاعتماد على الشعر واستغرق فى

القراءات المختلفة التى فتحت له أبواب المعرفة فاسترسل فيها وولج فى شعابها وجمع مقالاته فى كتب أقبل الناس على قراءتها منها: الفصول، مطالعات فى الكتب والحياة، مراجعات فى الآداب والفنون. وقراءات العقاد أكثر من كتاباته فى الصحف وأكثر من تأليفه، فهو يقرأ فى ليله ونهاره،فليس لديه ما يشغله فلا زوجة ولا أطفال، وإنما همَّة القراءة ثم القراء ثم التأليف، فهو قارئ نهم وهذا هو سر إنتاجه الضخم والمتنوع.

لاجدال أن الشعر والمقالة هما الركيزة الأولى لشهرة العقاد، دخل عن طريقهما فى معمعة المجتمع المصرى حتى عرف شاعرًا وكاتبًا، فلم يعد اسم العقاد نكرة بين الأدباء ورجال الفكر، وهاتان القاعدتان أتاحتا له توجيه سهم النقد إلى أمير الشعراء أحمد شوقى وغيره من عمالقة الأدب، فنقد هذا وناقش ذاك ودخل فى معركة أدبية مع أكثر من أديب ومفكر، وثبت بما ناله به من مكانته الأدبية وأودع ذلك فى كتاب أسماه (الديوان) بالاشتراك مع المازني، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة وصخبًا فى مصر خاصة وفى البلاد العربية عامة، ذلك أن المنقود شوقى الذى يقرن بالمتنبي، أو هو متنبى العصر الحديث، فالهجوم قاس والنقد لاذع، وهذا يدل على مكانة العقاد التى أتاحت له هذه الجرأة الأدبية، يقول العقاد عن شوقى :

«كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حول اسمه فى كل حين، فنمر بها سكوتًا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد، لا استضخامًا لشهرته، ولا لمنعة فى أدبه عن النقد، فإن أدب شوقى ورفقائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات، ولكن تعففًا عن شهرة يزحف إليها زحف الكسيح ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح، وتطوى دفائن، أسرارها طى الضريح»،ويمتد التجريح النقدى على صفحات الديوان فلا يقف عند حد ولا يرتئى التعقل فى الطرح النقدي، فنقرأ: «وعلى نفسها جنت براقش، فنحن

نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن أسلحتهم، ونضطرهم إلى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأسًا من صلاحها فى هذه الأيام، إذ يعلمون أنها لا تعصم عن النقد الصحيح ولا تُمَوه على الناس أقدارهم إلا ريثما تنكشف أسرارهم»،ونقرأ فى صفحات أخرى من الجزء الأول من الديوان: «ومن نظر إلى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره، بل هو لا يروقهم إلا لما فيه من غثاثة وعوار .

وننتقل إلى الجزء الثانى من الديوان فنجد فيه نشاط العقاد فى نقده لشوقى نقدًا لم تنكسر حدته، وإنما تمادى فى الهجوم عليه مستخفًا بمكانته الشعرية وبمقامه الاجتماعي، يقول العقاد:

«عرضنا شوقى فى الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجًا عنيفًا، وأيقظه من غفلة كان فيها سادرًا، وما هو إلا أن حط به ثم شال حتى تمنى أن يركز به على حال، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته: هبونى لست بالشاعر أليس لى فخر آخر أدل به؟»،وفى الواقع أن شهرة العقاد النقدية إبان هجومه الكاسح على شوقى كانت سببًا من أسباب شهرته حيث يقول فى صفحة من صفحات الجزء الثانى من الديوان:

شوقى تولاه عباس فأظهره واليوم يخمله فى الناس عباس

وحتى قصيدة شوقى النونية لم تسلم من نقد العقاد واستنقاصه،فبيت شوقي:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

فهو مأخوذ من قول المتنبي:

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

وعن بيت شوقى الذى قال فيه:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

يقول فيه العقاد: «فإنه بيت القصد فى رأى عشاق شوقي،فعلى أى معنى نراه يشتمل؟ معناه أن السنة أو مئة السنة التى قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوان، وهذا هو جوهر البيت، فهل إذا قال قائل: إن اليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة؟ .

وهكذا يسير العقاد فى نقده لشعر شوقى ذلك النقد الذى حواه كتاب الديوان الذى ذاع اسمه وتناقله الأدباء واحتفلوا به، فكل واحد يرغب فى الاطلاع عليه حتى نفد من الأسواق فى مصر وفى غير مصر من البلاد العربية.

ومع إبداع العقاد الأدبى فإنه أسهم فى التأليف فى الدين والفلسفة، فله كتب: الله، الفلسفة القرآنية، إبليس!.

(الدكتور عبد العزيز الفيصل المجلة العربية السعودية)

* * * * * * * *

كما كتب العقاد عن عقائد المفكرين فى القرن العشرين . والقرن العشرون ما كان وما سيكون والتفكير فريضة إسلامية والفلسفة القرآنية والإنسان فى القرآن.

تصدى فيها كتبه إلى تفكيك الأنساق المعرفية الغربية. فعندما نقرأ كتبه (عقائد المفكرين ،فى القرن العشرين) و(الإنسان فى القرآن) نجده فى الأول يمهد الطريق إلى الفكر الأوروبى من خلال تثوير عقائد مفكريه ،وفى الثانى

ينسف نظريات يهودية حول نشأة الإنسان،وشهواته وغرائزه ،ولا يجد أقوى من القرآن الكريم للانطلاق منه وبه،لإجهاض نظريات مادية بحتة، تسلب الإنسان عواطفه،وتنحّى الجانب الروحى عنده. فبعض هذا فضلًا عن دفاعه عن حقائق الإسلام، وتصدّيه لأباطيل خصومه.

(المرجع السابق الدكتور حسن فهد الهويمل الرياض)

* * * * * * * *

وكان العقاد أول من كتب فى الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين. ثم عمل بالصحافة، وبدأ نشر مقالاته فى صحيفة عكاظ عام ١٩١٦م. والحقيقة أنه لم يتيسر لكثيرين ما تيسر للعقاد من اطلاع وقراءة فى الأدب والاجتماع والعلم والفلسفة، فلا يكاد يظهر مؤلّف عربى أو أجنبى إلا ويسارع إلى اقتنائه والوقوف على ما فيه، وبذا أضحى موسوعيًا، وأبى إلا أن يكون إلى جانب الأدب فيلسوفًا يعارض الفلاسفة، وعالمًا يجادل العلماء فى الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا وعلوم الأحياء، وكأنه لم يكن يقنع فى عالم الثقافة بالقيود والحدود، ولا يسلّم بالتخصص الضيق، ويكاد يرجع كثير من جدله واختلاف الرأى معه إلى هذه الناحية. فلا شك فى أن القراءة المستنيرة تفتح آفاقًا جديدة، وتهدى إلى أمور كثيرة.

وكان للعقاد رؤية متميزة فى فلسفة العلوم ومنهجية التفكير السليم والنظرة الناقدة، فمن أقواله التى جاءت فى كتابه (مطالعات فى الكتب والحياة):

(الذى نعتقده أن العقل لا يكون نظريًا بحتًا، ولا علميًا بحتًا، وإنما أصلح العقول الذى تتزن فيه الملكتان، ويعتمد على الملاحظة وعلى الاستنتاج فى حين يصلح كلاهما. ولنحذر كل الحذر من أولئك الذين يغلون فى القول فيدعون إلى احتذاء مثال واحد من التفكير أو يعجبون بطراز واحد من العقول، فإن

هذا هو الخطل بعينه، وهو ضيق الفكر وعمى الحقائق الذى يشبه عمى الألوان فى عرف أطباء العيون) .

وأورد العقاد فى الكتاب نفسه الذى صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٢٤م- فضلًا عن (القرائح الرياضية والتدين) نراه متعلقًا بما يسمى (نظرية المعرفة) أو (الإبستمولوجيا) Epistemology، فهو يرى أن معلومات الإنسان تنقسم من وجهتها العامة إلى قسمين: حقائق موضوعية (Objective أسماها خارجية)، وحقائق ذاتية (Subjective أسماها ذهنية). ويعنى بالقسم الأول الحقائق التى تستفاد من ملاحظة الأشياء (الخارجية) والتى يمكن تمحيصها باستقراء هذه الأشياء وترتيبها وتجربتها، وهو ما يعرف فى فلسفة العلم المعاصرة بالمنهج التجريبى الاستقرائي. وتدخل فى هذه الحقائق علوم الطبيعة على اختلافها، من علم يبحث فى الحيوان أو فى النبات أو فى الجماد، أو على الجملة كل ما يقيده الحسّ من المشاهدات التى يقوم عليها البرهان من استقراء ظواهر الكون. ولابد للمشتغلين بتحصيل هذا النوع من الحقائق من دقة ملاحظة وملكة معودة أن تحصر الفكر فى مراقبة هذه الأشياء ورد بعضها إلى بعض، وأن تلتمس منها تفسير عللها والنواميس التى تؤثر فيها.

أما قسم الحقائق الذهنية فهو عند العقاد الحقائق التى يقوم البرهان على صحتها من بديهة الإنسان، ولا يتوقف العلم بأولياتها على المشاهدة والاستقراء، (وهو ما يعرف فى فلسفة العلم المعاصرة باسم المنهج الاستنباطي). ومن ذلك أصول الحقائق الرياضية أجمع، وأصول المنطق، والفلسفة الإلهية، ويلحق بها كل ما هو وجدانى لدنى من المعارف والفنون حتى الموسيقى، فإنها فى سبحاتها العالية ما تختلف كثيرًا عن كونها معانى موحاة وأريحية ملهمة.

ويرى العقاد موضحًا إمكانية الجمع بين المنهجين فيما عرف حديثًا باسم (المنهج العلمى المعاصر) أو (المنهج الفرضى الاستنباطي)، فيقول: (ولهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحيانًا، وتتآلف العلوم التى تبحث فيها، وتتقارب الملكات التى تكون فى المشتغلين بها. فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة، ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معًا. فالفارابى مثلًا كان فيلسوفًا رياضيًا مبتكرًا فى الموسيقى، وفيثاغورس أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة عند اليونان كان يبنى فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد. وقد مر بمصر قبل أيام (نشر العقاد هذا المقال فى جريدة البلاغ فى ١٩ فبراير ١٩٢٣م) نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت آينشتين صاحب فلسفة (النسبية) التى دهمت الناس ببدع فى تعريف الوقت والفضاء، يكفى أن نذكر منها أن الخط المستقيم قد لا يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضى وموسيقار بارع فى العزف على القيثارة.

وهنا يحاول العقاد أن يجد تفسيرًا يبرر نزعة العلماء إلى التدين، وخصوصًا الرياضيين منهم، فيقول: (إن اعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الحس والملاحظة، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة، وموقفهم أمام المجهول موقف من يسلم به فرضًا ولا يستبعد فيه شيئًا، وهذا سر تدينهم وإخباتهم. ولهذا يرى العقاد فى كتابه (الفلسفة القرآنية) أن (الذاتية) هى غاية الرقي، وأن الرقى هو الانتقال من الوجود المبهم السائب إلى وجود الذات، أو إلى وجود يعلم ذاته، وليس الصواب أن يقال إن تطور الإنسان كان من القرد فى اتجاه السوبرمان، ولكن الصواب أن نقول إن الإنسان قنطرة من الأرض إلى السماء.

من ناحية أخرى، أضاف الأستاذ العقاد فى كتابه (التفكير فريضة إسلامية)، بعدًا مهمًا وعمقًا جديدًا لمعنى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، فذكر أن

هناك نوعين للمعجزة ينبغى التمييز بينهما، كى نطلب المعجزة التى يجب أن تُطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التى لا تجدى أحدًا من العقلاء. أما النوع الأول، فهى المعجزة التى تتجه إلى العقل، وهى موجودة يلتقى بها من يريدها حيثما التفت إليها، متمثلة فى الاطراد المنتظم لظواهر الكون والحياة التى لا تتبدل ولا تتحول.

قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:٤٣).

وأما النوع الثاني، فهو المعجزة التى تكون من خوارق العادات، فهى التى تدهش العقل وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم، وهى ليست بحاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التى نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة. والعالم الحق أحرى أن يعرف موضع العجب فيما يشاهده من سنن الله الكونية المألوفة فى دوران الأفلاك وخصائص المادة وسلوك الكائنات والظاهرات، فليست ألفته لها مما يصح أن يبطل العجب منها، ومن قال هذا فهو هازل مستخف بالمعجزة التى تخاطب العقل وتستثير ملكاته، وهو أيضًا عاجز عن أن يجد فى هذه المعجزة يد العناية الإلهية التى تسيّر حركة الكون والحياة.

ومن أسف أن يغيب مثل هذا التمييز الواضح بين نوعى المعجزة عند كثير من الباحثين الذين يقفون بتفكيرهم عند حدّ التفسير العلمى للظاهرة الكونية، أو الذين يقحمون أنفسهم فيما لا يدركه العقل البشرى المحدود من خوارق العادات التى لا تخضع للنواميس الطبيعية، ولا للتجارب البشرية.

كذلك أدى غياب هذا التمييز الواضح بين نوعى المعجزة إلى الخلط أحيانًا بين الإعجاز العلمى الذى يقصد به سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة

كونية قبل أن يكتشفها العلم التجريبي، وبين التفسير العلمى الذى يراد به الكشف عن معانى جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي، فى ضوء ما ترجمت صحته من نظريات العلوم الكونية، بمعنى أن تكون هذه العلوم فى خدمة تفسير القرآن والسنة مثلما خدمته علوم اللغة والأصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية. وفى بيان المعجزة العلمية، من حيث طبيعتها الباقية بين يدى الناس، وتجددها مع كل كشف بشرى فى ميادين العلوم، وكذلك فى المعارف ذات الصلة بمعانى الوحى الإلهى.

يقول الله تعالى:

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

(سورة النساء: ١٦٦).

(الدكتور أحمد فؤاد باشا العلم وفلسفته فى مشروع العقاد الفكرى المرجع السابق)

* * * * * * * *

فالعقاد شخصية استثنائية بفكره ونقده ومواقفه فالكثيرون لا يعرفون العقاد والكثيرون سمعوا به ولم يقرؤوا إصداراته والكثيرون قرؤوا النذر اليسير منها، فقراءة العقاد اليوم فى ضوء المتغيرات المعاصرة تفتح آفاقًا جديدة للتفكير والفهم والوعى وتعمق الرؤية فى تقييم دوره الثقافي، فهو شخصية فذة وهو جهبذ عصامى وهو كاتب عبقري.

والحديث عن العقاد كما يذكر الدكتور (هيثم الخواجة) هو مغامرة غير مأمونة العواقب لأن العقاد كان فى أبسط تعريف له (قارة) ثقافية بالمعنى الرمزى والحرفى أيضًا، فقد صال وجال فى كل دروب المعرفة وأثار من المعارك

ما لم يثره أديب أو مفكر قبله أو بعده ويحتاج الأمر إلى ندوات وندوات للإحاطة بإنتاج العقاد (أكثر من ١٢٠ كتاب) ، أو حتى مقاربته وليس تقييمه.

ولم يكن شعر العقاد على غرار معاصريه بل كان نموذجيًا يتحدى لدى متلقيه بقدراته الكاملة، وفى مقدمتها عقله ووعيه وفكره، وقدرته على التأمل والتجريد، فلم يكن هذا النموذج - كما جاء بحق فى تحليل الشاعر الكبير فاروق شوشه! - مسرفًا فى العاطفية كشعر الرومانسيين، ولا مسرفًا فى الجلبة والجهارة والعناية بالفخامة كنموذج شوقى ومعاصريه، وليس هو شعر الحواس الظاهرة والقشرة الخارجية بقدر ما هو شعر المشاعر والعواطف العميقة، وكان شعر اليقظة والوعى لا شعر الغيبوبة والحلم، يقول العقاد فى قصيدة له:

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا	عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا	معالم الأرض فى الغماء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا	نيني ولا سحر السمار يلهيني

ويختتم العقاد قصيدته بهذه الأبيات الثلاثة :

سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا	عجائب القدر المكنون تغنيني
أصاحب الدهر لا قلب يسعدني	على الزمان ولا خل فيأسوني
يديك فامح ضنى يا موت في كبدى	فلست تمحوه إلا حين تمحوني

يقول فيه العقاد: «فإنه بيت القصد فى رأى عشاق شوقي،فعلى أى معنى نراه يشتمل؟ معناه أن السنة أو مئة السنة التى قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوان، وهذا هو جوهر البيت، فهل إذا قال قائل: إن اليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى

بالحكمة الرائعة؟ .

وهكذا يسير العقاد فى نقده لشعر شوقى ذلك النقد الذى حواه كتاب الديوان الذى ذاع اسمه وتناقله الأدباء واحتفلوا به، فكل واحد يرغب فى الاطلاع عليه حتى نفد من الأسواق فى مصر وفى غير مصر من البلاد العربية.

ومع إبداع العقاد الأدبى فإنه أسهم فى التأليف فى الدين والفلسفة، فله كتب: الله، الفلسفة القرآنية، إبليس!.

(الدكتور عبد العزيز الفيصل المجلة العربية السعودية)

* * * * * * * *

كما كتب العقاد عن عقائد المفكرين فى القرن العشرين . والقرن العشرون ما كان وما سيكون والتفكير فريضة إسلامية والفلسفة القرآنية والإنسان فى القرآن.

تصدى فيها كتبه إلى تفكيك الأنساق المعرفية الغربية. فعندما نقرأ كتبه (عقائد المفكرين ،فى القرن العشرين) و(الإنسان فى القرآن) نجده فى الأول يمهد الطريق إلى الفكر الأوروبى من خلال تثوير عقائد مفكريه ،وفى الثانى ينسف نظريات يهودية حول نشأة الإنسان،وشهواته وغرائزه ،ولا يجد أقوى من القرآن الكريم للانطلاق منه وبه،لإجهاض نظريات مادية بحتة، تسلب الإنسان عواطفه،وتنحّى الجانب الروحى عنده. فبعض هذا فضلًا عن دفاعه عن حقائق الإسلام، وتصدّيه لأباطيل خصومه.

(المرجع السابق الدكتور حسن فهد الهويمل الرياض)

* * * * * * * *

وكان العقاد أول من كتب فى الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين.

ثم عمل بالصحافة، وبدأ نشر مقالاته فى صحيفة عكاظ عام ١٩١٦م. والحقيقة أنه لم يتيسر لكثيرين ما تيسر للعقاد من اطلاع وقراءة فى الأدب والاجتماع والعلم والفلسفة، فلا يكاد يظهر مؤلّف عربى أو أجنبى إلا ويسارع إلى اقتنائه والوقوف على ما فيه، وبذا أضحى موسوعيًا، وأبى إلا أن يكون إلى جانب الأدب فيلسوفًا يعارض الفلاسفة، وعالمًا يجادل العلماء فى الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا وعلوم الأحياء، وكأنه لم يكن يقنع فى عالم الثقافة بالقيود والحدود، ولا يسلّم بالتخصص الضيق، ويكاد يرجع كثير من جدله واختلاف الرأى معه إلى هذه الناحية. فلا شك فى أن القراءة المستنيرة تفتح آفاقًا جديدة، وتهدى إلى أمور كثيرة.

وكان للعقاد رؤية متميزة فى فلسفة العلوم ومنهجية التفكير السليم والنظرة الناقدة، فمن أقواله التى جاءت فى كتابه (مطالعات فى الكتب والحياة):

(الذى نعتقده أن العقل لا يكون نظريًا بحتًا، ولا علميًا بحتًا، وإنما أصلح العقول الذى تتزن فيه الملكتان، ويعتمد على الملاحظة وعلى الاستنتاج فى حين يصلح كلاهما. ولنحذر كل الحذر من أولئك الذين يغلون فى القول فيدعون إلى احتذاء مثال واحد من التفكير أو يعجبون بطراز واحد من العقول، فإن هذا هو الخطل بعينه، وهو ضيق الفكر وعمى الحقائق الذى يشبه عمى الألوان فى عرف أطباء العيون) .

وأورد العقاد فى الكتاب نفسه الذى صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٢٤م- فضلًا عن (القرائح الرياضية والتدين) نراه متعلقًا بما يسمى (نظرية المعرفة) أو (الإبستمولوجيا) Epistemology، فهو يرى أن معلومات الإنسان تنقسم من وجهتها العامة إلى قسمين: حقائق موضوعية

(Objective أسماها خارجية)، وحقائق ذاتية (Subjective أسماها ذهنية). ويعنى بالقسم الأول الحقائق التى تستفاد من ملاحظة الأشياء (الخارجية) والتى يمكن تمحيصها باستقراء هذه الأشياء وترتيبها وتجربتها، وهو ما يعرف فى فلسفة العلم المعاصرة بالمنهج التجريبى الاستقرائي. وتدخل فى هذه الحقائق علوم الطبيعة على اختلافها، من علم يبحث فى الحيوان أو فى النبات أو فى الجماد، أو على الجملة كل ما يقيده الحسّ من المشاهدات التى يقوم عليها البرهان من استقراء ظواهر الكون. ولابد للمشتغلين بتحصيل هذا النوع من الحقائق من دقة ملاحظة وملكة معودة أن تحصر الفكر فى مراقبة هذه الأشياء ورد بعضها إلى بعض، وأن تلتمس منها تفسير عللها والنواميس التى تؤثر فيها.

أما قسم الحقائق الذهنية فهو عند العقاد الحقائق التى يقوم البرهان على صحتها من بديهة الإنسان، ولا يتوقف العلم بأولياتها على المشاهدة والاستقراء، (وهو ما يعرف فى فلسفة العلم المعاصرة باسم المنهج الاستنباطي). ومن ذلك أصول الحقائق الرياضية أجمع، وأصول المنطق، والفلسفة الإلهية، ويلحق بها كل ما هو وجدانى لدنى من المعارف والفنون حتى الموسيقى، فإنها فى سبحاتها العالية ما تختلف كثيرًا عن كونها معانى موحاة وأريحية ملهمة.

ويرى العقاد موضحًا إمكانية الجمع بين المنهجين فيما عرف حديثًا باسم (المنهج العلمى المعاصر) أو (المنهج الفرضى الاستنباطي)، فيقول: (ولهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحيانًا، وتتآلف العلوم التى تبحث فيها، وتتقارب الملكات التى تكون فى المشتغلين بها. فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة، ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معًا. فالفارابى مثلًا كان فيلسوفًا رياضيًا مبتكرًا فى الموسيقى، وفيثاغورس أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة

عند اليونان كان يبنى فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد. وقد مر بمصر قبل أيام (نشر العقاد هذا المقال فى جريدة البلاغ فى ١٩ فبراير ١٩٢٣م) نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت آينشتين صاحب فلسفة (النسبية) التى دهمت الناس ببدع فى تعريف الوقت والفضاء، يكفى أن نذكر منها أن الخط المستقيم قد لا يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضى وموسيقار بارع فى العزف على القيثارة.

وهنا يحاول العقاد أن يجد تفسيرًا يبرر نزعة العلماء إلى التدين، وخصوصًا الرياضيين منهم، فيقول: (إن اعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الحس والملاحظة، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة، وموقفهم أمام المجهول موقف من يسلم به فرضًا ولا يستبعد فيه شيئًا، وهذا سر تدينهم وإخباتهم. ولهذا يرى العقاد فى كتابه (الفلسفة القرآنية) أن (الذاتية) هى غاية الرقي، وأن الرقى هو الانتقال من الوجود المبهم السائب إلى وجود الذات، أو إلى وجود يعلم ذاته، وليس الصواب أن يقال إن تطور الإنسان كان من القرد فى اتجاه السوبرمان، ولكن الصواب أن نقول إن الإنسان قنطرة من الأرض إلى السماء.

من ناحية أخرى، أضاف الأستاذ العقاد فى كتابه (التفكير فريضة إسلامية)، بعدًا مهمًا وعمقًا جديدًا لمعنى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، فذكر أن هناك نوعين للمعجزة ينبغى التمييز بينهما، كى نطلب المعجزة التى يجب أن تُطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التى لا تجدى أحدًا من العقلاء. أما النوع الأول، فهى المعجزة التى تتجه إلى العقل، وهى موجودة يلتقى بها من يريدها حيثما التفت إليها، متمثلة فى الاطراد المنتظم لظواهر الكون والحياة التى لا تتبدل ولا تتحول.

قال تعالى: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (فاطر:٤٣).

وأما النوع الثاني، فهو المعجزة التى تكون من خوارق العادات، فهى التى تدهش العقل وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم، وهى ليست بحاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التى نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة. والعالم الحق أحرى أن يعرف موضع العجب فيما يشاهده من سنن الله الكونية المألوفة فى دوران الأفلاك وخصائص المادة وسلوك الكائنات والظاهرات، فليست ألفته لها مما يصح أن يبطل العجب منها، ومن قال هذا فهو هازل مستخف بالمعجزة التى تخاطب العقل وتستثير ملكاته، وهو أيضًا عاجز عن أن يجد فى هذه المعجزة يد العناية الإلهية التى تسيّر حركة الكون والحياة.

ومن أسف أن يغيب مثل هذا التمييز الواضح بين نوعى المعجزة عند كثير من الباحثين الذين يقفون بتفكيرهم عند حدّ التفسير العلمى للظاهرة الكونية، أو الذين يقحمون أنفسهم فيما لا يدركه العقل البشرى المحدود من خوارق العادات التى لا تخضع للنواميس الطبيعية، ولا للتجارب البشرية.

كذلك أدى غياب هذا التمييز الواضح بين نوعى المعجزة إلى الخلط أحيانًا بين الإعجاز العلمى الذى يقصد به سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة كونية قبل أن يكتشفها العلم التجريبي، وبين التفسير العلمى الذى يراد به الكشف عن معانى جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي، فى ضوء ما ترجمت صحته من نظريات العلوم الكونية، بمعنى أن تكون هذه العلوم فى خدمة تفسير القرآن والسنة مثلما خدمته علوم اللغة والأصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية. وفى بيان المعجزة العلمية، من حيث طبيعتها

الباقية بين يدى الناس، وتجددها مع كل كشف بشرى فى ميادين العلوم، وكذلك فى المعارف ذات الصلة بمعانى الوحى الإلهى .

يقول الله تعالى :

﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(سورة النساء: ١٦٦) .

(الدكتور أحمد فؤاد باشا العلم وفلسفته فى مشروع العقاد الفكرى المرجع السابق)

* * * * * * * *

فالعقاد شخصية استثنائية بفكره ونقده ومواقفه فالكثيرون لا يعرفون العقاد والكثيرون سمعوا به ولم يقرؤوا إصداراته والكثيرون قرؤوا النذر اليسير منها، فقراءة العقاد اليوم فى ضوء المتغيرات المعاصرة تفتح آفاقًا جديدة للتفكير والفهم والوعى وتعمق الرؤية فى تقييم دوره الثقافي، فهو شخصية فذة وهو جهبذ عصامى وهو كاتب عبقري.

والحديث عن العقاد كما يذكر الدكتور (هيثم الخواجة) هو مغامرة غير مأمونة العواقب لأن العقاد كان فى أبسط تعريف له (قارة) ثقافية بالمعنى الرمزى والحرفى أيضًا، فقد صال وجال فى كل دروب المعرفة وأثار من المعارك ما لم يثره أديب أو مفكر قبله أو بعده ويحتاج الأمر إلى ندوات وندوات للإحاطة بإنتاج العقاد (أكثر من ١٢٠ كتاب) ، أو حتى مقاربته وليس تقييمه.

ولم يكن شعر العقاد على غرار معاصريه بل كان نموذجيًا يتحدى لدى متلقيه بقدراته الكاملة، وفى مقدمتها عقله ووعيه وفكره، وقدرته على التأمل والتجريد، فلم يكن هذا النموذج - كما جاء بحق فى تحليل الشاعر الكبير

فاروق شوشه! - مسرفًا فى العاطفية كشعر الرومانسيين، ولا مسرفًا فى الجلبة والجهارة والعناية بالفخامة كنموذج شوقى ومعاصريه، وليس هو شعر الحواس الظاهرة والقشرة الخارجية بقدر ما هو شعر المشاعر والعواطف العميقة، وكان شعر اليقظة والوعى لا شعر الغيبوبة والحلم، يقول العقاد فى قصيدة له .

يا صاحبى إنى حزين

طلع الصباح فما ابتسمت، ولم يزر وجهى الصباح

وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المتـــاح

فشـربت شايا فى الطريق

ورتقت نعلي

ولعبت بالنرد الموزع بين كفى والصديق

قل ساعة أو ساعتيـــن

قل عشـرة أو عشـرتين

ويقول النقاد: إن اغلب الظن أن صلاح عبد الصبور ما كان يجرؤ أن يكتب بهذه اللغة البسيطة ويختار تفاصيل الحياة اليومية لتكون موضوعات قصائده لو لم يسبقه العقاد ويكتب ما كتب فى ديوانه عابر سبيل .

وهاك مجموعة أخرى من القصائد التى تقدم الوجه الآخر للعقاد : شاعرا للعقل والوجدان ومنها قصيدة يوم الظنون ومن مطلعها:

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى وحملت فيك الضيم مغلول اليد

ويكيت كالطفل الذليل أنا الذي	ما لان فى صعب الحوادث مقودي
وغصصت بالماء الذى أعددته	للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها	حتى طغت فلقيت ما لم أعهد
نار الجحيم إلى غير ذميمة	وخذى إليك مصارعى فى مرقدي

إن شعر العقاد يكشف لنا الإنسان الذى يتألم ويبكى ويحزن مثل أى إنسان مفرط الحساسية تؤجج روحه لحظات السعادة وتشوى ضلوعه وخزات الشك فينهار ويبكى بكاء الطفل الذليل، وليس كما يبدو فى كتاباته الأخرى رجلا خارقا أو سوبرمانا لا يقهر. هنا نقف نستمتع بالشعر ونعجب به لأنه قريب جدا منا يعبر عن كل لحظاتنا الإنسانية . لحظات الضعف والانكسار، ولحظات الانتصار والزهو.

وهكذا تبارى المفكرون والعلماء من شتى المناحى والأفاق فى الكتابة عن العقاد العبقرى وعن سبر غور أدبه وعن الغوص إلى بواطن فكره وعن الإشادة بعبقريته الفكرية والعلمية والشعرية.

هذا عن ملامح عبقرية العقاد كما رأيناها ورآها غيرنا . لقد أفضنا الحديث عن العبقرية .. ولكن ماذا عن العصامية؟

يختلف العصامي عن العظامي أن الأول تكون ركيزته فى الحياة هى إرادته وهى نفسه سواء نشأ فى مهاد الفاقة أو مهاد اليسار .

والعصامية مأخوذة من اسم عصام فى اللغة العربية وهو ذلك الشخص الذى سود نفسه ولم يكن لأحد غيره فضل فى تسويده .

يقول الشاعر : نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما

وهذه الكلمة العربية تقابلها فى اللغة الإنجليزية كلمة صانع نفسه Self

made وتقرب منها الكلمة الفرنسية التى تقول عن العصامى إنه ابن عمله Fils de ses oeuvres . كما ذكر الأستاذ العقاد نفسه فى كتاب (عصاميون عظماء من الشرق والغرب)

وكما أسلفنا فقد شب العقاد عن الطوق فى مدينة أسوان عصاميًا شق طريقه بين الجبال والصخور وفى عصر كانت مصر تموج فيه بالنبهاء والنبغاء حتى سمى بحق عصر العمالقة، فى موئل عائلته حيث مقرها ومقامها، وحيث مولد التاريخ الذى تدركه الروح، وتراه الأعين وتستشرفه الأبصار، هذه البلدة التى تضرب فى أعماق التاريخ فهى البلدة العتيقة التى ذكرها المؤرخ الفرنسي فوستيل دى كولانج Fustil de Coulanges فى كتابه الرائع City in Hastory والتى يرجع تاريخها إلى أول نشأة الإنسان على الأرض، ومعيشته فى مدن مستقرة، وقد وجدت فى منطقة أسوان بقايا من العصر الحجرى القديم، حيث استخدم الإنسان الآلات المصنوعة من قطع الأحجار، وبخاصة حجر الصوان، وقد عثر على هذه الآثار فى قرية السبيل مركز كوم أمبو كما وجدت آثار ونقوش من العصر الحجرى الحديث فى قرية الخطارة شمال أسوان، وتوجد نماذج الآلات المستخدمة من العصر الحجرى بمتحف أسوان حاليًا .

ومن ملامح العبقرية عند العقاد ما يقصه علينا الأستاذ أنيس منصور :

ولسنا بحاجة لأدلة على موسوعية إطلاعات العقاد . فهذه هى المَزِية الرئيسية التى أوصلت العقاد إلى منصة التحدى ومنازلة الخصوم : إلا أن صاحب الذكريات مع عملاق الأدب يحكى : قدمت له صديقًا التقيت به منذ أيام فى محل البن البرازيلي بشارع سليمان باشا، قلت إن اسمه غريب يا أستاذ . وهذا هو ال شيء الوحيد الغريب اسمه سوريل عاصم قال : الأستاذ: سوريل

وليس سوريال؟! قلت : إنه مسلم يا أستاذ قال : هل هو زوريل هل هو زوريلا؟ قلت : أما اسماء أخواته البنات فاعجب من ذلك : امبالا وهيرولا وأخوه سونى أوسنى . وأخوه الأصغره اسمه عرابى أو عروبى

قال الأستاذ وقد أرجع الطاقية على رأسه إلى الوراء قليلًا : غريبة وليست غريبة . فإذا كان نطقها الصحيح : زوريلا وامبالا وسونى وعريب . فهى ليست غريبة فهى تدل كلها على أن والده قد عاش فى أواسط أفريقيا وأن له اهتمامًا بالحيوانات .

فقلت : أبوه طبيب بيطرى . ولكن لماذا .

وكان رد الأستاذ بسرعة : لأن سوريل ماخوذة من زوريلا، وهو نوع من القطط المتوحشة تعيش على الجبال أو أواسط أفريقيا وهى طويلة الشعر ومخططة بالطول ومن أكلة اللحوم أما الاسماء الأخرى فهى أسماء لأنواع مختلفة من الغزلان وامبالا والغزالى العربى وسونى أليس كذلك يا مولانا؟!.

واندهش صديقى سوريل (دهشة بالغة)، لأن ما قاله الأستاذ صحيح تمامًا. وأعتقد أنه ظل (مذهولًا) طوال هذه الجلسة، ولم يفتح فمه بعد ذلك ولأننا تعودنا على مثل هذه المعلومات الغريبة التى لدى الأستاذ، فلم نندهش لذلك وإنما الذى يبعث على الدهشة حقًا هو أن يعرف الأستاذ مثل هذه المعلومات عن عالم الحيوان والحشرات والكواكب والنجوم .

وتنكشف مفاتيح شخصية العقاد من خلال مواقف صغيرة وتصرفات يومية لها أكبر الأثر . مثلما كان يفعل هو فى عبقرياته . فى سبرغور الشخصية ومن هذه المواقف ساعة إذ كان مريضًا فى أيامه الأخيرة وقد رفض تمامًا أن يعود أحد الأطباء وشخص حالته بنفسه وكان على حق فيها ذهب إليه وعلى عبقرية من خلال إلمامه إلمامًا بعوارض مرضه، ومن خلال عبقريته رفض أن

يتزوج من سيدة عظيمة الاحترام والجمال ومن أشد الناس إعجابًا به وزارته فى بيته عارضة عليه قصرا فخمًا سيعيش فيه معها بعد الزواج ولكنه رفض كل شيء حرصًا على كرامته، واعتزازًا بشخصيته.

عبقرية العقاد

ألهمه الله فكرًا عبقريًا فشق طريقه نحو النور، بها حباه منذ مدارك طفولته إلى صباه وبعقل جسور .

فأصبح شيخًا جليلًا من شيوخ الأدب والفقه والثقافة عصاميًا عكف على قراءاته الجادة العميقة، ودأب صبورًا على النهل منها حتى وصل إلى سدرة منتهاها يحللها ويغربلها ويخرج منها بالرأى الصائب الخمير .

استقر فى قلوب قارئه ومحبيه وأشعل وقدة الحقد فى صدور منافسيه فهو فى كل يوم كما يقول أبو الطيب المتنبى :

فى كل يومٍ للقوافى جَولةٌ	فى قلبه ولأذنه إصغاء
وإغارةٌ فيما احتواه كأنما	فى كل بيتٍ فيلقٌ شهباء
من يظلم اللؤماء فى تكليفهم	أن يصبحوا وهم له أكفاء
ونذيمهم وبهم عرفنا فضله	وبضدها تتبين الأشياء
من نفعه فى أن يهاج وضره	فى تركه لو تفطن الأعداء

* * * * * * * *

كان الأستاذ العقاد يمضى فى حياته وكأنه يردد بيتا الشعر القائل :

رددت إلى مليك الخلق أمرى	فلم أسأل متى يقع الكسوف
وكم سلم الجهول من المنايا	وعوجل بالحمام الفيلسوف

عاش بعيدًا عن الأهل والخلان متخذًا من صومعته الصديق الأوحد له ولسان حاله يقول :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لى وافيا إلا الكتابا

ما أشقى العزائم الكبيرة التى تنقب عن رزقها فى العلم والفكر، وهكذا كان العقاد .

قدت شخصيته من بيئته التى نشأ فيها وترعزع بين جنباتها فأخذ من شمس أسوان صلابته ومن مسلات الفراعنة المنتشرة بين ربوعها عظمتها، فأسوان هى عبقرية الزمان والمكان أو هى كما عبر الشاعر :

بهرت بنى الزمان حلى ودلهت الأواخر والقدامى

جرى التاريخ بين يديك طفلًا وشمس الأفق لم تعد الفطاما

وصال النهر حولك منذ مينا عظيمًا يدفع الكرب العظاما

وفى فجر الزمان طلعت فجرًا على الدنيا، فأيقظت النياما

كما أخذ من أهرامات مصر شموخها وخلودها وعبقرية بنائها، ومن ثم كان والعبقرية صنوان لا يختلفان .

* * * * * * *

العقاد رئيس جمهورية الفكر

قلم الكاتب العبقرى - كما هو مع العقاد - أقوى من الصمصام، وأشد فتكًا من الضرغام

وقد عرف المصريون القدماء فن الكتابة فى فجر التاريخ وقُبيل غيرها من الدول ،هذا هو الرأى الراجح بين علماء المصريات وفقه اللغة المقارن .

ويذكر علماء التاريخ أنه عندما وحد الملك مينا نارمر الوجهين القبلى والبحرى فى مصر، وأسس الأسرة الملكية الأولى حوالى ٣٢٠٠ قبل ميلاد السيد المسيح أضحت الكتابة وسيلة المصريين لتدوين تاريخهم، وأحوال حياتهم، وبهذه المثابة أصبحت الكتابة حدًا فاصلًا بين عصور ما قبل التاريخ وعصوره اللاحقة.

وسبقت مصر فى هذا المضمار الأدب العبري، وكذلك الأدب البابلى .

والأستاذ العقاد صاحب الخطاب التاريخى التالى هو نفسه الأستاذ العقاد الذى رفع كتب (دكتور شويتزر) الطبيب المفكر العالمى الذى نال أيضًا درجة الدكتوراه فى الفلسفة، من طائفة (المفكرين) إلى طائفة (المبشرين) بعد أن علم أنه يعمل (بالتبشير) فى أفريقيا مع أن له فلسفة عبقرية أى شويتزر فيما قرأناه عنه تقوم على المبدأ الذى أطلق عليه احترام الحياة the reverence for life .

ففى غضون شهر ديسمبر ١٩٦٠ فى الخامس عشر منه، وفى أول عيد للعلم الذى أقيم لتكريم الفائزين فيه بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، وقد كنا نحن وبتوفيق من الله من ضمن هؤلاء المكرمين، وجلسنا فى الصف الأول

والدى رحمة الله عليه وأنا حيث شهد هذا الحفل الزعيم جمال عبد الناصر ، وقد أكتفى الرئيس عبد الناصر بتسليم الجوائز التقديرية لأصحابها، وأعتذر عن تقديم بقية الجوائز لبقية الفائزين لشعوره بالتعب . وقد قيل لنا أن الرئيس مصاب بالسكر وكان هذا مثار دهشتنا وحزننا عليه .

وقف عملاق الفكر الأستاذ العقاد الذى فاز بجائزة الدولة التقديرية فى الآداب عن ١٩٥٩ يلقى كلمته أمام جمال عبد الناصر شامخًا جليلًا مهيبًا، ولا جرم أن نذكر بهذه المناسبة أننى قد لحظت أن قامته قد علت قامة جمال عبد الناصر الذى كان يتميز بأنه فارع الطول .

وقد لاحظت أن صوت العقاد لم يكن واضحًا وهو يلقى خطابه عبر الميكرفون.

وتعجبت ولكن زال عجبى بعد أن علمت من الأستاذ أنيس منصور أنهم أبعدوا الميكرفون عن فم العقاد حتى لا يظهر كلامه واضحًا بسبب أنه لم يذكر أو يمتدح اسم الرئيس جمال عبد الناصر وحتى لايعلم الناس ذلك من خلال عدم وضوح نطق الأستاذ العقاد . وعندما علم العقاد بذلك بعد ذلك، ثار ثورة عارمة وقال : لقد أخذت الجائزة التقديرية من الشعب على يد الحكومة . وكان ذلك انتقامًا منه لهم ردًا على حكاية الميكروفون معه !.

قال أستاذنا العقاد فى خطابه التاريخى :

فى هذه الهالة من حضرة الرئاسة السامية، وفى ملأ من هداة العرفان والمهتدين بهداة، وعلى مسمع من العالم العربى حاضرا حيًا وماضيًا خالدًا ومستقبلًا موعودًا بالمزيد من جد الحياة ومجد الخلود، وبين أعياد العلم وتهانى العلماء والمتعلمين، إننى لفى محراب .

ثم وأسدى شكره إلى الدولة متمثلة فى زعيمها قائلًا : إننى لفى المحراب

الذى يملى دعاء الشكر فريضة واجبة بل فريضتين واجبتين، لأنهما فريضة فى الأعناق وفريضة فى الرءوس، أقربهما منى وأولاهما بى فريضة الشكر على النعمة التى تخصنى وتنهى إلى، ولست أطيل فيها ولا أحمد لنفسى أن أطيلها، خشية أن يسبق إلى الخاطر أن الإطالة تؤدى حقًا لا يؤديه الإيجاز، وإننى أطلب فوفيت، وفرغت من قضاء الشكر على ماتلقيت، وإنه لمقام يستوى فيه الإطناب والاقتضاب، ويتلاقى فيه الابتعاد والاقتراب .

فمهما يكن من وفاء واحد من الآحاد فما هو بكفاء حق الألوف شاهدين، وغائبين، وحق المستمعين اليوم والمستمعين بعد حين، ولا بأس فى حيلة إذا قصر الحول عن بلوغ مداها، ومن الحيلة أن أتجه بالشكر فردًا إلى كل فرد من أصحاب الأيادى المشكورة على حدة، فعسى أن يقال : واحد أسدى وواحد شكر، ولو تردد التكرار والتعداد آحادا بعد آحاد.

والفريضة الأخرى بل الأولى، فريضة الشكر على النعمة الكبرى واليد الطولى، نعمة الوعى القومى الذ وعانا فوعيناه، ورعانا فرعيناه، وعى بحمد الله يقوم القيم فى عالم الفكر والثقافة، ويحكم لنفسه فيزكيه أهل الذكر والحصافة، ويشملنا جميعًا فيمن يختارهم لجوائز الدولة والأمة، تبرزهم جمهرة القراء، وتؤيدهم صفوة العلماء .

وتحدث فى كلمته عن القيم فى العصور القديمة، بقوله : وقديمًا كانت قيم الدنيا والدين وقيم العلم والمال، وكل قيمة يعتز بها الحاكم والمحكوم تبعًا للسلطان القاهر، يلقى بها من علٍ فيتلقاها الناس طائعين خاضعين بل مطرقين مغمضين . كان زمن من الأزمان ينعم فيه السلطان بطيالسة المجد والعظمة، بل بمسموح الزهد والتقوى، فإذا بالمنعم عليه مجيدًا ولو كان فى ذل العبيد، وإذا بالغوى العصى زاهدًا متصوفًا، وإن كان فى الزهد والتصوف زهيدًا، أو

دون الزهيد. فالحمد لله على ما ألهم هذه الأمة من وعى يُقوم القيم فى موازين الأدب، ومن رأى عام يجتهد بالرأى دائبًا، فيسمع له فيما اجتهد ودأب . وحسبنا من شرف أن يحسبنا علامة من علاماته، وعنوانًا من عناوينه، وأن يختارنا كرما منه سببًا من أسبابه لتسجيل حكمه، وإعلان فضله، وإنه لفى يد الله جل وعلا أن يؤهلنا لهذا الحق، وأن يجعلنا كفئًا له فيما نصنع إن شاء، وفيما صنعنا كما شاء . إن أسعد عيد من أعياد صاحب القلم أن يكتب بقلم تحمله معه بنان القارئ، وأن يخط على قرطاس تبسطه أمامه عين المتصفح، وأن يكون تقديره من قبل أمته اشتراكًا معه فى الفهم والإفهام، ومعاونة له على الفيض والإلهام، وأن يسمع فيه صوت الاختصاص ملبيًا لصوت العام والخاص، وتأتى فيه موازين الفنون رجحانا لموازين الأذواق، قدرًا من الأمة وإليها، وفضلًا محسوبًا لها ومحسوبًا عليها

وأخيرًا ختم العقاد حديثه بكلمته المأثورة : وتلك هى (جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم)، وجوائز الأمة مرادفة فى معناها لجوائز الدولة .

لا جَرمَ تهل على أعيادها طلعة الرئاسة مشكورة مأثورة باسم الدولة واسم الأمة، وتبعث فيها أشعة الآمال فى خير ما يرجى من شمائل الحرية والاستقلال.

وكان قرار لجنة الجائزة التقديرية وهى اللجنة التى قررت حق العقاد جائزة الدولة التقديرية، وبعد أن رشحته خمسة عشر هيئة من ثمانى عشر .

وهذه الجائزة ليست حجة على العقاد ولكن العقاد حجة عليها وهو تعبير العلامة السنهورى بمناسبة حديثه عن عبد الحميد بدوى باشا قاضى محكمة العدل الدولية إذ لم ترشحه الدولة لهذه الجائزة إذ قال ونحن حضور أمامه فى جمعية التشريع والاقتصاد بمناسبة تأبينه لبدوى باشا:

إن جائزة الدولة ليست حجة عليه ولكنه هو حجة على الجائزة

وهكذا وكما ألمعنا نرى العقاد .

قالت اللجنة المذكورة فى حيثيات حكمها :

وقف الأستاذ عباس محمود العقاد حياته كلها على خدمة الفكر والأدب، وقد توفر على ذلك منذ شبابه الأول، فقضى خمسين عامًا فى المطالعة والتأليف، حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الإنتاج، وقد كانت نظرته إلى الأدب نظرة جد لا نظرة لهو تسلية، ومما يدل على شدة إيمانه بجد الأدب وبعده عن لهوه وتسليته، وفرة مؤلفاته، حتى نيفت هذه المؤلفات فى منظوم القول ومنثورة على السبعين .(ولقد تعدت هذه المؤلفات حتى نيفت على ١٠٦ مؤلفًا) فضلًا عن الآلاف من المقالات .

خاض الأستاذ عباس محمود العقاد فى كثير من أبواب الأدب، فقد بدأ حياته بالنقد، فنقد بعض كبار الشعراء فى عصره، ولم يقتصر فى نقده على التنبيه على أمور تتعلق باللغة وحدها، كما نظر إلى القصيدة من حيث وحدة موضوعها، وتسلسل أجزائها، وتماسك هذه الأجزاء، كما نظر إليها من حيث عمق أفكارها، ثم وسع آفاق الشعر بحيث لا يقف الشاعر على موضوعات معينة متعارفة، وإنما يتعرض فى شعره لكل ما يمر به فى الحياة، وقد غلب الفكر على موضوعات الشعر فى دواوينه المختلفة بحيث يمكن نقل هذه الموضوعات من لغة إلى لغة دون أن يذهب جوهر معانيها .

ولم يكن الأستاذ عباس محمود العقاد ناقدا نظريًا فحسب، وإنما قرن نقده النظرى بالعمل، ليطابق بين نقده وبين شعره، فجاء شعره مطبوعًا بهذا الطابع الذى دعا إليه فى نقده، فهو من هذه الناحية نقاد يبنى لانقاد يهدم.

لم يحبس الأستاذ عباس محمود العقاد قلمه على النقد وحده، وإنما جال فى

ميادين كثيرة من الأدب، أعظمها شأنًا الدراسات الأدبية وتحليلات الأشخاص، أما الدراسات الأدبية وحسبنا منها كتابه ابن الرومي فقد تغلغل فى هذا الكتاب إلى خفايا أخلاق الشاعر وحياته وفنه، فكشف الغطاء عن أسرار هذه الأخلاق وهذا الفن، بحيث لا يرى المرء فى هذه الدراسات إلا أصالة فى الرأي، وإنصافا فى الحكم، وبراعة فى التعليل، فلم يقص الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه ابن الرومي قصة هذا الشاعر، ولا سرد أخباره على نحو ما تقص القصص وتسرد الأخبار عادة مجردة من عناصر الحياة، وإنما صور ابن الرومي تصويرًا، وجمع لصورته عناصرها كلها، فلم يفته شيء من خطوطها وألوانها، ولا من ظواهرها بواطنها، حتى أصبحت صورة ابن الرومي كأنها جسم حي، وكأنها روح ناطقة .

وكما برز فى الدراسات الأدبية فقد برز فى تحليله لطائفة من شخصيات عصره وأعاظم رجال الإسلام، فقد استطاع أن يلقى على أولئك الأعاظم ضياء ساطعًا، بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان أخلاقهم، وبحيث يدرك عظمة الإسلام ورجاله أتم إدراك، فيجد أبناء هذا العصر فى كتب الأستاذ العقاد فى هذا الباب قوة لهم يقتدون بها، فيزدادون صلابة فى إيمانهم وشدة فى قوميتهم .

ولم يفت الأستاذ عباس محمود العقاد بعد دراساته الأدبية وبعد تحليله لأعاظم العرب والإسلام سر القصة، كما تدل على ذلك قصته سارة ، وعالج نوعًا آخر إلى جانب القصة وهو المذكرات، وقد أصبحت لهذا النوع الأدبى منزلة رفيعة فى الغرب فقد أخذ القراء يميلون إلى أن يواجههم المؤلف رأسيًا بأسرار حياته .

وإذا تركنا أفق الأدب والتفتنا إلى أفق الفلسفة وجدنا أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد وضع كتابه مجمع الأحياء ليوضح نضال الأهواء والمبادئ،

وليبلغ كنه الحكمة التى تبدأ منها وتعود إليها أعمال الناس ومساعيهم فى هذه الحياة، وقد توسع فى شرح معانى الخير والشر والحق، ومزج هذه الفلسفة ببعض الخيال حتى تخف أفكارها على الأذهان، ويسهل دخولها على النفوس، فتصور أجتماعًا للأحياء فى غاب أفريقية، أنطق فيه الحيوانات .

وله فى هذا الباب مباحث فلسفية ثانية تتصل ببعض فلاسفة الغرب والشرق .

ولم يعن الأستاذ عباس محمود العقاد : بأدب العرب وحدهم، ولكنه كتب عن كثير من أدباء الغرب، بفضل معرفته الإنجليزية وسعة اطلاعه على أدب الإفرنجة، وكتابه : تذكار جيتي فيه نصيب عظيم من صفاء الذهن وصفاء الأسلوب، فلم يغب عنه تصوير عبقرية جيتى وشخصيته وعقيدته وآرائه، كما لم يغب عنه تحليل النفس الألمانية، وما اجتمع فى هذه النفس من عناصر شتى كالتدين والفلسفة والموسيقى والأناشيد وغير ذلك.

وعلى هذا النحو جرى فى تعريفه بشكسبير .

وإذا كان العصر الذى نعيش فيه عصر الديمقراطية فقد دافع الأستاذ عباس محمود العقاد عن الديمقراطية دفاع المؤمن بها، فهى لم تضعف فى نظره، بل ستكون أساسًا للحكم فى المستقبل تبنى عليه قواعد الحكومات. دافع عن الديمقراطية وحذر الكتاب المسرفين فى نقدها عواقب هذا النقد، لأنه إذا بطل الإيمان بها فلن يخلفها نظام أصلح منها .

كان هذا هو خطاب عبقرى الفكر عباس محمود العقاد الذى آثر فى خطابه أن يزجى شكره إلى البلد الذى رعاه فرعاه، ووعاه فوعاه منحيًا توجه هذا الثناء إلى رئيس الدولة فهو وإن كان هو زعيم مصر إلا أنه حضر لتسليمه الجائزة باسم الدولة وليس باسمه هو.

وهكذا كان العقاد اعتزاز بنفسه وإعلاء لفكره فجمهورية الفكر لديه خير قرين لجمهورية الحكم .

هذا المفكر الألمعى بلغ من شدة حقد الشانئين له والحاقدين عليه أنهم أرادوا ذات يوم أن يقتلوه من قبل فئة ضالة مضلة إلى فدبروا مؤامرة لاغتياله وهو مقيم فى بيته بمصر الجديدة .

وفى ليلة ليلاء تكأكئوا على منزله بعد أن عقدوا العزم على قتله . إذ كانوا يعلمون أن هاتف المنزل بجوار النافذة التى تطل عليهم فدقوا جرس الهاتف حتى يخرج العقاد ليرد عليهم ويسمى يكون فريسة سهلة لهم، ولكن شاء الله أن يكون العقاد منشغلًا بالبحث عن كتاب فى مكتبته عن سيدنا الحسين رضى الله عنه فما كان منهم إلا أن أمطروا بيته بوابل من الرصاص عبر النافذة، وشاء الله أن يحفظ العقاد من مكرهم وبطشهم .

وبعد ذلك توجه واحد منهم إلى بيت الأستاذ العقاد وطلب مقابلته عندما رأى العقاد يأتى إليه دخل فى نوبة من البكاء معترفًا له بالمؤامرة التى حيكت ضده بغية اغتياله، ولما علمت وزارة الداخلية بذلك أقامت حراسة دائمة على بيت العقاد .

وهكذا أراد الله أن يحفظ العقاد رئيس جمهورية الفكر المصرى .

بعد أن انتهينا من كتابة هذه الرسالة قرأنا فى المجلة العربية مقالًا للدكتور عبد الرحمن العرفج قال فيها :

يروى أن الرئيس جمال عبد الناصر، كلّف من يتصل هاتفيًا بالأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، ليخبره أن السيد الرئيس يرغب بلقائه، فحدد العقاد الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى موعدًا للقاء، وفى العاشرة والنصف من ذلك الصباح، عاد الرجل إلى الاتصال هاتفيًا به ليسأله عن السبب فى عدم

حضوره لمقابلة الرئيس، فكان جواب العقاد: الحضور إلى أين؟! لقد انتظرت الرئيس فى بيتى أكثر من نصف ساعة ولم يحضر!.

العقاد من (غفلته) ظن أن السيد الرئيس سيزوره فى منزله (العامر بالأدب)! هكذا يكون الأديب الفنان حين تدركه غفلة الصالحين!.

ولم يكن الأستاذ العقاد فى غفلة عندما ظن هذا ولكن وقدة الشعور بكرامته المتأصلة فى شخصيته دفعته إلى أن يقر فى ذهنه هذا اللبس الذى دفعه إلى هذا الظن، إن كان هذا الظن قد جال بخاطره .

ألم يزره الملك فاروق فى بيته كما أسلفنا؟ وألم يزره فى بيته زعماء مصر وعلى رأسهم الزعيم مصطفى النحاس؟ .

فلماذا إذن لا يزوره الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان معجبًا به أيما إعجاب؟.

عندما أراد البعض أن يلصق بالعقاد تهمة مصادرة بعض المقالات عندما كان يعمل - ولمدة أيام قلائل فى قسم المطبوعات وإنما إلى علم الرئيس عبد الناصر هذا ، نفى الرئيس عن العقاد هذه الوصمة قائلاً : لا أعتقد أن العقاد يقدم على هذا فهو المصرى الوطنى الذى طالما أنتشق قلمه دفاعاً عن حرية الرأى .

* * * * * * *

العقاد .. وعلم المعانى

.. علم المعانى أحد علوم ثلاثة تشكل البلاغة العربية .. والبلاغة مأخوذة من قولهم : بلغت الغاية إذ أنتهى الإنسان إليها وقام تبليغها لغيره . وقد سُيميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب سمعه فيسمعه فيفهمه . ويقال: بلغ الرجل بلاغة ، إذا صار بليغاً ، أى حسن الكلام .

.. وقد أختلف أهل العلم فى مفهومها ووصف بيانها وقد أورد ابن رشيق القيروانى فى كتابه العمدة طائفة من أقوال البلغاء فى تحديد مفهوم البلاغة . وقد قيل لأحدهم ما البلاغة ؟ . فقال : قليل يُفهم وكثير لا يُسأم وإذ سئل أخر فقال : معان كثيرة فى ألفاظ قليلة . وقال أخرون : هى إصابة المعنى وحسن الإيجاز . وسئل بعض الأعراب : من أبلغ الناس ؟ فقال : أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهةً .

.. كما ذكر آخرون إنها الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خَطَل .

.. كتب أحدهم إلى صديق له فقال :

إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، فإذا كان الإيجاز كافياً كان الأكثر عيبًا .

.. وقيل لأرسطاطاليس : ما البلاغة ؟. قال : حسن الإستعارة

.. وقال عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث : البلاغة الفهم والإفهام ، ومعرفة الإعراب ، والإتساع فى اللفظ ، والسداد فى النظم ، والمعرفة بالقصد والبيان فى الأداء والأكتفاء بالإختصار عن الإكثار .

.. أى أن خير الكلام ما قل ودل .

.. أما الفصاحة فهى من قولهم أفصح الصبح إذا ظهر وأضاء ، وأفصح اللبن إذا أنجلت عنه رغوته فظهر .

.. ومن ثم فإن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد .

(راجع الدكتور عبد العزيز عتيق ـ علم المعانى ـ دار الأفاق العربية ٢٠٠٦)

.. لما كان ذلك كذلك . وهو كذلك فقمين بنا إذن أن نقول إن الأستاذ العقاد كان بليغاً فصيحاً قوى المنطق فى بلاغته ذرب الناس فى فصاحته ولسانه يعبر عما فى عقله ، وعقله إنما يعبر عنه لسانه.

.. وإذا كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين قد ارتأى فى مجال نقده للعقاد أن عقل الأستاذ أطول من لسانه ، وذلك للإيجاز الذى يميز العقاد فى كتاباته .

.. بيد أننا نرد على العميد قائلين :

إن إيجاز الأستاذ العقاد فيما كتب ودبجت يراعته إنما كان إيجازاً غير مخل بل يتفق مع القول القائل : الإيجاز إعجاز.

.. كما يتوائم مع القول السالف الذكر : إن الإيجاز بغير عجز هو البلاغة ذاتها .

.. أنظروا إلى قول العقاد فى قصته (سارة) :

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت .

.. يريد الأستاذ العقاد أن يقول :

إن المنافق يتميز دائماً بوجهين يظهرهما للناس غير مايبطن ، ولا جناح عليه كما يرى المنافق فى ذلك .

.. أما ذو الوجه الواحد فإن صدقه وصراحته وعدم مداجاته لأحد مهما كان فإن هذا يجعله ميتاً فى نظر أصدقائه وخصومه على السواء .

.. هنا تظهر عبقرية العقاد فى الإيجاز والإعجاز وفى البلاغة والفصاحة معاً ، وهذا هو ديدن الأستاذ العقاد فى كتاباته وفى شذراته ونفحاته الفكرية التى ذكرنا نتفاً منها فى هذا الرسالة .

العقاد الأديب العالم

الذى لا مرية فيه أن الأستاذ العقاد كان (أديبًا فى ثوب عالم، وعالـمًا فى ثوب أديب) ولا يختلف اثنان على هذا .

يذكر الدكتور حسين محمود فى كتاب عباس محمود العقاد خمسون عامًا من الحضور المتجدد :

المعلومات الأولية البسيطة تطرحها دائرة المعارف (ويكيبيديا باللغة الإيطالية) عن عباس محمود العقاد تطرحه شخصًا بسيط التعليم، غزير الإنتاج الفلسفي، وكاتبًا فى مجالات الدين والجغرافيا والتاريخ، وعارفًا جيدًا للغتين الإنجليزية والفرنسية . كما تقدمه أيضًا مؤسسًا لمدرسة الديوان الشعرية مع إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى . أما أشهر أعماله التى توردها الموسوعة المجانية فهي العبقريات ، الله ، و سارة ، وقالت إن بعض هذه الأعمال مترجمة إلى الإنجليزية، كما ألمحت إلى أنه اشتهر بالأسلوب النثر الثرى والمعقد . والطريف أن ويكيبيديا أفرجت مساحة لعلاقاته الرومانسية مع الكاتبة اللبنانية المسيحية سارة التى ألف عنها الرواية التى تحمل اسمها، والممثلة مديحة يسري، التى أنهى العلاقة معها لأنها أرادت الاستمرار فى مهنة التمثيل، وأنه كتب قصيدة عن هذه العلاقات بعنوان أعاصير مغرب ، وأن حياته كان موضوع مسلسل تليفزيونى بعنوان العملاق أذيع فى الثمانينات، ولعب بطولته الممثل محمود مرسى . ولكن هل تكفيب هذه المعلومات البيوجرافية التى لا تتسم بالعمق والشمول فى تقديم شخصية عباس محمود العقاد إلى المتلقى الإيطالي؟ هذا ما نحاول فى هذه الورقة أن نتعرف عليه .

فى إيطاليا يعرفون العقاد، ولكن معظم المتخصصين فى الآداب الشرقية والعربية يعرفونه جيدًا . فعندما يذكره دارس مستعرب فى مجلة الدراسات والبحوث الاستشراقية مثل فرانشيسكو ميديتشى وهو يقدم ميخائيل نعيمة، ويدلل على أهميته بأن من قدم له كتاب الغربال هو العقاد ويورد رأيه فيه فإن ذلك يدلل على مكانته .

أما الموسوعة الإيطالية الحقيقية، وهى التى تحمل اسم تريكاني وتعادل فى أهميتها وشهرتها وموثوقيتها الموسوعة البريطانية بريتانيكا ، فقد أفردت للأدب العربى الكثير من الصفحات، ولم تهمل فى استعراضها للأدب العربى ذكر عباس محمود العقاد، فتقرأ فيها :

أن العقاد صاحب الإنتاج الأدبى لهذين العقدين (من ١٩٣٠ حتى ١٩٥٠) صاحب حياة روحية قوية للشعوب العربية، وخاصة تلك التى تقع فى المركز الجغرافى والثقافى للعالم العربي، أى مصر وسوريا ولبنان . كان الأدب المصرى دائمًا فى موضوع الريادة فى الحياة الثقافية العربية، وقد ظهرت فى تلك السنوات شخصيات أدبية لها باع مثل حافظ وشوقى ومى زيادة، وغيرهم، وتبع كثيرون غيرهم أعمالهم موسعين من شهرتهم فى العالم العربى كله، وفى أوروبا أيضًا، مثل القصاص محمود تيمور، و(العالم) عباس محمود العقاد والناقد طه حسين، والمسرحى توفيق الحكيم، وكلها شخصيات عظيمة الشأن فى الأدب العربى الجديد الحديث المعاصر . مثل هذا النص الوارد فى الموسوعة الإيطالية الأشهر يمكنه أن يساهم فى تشكيل وعى المتهمين بأهمية الشخصيات الأدبية المذكورة، فهى مرجع واسع الانتشار، وحقيق بالتصديق . والصفات التى يخلعها النص نفسه على الشخصيات الأدبية التى ذكرها ربما تحدد بشكل كبير المدخل الذى يشكل الصورة الذهنية التى تتشكل فى الوعى العام عن هذه الشخصيات، ومما يلفت النظر أن الموسوعة اعتبرت عباس محمود العقاد (عالمًا)، فيما اعتبرت طه

حسين ناقدًا، وربما كانت هذه الصفة التى سوف تلازم الحديث عن العقاد فى جل ما يذكر عنه .

كتب الأستاذ العقاد فى الأدب المصرى وعن الآداب العالمية عشرات الكتب ومئات المقالات بغزارة فكر غير مسبوقة شارحًا ومفندًا لنظريات الأدب المختلفة وكذلك كتب عن عظماء العالم الشرقى والغربى بأسلوب متين يتميز بالإيجاز والإعجاز عرف به فى دنيا الأدب فهو يتميز بعمق التفكير وجزالة العبارة وجمال الأسلوب مسبغًا على ما كتبه لمحاته الأدبية النفاذة وفكره الفلسفى الثاقب ونظرته الشمولية وتحليلاته الموضوعية بتألق ذهنى وفكر موسوعى وبتشريح علمى فى كل ما دبجته يراعه من كتب أو مقالات أو أبحاث تدور حول الأدب ومدارسه سواء فى مصر أو فى العالم الغربى . قل أن يوجد له نظير بين أدبائنا وكتابنا.

فالعقاد وكما ألمعناأديب فى ثوب عالم وعالم فى ثوب أديب .

ومن هنا جاءت عبقرية العقاد العلمية التى فاق بها المتخصصين وبز بها المتعمقين فى مجال العلم نفسه .

لقد صاغ الكثير من العلماء فضلًا عن العامة لأذانهم لما شاع وذاع من أن الإنسان قد تطور من عالم القرود إلى ما آل إليه، فعلماء أوروبا كانوا يقولون: إن الإنسان من أصل قرد، ويعلق العلامة الفيلسوف الألمانى الشهير أرنست هيكل Ernst Haeckel! وعالم الأحياء على هذا قائلًا: لم يكن هذا ليقع من نفسى موقع الاستغراب والدهشة، بل قلت فى نفسي: إنهم لم يجئوا بشيء أكثر من أنهم عكسوا الحكاية، فالعامة عندنا تقول: إن القرد من أصل إنسان، والخاصة عندهم تقول: إن الإنسان من أصل قرد، ولا نجد فى ذلك غرابة فقد قرأنا فى إحدى الصحف الإفرنجية (جريدة الأيكودى باري) أن أحد العلماء

الذين زاروا الكنغو فى العهد الأخير يقول بنفس هذا الرأي، ويروى أن قبيلة من الناس كانت تعيش بالقرب من (بلوتو) من عهد عهيد فأخنى عليها الدهر وانتابها الفقر المقدع فآوت إلى الغابات خيفة الذل والاسترقاق والعبودية، وهناك فى جوف هذه الغابات العذراء وتحت تأثير الحياة الوحشية سنوات عديدة تبدلت جسوم أولئك الناس، وتغيرت أشكالهم، واختفى جلدهم تحت طبقة من الشعر وفقدوا ميزة النطق، ولكنهم أصبحوا ذوى خفة لأنهم اعتادوا أن يقضوا أغلب أوقاتهم متسلقين الأشجار، ولا تزال الأنسال من هذه الطائفة تعيش فى خوف الغابات الواسعة فى أفريقيا الوسطى ولا يزال الناس هناك يسمونهم بالناس القردة.

(راجع فصل فى مقال – فى فلسفة النشوء والارتقاء – أرنست هيكل وترجمه إلى العربية حسن حسين – ١٩٢٤).

كان الأستاذ العقاد أول من صحح مقولة (داروين) التى شاعت وذاعت على ألسنة الخاصة قبل العامة والتى نسبت إليه خطأ : (البقاء للأصلح) ليعلنها أن داروين لم يقل بهذا وإنما قال البقاء للأنسب وليس للأصلح فإن الإنسان يموت وهو الأصلح ويحيا الميكروب وهو الأنسب ؟ . وعندما يعترض العقاد على تهليل بعض العلماء الأمريكيين على اكتشافهم لذبت أخضر على سطح المريخ يثبت وجود حياة على أرض هذا الكوكب . فينبرى له أستاذ علم الفلك فى جامعة القاهرة يريد أن يدهشه أو يعلمه أن هناك عالمين أحدهما يدعى (برسيفال) والثانى يسمى (لويل) قد قالا بهذا ويرد العقاد على أستاذ الفلك والذى ندهش له حقًا قولك أن هناك عالمين أحدهما يدعى (برسيفال) والثانى يدعي لويل ؟؟ فالواقع أنه يوجد عالم واحد فقط يدعى (برسيفال لويل)

ثم يردف العقاد قائلًا : أن ما أراد الدكتور أستاذ عالم الفلك أن يثبته، منفى

فى كتب الثقات من الفلكيين وأخرهم أكبر عالم فى علم الفلك ويدعى (شباريلي) فى كتاب له بلغ من ذيوغه وانتشاره أنه كان مثار التقريظات الصحفية والإذاعية فى أوربا وفى أمريكا وسوف يأتى تفصيل هذا فى الصفحات التالية.

وهذه هى إحدى ملامح العبقرية عند العقاد .

وفى مجلة العربى العلمي الصادرة فى فبراير ٢٠١٤ أى بعد وفاة العقاد بما ينيف عن النصف قرن قرأنا فى المجلة المذكورة ما يؤكد ما ذهب إليه العقاد فى هذا الخصوص :

يعتقد لفيف من العلماء بوجود مخلوقات أخرى غير الموجودة على سطح الأرض ولأن العديد من العلماء يعتقدون بوجود مثل هذه المخلوقات وأن الحياة لابد أنها تضج فى أمكنة موزعة فى هذا الكون الفسيح أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) عام ١٩٩٢ برنامجًا بحثيًا جديًا هو، سيتي (أو البحث عن ذكاء لا أرضي) بهدف البحث عن حياة ذكية خارج كوكب الأرض. يستخدم هذا البرنامج تلسكوبات راديوية يتم نشرها عبر العالم وتوجيهها نحو نجوم بعيدة فى محاولة لالتقاط إشارات راديوية اصطناعية المنشأ. وحتى اليوم لا تزال النتائج سلبية تمامًا . ربما هناك إشارة واحدة التقطت عام ١٩٧٧ سميت واو ويعتريها الشك لأن العودة إلى الموجه نفسها لم تنجح بالتقاط أى إشارة بعد ذلك الحين .

وعلى الرغم من أن عدد الكواكب المكتشفة حول نجوم بعيدة حتى حوالى مائة سنة ضوئية بلغ حتى اليوم ١٠٤٠ كوكبًا ولم تلحظ فيها أى إشارة تكنولوجية أو أى دليل حتمى على وجود حياة عليها، فإن هذا لا ينفى قيمة الاهتمام بالبحث عن حياة وذكاء خارج كوكب الأرض، آخذين بالحسبان كل

الاعتبارات العلمية والدينية، وخاصة أن علماء الفلك يقدرون عدد الكواكب في مجرتنا (درب التبانة) بحوالى ٤٠٠ مليار كوكب!.

إن التساؤلات حول احتمال حياة خارج الأرض (E.T.I) أو ذكاء خارجج الأرض (E.T.I) لها قصة طويلة . الفلاسفة الأوائل فى اليونان القديمة (قبل حوالى ٦٠٠عام قبل المسيح) كان الفلك اهتمامهم بامتياز . فقد انشغلوا طويلًا بالتساؤل عن طبيعة الكون وطريقة ولادته . أول هؤلاء المفكرين كان طاليس (٦٢٤ ٥٤٦ ق.م) الذى وصف الكون كميدان حى ممتلئ بالآلهة، وليس فيه مادة خاملة .

فالفيلسوف اليونانى ديموقريطوس (٤٦٠ ٣٧٠ ق.م) كان أكثر علميةً، فقد قال بوجود عوالم لا تحصى فى الكون، فى مركز كل منها كوكب مأهول . لكن فى القرون الوسطى، لم يكن الاعتقاد بوجود ذكاء خارج الأرض شائعًا وأن النجوم والكواكب الأخرى ليست سوى قناديل فى ليل الأرض . وحيث تتجول بين بنى البشر أرواح غير مرئية من ملائكة وشياطين ومع رصد الفلكي برسيفال لويل أنه رصد أقنية على سطح المريخ، ومع التطور الكبير الذى شاهدته أجهزة الرصد وعملياته تأكد الفلكيون لاحقًا أن ما شهده لويل لم يكن سوى أخاديد جيولوجيا وسلاسل جبالية تخترق سطح المريخ .

أى أن ماذهب إليه العقاد وكتبه لم يثبت العلم عكسه حتى الآن؟!

والعقاد أول من كتب عن (البحث العلمي) فى (تاريخ الأدب) وسلط (قراءاته العلمية) على كشف أسباب وفاة أمرئ القيس وابن الرونى من الأقدمين وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبى من المحدثين، فحلل أسباب وفاتهم باستخدام علم الطب . وعلى غير ما دون عنها فى كتب السيرة وفى كتب التاريخ. (مجلة الأزهر ١٩٦٠)، وكما سوف يأتى .

يقول العقاد :

لنا رأى خاص حول فائدة البحث العلمى فى تمحيص تاريخ الأدب محصلة أن استخدام هذا البحث قمين أن يبين لنا موضوع الصحة وموضع التلفيق من كل خبر وكل رواية، لأنه يبين لنا صعوبة التلفيق، بل استحالته أحيانًا على من يريده ويتعمده، إذا تكشف المقابلة بين الأخبار والروايات عن حقيقة علمية كانت مجهولة فى الزمن الذى ترجع إليه .

وتنكشف هذه المقابلة بين أخبار امرئ القيس (الملك الضليل ذى القروح) حقيقة القروح التى قيل إنه أصيب بها من أثر حلة مسمومة أرسلها إليه قيصر انتقامًا منه لمغازلته بعض حرمه فإذا بالإصابة كلها تتمشى بأعراضها من أيام صباه ؛ إذ كان له كما قالت إحدى صواحبه عرق يفوح برائحة كلب . وكانت تلازمه حالة من حالات الخلل الجنسى تشاهد مع حالات الالتهاب الجلدي، ولابد أن تنتهى مع إهمال العلاج إلى عواقبها التى ظهرت قبيل وفاته .

ونود أن نتبسط الآن بعض التبسط فى أمثال هذا الخبر عن موت امرئ القيس، فإننى تبينت بعد المقابلة بين أخبار الكثيرين ممن توسعت فى درس سيرتهم وقيل عنهم بإجماع الرواة إنهم ماتوا مسمومين أن الآفة كلها فى هذه الأخبار إنما هى آفة العجز عن تطبيق النقد العلمى والتعجل فى صرف الحوادث التاريخية بالعلل القريبة، على مثال التحقيقات الجنائية التى تحتم بإحالة الأمر على القضاء والقدر ؛ إيثارًا للسهولة وإخلادًا إلى العفو والعافية .

ومن أصحاب السير التى توسعت فى درسها وانتهت حياة أصحابها على قول المؤرخين بدس السم لهم فى الطعام أو الدواء سيرة ابن الرومى فى الأقدمين وسيرة جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى فى المحدثين، فإن أيسر مراجعة علمية للأعراض التى صحبت وفاتهم خليقة أن توجه النظر إلى

تعليل الوفاة بأسباب غير السم، وأن تصحيح أخطاء المؤرخين فى أمور كثيرة ترتبط بتاريخ العصر كله ولا تنحصر فى سير أولئك الأدباء والزعماء .

فالمشهور عن وفاة ابن الرومي كما جاء فى تاريخ ابن خلكان وغيره: أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش . فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم، فقال له الوزير : إلى أين تذهب؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه، فقال له : سلم على والدي! قال له : ما طريقى على النار .

وقد تداول المؤرخون من الشرقيين والمستشرقين هذه القصة وأعجبهم موقع النكتة منها مع وضوح الكذب فيها وسهولة الاهتداء إليه بالرجوع إلى تاريخ وفاة عبيد الله ابن سليمان الذى طلب الوزير إلى الشاعر أن يبلغه سلامة فى العالم الآخر، فإنه كان حيًا بعد آخر تاريخ ذكره الرواة لوفاة ابن الرومى بأربع سنوات، إذ مات سنة ثمان وثمانين ومائتين .

والعجيب فى قصور وسائل التحقيق عند المؤرخين أنهم لو راجعوا شعر الشاعر لعلموا أنه عاش إلى ما بعد سنة ثمانين لأنه بلغ الستين كما قال :

طربت ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابى بابن ستين أشيب

أما سبب الوفاة الصحيح فلا ريب عندنا فيه وهو تسمم جرح فسد فى جسم مريض مصاب بمرض السكر، وليس أوضح من ذلك عند مراجعة جملة الأخبار والحقائق التالية :

١- كان ابن الرومى مشهورًا بالنهم والإفراط فى أكل الحلوى والدسم .

٢- أصيب بجرح غلط فيه الطبيب كما قال :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار

والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

٣- زاره صديقه الناجم ، فى مرض وفاته فرآه يشكو من إلحاح البول وعنده ماء مثلوج، فلما لاحظ (الناجم ذلك قال :

غـدًا ينقطـع البـول ويأتى الهول و الغـول

وجعل يشـرب من الماء المثلوج ولا يروى فقال :

وأراه زائدًا فى حرقتى فكأن الماء للنار حطب

ولا حاجة إلى غير المقابلة بين هذه الأخبار والروايات لنعلم أننا أمام حالة مرضية معروفة لا شك فيها: حالة رجل منهوم مفرط منذ صباه إلى شيخوخته فى أكل الحلوى والدسم، ففصده الطبيب وهو لا يعلم خطر الفصد فى مثل حالته ثم فسد الجرح فاعتراه كل ما يعترى مريض السكر من شدة الظمأ وإلحاح البول والشعور بمثل ما يشعر به المسموم .

وليس بنا هنا أن نحاسب المؤرخين الأقدمين على قلة إدراكهم لهذه الحقيقة من جملة الأخبار التى رووها، ولكننا نستدل على صدق رواياتهم بهذه المطابقة بينها وبين الأسباب العلمية، ونخرج من ذلك إلى تحقيق جديد لرأى القائل : إن لسان الحال أصدق من لسان المقال، وإننا مطالبون بأن نستمع اليوم إلى لسان الحال قبل أن نستمع إلى أقوال المؤرخين وآرائهم فيما يقصدونه ويتعمدونه من العلل والتفسيرات .

* * * * *

ولقد شاع عن أسباب وفاة السيد جمال الدين الأفغاني أنه مات بمرض السرطان فى فكه، وأن هذا المرض أصابه من يد طبيب مدسوس عليه من قبل

السلطان أو من قبل رئيس الشرطة .

لكن السرطان لم تكن له جراثيم معروفة يلقح بها المريض فى أوائل القرن العشرين، وقد أصيب السيد بآلام فى فكه قبل أن يعرض حالته على الطبيب، وقبل أن يسوء علاجه عمدًا أو خطأ، إن صح أنه ساء .

وليس من المستغرب أن يصاب السيد جمال الدين بالتهاب الفك مع إفراطه فى تدخين التبغ الحار وإفراطه فى تناول الشاى المرير، وأن يتعسر بعد ذلك علاج الداء كما تعسر علاج داء قريب من هذا فى فك (أحمد فؤاد) مَلك مصر السابق، مع الفارق الكبير فى العناية بالحالتين، ومع التقدم فى فنون العلاج خلال ثلاثين سنة بعد أيام السيد جمال الدين . ويردف الأستاذ العقاد قائلًا: وقد دعتنى الكتابة عن الكواكبى إلى استقصاء الأخبار عن سبب وفاته فكان أشهرها وأسبقها إلى خواطر أبناء عصره أنه مات مسمومًا ولم يستطع شهود الوفاة من صحبه أن يعللوا وفاته بغير هذه العلة .

ولكننى راجعت تفصيلات الخبر فى مراجع عدة فرأيت الأستاذ محمد كرد على يقول : إنه شعر بالأمس بوجع فى بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلًا .

ورأيت الأستاذ صالح عيسى يقول : إن السيد عبد الرحمن : استدعانى إليه وكنت جالسًا إلى قربة وقال لى : أحس بوجع شديد فى خاصرتي .

وجاء فى خبر نشرته مدلة الحديث الحلبية أنه شرب قهوة مرة وبعد نصف ساعة أحس بألم فى أمعائه فقال للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة حنطور إلى الدار وظل يقئ حتى قارب الليل منتصفه فأصيب بنوبة قلبية ضعيف . .

وليس يحق للمؤرخ أن يبعد من ذهنه علة الذبحة الصدرية وهو يقابل بين هذه الأعراض من ألم الذراع وألم الخاصرة والنوبة القلبية على أثر القئ وألم

الأمعاء، وقد ذكر الأستاذ محمد لطفى جمعة فعلًا فى مقال نشره بمجلة الحديث سنة ١٩٣٧ أن الكواكبي ذهب ضحية ذبحة صدرية .

* * * * * *

.. هذا هو العقاد وهو نفسه العقاد الذى ألم به المرض . فرفض أن يعالج خارج الديار . (لأنه لا علاج له) . وشخص حالته المرضية بدقة حتى أن عالمًا طبيًا كبيرًا هو المرحوم الدكتور أنور المفتى قال للكاتب الكبير أنيس منصور الذى كان أول وأخر من عاده : أن تشخيص العقاد لمرضه لا يعرفه واحد فى المائة من الأطباء المتخصصين .

ولعل من المفيد أن نذكر هذه اللمحة العبقرية من لمحات العقاد، فعندما نشرت جريدة الأخبار المصرية فى صفحتها الأولى عنوانًا يقول:

علماء أمريكا يرصدون الحياة على سطح المريخ .

حيث أن أولئك العلماء قد توصلوا إلى وجود نبت أخضر على سطح المريخ فاستدل منه خطأ على وجود حياة على ظهر الكوكب الأحمر .

كتب العقاد مقالًا فى يومياته بجريدة الأخبار ينعى فيه ما جاء به علماء أمريكا نافيًا فيه أن وجود مثل هذه الخضرة دليلًا على وجود الحياة على المريخ.

فإنبرى الدكتور إمام إبراهيم أحمد مسفهًا رأى العقاد قائلًا لعل الكاتب الكبير (يقصد العقاد) يدهش إذا علم أن إراتستين كان قد أجرى تجربته لقياس محيط الكرة الأرضية بيد أن التجارب مازالت تترى يومًا بعد يوم لإثبات ذلك.

رد عليه الأستاذ العقاد بمقال يفصح عن عمق ثقافة العقاد العلمية التى لا يتقنها إلا المتخصصون .

فتحت عنوان : من عالمنا إلى العالم الآخر كتب الأستاذ العقاد يقول :

أذاع البرق من أمريكا، منذ أسابيع، خبرًا مفصلًا بعض التفصيل عن كشوف جديدة فى كوكب المريخ، وصل إليها أحد العلماء الأمريكيين، فوجدنا أن تلك الكشوف مشروحة فى الكتب الفلكية المبسطة وغير المبسطة التى طبعت قبل عدة سنوات، ونقلنا ما أثبته الفلكيون فى تلك الكتب عن لون الكوكب وعن الماء والأكسجين الطليق فيه وعن النبات الذى يجوز أن ينبت فى جوه، ومنه ما هو مذكور باسمه كالصبير وجزر الصخر أو زهرة الحجر التى يعرفها أبناء الكرة الأرضية .

ومن الواجب أن نقول إن تلك الكشوف مسبوقة لأنها فى الواقع مسبوقة لا يجوز أن يقال عنها بلسان البرق إنها كشف جديد لم يعرف قبل الآن .

ولكن الأستاذ الفاضل الدكتور إمام إبراهيم أحمد مدرس الفلك بكلية العلوم بجامعة القاهرة كتب إلى جريدة الأخبار الجديدة يرد على ملاحظاتنا ليقول: فلنفرض جدلًا أن الخبر كما نشر لا يحوى جديدًا فإنه ليس بخاف على الأستاذ العقاد أن أصول البحث العلمى أيًا كان نوعه تكرار المشاهدات والتجارب التى أجريت حتى منذ مئات السنين .

ونقول نعم هذا من أصول البحث العلمى التى تخفى على أحد ولا يمكن أن تخفى عليه لو أراد أن يخفيها عن نفسه . فإن البحث العلمى لا ينقطع ولا يبطل فيه تكرار المشاهدة، ولكن ليس من أصول البحث العلمى فى هذه الحالة أن يقال عن القديم السابق إنه جديد غير مسبوق، وإنما تقضى أصول البحث العلمى أن يقال إن هذا الكشف يؤيد الكشوف التى سبقته حيثما اتفق التأييد .

وأراد الأستاذ الفاضل أن يدهشنا فقال :

ولنذكر للأستاذ العقاد على سبيل المثال لا الحصر أن إراتستين فى حوالى عام ٢٣٠ قبل الميلاج حسب مقدار نصف قطر الأرض ومع ذلك قد يدهش الكاتب الكبير إذا علم أن الأبحاث فى هذا المضمار لا تزال جارية باستخدام

وسائل البحث الحديث لمعرفة مقداره بدقة أكثر .

وللأستاذ علينا حق الشكر لأنه أراد أن يدهشنا ب شيء عجيب فى هذا الزمن الذى لا عجيب فيه .

ولكن هى الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب ، ولكنه نوى أن يدهشنا فكتب له ثواب النية دون أثرها ومقصدها، فإن خيرًا بحوث أراتستين لن يدهشنا لسبب بسيط لا حيلة للأستاذ ولا لنا نحن فيه .

فحكاية أراتستين هذه قد كتبنا عنها قبل أكثر من ثلاثين سنة فقلنا فى فبراير سنة ١٩٢٤ :

وعلى خطوات من ذلك المقياس بئر أخرى لا تقل عن بئر المقياس خطرًا ولا تقصر عنها عراقة وأثرًا تلك هى على عهدة الرواة بئر أراتستين التى اهتدى منها إلى قياس محيط الأرض وأردك على قاب لمحة فيها ما لا يدركه الآخرون بغير طواف الأعوام والشهور وعرف قبل المسبح بقرنين ما أيده العلم بعد المسيح بقرون .

كتبنا هذا قبل أكثر من ثلاثين سنة، وسمعنا قصته قبل أكثر من أربعين سنة، لأن المكان الذى عرف فيه العالم الإسكندرى زاوية الفلك بين أسوان والإسكندرية إنما كان حيث ولدت . على مقربة من مسقط رأسي، ورأيناه وعرفنا قصته على غير اختيار منا كما نرى البيوت والآثار من حولنا، ثم تتبعنا الجديد فى هذه القصة بعد القديم فلم نر فيه تعديلا لقاعدة ولا تخطئة لنظرية، ولم نعلم أن دقة أكثر من تلك الدقة أضيفت فى الزمن الحديث إلى القاعدة التى اعتمد عليها العالم القديم، لأن هذه القاعدة لا تتغير ولن تتغير ولا يمكن أن تتغير، وهى أن العلم بطول الجزء من المحيط يعرفنا بطول المحيط كله .

هذه هى القاعدة التى اعتمدها أراتستين، وهى لا تتغير فى هذا الزمن، ولن تتغير أبد الآبدين ودهر الداهرين، وليس الخطأ منها ولكنه من حسبان أسوان

وإسكندرية على خط مستقيم ومن حسبان الأرض كرة تامة التدوير.

ولا شأن للآلات الحديثة بهذه الحقيقة لأن تغيير الآلات لا يغيرها، ولكنه يغير قياس المسافات الأرضية سواء أخطأ أراتستين أو أصاب، وكذلك تتجدد المقاييس والضوابط ولا يحتاج العلم بالجديد منها إلى أكثر من النظر بالعين .

والشيء الذى لم نفهمه هو قول الأستاذ الفاضل إن النتائج (جاءت بما يعتبر كشفًا جديدًا فى هذه الدراسات . فقد أثبت العالمان برسيفال و لويل . كما وجد الدكتور سليفر أن هناك تغيرًا كبيرًا فى المساحات الداكنة وهى أول مرة يثبت فيها تغير بهذا المقدار) .

يقول الأستاذ العقاد إن الرأى الذى أشار إليه برسيفال لويل قديم قد عول فيه على رأى العالم الإيطالي شياباريلي ، واعتقد بناء على ذلك أن فى المريخ أقنية مصنوعة على أصول هندسية، وظهر لبعض الراصدين أن هذه الأقنية تحيط بها بقاع زرقاء مخضرة فى بعض الأوقات وسمراء داكنة فى أوقات أخرى، ونشر هذا كله فى مؤلفات مبسطة أقربها يرجع إلى الطبعة الأخيرة فى السنة الماضية من كتاب (موجز السماوات) لمؤلفيه الثلاثة برنارد و بنيت ورايس ، وكلهم من الرياضيين الفلكيين .

فلا جديد فيما قاله الأستاذ الفاضل أخيرًا ولا فيما قاله وكلاء الأنباء البرقية، ومقطع الرأى أن يذكر لنا الدكتور (إمام إبراهيم) حقيقة الكشف الجديد ووجه القول بجدته من اختلاف المقادير والمسافات .

ويومئذ نستطيع أن نحيله على مرجع سابق يذكر هذا الاختلاف بمقاديره، أو نعلم حقًا أن الكشف الجديد غير مسبوق فيما علمناه من كتب الفلك التى يقرأها غير المختصين ! .

وإذ رد عليه الدكتور إمام بمقال آخر له استعرض فيه تخصصه فى علم الفلك ظنًا منه أنه يجر العقاد إلى بحر لجى عميق الأغوار متلاطم الأمواج

وبحكم تخصصه فى علم الفلك لا يستطيع العقاد أن يسبح فيه .

رد الأستاذ العقاد عليه قائلًا :

الآن أدهشنا (الدكتور إمام إبراهيم أحمد) بعد أن أراد أن يدهشنا فى المرة الأولى فأخطأه الهدف .

أراد أن يدهشنا بخبر عن إراتستين وهو لايعلم أن العلامة الفلكى القديم بلدينا على وجه من الوجوه، وأننا جلسنا حيث كان يجلس ونظرنا على التحقيق إلى مساقط الأشعة الشمسية حيث كان ينظر إليها، وسمعنا بقصته قبل أربعين سنة وكتبنا عنه قبل ثلاثين سنة، وتتبعنا ما يقال عنه وعن نظريته فليس فيها ما يدهشنا فى هذا الزمن الذى ندرى هل تقل فيه المدهشات أو تكثر . وهل تنقص أو تزيد .

أما الآن فالدكتور الفاضل يعوض ما فاته ويدهشنا على غير قصد منه، دهشة تستحق تعب السطور التى كتبها والتى نكتبها فى الإشادة بها والإشارة إليها.

قلنا فى تعقيبنا على كلام الدكتور وإنما يرصد اللون الأحمر فى المريخ وفى غيره ليعلم منه مقدار المسافات التى تبتعد بها كواكب المجرة إذا اختلف لونها وضربت قليلًا إلى الاحمرار .

فعلق الدكتور على ذلك قائلًا : (لعل الأستاذ الكبير يقصد ما يسنى Doppler shift وهى تغير موضع خطوط الطيف نحو المنطقة الحمراء فى الطيف والتى يمكن منها حساب السرعة التى يبتعد بها النجم ولا يجعله يضرب قليلًا ولا كثيرًا إلى الاحمرار، أم لعله يقصد تغير لون المنجم إلى الاحمرار بتأثير مواد ما بين النجوم Interstellar Matter ولكن هذه الدراسة لا تصل بنا إلى استنتاج السرعة التى يبتعد بها النجم) .

وكل ما قاله الدكتور فى هذا التعليق مدهش حقًا لأنه ينفى أمورًا مقررة فى كتب الثقات من الرياضيين والفلكيين، وعليهم تعول فيما نذكره عن هذه الملاحظات .

فاللون الأحمر يتزايد كلما ابتعد النجم أو كلما أسرع مبتعدًا عنا، ونحن نقل ننقل له سطرين بنصهما الإنجليزى من الصفحة التاسعة والتسعين من كتاب طبيعة الكون لمؤلفه فريد هويل Hoyle حيث يقول :

In fact،by measuring the degre of the roddening we can deduce the speed with which a body is receding.

وترجمتها الحرفية : نحن فى الواقع بقياس درجة الاحمرار نستطيع أن نستخرج السرعة التى يتراجع بها الجرم عنا .

وقد وضح الأستاذ هويل ما يعنيه فقال : ولعلك لاحظت أن الصفارة فى القطار المقبل لها حدة صوتية أعلى من الصفارة فى القطار المدبر فالنور الذى يصدر من مصدر متحرك له هذه الخاصة بعيها، فحدة النور تهبط أو كما نقول عادة تحمر كلما كان المصدر يتحرك مبتعدًا عنا . ونحن نلاحظ أن النور من المجرة يحمر وأن درجة الاحمرار تزداد على نسبة ابتعاد المسافة عنا .

فإذا لم يكن معنى هذا أن الكوكب يضرب إلى اللون الأحمر فماذا يكون معناه؟.

ولقد كررنا أن الكتب التى نقرأها فى مسائل الفلك هى الكتب الموضوعة لغير المختصين، ولكن لا يفهم من ذلك أن الذين كتبوها غير مختصين بعلومها لأن الواقع أنهم جميعًا من أكثر المختصين اختصاصًا بما يكتبون فيه .

والأستاذ هويل يدرس علومه فى كامبردج ويقوم بالرصد أحيانًا فى أكبر المراصد العالمية وهو مرصد مونت بالومار Palomer ويؤلف فى هذه

الموضوعات خاصة زمنها كتابه فى طبيعة الكون وكتابه فى المباحث الجديدة عن طبيعيات الشكى وكتابه فى حدود علم الفلك، وسائله القيمة التى يقرأها فى المعاهد الرياضية الفلكية وتلقى كل عناية واحترام.

والملاحظة التى ينفيها الدكتور إمام منشورة فى كتاب بلغ من ذيوعه أنه صدر فى ثلاث طبعات، وأنه كان موضوع التعليقات الإذاعية والصحيفة والتقريظات من كبار العلماء كما سبق ذكره.

أما احمرار لون النجم بتأثير المواد المنبثة فى أجواز الفضاء فلم يكن مما قصدناه فى مقالنا السابق ولكننا ندهش لقول الأستاذ إن هذه الدراسة لا تصل بنا إلى استنتاج السرعة التى يبتعد بها النجم .

لأن هذا الغبار Dust المنبث فى الفضاء يمكن أن تعرف مواضعه ويمكن لذلك أن تعرف لحظة دخول الكوكب فيه ولحظة خروجه منه، وتقاس بذلك سرعته كما تقاس سرعة كل كوكب فى الفضاء بالنسبة إلى المواقع التى يعبرها .

وهنا أيضًا تعتمد على مصدر من مصادر الثقات التى يكتبها المختصون (لغير المختصين)، بل هذا المصدر الذى نعنيه مكتوب للمختصين بأسلوب نفهمه نحن ويفهمه من لم يتفرغوا للدراسة الفلكية، ونعنى به مبحث الأستاذ كاهن Kahn فى العدد الرابع والثلاثين من مجلة أخبار العلوم إذ يتكلم عن مواد ما بين النجوم Interstellar Material وعن علامات الألوان بالنسبة إليها فيقول: إن اللون الأزرق أسرع زوالا من اللون الأحمر، وأن هذا ولا شك وسيلة من وسائل الاستنتاج لا يلزم أن تكون وسيلة مباشرة ولكنها مؤدية إلى النتيجة من طريق غير بعيد .

وتعود فنقول إن الدكتور كاهن مختص بمراقبة المواد التى تتخلل الفضاء بين النجوم ويدرس الفلك بجامعة مانشستر ويشترك مع كبار الأساتذة الإنجليز والألمان وآخرهم الأستاذ أورت بليدن Oort Leiden وهو مرجع للعلماء فى هذه البحوث .

وبعد فالذى نود أن يعلمه الدكتور الفاضل أننا لا نقرأ هذه الدراسات لنكون فلكيين أو رياضيين، ولكنه يستطيع أن يوقن كل اليقين أننا لا نبيح لأنفسنا أن نخط كلمة فيها مالم نكن معتمدين فيها على مراجعها، والتبعة بد ذلك على المراجع إن كانت هناك تبعة، ولكنها إذن تبعة لا يسلم منها إنسان؟!.

فيلسوف المذاهب والأديان

ابن رشيق أحد علماء عصره وهو أديب و ناقد و شاعر، وله كتب كثيرة أشهرها : كتاب قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب و كتاب أنموذج الزمان فى شعراء القيروان و العمدة .

ويقول فى كتابه الأخير:

حتى ظهر المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس .

وظهر العقاد فى مطلع القرن العشرين فملأ الدنيا وشغل الناس . ملأ الدنيا علمًا وأدبًا وفنًا وشعرًا وشغل الناس بمقالاته الرائعة وأشعاره الجذلة التى جدد بها كما سبق لنا وذكرنا وفلسفته وتنوع مؤلفاته وغزارتها وعمقها ورحابة فكرها واتساع آفاقها وتنوع موضوعاتها وغزارة مادتها .

وإذا كان ابن العميد قال عن كتب الجاحظ :

(كتب الجاحظ تعلم العقل أولًا والأدب ثانيًا، فإن كتب العقاد تعلم العقل وتعلم الفكر وتعلم الإنسان ماذا يقرأ وكيف يقرأ وكيف يحس أن القراءة هى أثمن ما فى الوجود) .

أوغل العقاد فكره فى تأمل الحقيقية الإلهية ووجود الله وكتب كتابه (الله)، هذا الكتاب الذى قال عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى رئيس قسم الفلسفة بآداب القاهرة، فى مطلع القرن الماضى

(إن كتاب الله للمفكر الكبير الأستاذ العقاد لم يسبق لكاتب فى الشرق أو فى الغرب أن كتب مثله)

ذكر العقاد فى هذا الكتاب الغير المسبوق أن الإنسان قد ترقى فى العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلقًا وأطول طريقًا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهى أظهر ما تراه العيون وتحسسه الأبدان، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام، ولعلها لا تزال.

فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لايدل على بطلان التدين، ولا على أنها بحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر وطورًا بعد طور، وأسلوبًا بعد أسلوب، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقد ويتناولها الحس والعيان.

وتتحدث عن بطلان العقيدة الإلهية والوعى الكونى وأن الله ذات (واعية).

كما تطرق إلى آراء الفلاسفة المعاصرين فى الحقيقة الإلهية

وتسائل العقاد فى كتابه عقائد المفكرين ماهى العقيدة الدينية، ويجيب : أنها هى ما يشتمل عليه وجدان المفكر فى العصر الحديث، ولا نعنى بها ما تشتمل عليه أوراقه ومجلداته أو متاحفه ومحفوراته .

وإنما نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة لا طريقة فكر ولا طريقة دراسة.

إنما نعنى بها حاجة النفس كما يحسها من أحاط بتلك الدراسات ومن فرغ

من العلم والمراجعة ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره .

إنها نعنى به ما يملأ الرؤوس أو يملّأ الصفحات .

وبهذا المعنى عرفت العقيدة الدينية أكثر من تعريف واحد فى أقوال المفكرين العصريين، سواء منهم من وصل إلى اعتقاد واضح يطمئن إليه ومن لم يزل فى الطريق، على أمل فى الوصول أو على يقين بأن الطريق غير موصد فى وجوه الساعين والمتطلعين .

يتكلم العقاد عن الفرد ودينه فيحيل على الأستاذ جوردون ألبورت أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد إذ يتكلم فى كتابه (ألفرد وديانته) عن طبيعة الاعتقاد فيقول إنه : ينطوى على ثلاثة أطوار الأول فترة التصديق الساذج وهو أوضح ما يرى فى الطفل الذى يصدق حواسه وخياله وما يسمعه بغير تمييز، فعقائده الدينية الأولى مستمدة على الأكثر مما يسمع أى من الواقعية الكلامية، فإن الكلمات عنده والوقائع بمثابة واحدة، وبقاء هذا التصديق الساذج معه مدى الحياة أمر ظاهر ولكنه فى الغالب ملازم للعقول التى توقف بها النمو دون التمام أو مقصور على المسائل التى يحيط بها الجهل المطبق أو تتسلط فيها قدوة قوية الأثر، وبعض العقائد الدينية بين الكبار مؤلف من هذا الخليط : أى من التصديق الصبيانى والقدوة وما لم يمحصه التفكير .

ومن المعتاد على كل حال أن تأتى بعد هذه المرحلة مرحلة تزعزع قرارها، فإن الشكوك تطرق عقل الإنسان من جميع الأبواب المتقدمة، وهى جزء متصل من كل تفكير مفهوم، وليس فى وسع الإنسان أن ين شيء له عقيدة مستقلة قائمة على الملاحظة والتفكير المفيد ما لم يواجه النقائض التى يشتمل عليها كل عرف مسموع .

والمرحلة الثالثة هى مرحلة الاعتقاد الناضج، وهى تتطور مع المشقة من

تراوح الشكوك والتوكيدات التى يتسم بها كل تفكير مفيد

ثم يسأل الأستاذ : هل الإيمان والاعتقاد بشيء واحد؟ فيقول ان الكلمتين تستخدمان أحيانًا بمعنى واحد وهما فى بعض المواطن تعبران عن معنيين مختلفين، لأن التسليم غالب على الإيمان . أما الاعتقاد فيقترن أحيانًا بمعرفة بعض الأسباب، ولو من قبيل التقدير والترجيح .

وقال : إن الإيمان أحَّر شعورًا من الإعتقاد .

وذكر آراء كل من ماكس أوتو الذى كان رئيسًا لمجمع الفلاسفة فى الأقاليم الغربية من الولايات المتحدة الإمريكية والذى قال : إن تخليص روح الإنسان بالعمل الموقد الذى يتم فى ساعته ولكنه سعى طويل يستغرق العمر كله .

* * * * *

وتحدث عن ماكس شوين أحد مؤلفى المكتبة الفلسفية والكتابة عن العلاقة بين العقيدة الدينية والعقل والذى قال هو الآخر : إن الإيمان لا يعرف الهوادة، ولا يقبل الاستثناء ولكن الاعتقاد (Belief) هوادة وتسوية عملية .

وعرج على رأى الكاتب الإنجليزى أرنست مارتن Martin الذى قال : إنه ليس للخير أن نقول كما يقول كثير من الشكوكيين الأذكياء إن الديانة تبعث من الخوف، أو أن الإيمان بما فوق الطبيعة إنما هو مجرد تعويض لما فى دنيا الواقع من الجهامة والعبوس، فإذا كان هذا ولا ريب صحيحًا فى حالات الديانة الهمجية فليس هو صحيح فى موقف الإنسان المتحضر من المسيحية .

وكتب العقاد عن سمة العصر فقال : فى مفتتح القرن التاسع عشر وجه نابليون بونابرت سؤالًا إلى علامة الفلك فى زمانة لا بلاس عن عمل القدرة الإلهية فى تنظيم الأفلاك السماوية، وكان لتوجيه هذا السؤال إلى لا بلاس سبب خاص : وهو ظهور كتابه عن علم الحركة العلوية أو الميكانيكا السماوية وفيه

يشرح حركة الفلك ويعللها بالقوانين الآلية . كما يدل اسم الكتاب، فقال علامة الفلك مجيبًا سائله الكبير الذى كان يقول فى الدين بمثل قوله : إننى لم أجد فى نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله!.

ومضى القرن التاسع عشر إلى نهايته والرأى الغالب فيه بين المشتغلين بالعلم والمؤمنين به هو هذا الرأى الذى تحدث به لا بلاس إلى نابليون : إن العلم كاف كل الكفاية لتفسير جميع الأسرار !.

وانقضى القرن التاسع عشر وهذا هو الرأى الغالب على أصحاب الرأى فيه ممن يؤمنون بالعلم الحديث، ويتوقعون له القدرة على الإحاطة فى المستقبل بمجهولات الغيب التى لم يحط بها فى ذلك الحين .

ويردف الأستاذ العقاد قائلًا : ونقول الرأى الغالب ولا نقول الرأى الجامع الشامل، لأننا لانعلم أن عصر من العصور قد اتفق فيه أصحاب الرأى على وجهة واحدة فى مسائل العقيدة الدينية، ولكن العصور مع ذلك تختلف وتتباعد فى التفكير، ويجعل كل منعا طابعه وسماته فى شؤون العقيدة الدينية، وفى غيرها من الشؤون العامة التى تتسع فيها مطارح الآراء والأهواء .

ويصل العقاد فى كتابه القيم عقائد المفكرين فى القرن العشرين إلى السؤال الذى يجب أن يثور :

أين تسير الحضارة الغربية بين هذه الشكوك التى بدأت بالشك فى الدين ثم مضت أشواطًا بعد أشواط تارة مع العقل وتارة مع العلم الحديث؟ .

ما هو الشك الذى يغلب على ذوى الرأى فى القرن العشرين؟

ويجيب : نحسب أننا نجمل سمة القرن العشرين أصدق إجمال حين نقول إنها هى سمة الشك فى الإنكار .

إن الأسباب التى كانت كافية للإنكار قبل ثلاثة قرون أصبحت لا تكفى

للإنكار بتلك القوة الواثقة المتهجمة، بل أصبحت لا تكفى لإنكار ما كائنًا ما كان سبب الإنكار من العلم المعترف به بين العلماء .

تواضعت دعوى العقل فى أوائل القرن التاسع عشر، وتواضعت دعوى العلم فى أوائل القرن العشرين، وكاد العلماء أن يتفقوا على أن التفسير والتعليل فوق طاقة العلم، ولاسيما تفسير الغايات والأول، وحسبه من الدعوى أنه يصف ويجمع ويقابل ويعادل، ثم يترك العلل الأولى بعد ذلك لمن يستطيعها، أو يقول إنها حتى اليوم غاية لا تستطاع .

تكلم العقاد فى كتابه هذا عن مركز الكون والكشف الكوبرنيكي الذى خالف قواعد الدين وخرج على سنن الإيمان، وصودر الكتاب الذى نشره كوبرنيكس قبل وفاته بسنة (١٥٤٢م)

ولقد كان أمامه مذهب فيثاغورس الذى قال إن الأرض كرة تسبح فى الفضاء، فتركه ناحية ووقف مع ارسطو وبطليموس حيث سكن به المطاف، وأدار على الأرض تلك الدوائر التى تشبه دوائر شاعرنا ابن الرومي الذى قال:

بمقدار ما تنداح دائـــرة فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

غير أنهم جميعًا ناموا على وساد الأرض كما هى فى مركز الكون ! فاضطربوا حين هبوا من رقدتهم تلك على غير وساد .

كما تكلم عن عقائد الأدباء ومن بين ما ذكر من هذه العقائد ماجاء فى كتاب ما بين السماء والأرض الذى جاء فيه : إن الله أعظم جدًا من أن يحتوى كلام الإنسان برهانًا على وجوده ، وأن الدين والحوار الخالد بين الإنسان والله . والفن هو المناجاة الأحادية Soliloquy

وأردف يقول عن عقائد العلماء :

ولا نعرف من علماء القرن العشرين من هو أبعد شوطًا فى الاعتقاد من الدكتور ألكسس كاريل Alexis Carrel الطبيب المتخصص فى بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء، والمشتغل بالطب علمًا وجراحة واشرافًا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية .

ولم يفت العقاد أن يتكلم عن عقائد الفلاسفة ومن أنه هناك بمذاهب الفلاسفة مدرستان خالدتان هما المدرسة المادية والمدرسة العقلية أو الروحانية والمثالية، وكلها أسماء لمسمى واحد فى النهاية .

وذهب إلى أن مجمل القول فى موقف الفلسفة كلها فى هذا القرن أن الفلسفة المادية تتراجع من الهجوم إلى الدفاع بسلاح غير فعال .

أما الفلاسفة الوجوديون، فالوجودى المتدين منهم يؤمن بالله أشد الإيمان ولكنه لا يؤمن بالمراسم والشعائر ولا يذعن لسلطان الكنيسة ورجال الدين .

والوجودى الإباحى قد يكون من أقوم الناس خلقًا وأطهرهم سيرة ولا تتراءى منه الإباحة إلا حين يتمرد على المحظورات التى لا حجة لها غير مجاراة العادة والاستسلام للتقاليد والموروثات .

والوجودى الذى يتهالك على الشهوات ويختار لنفسه ما يهواه يتعلل بحق الفرد أو بحق الشخصية الإنسانية فى حياتها الخاصة، ولكنه لا يستطيع أن يجعل ذلك الحق قانونًا ملزمًا لجميع الشخصيات، وإنما يدين به سلوكه ولا يجهل المصير الذى قد يعرضه له ذلك السلوك، حيث يصطدم بالجماعة أو يصطدم بغيره من آحاد الناس .

كما أفاض العقاد بالحديث عن العقيدة الإخلاقية وعن العلوم المختصة ببحث الأخلاق أو الأنثروبولوجى (Anthopology) لأنه يدرس العرف

والعادة فى جميع الأمم ويتتبع ضـروب العرف والعـادة إلى مناشئها الأولى فى القبائل الهمجية، ويقارن بينها وبين أسبابها كما يقـارن بـين العوامـل الإقليميـة والاجتماعية وأثارها فى التشابه أو التباعد بين قواعد الأخلاق .

ويختم العقاد رسالته القيمة هـذه عـن عقائـد المفكـرين فى القـرن العشـرين بالحديث عن كتـاب The Noext Million years ذاكـرًا فيـه أن السير شـارل دارون وهـو غـير شـارل دارون صـاحب مـذهب التطـور يقـرر أن الإنـسان سيحتفظ بالعقيدة الدينية فى المليون سنة المقابلة قياسًا عـن المعهـود مـن تاريخـه القديم والحديث .

* * * *

وكتـب عـن الـشيخ الـرئيس ابـن سـينا أنـه نـشأ فى ظـل الدولـةِ الـسامانية بخراسان، وأن كبار الفلاسفة المشـرقيين جميعًا كـانوا مـن أنـصار الـشيعة وهـم الكندي و الفرابي و ابن سينا وأن بعض العباقرة ينبغون فى وطن من الأوطـان أو فى عصـر من العصور فيستغرب نبوغهم فيـه . أمـا ابـن سـينا فـلا يـستغرب نبوغه فى عصـره ولا فى وطنه ولا فى بيته، بل الغريب أن يكون العصـر والموطن والبيت على تلك الحالة ثم لا يظهر فيه نابغ فيلسوف .

ثـم قال عنه : وإذا سئلنا رأينا عن عقيدة ابـن سـينا لم نـشك فى إنـه كـان مـن المؤمنين بالله وبالنبوءات لا مراء.

وتحدث عن ابن سينا الطبيب، وإنه عالج أمير بخاري وهو فى السابعة عشـر من عمره، وترجم كتابه (القـانون) فى أواخـر القـرن الثـانى عـشـر للمـيلاد إلى اللغة اللاتينية فأصبح مرجعًا للدراسات الطبية فى جامعات أوربة من أقصاها إلى أقـصاها . فكـان يـدرس فى جـامعتي مونبيليـه و لوفـان إلى منتـصف القـرن السابع عشـر، وقال : إن نوبرجر Neuburger ذكر فى كتابه المطور عـن تـاريخ

الطب : إنهم كانوا ينظرون إلى كتاب القانون كأنه وحى معصوم، ويزيدهم إكبارا له تنسيقه المنطقى الذى لا يعاب ومقدماته ومقدماته التى كانت تبدو لا بناء تلك العصور كأنها القضايا المسلم بها والمقررات البديهية .

وأردف قائلًا : وإنما تبوأ كتاب ابن سينا هذه المكانة الرفيعة، بين المراجع العالمية، بحق لا نزاع فيه . لأنه كان أو فى مرجع من مراجع الطب القديم وظل كذلك إلى عهد الموسوعات العصرية قبيل القرن التاسع عشر بقليل، واجتمعت له مزايا الإحاطة والتحرى والاستقصاء والتنسيق، فاشتمل على تراث أمم الحضارة فى أصول الطب وفروعه من شرح الأعراض إلى وسف العلاج إلى سرد اسماء العقاقير والأدوية، ومواطن الجراحات وأدوات الجراحة، مع قدرة على الترتيب الموسوعى قل نظيره فى زمانه واقتدى بها المقتدون إلى مطالع عهد العلم الحديث

* * * *

كما أخرج كتابًا عن ابن رشد الذى ولد فى سنة ٥٢٠ه بمدينة قرطبة وهى لا تزال فى عصرها الذهبى الذى جعلها من عواصم الثقافة فى التاريخ، فلا تذكر أتينا ورومية والإسكندرية وبغداد إلا ذكرت معهن قرطبة فى هذا الطراز.

وقد كان مولده بعد وفاة الحكم الثانى المستنصر بالله بنحو مئة وخمسين سنة (٣٦٦ه) وهو الخليفة الأموى الذى شغلته الثقافة قبل كل شاغل، وجعل همه الأول أن ينافس بعاصمته عاصمة المشرق بغداد فى عهد الخليفة المأمون، فمجمع فيها من الكتب والكتاب مالم يجمع قبل ذلك فى مدينة واحدة، وكان هو أسبقهم إلى قراءة ما يجمعه من الأسفار النادرة من أقطار المشرق والمغرب

وأن ابن خلدون قال عنه ما خلاصته : . كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالًا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى

الأندلس مالم يعهدوه .

* * * *

كما كتب عن الإمام الغزالى كما سبق ذكره وبيانه بالصفحات السابقة وكان يتمنى أن يمتد به العمر حتى يكتب كتابًا مستقلًا عن هذا الإمام العظيم .

كما كتب عن الفلسفة القرآنية وعلى أن القرآن الكريم كتاب عقيدة، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكمًا من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم، ما استطاع حيثما استطاع وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه، كما يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان، فهو يجعل التفكير السليم، والنظر الصحيح إلى آيات خلقه وسيلة من وسائل الإيمان بالله .

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِى الألباب (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

[سورة آل عمران من الآية ١٩٠ إلى الآية ١٩١]

وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس كما يفكر فى عالم الطبيعة

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فى أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُّ السَّماوات وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إلاَّ بالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ { الروم من الاية ٨ الى الاية ١٠ }

﴿قلْ إنّما أعظكمْ بواحدةٍ أنْ تقوموا للهّ مثْنىٰ وفرادىٰ ثمّ تتفكّروا ما بصاحبكمْ منْ جنّةٍ إنْ هو إلّا نذيرٌ لكمْ بيْن يدى عذابٍ شديدٍ﴾[سورة سبأ الآيات ٣٩ - ٤٧]

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾[سورة الحشر: ٢١]

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر الآية ٩]

ومن يعظ المخالفين والمصقين عظة واحدة، وهى التفكير الذى يغنى عن جميع العظات :

ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر الآية ٩]

وتكلم عن العقيدة الإلهية فقال :

من الوهم أن يقل فى الأخلاد أن الزمان قد يكون جزءا من الأبد، نمده أو نمطه من أوله فإذا هو أزل، ونمد أو نمطه من آخره، فإذا هو سرمد لا ينقضى على الدوام.

فالحقيقة أن الزمان غير الأبد، ننقصه كله فلا ينقص من الأبد شئ، ونزيده كله فلا يزيد على الأبد شئ، لأنهما وجودان مختلفان فى الكنه والجوهر مختلفان فى التصور والإدراك

فالأبد وجود لا تتصور فيه الحركة

والزمان وجود لا تتصوره بغير الحركة.

وإذا ثبت أحد الوجودين ثبوتًا لا شك فيه، فالوجود الأبدى هو الثابت عقلًا، وهو وحده الذى يقل التصور بغير إحالة فى الذهن والخيال، لأننا نذهب

لنفرض أولا للوجود فنقع فى الإحالة، وكذلك تقع فى الإحالة حين نذهب لنفرض له آخرًا أو عمقًا أو امتدادًا على نحو من الأنحاء ولكننا لا نقع فى إحالة ما إذا تصورنا الأبد ابتداء ولا انتهاء، ولا كيف، ولا قياس على شيء من الأشياء

وهكذا يؤمن المسلم بوجود الإله .

ولا يسع العقل أن يبلغ من الإيمان به فوق مبلغ الإسلام .

وليس بنا أن نطيل القول فى قدم العالم خلف ليس له طائل، ولا يبطل عقيدة واحدة من عقائد الإسلام .

إن قيل إن الزمان أبدى، فهذا خلط فى التفكير وخلط فى الكلام وإن قيل إن الزمان هو مقياس القدم، فنحن حين نقول إن الزمان قديم فكأنما نقول أن الزمان هو الزمان، أو أن الزمان وجد حين قبله، فكأنما يفرض زمانًا موجودًا قبل وجود الزمان .

ويكفى المسلم أن يعلم أن الزمان لم يوجد أبديًا، وإن وجود البدء أكمل من الوجود الموقوت، وهذا هو غاية التنزيه الذى يفرضه الإسلام على معتقديه، وهذا أيضًا هو غاية ما ينتهى إليه تمييز العقول .

ولا إعضال فى فهم الصلة بين الوجودين : الوجود الأبدي، والوجود فى الزمان

كما تكلم العقاد فى هذا الكتاب الرائع عن الإنسان ومذهب التطور، والتطور قبل مذهب التطور، وأثر مذهب النشوء فى الغرب، مذهب التطور فى الشرق العربي، والدين ومذهب داروين، وسلسلة الخلق العظمى، الإنسان فى علم الحيوان فى علم الأجناس البشرية، والإنسان فى علوم النفس والأخلاق، ومستقبل الإنسان فى علم الأحياء .

كما دبجت يراعته كتابه مطلع النور وتكلم عن الطوالع والنبوءات ومقدمات النبوة والجزيرة العربية قبل البحثة المحمدية إلى ما جاء فى أخر هذا الكتاب القيم .

ألف العقاد كذلك تواليفه الرائعة (أثر العرب فى الحضارة الأروبية، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبرانيين، والقرن العشرون ماكان وما سيكون) وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، وما يقال عن الإسلام والإسلام فى القرن العشرين .

أما روائعه فى العبقريات الإسلامية فهى نمط من الكتابة غير مسبوق وغير موجود إلى آخر تواليفه التى تعدت المائة كتاب وتحتاج إلى المجلدات والمجلدت لشرحها والكتابة عنها والإشادة بها بدءًا من (عبقرية محمد) عليه الصلاة والسلام مرورًا بعبقرية عمر و عبقرية الإمام و عبقرية الصديق و عبقرية المسيح و وذو النوراين عثمان بن عفان و الصديقة بنت الصديق . إلى آخر العبقريات التى جادت بها قريحة العقاد عن العظماء من الشرق ومنهم من سبق ذكره، و عن الغرب ومنهم عبقرية جيتي و صن يات صن و بينامين فرانكلين و التعريف بشكسبير .

وقد أشاد الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي شيخ جامع الأزهر بكتابه (عبقرية محمد) فقال : إن الأستاذ العقاد أشفى بكتابه (عبقرية محمد) صدور قوم مؤمنين وأقام الحجة على الشاكين والجحدين وفتح للناس طريقًا جديدًا فى البحث عن الشمائل المحمدية وكان صادق الإيمان قوى البرهان ناصع الأسلوب مشرق الدباجة .

وإذا أجتمع لمؤلف هذه الصفات فقد كملت رسالته ودانت له مطالبه

كما أشاد به عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين قائلًا له :

صديقى الأستاذ الكبير :

فرغت الساعة من قراءة كتابك الممتع عبقرية محمد ولست أكتب إليك الآن لأصور لك رأيى فى هذا الكتاب أو إعجابى به فما أنت فى حاجة إلى هذا الرأي، وما أنت فى حاجة إلى هذا الإعجاب

ويردف قائلًا فى هذه الرسالة :

أرى فيك ما كان المبرد يراه فى البحترى إن صدقتنى الذاكرة حين قال له أبى الله إلا أن تكون عظيمًا فى جميع جوانبك .

ولا ينسى التاريخ أن العقاد شرع قلمه لمحاربة المذاهب الهدامة مثل النازية، والفاشية ناهيك عن الشيوعية التى ألف فيها كتبه : الشيوعية والإنسانية و الشيوعية والوجودية و لا شيوعية ولا استعمار ، حربًا لا هوادة فيها.

وها هوذا الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر يذكر فى كتابه التراث والتجديد فى الصفحة التاسعة من كتابه هذا :

وكان عملاق الأدب العربي العقاد فى مقدمة هذه النخبة من العظماء الذين مثلوا لجيلنا طوق نجاة، وأعادوا لنا الثقة فى أنفسنا وفى تراثنا وحضارتنا، وهذا الرائد العظيم له فضل السبق والترصد لهذه المذاهب وتحطيم أصنامها وهدم معابدها بمعول لا يقوى أحد على مواجهته .

أما بالنسبة لأولئك الذين كانوا من أتباع فولتير فى القرن الثامن العشر وأنصار (رينان) فى القرن التاسع عشر الذين كانوا يسخرون من التصوف فى الفقه الإسلامى جريًا وراء المذاهب الهدامة فقد كتب الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الذى تبوأ هو الأخر مشيخة الأزهر يقول : إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

ما الذى غير اتجاه العقل الإنسانى فى القرن التاسع عشر؟

يقول العقاد : الذى غيره هو العلم نفسه، لأنه عف حدوده وكفكف من غروره، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيرًا فى دعوزاه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق فى تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره كلا بل نريد أكثر من ذلك نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقًا أن ينجح فيها، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم المادي وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة، فى فضاء مجهول .

هذا هو العقاد الذى يستشهد به إمام المسلمين واصفًا إياه بصاحب الأسلوب الرصين الذى تميز به العقاد وميزّ تواليفه عن غيرها من كتابات المفكرين ودافع به عن الإسلام والمسلمين بل وقرظ بها الدينين المسيحى واليهودى وواضعًا إياهما فى المكانة اللائقة بهما كما ورد فى كتابه القيم عبقرية المسيح

وقد كان يرجو أن يمتد به العمر ليكتب عبقرية موسى و عبقرية بوذا ، و عبقرية كونفيشوس ، وكذلك كتابًا عن الكون كما أسلفنا فى مقدمة الكتاب.

كما غمس مداد قلمه شارحًا ومفندًا لجميع المذاهب مثل النازية والفاشية والماركسية والوجودية وغيرها .

لقد كان العقاد بحق فيلسوف المذاهب والأديان .

العقاد بين أينشتين والغزالى

(أو بين نظرية السببية عند الغزالى
ونظرية النسبية عند أينشتين)

الإمام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الذى ولد فى إقليم خرسان (عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م) .

وكان والده كما يقول السبكي فى طبقاته يغزل الصوف، ويبيعه فى دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة، أوصى به وبأخيه : أحمد ، إلى صديق له متصوف، وأعطاه ما أدخره من مال يسير، قائلًا :

إن لى لتأسفًا عظيمًا على عدم تعلم الخط، واشتهى استدراك ما فاتني، فى ولدى هذين .

وأشرف عليهما الوصى الصالح، وعلمهما الخط، إلى أن فنى ذلك النزر اليسير، الذى كان قد خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما، فقال لهما :

أعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد، بحيث لا مال لى فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت، يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب فى سعادتهما، وعلو درجتهما .

وكان (الغزالي) يحكى هذا، ويقول :

طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله .

كان إمام الحرمين يصفه بأنه : (بحر مُغْرق) .

ها هوذا ؛ قد بلغ قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة : أتته من جانبها المالي.

وأتته من جانبها الذى يتصل بالشهرة، وذيوع الاسم .

وأتته من جانبها الذى يتصل بالجاه والنفوذ، حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة : ((كان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والإنكباب عليّ، وأعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم)) كما ذكر هو فى كتابه منقذ من الضلال

ويذكر الإمام الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه قضية التصوف المنقذ من الضلال أنه قال :

ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم على كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة، كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته .

ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلمًا إلا وأجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه، لأسباب جرأته فى تعطيله

وزندقته .

ويقول الغزالى عن نفسه: كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دائى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى .

كان شكه فى الأمور شكًا حادًا عنيفًا فى كل ما يرى ويسمع ويقرأ، وفيما يقوله ويعتقد وزال الشك وانمحى وحل محله الشك فى طريق النجاة .

أضحى يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث، وانصرف عن الفلسفة بعد أن كان الصراع محتدمًا فى قلبه بين التجافى عن دار الغرور، والإناب عن بر الخلود، فأناب إلى دار الخلود، ورحل إلى الشام ومنها إلى بيت المقدس يدخل فى كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه، ويمم وجهه فى شطر الحجاز وأدى فريضة الحج، وزار الرسول عليه الصلاة والسلام وآب إلى وطنه ملازمًا بيته وكان فى حله وترحاله مؤثرًا العزلة، حريصًا على الخلوة، وتنقية قلبه من الشوائب والأوضار .

وأفض الله عليه بالنور الإلهي، وعندما سأله سائل قبيل وفاته وهو فى مرض الموت: بماذا توصينى . فقال له : الإخلاص .

أما ألبرت أينشتاين) (Albert Einstein ١٤ مارس ١٨٧٩ - ١٨أبريل ١٩٥٥ الألماني السويسري الأمريكي الجنسية، اليهودى الخلفية، فهو أحد أهم العلماء فى القرن العشرين فى علم الفيزياء. يشتهر بأبو النسبية كونه واضع النظرية النسبية الخاصة و النظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتان كانت اللبنة الأولى للفيزياء النظرية الحديثة،حاز فى العام ١٩٢١ على جائزة نوبل فيالفيزياء عن ورقة بحثية عن التأثير الكهروضوئي ضمن ثلاثمائة ورقة علمية أخرى له فى تكافؤ المادة والطاقة وميكانيكا الكم وغيرها، وأدت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد من الظواهر العلمية التى فشلت الفيزياء

الكلاسيكية فى اثباتها . ذكاؤه العظيم جعل من كلمة آينشتاين مرادفا للعبقرية.

فى كتاب المفكر الفيلسوف الأستاذ أنيس منصور (كانت لنا أيام فى صالون العقاد) يحكى لنا أنه والحضور فى نداوة العقاد فى مصر الجديدة تشجعوا ذات يوم ودعوه لإلقاء محاضرة فى الفلسفة .

ويردف الأستاذ أنيس قائلًا : ولم نجرؤ أن نختار له موضوعًا معينًا فقلت: يا أستاذ : نرجو حضرتك أن تتكلم فى أى شيء . ونحن سعداء بذلك.

ولأنه فاجأنا بقوله : اختاروا أنتم الموضوع؟

ولم نفهم المعنى بسرعة . فقد كان المعنى أنه يستطيع أن يتكلم فى أى موضوع . ولكنه إذا اختار هو الموضوع، فقد اختار شيئًا قد درسه أو أعده أما إذا اخترنا له نحن فلا يخيفه شئ، فهو قادر على أن يتحدث فى أى شيء .

واخترنا موضوعًا شاقًا علينا، ونريده أن يدلنا على مفاتيحه . وكان الموضوع هو : (نظرية النسبية عند أينشتين ونظرية السببية عند الإمام الغزالي)

وكان هذا الموضوع من العقد الفلسفية التى نعانى منها فى الفلسفة العلوم وفى المنطق وفى الفلسفة الإسلامية . وقد جلسنا مجموعة من الطلبة حتى اخترنا له هذا الموضوع المتشابك . وتحدد موعد محاضرة الأستاذ العقاد . واحتشدنا طلبة من جميع الكليات .وضاق المدرج ٧٨ بكل نوعيات الدارسين والمعجبين ومحبى الاستطلاع، وأساتذة الجامعات . إنه الأستاذ العقاد !.

وقد ألقى العقاد محاضرته فى هذا الموضوع الشائق أمام الجموع الذين سارعوا لسماع محاضرته فكان بينهم أساتذة الفلسفة من الجامعات وقال فيها :وهو ينفى عن نفسه شبهة الفلسفة، إذ كان للفلسفة وذلك العصر الذى عاش فيه الغزالى مدلول غير مدلولها، وغير مدلولها الذى أراده من وضعوا الكلمة توضعوا منه، ولم يشاؤوا أن يصفوا أنفسهم بالحكمة فقنعوا بمحبة الحكمة لقد

معناها فى عصر الغزالى أنها كلام يستحق منه الرد، ويظهر تهافته من المناقشة بالحجة والبينة، ولولا ذلك لما اختار لمناقشته اسم (تهافت الفلاسفة) كأنه يعنى به تهافت الفلسفة على الإطلاق .

نعلم أن الغزالي ناقش الفلسفة بالفلسفة، وحطم السلاح بسلاح مثله مع أن الواقع أن حجة الإسلام رضى الله عنه لم تكمل له أداة قط كما كملت له آداب الفلسفة، فهو عالم، وهو فقيه، وهو متكلم، وهو صوفى ولا مراء.

إن بعض المفكرين يختلفون فى مناهج التفكير كما يختلفون فى غايات التفكير، وإذا أردنا أن نعبر عن الفوارق بينهم بلغة العصر الحاضر قلنا : إن بعضهم قد يصلح للعلم التجريبى ولا يصلح للرياضة، وأن بعضهم قد يصلح للرياضة ولا يصلح لعلم من العلوم التجريبية . وإن العلماء التجريبين والرياضين قد يبلغون الغاية فى مجالهم ولكنهم يقصرون عن متابعة البحث الفلسفى إلى غايته . لأن التفكير فى كل باب من هذه الأبواب له أداته التى يتم بها ولكنه لا تغنيه عن أداة التفكير فى غير ذلك الباب .

التفكير العلمى يكفى فيه أن تكون المباحث قادرة على ملاحظة التجارب المحسوسة والمقابلة بين المتشابه منها والمختلف والإفضاء من هذه المقابلة إلى نتيجة عامة محسوسة، قلما تتعدى الوصف والإحصاء .

والتفكير الرياضى يكفى فيه أن يتفهم الباحث علاقات المدركات الذهنية التى يسلمها العقل فرضًا وتقديرًا ولو لم يكن لها وجود فى الخارج . وأكثر ما تكون الحقائق الرياضية تقديرات ذهنية لا ترى بالحواس . بل لا يتصورها العقل نفسه إلا من قبيل التسليم بفرض لابد منه . كالنقطة الهندسية التى لا طول لها ولا عرض ولا عمق ولا امتداد . أو كالبسيط الذى يخالف المركب فى الأشكال والأبعاد فإن الذهن الرياضى يعقل من هذه الفروض مالا وجود له

فى الطبيعة، ولا دليل عليه إلا أنه مستلزم بحكم البداهة . وليس هذا الفرض من ضروب التفكير التى يطبع عليها من طبع على جمع المعلومات بالمشاهدة والتجريب.

والتفكير الفلسفى ملكة أخرى لا تشبه كل الشبه ملكة العلم التجريبى أو ملكة الفروض الرياضية، ولكنها تشترك فيها بنصيب لا غنى عنه، وقوامها الأكبر أن تحسن الفهم فى المسائل المجردة، أو المفارقة، كما يقول المتقدمون، وهى بهذا قد تشبه الرياضة إلى حد بعيد لولا أن الرياضة تنتهى إلى الفرض ولا يعنيها أن تتصوره أو تحوم حوله بوجدان أو الهام . وقد يتعذر على الرياضى أن يفصل بين الممكن والمستحيل، وبين الجائز والواجب . إذا تلبس الأمر بالمألوفات والمتكررات التى تلازم التصور وتلازم التخيل وراء الحى المتفق عليه .

هذه القدرة على تجريد الذهن من قيود مألوفة قد بلغت أتمها وأقواها فى الإمام الغزالي رضوان الله عليه . ولا يعرف من مفكرى المشرق ولا المغرب من هو أتم منه أداة ولا من هو أقدر منه على نحو مألولفاته فى هذا الضرب من التفكير .

ونجتزئ من هذه المحاضرة نتفًا متفرقات .

قال العقاد : ولقد عرف الغزالى أن التصوف هو (قطع علائق القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والهرب من الشواغل والعلائق . وأن يصير القلب إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه) .

وبهذه القدرة على التجرد من النفس وعاداتها ومألوفاتها أصبح الغزالى أقدر على (التجريد الذهني) من المتصوف الذى لا يشغل فكره باستقصاء البحث، ومن الفيلسوف الذى يروض نفسه على الفرار من تحكم (الذاتية) ولوازم

الأشياء التى لا تفاقها فى حسه وفى إدراكه، فلا جرم، كانت السليقة الصوفية فيه أداة يغلب بها الفيلسوف الذى لا تصوف عنده، وكان التفكير المنتظم عنده أداة تعينه على الفهم حيث يقنع المتصوف بالتسليم ويستريح إليه.

وقد تمكن بملكته النادرة بين أصحاب الفلسفة وأصحاب التصوف أن يواجه المعضلات التى حيرت جمهرة الفلاسفة فلم تطل حيرته فيها، ولم يلبث أن وضعها فى موضعها الصحيح من التفكير الإنساني، لأنه وجد (الممكن) حيث غم الأمر على سواه فلم يجدوا ثمّة غير المستحيل .

وأكبر هذه المعضلات التى شقت على عقول الفلاسفة قضية القدم والحدوث، وقضية الخلق وقضية السببية، وقضية البعث، وهى جميعًا محل الخلاف الشديد بين جمهرة الفلاسفة وجمهرة الفقهاء كافة من علماء الدين فى كل ملة.

فالغالب على الفلاسفة أنهم يقولون بقدم العلم، ويستوجبون هذا القدم لأنهم لا ينتزعون فكرة الزمن من أخلادهم ومخيلاتهم، ويعتقدون أن وجود الزمن لزوم عقلى لا مفر منه، ولا يقدرون أن إدراك الزمن كما يدركه الخلق المحدودون أنما هو لزوم ضرورة بالنسبة إلى المخلوق المحدود، كأنه ضرورة إدراك الألوان لهذا الهزات الضوئية فى الأثير، ويجوز أن تدرك على غير هذا النحو إذا اختلف تركيب العين .

قالوا : إن العالم ليس بحادث، وأنه لا يكون قبله زمن فهو قديم منذ الأزل، وانقسموا فى جملتهم قسمين : منكرون دهريون وهم يقولون : إنه لقداسته لا يحتاج إلى خالق محدث، ومؤمنون وهم يقولون : إنه واجب الوجود بغيره وهو العالم المخلوق كل ذلك لأنهم لو يستطيعوا أن يخرجوا مألوف الزمن من حسابهم، وإن يسألوا: وماذا كان قبله أن كان حادثًا؟ وليس للقول بالقبل والبعد مدلول غير الزمان .

أما الغزالي، فهو لا يستلزمه من حدوث العالم حيث كان إلا وجود ذات بعد ذات، فهما ذاتان ولا ثالث هناك . وهذا فى الحق كل ما يستلزمه العقل بغير توهم لذات ثالثة، لا موجب لها عقلًا إلا العجز عن التجرد من فكرة الزمان.

قال فى تهافت الفلاسفة : (معنى قولنا إن الله متقدم على العالم والزمان أنه سبحانه وتعالى كان ولا عالم، ثم كان ومعه عالم . ومفهوم قولنا كان ولا عالم وجود ذات البارى وعدم ذات العالم فقط . ومفهوم قولنا : كان ومعه عالم وجود الذاتين فقط . فنعنى بالتقدم انفراده بالوجود فقط، والعالم كشخص واحد . فلو قلنا: كان الله ولا عيسى مثلًا، ثم كان الله وعيسى معه، لم يتضمن اللفظ إلا وجود ذات وعدم ذات ثم وجود ذاتين . وليس من ضرورة ذلك تقدير شيء ثالث، وإن كان الوهم لا يسكت عن تقدير شيء ثالث وهو الزمان فلا التفات إلى أغاليط الأوهام)

فالوهم وحده هو الذى يخلط بين الوجود الأبدى والوجود الزمني، فيحسب أن الأبد زمن ممتد وأن الزمن قطعة من الأبد، وهما فى الحقيقة شيئان مختلفان جد الاختلاف . فنحن لا نتصور الزمن بغير حركة، ولا نتصور الحركة مع الأبد الذى لا أول له يتحرك منه ولا آخر له يتحرك إليه، ولا أجزاء فيه يتحرك بعضها إلى بعض .

ومتى كان العقل لا يستلزم وجود الزمن أبدًا سرمدًا فالوهم كما قال الغزالى رحمه الله هو الذى يتطلب زمانًا قبل الزمان .

ومشكلة الخلق عند الفلاسفة قريبة من مشكلة القدم والحدوث، بل هى مشكلة تابعة لها متفرعة عليها .

يقولون : كيف يكون خلق العالم من العدم؟ أيوجد العدم؟ فإن كان لا يوجد فكيف يوجد شيء منه؟

والمشكلة كلها أنهم يخلطون بين عدم العالم وبين العدم المطلق . فعدم العـالم ليس بالعدم المطلق كما يقول حجة الإسلام، بل هو عدم العالم وكفى.

ومادام الوجود المطلق لا شك فيه وهو وجود الله الفرد الدائم الـصمد فـلا محل للعدم المطلق ولا استحالة فى الخلق، بل هى آيـة قـدرة الله، ولابـد للقـدرة من معنى، وخلق العالم هو معنى قدرة الله القدير .

وهنا يسعف التصوف عقل إمامنا الكبير حيث تتعثر العقول الكبار، ومنها عقل أرسطو الذى يندر مثاله بين عقول بنى الإنسان.

يقول أرسطو : أن الخلق يحدث من سعى الهيولى إلى الله . لأن الهيولى ناقصة تطلب الكمال، ولن الله كامل لا يسعى إلى غاية وراء كماله، وهو فرق كل غاية .

ونحسب أن طبيعة التصوف هونّت على الغزالي هـذه المعـضلة التـى غـاص فيها جبروت أرسطو فلم ينته منها إلى قرار .

أن قطع العلائق والغايات على ديدن المتصوفة هو الذى هـداه إلى عمـل الله بغير غاية، فإذا كان العبد يعمل بغير غاية فاحرى بالمعبود أن يعمـل لأنـه قـدير منعم، ولابد للقدرة من عمل، ولابد للأنعام من عطاء يفيض به المنعم سبحانه وتعالى ويتلقاه المخلوق، صنيعة الأنعام .

وآية الملكة الفلسفية عند الغزالي الفيلسوف، رأيه فى الـسببية وقدرتـه عـلى التخلص من خداع التكرار، ولو تتابه من أول الزمان، فلا يلزم من سبق صياح الديك لطلوع الفجر أنه سببه الذى لا ينفـك عنـه، ولـو تكـرر كـل يـوم فى كـل مكان، وكـل مـا يلـزم أنهـما يحـدثان معًا، وأنهـما قرينـان متتابعـان، وهكـذا كـل قرينين، وكل متتابعين فى جميع الحوادث التى يقال أنها أسباب ومسببات،أو كما يقـول : (أن الاقـتران بـين مـا يعتقـد فى العـادة سـببًا، ومـا يعتقـد مـسببًا لـيس ضـروريًا عندنا بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هـذا، ولا إثبـات أحـدهما

متضمن لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمن لنفى الأخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر) .

إلى أن يقول ما فحواه : إن هذه الظواهر قد ترجع إلى مقارنات أخرى تخفى عليها، ونص عبارته : (من أين يأمن الخصم أن يكون فى المبادئ للوجود علل وأسباب تفيض منها هذه الحوادث عند حصول ملاقاة بينها . إلا أنها ثابتة ليست تنعدم، ولاهى أجسام متحركة فتعيب، ولو انعدمت أو غابت لأدركنا التفرقة وفهمنا أن ثم سببًا وراء ما شاهدناه وهذا لا نخرج منه على قياس أصلهم) .

رحم الله أبا حامد . ما ابعد نظره ! وما أوسع رحابه! وما أقدره على الفرض المحتمل ! بل على الفرض الصحيح الذى اثبته العلم بعده وسبق خو شأو العلم فرآه فى أطوائه بعين البديهة الصادقة، والفهم النافذ واللب الرجيح !!.

لقد كان الأقدمون يذكرون خواص النار، والهواء، والماء، والتراب، ويلزمونها صفات الخفة والثقل، وصفات الرطوبة واليبوسة، وصفات الحركة والسكون، ويرجعون فى ذلك إلى اقتران الماء بالبلل، واقتران العلويات بالسفليات، إلى غير هذه المقارنات التى يحسبونها أسبابًا ومسببات، وما هى إلا دليل على حصول شيء مع شيء، ولا دليل فيها على حصوله بسببه وفعله الذى لا ينفك عنه .

ظهر أن هذه الظواهر جميعًا من أثر موجودات أخرى تسمى النوى والكهارب وظهر أنها لا تنعدم ولا تغيب فى حركات الرياح والأمواء والأتربة والنيران ولهذا لم تنقطع عن مشاهديها انقطاعا يريهم الفارق بين وجودها ومغيبها .

فرأى الغزالى فى السيبية ليس من شأنه أن يعطل العقل عن البحث كما فهم بعض الجاهلين بقدره وأقدارهم، ولكنه الرأى الذى يفتح الأبواب المغلقة بحكم المألوف المسيطر على العقول فتنفذ منها إلى ظواهر أصدق من ظواهر، ومقارنات الزم من مقارنات وأصول فى المبادئ أثبت من أصول .

وينبغى أن نفرق هنا بين السببية فى رأى الغزالى والسببية فى رأى غيره من القاصرين عن البحث وعن إدراك الممكنات من وراء حجب العادة والتقاليد.

ويعلق الأستاذ أنيس منصور على محاضرة العقاد هذه فى سفره سالف الذكر : (أما نحن طلبة الفلسفة فقد انتهينا إلى رأى واحد : لا قرأنا ولا سمعنا شيئًا مثل الذى قاله الأستاذ لقد كان عظيمًا فى شرحه وبيانه وإحاطته وتعمقه وإقناعه!.

وطالت أعناقنا، واستقر الأستاذ فى أعمق أعماقنا . ولم يكن مفاجأة لنا أنه قال ذلك . فقد استمعنا فى ندوته إلى عجائب الأفكار والآثار والنوادر فى كل فروع المعرفة الإنسانية !).

وهكذا كان العقاد دائمًا فى كل كتاباته عميق الفكر متقد الذهن واسع الإدراك ملم بكل ما يتحدث عنه أو تخرجه قريحته العقلية أو نظراته الفلسفية .

العقاد.. وفن القراءة

خلت الساحة الفكرية ناهيك عن الأدبية من مفكر أو أديب قرأ ما قرأه عملاق الفكر عباس محمود العقاد .

كان ديدنه أن يقرأ كل شيء عن شيء وكل شيء عن كل شيء .

فعندما قال له قائل : إنك دودة قراءة .

رد العقاد عليه قائلًا : بل كتيبة ديدان !.

ولقد قرأ العقاد أكثر من مائة ألف كتاب .

وللأستاذ العقاد نظرة ثاقبة فى القراءة يعبر عنها بقوله إن الذى يقرأ ليكتب وكفى هو موصل رسائل ليس إلا أو هو كاتب بالتبعية وليس كاتبًا بالأصالة، فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتبًا على الإطلاق .

يقول العقاد : إننى أقرأ كتبًا كثيرة لا أقصد الكتابة فى موضوعاتها على الإطلاق، وأذكر من ذلك أن أديبًا زارنى فوجد على مكتبى بعض المجلدات فى غرائز الحشرات، فقال مستغربًا : ومالك أنت وللحشرات؟ إنك تكتب فى الأدب وما إليه، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع؟

ولو شئت لأطلت فى جوابه . ولكنى أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب .

فقلت : نسيت أننى أكتب أيضًا فى السياسة !.

قال نعم : نسيت، والحق معك ! فما يستغنى عن العلم بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين فى هذه الأيام!،

والحقيقة كما قلت مرارًا أن الأحياء الدنيا هي مسودات الخلق التى تتراءى فيها نبات الخالق . كما تتراءى فى النسخة المنقحة، وقد تظهر من المسودة أكثر ما تظهر بعد التنقيح . فإذا أطلع القارئ على كتاب فى الحشرات، فليس من اللازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب فى موضوع، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأول، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس، فيتقرب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير، ولو فى غير هذا الموضوع .

كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ فى البيت المشهور:

ومن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارًا إلى عمره

فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد، وهو أن يكون العمر المضاف مقدارًا من الحياة لا مقدارًا من السنين، أو مقدارًا من مادة الحس والفكر والخيال، لا مقدارًا من أخبار الوقائع وعدد السنين التى وقعت فيها . فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوى مائة سنة أو مئات من السنين، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

كلا لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا فى تقدير الحساب

وإنما أهوى القراءة لأن عندى حياة واحدة فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل مافى ضميرى من بواعث الحركة والقراءة دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واجدة فى مدى غمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.

فكرتك أنت فكرة واحد

شعورك أنت شعور واحد

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليه

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى أو لاقيت بشعورك شعورًا آخر، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين كلا وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق والامتداد.

والمثل على ذلك، محسوس فى عالم الحسن والمشاهدة، ومحسوس فى عالم العطف والشعور .

ففى عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانًا واحدًا أو إنسانين أثنين، ولكنه يرى عشرات متلاحقين فى نظره إلى غاية ما يبلغه النظر فى كل اتجاه.

وفى عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا هى عاطفة الحب المتبادل بين قلبين لماذا؟ لأنهما لا يحسان بال شيء الواحد كما يحس به سائر الناس

لا يحسان به شيئًا ولا شيئين، وإنما يحسان به أضعافًا مضاعفة لا تزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحيان .

هكذا يصنع التقاء مرآتين، وهكذا يصنع التقاء قلبين فكيف بالتقاء العشرات من المرائى النفسية فى نطاق واحد؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار؟

إن الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقية فهى المحيط الذى تتجمع فيه الجداول جميعًا، والفرق بينهما وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الآفق الواسع والتيار الجارف وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهرًا أو على حسب العناوين المصطلح عليها، ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين .

الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلًا من فلسفة الأديان؟

وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب .

وحقيقة الأمر أنها كلمة مادة حياة، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه .

غرائز الحشرات بحث فى أوائل الحياة .

وفلسفة الأديان بحث فى الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان فى حالى الحب والنقمة.

ونهضة الأمم أو ثورتها هما جيشان الحياة فى نفوس الملايين، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى فى بحر واحد، وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير

ولم أكن أعرب حين هويت القراءة أننى أبحث عن هذا كله أو أن هذه الهواية تصدر تصدر من هذه الرغبة .

ولا أحب الكتب لأننى زاهد فى الحياة.

ولكننى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين . ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين .

والكتب المفضلة عندى هى كتب فلسفة الدين، وكتب التاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء، وكتب الشعر .

إننى أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينها معينة، وإن كانت نفترق فى الظاهر، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . فكتب فلسفة الدين تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكتب التاريخ الطبيعى تبحث فى أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشعر هو ترجمان العواطف، فإننى أفضل من الكتب كل ماله مساس بسر الحياة.

تسألنى ما هو سر الحياة، فأقول على الإجمال أننى أعتقد أن الحياة أعم من الكون، وأن ما يرى جامدًا من هذه الأكوان أو مجردًا من الحياة إن هو فى نظرى إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان أو قوة من القوى والحياة شيء دائم أبدى أزلي، لا بداية له ولا نهاية.

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا فى هذا المحيط الذى لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة، ولا تعنى النوافذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الإدراك القوى يستطيع أن يجد غذاء فكريًا فى كل موضوع . وعندى أن التحديد فى اختيار الكتب إنما هو كالتحديد فى اختيار الطعام . وكلاهما لا يكون إلا لطفل فى هذا الباب أو مريض . فاقرأ ما شئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات، وإلا فأجعل القابلية حكمًا لك فيما تختار لأن الجسم فى الغالب يغذيه ما يشتهيه! .

ويردف الأستاذ العقاد قائلًا :

ولا تغنى الكتب عن تجارب الحياة، ولا تعنى التجارب عن الكتب، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكى نفهم حق الفهم، أما أن التجارب لا تعنى عن الكتب، فذلك لأن الكتب هى تجارب آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور، ولا يمكن أن تبلغ تجربة آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين.

ولا أظن أن هناك كتبًا مكررة لأخرى، لأنى أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كاتب أصبحت ألف فكرة، ولم تعد فكرة واحدة ولهذا أتعمد أن أقرأ فى الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فمثلًا أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين

كاتبًا وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف فى كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية، والأدبية، والفلسفية، فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة، وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور، وتكشف لنا عن الحياة والجمال، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول.

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان، وتعريفه جوانب هذا العالم الذى يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية، فالفلسفية فالعلمية .

ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التى يجنيها من كتاب، فرب كتاب يجتهد فى قراءته كل الاجتهاد، ثم لا يخرج منه بطائل، ورب كتاب يتصفحه تصفحًا، ثم يترك فى نفسه أثرًا عميقًا يظهر فى كل رأى من آرائه، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه، فأنت لا تعرف حق المعرفة الطريقة التى تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتب، ولكن لعل أفضل ما يشار به على الإجمال وهو ألا تكره نفسك على القراءة، وأن تدع الكتاب فى اللحظة التى تشعر فيها بالفتور والاستثقال .

أما مقياس الكتاب المفيد فإنك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الإدراك والعمل وتذوق الحياة فإذا وجدت ذلك فى كتاب ما، كان جديرًا بالعناية والتقدير، فإننا لا نعرف إلا لنعمل أو لنشعر، أما المعرفة التى لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها . وعلى هذا المقياس تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لا يصلح .

هذا هو فكر العقاد فى القراءة وهذا هو منهجه

يقول العقاد : إن الكتب كالناس . منهم السيد الوقور، ومنهم الكيس الظروف، ومنهم الجميل الرائع والساذج الصادق والأريب المخطئ . ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع . والدنيا تتسع لكل هؤلاء . ولن تكون المكتبة كاملة إلا إذا كانت مثلًا كاملًا للدنيا

يقول لك المرشدون اقرأ ما ينفعك، ولكنى أقول بل انتفع مما تقرأ، إذ كيف تعرف ما ينفعك من الكتب قبل قراءته؟؟

إن القارئ الذى لا يقرأ إلا الكتب المنتقاة كالمريض الذى لا يأكل إلا الأطعمة المنتقاة . يضعف المعدة أكثر مما يدل على جودة قابلية.

وأعلم أن من الكتب الغث والسمين . وأن السمين يفسد المعدة الضعيفة، وأنه ما من طعام غث إلا والمعدة القوية مستخرجة منه مادة غذاء، ودم حياة وفناء . فإن كنت ضعيف المعدة فتحام السمين كما تتحامى الغث . وإن كنت من ذوى المعدات القوية فاعلم أن لك من كل طعام غذاءًا .

وما من منظر أنت تراه فلا تود أن تراه بعدها . أو صوت تسمعه ثم لا تحب أن تسمعه آخر العمر . فلا أدرى من أين داخل القراء أن الكتاب إنما يقرأ قراءة واحدة . مع أن الكتاب أخفى رموزًا وأكثر مناحى نظر من المنظر والصوت . وأنت تنمو بعقلك أكثر من نموك بحواسك، فأنت أحرى أن تعاود النظر فيها يمتحن به نمو الفكر . ومن كان يفهم أن قراءة الكتاب شيء غير الإتيان على كلماته، وأن درسه مطلب غير استظهار صفحاته، فعليه بلا ريب أن يكرر قراءته كلما استطاع، لأن كتابًا تعيد قراءته مرتين هو أغنى وأكثر من كتابين تقرأ كلا منهما مرة واحدة .

ثم أعلم أنه ليس بأنفس الكتب ولا بأجلها الكتاب الذى تتوق إلى إعادته

بعد قراءته . وليس بأفرغ الكتب ولا بأقلها الكتاب الذى تقنع بتركه بعد الفراغ منه . فإنك ربما صادفك الكتاب الأجوف المغلق فأعجبتك رنته فجعلت تقلبه على كل جنب لعلك أن تخلص إلى لبابه ولا لباب له . وربما صادفك السفر القيم الشافى فانتهيت إلى آخره مرتاحًا مصدقًا فقنعت بذلك منه . وقد عهدنا الناس يمنعهم البخيل فيراجعونه ويلحون عليه ويعطيهم المنعم الكريم فيهجرونه ويعرضون عنه، وتلك ضرائبهم فى مصاحبة الكتب . فلا تكن فى المطالعة من هؤلاء.

..أما فلسفته فى فن القراءة فيحدثنا الأستاذ العقاد عنها حديثًا مليا فيقول:

وطريقتى فى القراءة أن لا أذهب مع الطرف فى الصحيفة إلا ريثما أذهب مع الفكر فى نفسى . فقد أتناول الكتاب أبدًا فيه حيث أدًا إذا كان من غير الكتب التى يلتزم فيها الترتيب والتعقيب، فيستوقفنى رأى أو عبارة تفتح لى بابًا من البحث والروية فأمضى معها وأطويه فلا أنظر فيه بقية ذلك اليوم أو انتقل منه إلى كتاب آخر . وأجد هذا التوجيه فى أنفس الكتب كما أجده فى أردئها . فلا أميز بينها فى الابتداء . يكاد يستدرجنى إلى المضاء فى المطالعة غير موضوع يستووعب ذهنى ويأخذ على المؤلف فيه باب الانفراد بالفكر دونه .

صور أحد الأدباء الأستاذ العقاد وهو يطوف فى أرجاء الجن يبحث عن كتاب فى الجنة وطفق يبحث ويبحث حتى إن لم يحصل على ضالته أى كتاب يقرأه خرج من الجنة مغضبًا وهو يقول :

وما فائدة الجنة إذا لم يكن فيها كتاب يقرأ؟! .

* * * * * * * *

الأدب المقارن عند العقاد

على الرغم من مضى أكثر من قرن ونصف القرن على ظهور أول كتاب يحمل اسم الأدب المقارن فى فرنسا . فإن هذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية والنقدية مازال يعتبر فرعًا حديثًا ومازالت التساؤلات التى تطرح فى مباديته تؤكد أن بعضًا من أصوله الكبرى لم يتم بعد على مستوى العالم الذى يهتم به الاتفاق عليها .

(الدكتور أحمد درويش نظرية الأدب المقارن وتجلياتها فى الأدب العربى).

الأستاذ العقاد وكما يرى البعض (أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم العقاد والأدب المقارن المجلة العربية) لم يُقرأ قراءة صحيحة حتى الآن إلا لدى نفر صابر قليل شعرًا ونقدًا وفكرًا إسلاميًا، وتربية سياسية وغير ذلك من شعاب الحياة .

فالعقاد قارئ من طراز نادر، وكاتب من طراز نادر، وقراءاته فى اللغات الأجنبية قراءة خرجت من غصن الصبا والوقوف لدى معرفة العقاد باللغات الأجنبية إنما هو لبيان استحصاء ملكاته، واكتمال أدواته باحثًا فى النقد والأدب المقارن وسائر الفنون التى تناولها العقاد (ولأن الأدب المقارن حقل عسير وغامض وتحديد غير متفق عليه ومن ثم كان لإبراز دور العقاد فى هذا الميدان أهمية قصوى) .

و الأدب المقارن هو علم الانتقال من بلد إلى أخرى، من لغة إلى أخري، ومن شكل تعبيرى إلى أخر وهو فن منهجى يبحث عن علاقات التشابه والقرابة والتأثير، كما يسعى للتقريب بين الأدب وبين مجالات التعبير والمعرفة

الأخرى، وكذلك إلى التقريب بين الظواهر والنصوص الأدبية بعضها وبعض، سواء المتباعدين منهم وغير المتباعدين لهذه النصوص فى الزمان والمكان ولكن شريطة الانتماء إلى لغات وثقافات متعددة من أجل الوصول إلى وصف أكثر دقة، ومن أجل فهم وتذوق أفضل لها . عرف الناقد الأمريكى هنرى رماك الأدب المقارن: الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى، وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني .

كما أن مصطلح (الأدب المقارن) غير دقيق فى مدلوله على المراد، لأن الأدب المقارن منهج فى الدراسة وليس أدبًا إبداعيًا، والصواب أن يقال فى المصطلح: (الدراسة المقارنة للأدب) أو نحو ذلك من المصطلحات، لكن مصطلح (الأدب المقارن) شاع وذاع وراج بين الباحثين لخفته وسهولته.

وقد لخص موريس فرانسوا جويار (Maurice Francois Guyard) فى بدايات عمله كمتخصص فى الأدب المقارن عام ١٩٥١ مفهوم الأدب المقارن بتسجيل تاريخ العلاقات الأدبية العالمية، تبين لنا أجمل النجاحات المحلية تعتمد دائمًا على الأساسيات الأجنبية . أما تاريخ الأدب العام فقد أكد فان تيجيم (Van Tieghem) أنه يعنى توحيد تاريخ الآداب المختلفة: حيث ينسج الأدب المقارن بين الأعمال الأدبية المختلفة تفاصيل تاريخ الأدب أكثر عمومية وشمولا ومن مدارس الأدب المقارن :

المدرسة الفرنسية : قد ارتبطت بالمنظور التاريخى للأدب، إذ يرى دارسو

الأدب الأعمال الأدبية فى صورة أعمال منتظمة فى نسق تاريخي، ويطبقون مقولات التاريخ وفلسفته ومناهجه فى دراساتهم الأدبية. وتبدأ هذه المقولات بمقولة (النسبية الزمانية والمكانية) أى أن لكل زمان ومكان تقاليد وأذواق ومعايير وأعراف ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية تحكم هذا المكان والزمان، ثم إن هذه التقاليد والأذواق والمعايير . تتغير بمرور الزمان واختلاف الأمكنة، وعليه؛ فلابد من الرجوع بالعمل الأدبى حين دراسته إلى فضائه الزمانى والمكاني، وأن لا نفسره أو نحكم عليه بأعين عصرنا الحاضر، وإنما بأعين معاصريه.

ثم تأتى مقولات التاريخ الأخرى التى يطبقها أصحاب المدرسة الفرنسية من مثل: السببية، والنشوء والتطور للظواهر الأدبية .، واليقينية وهى تخص العمل الأدبى فى توثيقه.

من أشهر أقطاب المدرسة الفرنسية: فان تيجم، فرنسو جويار،رينيه إيتامبل من المدرسة الأمريكية : ولعل من أبرز من تزعمها رينيه ويليك الذى يرى ضرورة أن يدرس الأدب المقارن كله من منظور عالمي، ومن خلال الوعى بوحدة التجارب الأدبية والعمليات الخلاقة، أى أنه يرى أن الأدب المقارن هو الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية العنصرية والسياسية، وهو يعيب على المدرسة الفرنسية أنها تحصر الأدب المقارن فى المنهج التاريخي، بينما تتسع الرؤية الأمريكية لتربط بين المنهج التاريخى والمنهج النقدي، باعتبارهما عاملين ضروريين فى الدراسة المقارنة.

وينهض العقاد فى مصر على مدرسة فى الأدب المقارن قمين بنا أن يطلق عليها مدرسة العقاد للأدب المقارن، ومن رموز هذه المدرسة فى مصر الدكتور (محمد غنيمى هلال) و الأستاذان عبد الرازق حميدة و إبراهيم سلامة وقد

سبقهما فى هذا المدمار روحى الخالدي (١٨٦٤ – ١٩١٣).

(راجع جمعية العقاد الأدبية التعريف بالعقاد فى ذكرى ميلاده التاسعة بعد المائة إعداد الأستاذ شوقى على هيكل) .

ولأستاذنا والذى درس لنا مادة التربية الدينية بمدرسة الفيوم الإعدادية عام ١٩٥٣ الدكتور (الطاهر أحمد مكي) له كتابان رائعان أولهما الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه واستغرق منه السنوات الطوال وعلى حد تعبيره والجهد المضني، ثم كتاب في الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية .

ولقد كان العقاد فى مجالات الثقافة العربية الحديثة مقارنات فى دراساته الدينية والفلسفية والاجتماعية والفنية والفكرية . و من أبرز المفكرين فى مجال علم الأدب المقارن .

فقد كتب العقاد تحت عنوان فارس شعرها وشعراؤها عدة مقالات عام ١٩٠٨ فى صحيفة الدستور، وقارن بين فلسفتى أبى العلاء و شوبنهور فى مجلة المقتطف عام ١٩١٦، وكتب عن ريا وسكينة بين لمبروزو وأناتول فرانس فى الأهرام عام ١٩٢٠، وكتب عن فلسفة المتنبى بين نيتشة وداورن فى صحيفة البلاغ عام ١٩٢٤، وقارن بين الشعر العربى والشعر الإنجليزي فى البلاغ الأسبوعى عام ١٩٢٨، وقدم دراسته عن المقارنة بين الآداب فى مجلة الكتاب عام ١٩٤٨، وهو العام الذى يصبح الأدب المقارن فيه علمًا مستقلًا معروف الأصول مطرد المقاييس ، ويعلل العقاد ذلك بعبارته : نقول كادوا ولا نقول فعلوا، لأنهم وصلوا بالمقاييس إلى الأسباب، ولكنهم لم يصلوا بالأسباب إلى تعليل واحد متفق عليه ، وكذلك تحدث العقاد عن البخلاء بين الجاحظ وموليير فى مجلة الكتاب أيضًا عام ١٩٥٠، كما قدم لسلسلة من الأعمال المترجمة فى مجالات مختلفة من الدراسات المقارنة، من أهمها فى مجال الأدب على سبيل

المثال كتاب مقارنات فى الأدب الكلاسيكي ترجمة حبيب سلامة عام ١٩٦٢، ضمن سلسلة (حول مائدة المعرفة) حيث قدم العقاد دراسة فى بداية كل فصل من فصوله عن كل من : أسخيلوس وشكسبير وهيوم ورابيلية وموليير، بعد مقدمة عامة فى صدر الكتاب، وغير ذلك من كتابات نشرها العقاد ومازالت مبثوثة ومنثورة فى طيات الصحف والمجلات والدورايت القديمة مما لم يضمه كتاب بعد .

وفى مجال التنظير قد فرق العقاد بين علم الموازنة وعلم المقارنة، فهو يرى أن الأدب المقارن بحث لاستخلاص المقاييس العامة والأصول المشتركة والعلل التى تعمل فى كل أدب من الآدب المقارنة أو تعمل فى هذا الأدب ولا تعمل فى ذاك، لأسباب ترجع إليها هذه الأعمال الأدبية، وتعلل لنا ظهورها هنا واحتجابها هناك، ويقول العقاد : خلاصة الفارق بين المطلبين يقصد الموازنة والمقارنة على هذا الاعتبار، أن الموازنة أدب محض للمفاضلة بين أدبين، وأن الأدب المقارن لا يعتمد على الأدب المحض بل يتجاوزه إلى سائر المعارف البشرية التى لها علاقة بالآداب أو تأثير فيها ، ويرى العقاد أن المقارنة قد تقوم فى أدب الأمة الواحدة على حسب اختلاف الأقاليم والعصور والدول، كما تقوم بين آداب الأمم المختلفة على حد سواء، كل ذلك لاستخلاص المقاييس العامة والأسباب المؤثرة . (أبو همام عبد اللطيف- المجلة العربية ٢٩/٤/٢٠١٤)

بهذا قدم العقاد منذ عام ١٩٤٨ مفهومًا أوسع وأشمل للأدب المقارن الذى مازال مفهومه يخضع لقاعدة التأثير والتأثر بين آداب الأمم المختلفة فقط، بل لقد أدلى العقاد بدلوه فى دراسات الأدب المقارن قبل بدايات نشأته الحديثة فى عام ١٩٤٨، ومنذ أن كاد يصبح علما مستقلا إلى أن أصبح، ونحسب العقاد فى

ذلك قد سبق غيره، كما بشر بأحدث المفاهيم والنظريات المطروحة الآن فى ساحة علم الأدب المقارن أو علم المقارنة الأدبية كما أسماه العقاد، وكما يروق الآن لبعض الدارسين ومنهم الدكتور أحمد كمال زكى أن يسموه، وهو ما يعرف أخيرًا، بنظرية الأدب .

فى سنة ١٩٠٨ نشر الأستاذ العقاد مجموعة من المقالات عن فارس شعرها وشعرائها، قارن فى إحداها بين الخيام والمعري، حيث كان العقاد آنذاك فى التاسعة عشرة من عمره. ويرى أنهما اتفقا فى كثير من العادات والطباع،«ولا يبعد أن يكون الرجل قد استقى فلسفته من أبى العلاء، فإن الشواهد تؤيد ذلك، وقد كان الخيام يحسن العربية فلا يعقل أنه لم يطلع على مصنفات المعرى . كما أنه لا يعقل أن يبلغ بينهما توارد الخواطر إلى حد أنهما يتفقان فى التعابير والمعانى والمذاهب ذلك الاتفاق الغريب .

ثم يستطرد العقاد بإيراد أمثلة تؤكد نظرته هذه من أقوال الشاعرين الحكيمين، وهو كلام يتسق ورأى المدرسة الفرنسية التى تبحث عن الوسائط والتأثر، والعلاقات التاريخية.

وفكرة المقارنة بين الآداب ليست فكرة عارضة لدى العقاد، بل أنها ظلت تساوره والعقاد – عندنا – من ذلك الطراز من الأدباء الذين يقعون منذ طراءة السن على حقيقة مذهبهم، ثم تزيده الأيام رسوخًا وتمكنًا.

بيد أن الذى نريد أن نؤكده قبل إيراد نماذج من الدرس المقارن حسب وجهة النظر الفرنسية، وهى حاشدة عنده، نود التلبث أمام حقيقة غفل عنها الباحثون جميعًا، وهى من الوضوح بحيث لا تعوز نظرًا يرى. هذه الحقيقة هى سبق العقاد للمدرسة الأمريكية بأكثر من ثلاثة عقود:

فى سنة ١٩١٦ نشر العقاد مقالين فى مجلة المقتطف – سبتمبر ونوفمبر– عن

أبى العلاء المعري، مقارنًا بينه وبين دارون وشوبنهور. وبيّن أن شيخ المعرة تحدث عن مذهب النشوء وتنازع البقاء حديثًا غير عابر - كما تحدث عنه دارون. مدللًا على ذلك بنماذج من شعر أبى العلاء، وأقوال دارون، ثم عرض العقاد لتشاؤم الشاعر العربى - وكان العقاد فى أوج تشاؤمه وعشقه للمعرى آنذاك- والفيلسوف الألمانى شوبنهور، مستشهدًا بنماذج من كليهما. وانتهى العقاد قائلًا فإذا قيل إن دارون واضع المذهب فى عالم العلم، ساغ لنا أن نقول: والمعرى واضعه فى عالم الأدب والشعر، وارتأى أن المزاج وراء تشاؤمهما وأنهما يتلاقيان فى حبهما للحيوان ورأفتهما به، وفى وفائهما لوالديهما مع أنهما سبب وجودهما فى الحياة التى يفركانها.

وعاود الحديث عن المعرى وشوبنهور مرة أخرى فى كتابه (رجعة أبى العلاء)، مما يشى بإلحاح الفكرة عليه.

وفى مقال له بجريدة البلاغ ٧ يناير ١٩٢٤ يقارن بين المتنبى والفيلسوف الألمانى نيتشه فى فلسفة القوة. ويعجب العقاد لهذا التشابه فيقول: «إن آراء شاعرنا وآراء المفكر الألمانى تتفق فى مسائل كثيرة اتفاقًا توأميًا لا نعلم أعجب منه اتفاقًا بين نابغين مفكرين، ينتمى كل منهما إلى قوم وعصر وحضارة ولغة غير التى ينتمى إليها الآخر. تتفق فى مقاييس الحياة، وقيم الأخلاق وصرامة العبارة، وتفاصيل وجزئيات شتى مما يتفرع على هذه الأصول،ووجهة النظر على الأقل متحدة فى كل ما نظم الشاعر، وخط المفكر فى المعانى الخاصة والعامة. فمن قرأ المتنبي، ثم قرأ نيتشه لابد أن تكر الذاكرة به إلى كثير من أبيات المتنبى ووقائع حياته، كلما قلب الطرف فى صفحات نيتشه من رأى إلى رأى ومن خطرة إلى خطرة، ولابد أن يشعر وهو يتنقل من أحدهما إلى الآخر أنه ينتقل فى جو واحد وبيئة واحدة».

وقد ردد هذا الرأى المستشرق الإسبانى غرثيه غومث فى دراسته عن المتنبى وترجمها إلى العربية د.الطاهر مكى – دون أن يشير الإسبانى إلى رأى العقاد، وما نظنه إلا آخذه عنه، إبان إقامته فى القاهرة منذ سنة ١٩٢٣ وهو طالب بعثة.

ما قاله العقاد منذ سنة ١٩١٦ هو ما بشرت به المدرسة الأمريكية وشايعها بعض الفرنسيين منذ سنة ١٩٤٩،وكان (ويلك) حين نشر العقاد آراءه فى الثالثة عشرة من عمره، ولو كان كاتبنا المصرى يكتب بغير العربية لكان لكتابته أثر آخر، ولغدا صاحب مدرسة تنسب إليه فى الأدب المقارن، تقف بجانب المدرسة الفرنسية ولا تلغيها، لكنها تحد من غلوائها فى حصارها الشديد، وتفتح منافذ للمقارنة بين المعارف الإنسانية، كما حدث لدى العقاد حين قارن بين شعراء وفلاسفة وعلماء.

أما صورة الأمة فى أدب أمة أخرى، فله صفحة باقية فى تراث العقاد، وأمامنا أربع دراسات – لم تنشر بعد – عن صورة مصر فى أربعة كتب، وهى رحلات واقعية أو خيالية، والكتاب الأول هو (صوت من مصر) وهو من وحى الخيال، ويذكرنا بواشنطن أرفنج فى كتابه عن الحمراء، وتناول العقاد الكتاب ومؤلفه بالنقد والتحليل، ومواطن الإصابة فى وصفه الخيالي، والذى أثبتت الأيام واقعيته، ويختم كلامه بقوله: وفى كتاب (صوت من مصر) أو هاتف من مصر ذخر موفور للدارسين والملاحظين، وذخر موفور للمتخيلين والمتأملين، ولا سيما إذا كانوا من أبناء البلاد التى تدور عليها أحاديث الكتاب.

والكتاب الثاني: (وباء مصر الأخير) ويتحدث عن المخدرات. وهو كتاب حقيقة لا خيال، إلا أن فيه توشيات مثل نوادر شرلوك هولمز، وفى الكتاب استعراض جيد لحقيقة المجرمين والمهربين ومطارداتهم.

والكتاب الثالث قصة للكاتب السويسرى جون نيتل واسمها الدكتور إبراهيم- وترجم إلى الإسبانية – ويحكى قصة طبيب من الجيل النا شيء فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، ويتابع المؤلف رحلته فى أقاليم مصر، ورأيه فى العادات والتقاليد، ومحاولة تفسيرها وتعقيب العقاد عليها.

أما الكتاب الأخير فهو رحلة إلى مصر قبل نحو سبعين سنة – أو منذ كتب العقاد دراسته فى الثلاثينات – وهو للكاتب المصور الفرنسى (إيجيين فرومتان)،ويرازن العقاد بين ملكاته مصورًا وكاتبًا، ورأيه فى مشاهداته فى مصر. وتذكرنا هذه القصة أو الرحلة برحلة (دومنجوباديا) الإسبانى أو على بك العباسى كما سمى نفسه فى عصر محمد على – (راجع ما كتبه عنها د. الطاهر مكي) .

والرحلات عمومًا مصدر من مصادر دراسة الأدب المقارن، وإن كان بعض كتابها من الكتاب الهواة أو من الدرجة الثانية، إلا أن القارئ لا يعدم بعض اللمحات التى تقع عليها الأعين المغتربة قبل الأعين الأهلية. (أبو همام عبد اللطيف- المرجع السابق).

كما قارن العقاد أيضًا بين بخلاء الجاحظ وموليير فى مجلة الكاتب (أكتوبر عام ١٩٥٠)، ولم يقف عند الوسائط بل تحدث عن طبيعة البخل وتصويره لدى الكاتب العربى لأبطاله، الذين فيهم مشابهة من بطل مسرحية al Avaro لموليير هو السيد أرباجو. وينتهى العقاد من المقارنة إلى قوله: «إن الجاحظ ترك لنا متحف البخل بجميع مشتملاته، وإن موليير صنع لنا نموذجًا للبخيل فى تمثال، وكلاهما على طريقته يعنى الناظر إليه فى دراسة البخل والبخلاء. ونعود فنقول: إن هذه الخلة البغيضة،سعيدة الحظ بما أصابها من عناية موليير العرب

وجاحظ الفرنجة، فقد أعطياها غاية ما تستحقه من فنون العطاء!.

ويقارن العقاد أيضًا فى مقال له نشر ٧ أكتوبر ١٩٢٩ بين إحدى القصص اليابانية – وهى قصة الخيزرانى الهرم – وبين ما سمعه من أشياخ أسوان حين كان طفلًا، وقرت فى وعيه القصة، واستدعاها حين قرأ القصة اليابانية، وكأننا بالعقاد يتحدث عن الفولكلور الإنسانى أو كما يحلو له أن يسميه (المرددات الشعبية) التى تتجاوز التخوم الجغرافية، وأن الطبائع الإنسانية واحدة يشوقها القصص الساذج الذى لا يخلو من عبرة، بل هو يساق للعبرة لا للتسلية فقط، ويذكرنا ذلك بالدور الذى اضطلع به الموريسكيون فى الأندلس بعد السقوط، الذين نقلوا شفويًا ثقافة أهلها فى طريقهم إلى الإشاحة إلى ثقافة أخرى تنهض.

أما عنايته بالبحث فى أصول الألفاظ والثقافات عمومًا، فيخيل إلينا وكأن الرجل أنفق كل عمره فى هذا، ولم ينفقه فى فروع المعارف الأخرى، فبحثه عن (السيمية)، وأسماء أيام الأسبوع، وتأثير إخوان الصفا فى أوروبا عمومًا، والثقافة العربية – مقارنة – أسبق من ثقافة اليونان والعبريين؛ كل ذلك يجعله من رادة علم الأدب المقارن، ربما تكون ثمة بعض الحماسات أو الغلطات، لكنها أخطاء المتمكنين، لا أخطاء الشداة.

وكأنما عز على العقاد أن يقتصر دوره على التطبيق فقط، دون أن يعرض للنظر النقدي،فنشر مقالًا فى مجلة الكاتب – يونيو ١٩٤٨ – بعنوان (المقارنة بين الآداب) عرض فيه لنقص مصطلح (الأدب المقارن)،ونفى أن تكون المقارنة موازنة ومفاضلة، بل تعنى أن يخلص الباحث إلى مقاييس عامة وأصول مشتركة وعلل تعمل عملها فى كل أدب.

لكن العقاد خلط بين الموازنة والمقارنة، لأنه لم يجعل اختلاف اللغة ضربة لازب، فرأى أن البحث فى شعر أبى تمام والبحترى لمعرفة أيهما أفضل وأشعر

من قبيل الموازنة وليس من قبيل البحث المقارن، وهو كلام صحيح، لكنه يتابع القول: أما البحث فى شعر أبى تمام والبحترى والمتنبى والمعرى لمعرفة أيهم الشاعر وأيهم الحكيم فهو من باب الأدب المقارن، لأنه ينتهى بنا إلى التفرقة بين الحكمة والشعر، ويبين المقاييس التى تقاس بها أقوال الحكماء، والمقاييس التى تقاس بها أقوال الشعراء،فهو شيء غير الموازنة بين الشعراء لتفضيل واحد منهم على الآخر، ولكنه موازنة بينهم لمعرفة الفرق بين غرضين من أغراض الأدب، ووضع القواعد التى يقوم عليها كل غرض من هذين الغرضين.

كذلك نستطيع أن نبحث فى شعر المعرى وشعر دانتى الإيطالى على نحوين مختلفين. نستطيع أن نبحث فى (رسالة الغفران) وفى القصة الإلهية لنفاضل بين المؤلفين فى ملكات التصوير والخيال ووصف المرئيات والمغيبات، فهذه موازنة بين مؤلفين أو بين قاصين. ونستطيع أن نبحث فى هذه وتلك لنعرف مصادر الروايات وعلل الاختلاف بين الشرقيين والغربيين فى عرضها وتصويرها، ومواضع الاقتباس أو مواضع الابتكار فى كل منهما، وعوامل البيئة والمأثورات القديمة فى هذا الاختلاف، فهذه إذًا مقارنة من باب الأدب المقارن، وليست من باب الموازنة لترجيح أحد الأدبين.

وخَلطْ العقاد له وجهه، لأنه حدد الموازنة بالمفاضلة حتى بين أدبين مختلفين لغة، وجعل المقارنة بحثًا عن المقاييس العامة. شيء من هذا دعت إليه المدرسة الأمريكية حين رأت أن الأدب القومى يتسع للمقارنة أيضًا، ثم إن البيئات الأدبية لأبناء اللغة الواحدة فيها مندوحة لمثل هذا الدرس المقارن، كالحاصل بين آداب المشرق والأندلس، بل بين الأندلس نفسه فى الأعصار المختلفة، ولعل عدم استقرار قواعد هذا العلم بصورة قاطعة يفتح المجال لمثل هذا الخلط الذى يأخذ به فريق، ويدابره فريق آخر.

كما حدد العقاد قضية التأثير والتأثر، ومدى أصالة الكاتب، حين تحدث فى شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى عن مدرسته. يقول: والواقع أن هذه المدرسة المصرية ليست مقلدة للأدب الإنجليزي، ولكنها مستفيدة منه مهتدية بضيائه. ولها بعد ذلك رأيها فى كل أديب من الإنجليز كما تقدره هي، لا كما يقدره أبناء بلده، وهذا هو المطلوب من الفائدة الأدبية التى تستحق اسم الفائدة إذ لا جدوى هناك فيما يلغى الإرادة ويشل التمييز، ويبطل حقك فى الخطأ والصواب، وإنما الفائدة الحقة هى التى تهديك إلى نفسك، ثم تتركك لنفسك، تهتدى بها وحدها كما تريد، ولأن تخطئ على هذا النمط خير من أن تصيب على نمط سواه.

(أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم العقاد والأدب المقارن المجلة العربية مايو ٢٠١٤)

ويذكرأستاذنا العقاد بما يؤكد أصالته فيقول :

لقد يرى بعض الناقدين أننى أتأثر بما أقرأ فيما أكتب، وأنى أنحو هذا النحو أو ذاك مما أعجب به من آراء المفكرين وأنماط التفكير، فليس لى أن أقول فى هذا الرأى إلا أننى أعلم غير ذلك من شأني، وإننى لا أحسب تفكير الإنسان إلا جزءًا من الحياة، ونوعًا من الأبوة، فليس يسرنى أن تنمى إلى أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء إذا كانت غريبة عني. بعيدة النسب من نفسي، كما ليس يسرنى أن ينزل لى كل من فى الأرض عن أبنائهم وبناتهم، ولو كانوا أبناء سادة وذرية ملوك، أقول ذلك لا أجد فيه ادعاء ولا عجبًا، ولكنى أقرر به حقيقة وأبين مذهبًا، فمن شاء أن يعده من الادعاء والعجب، فله مشيئته وليس على أنا أن أنازعه فهمه وتفسيره.

ولو أن الخواطر يوم البعث ترد إلى مناشئها، لخَلت أن ستبعث معى فى

جسد واحد يوم ينفخ فى الصور الموعود، أو لعادت معى إلى حيث كنا فى الحياة، ولو كان لها ألف شبه بآراء المرتئين وكتابات الكاتبين .

والعقاد هو الذى يمكن حصر فكره فى خمسة أنماط هى كما عبر أحد الأدباء : فكر المنطيق، وفكر العالم، وفكر الفيلسوف، وفكر الحكيم، وفكر الفنان. (التعريف بالعقاد – فى ذكرى ميلاده التاسعة بعد المائة – جمعية العقاد الأدبية – إعداد شوقى هيكل) .

ويشهد على ذلك غزارة نتاجه الثقافى وتعدد الجوانب ففكره يتسم بالعمق كما يتسم بالارتفاع . كما يتسم بالبعد . كما يتسم بالاتساع، ويتسم بالشرح والتفصيل . كما يتسم بالإجمال والتركيز . كل ذلك فى نظرات بعيدة شاملة، وفى نظرات جزئية قريبة محددة، مع خيال رحب وعميق معًا، وهذه قدرات ذهنية لا تتأتى إلا للأفذاذ النادرين من بنى البشر وهى تمكن صاحبها من إعمال فكره فى كل مجال من مجالات المعرفة البشرية .

فالعقاد هو المنطيق الذى يعتمد فكره أساسًا على المقدمات واستخلاص النتائج فى نظام متناسق مترابط، يظهر ذلك فى كتاباته وفى حياته العملية على سواء .

والعقاد هو العالم الذى ينهض فكره على التجربة والتمحيص والاستقراء والبحث فى الموجودات، والعقاد هو الفيلسوف الذى يتسم فكرة بالقدرة على التجرد من المحسوسات، والبحث فيما وراء الطبيعة والموجودات، وهو صاحب فلسفة وحدة الخلق التى تقوم عليها نظريته في الوعى الكوني .

والعقاد هو الحكيم صاحب الفكر العملى الذى يقوم على الخبرة الحياتية من خلال تجاربه التى عاشها ومارسها على مدى خمس وسبعين سنة فى كفاح وطنى وسياسي، وعراك أدبى وفكري، وصراع مع الحياة، والعقاد هو الفنان الشاعر

الذى قدم للحياة الأدبية عشرة دواوين من الشعر، إلى جانب ما قدمه حول الشعر والشعراء، وحول الفن والفنانين، من دراسات ونظريات نقدية .

من ذلك ندرك أن عقل العقاد قد اتسعت قدراته الفكرية فاحتوت كل ضروب الفكر الإنساني وجمعت أشتاته، وإن كان قد اتسم بالموسوعية فى قراءاته وكتاباته فقد اتسم بالموسوعية فى فكره، وإذا سألنا سائل عن أقرب مفتاح لشخصية العقاد صاحب القلم وما أكثر مفاتيح شخصيته ! قلنا له عن حق: إنما العقاد هو المفكر ، فإن لفظة عقادية خالصة، تندرج تحتها كل أنواع الفكر ونحسب أن غير العقاد لا يوصف بهذه الصفة إلا مقترنة بوصف أو إضافة.

كان عقل العقاد عقلًا عبقريًا يتسع لكل آفاق المعرفة فنظرية المعرفة أو الأستمولوجيا كما جاء فى كتاب What is this thing called Knowledge؟ لمؤلفه Duncan Pritchard يتسع لأنماط المعرفة المتباينة والتى تنحصر فى المعرفة العلمية والمعرفة الجغرافية والمعرفة التاريخية والمعرفة الدينية .

وكان الأستاذ العقاد موفور النصيب من هذا .

العقاد ومعاركه الأدبية

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال، وكان له حق فى الخلود.

فرض الإعجاب من محبيه ومريديه .

وفرط الحقد من المنكرين عليه وحاسديه .

وجو من الأسرار والألغاز يحيط به وكأنه من فلتات الطبيعة

وهذا الذى كتبه الأستاذ العقاد وهو بصدد الحديث عن أبى العلاء المعري وعظمته، ينطبق على العقاد نفسه وعلى عبقريته

فالذين قرأوا العقاد أو تتلمذوا على يديه يهيمون به حبًا وتقديرًا .

كانت أولى معاركه إبان عمله بالتدريس بالمدارس الأميرية إذ بدأ هذا العمل فى وظائف الحكومة بقلم القيد بمديرية الفيوم وكان من نصيبه أن يتسلم عمل القيد بدفاتر الصادر . فيرد إليه البريد . يقيده ويضع عليه الأرقام ثم يضعه فى غلاف ويرسله إلى البريد .

وليس يضير الموظف فى قلم الصادر كإرسال البريد إليه فى وقت متأخر فلا يستطيع قيده وإرساله فى المواعيد المقررة للعمل .

وهذا ما وقع للعقاد، كان يرد إليه البريد قبيل أنصراف الموظفين فيضطر إلى البقاء بعد الموظفين بساعة أو ساعتين فضلًا عن المجهود الذى يحتاجه إنجاز العمل فى ذلك الوقت المتأخر .

لم يجد العقاد بدا من وضع حد لهذا الأمر المرهق . وكان الحل أن لا يتسلم

البريد بعد الساعة الثانية عشرة مهما يكون صاحبه . ووقف رئيس القلم ضده فى هذا الأمر وكذلك وكيل القلم فكانا يكدسان البريد ويرسلانه إليه قبيل انصراف الموظفين نكاية وتعنتا .

ولم يكن فى وسع العقاد أن يقاوم هذين الرئيسين وكانا مسنودين كما يقال بلغة الموظفين، أى أنه كان لهما نصير من الرؤساء .

واحتج العقاد كثيرًا ولم يسمع احتجاجه ولم تقبل شكواه فلم يريدا منه إلا ترك العمل والاستقالة من فرط حقدهما عليه وسوف يأتى ذكر شدة حقد الحاقدين على الأستاذ العقاد فمع القول القائل(قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) فقد قطعوا رزق العقاد بعد ذلك بعد كما قطعوه الآن.

وقد حز فى نفسه أن يترك هذين الرئيسين الخبيثين دون أن ينالهما جزاء ما صنعا به . فنظم قصيده فى هجائهما ثم طبعها ونشرها بين الموظفين .

كانت القصيدة تحمل تشفى مرارة النفس التى تشقى وتكد ولا تجد لها نصيرا بين الناس الذين لا يعرفون قدرها وتحمل إلى جانب ذلك ذم الرئيسين وقال فيها :

الدهر قمت وناما	وما نقضت ذماما
الدهر غير حالي	يا سوء دهر تعامي
أذن لـيس غراما	أبكى ولـيس هياما
لكنها نار فكر	تذكى الفؤاد ضراما
شفيق أمس رئيسا	ويوسف قد تسامى
وقبل كانا سويا	لأحمد خداما

مـــــا بـــال ذاك وهـــذا ترأســـــــا الأقـــــــلام
فيالـــــه مـــن مــــصاب يزيـــــــدنا إيلامـــــــا

وغضب رئيس القلم ووكيله واشتد غيظهما لهجاء العقاد الذى تداولته الألسن فرفعا القصيدة إلى القضاء

واستدعت المحكمة العقاد لحضور الجلسة، فحضر من أسوان ومثل أمام المحكمة فى جلسة اجتمع فيها الكثير من أبناء المدينة وموظفى المديرية ووقف العقاد يبدى ماناله من سيئات هذين الرئيسين اللذين عكفا على إيذائه والنيل منه، حتى اضطر إلى الاستقالة وترك عمله الذى أقبل عليه وهو منشرح الصدر راغب فى أدائه . تركه وهو كاره لا يطيق البقاء فيه وأعلن أمام المحكمة أن قصيدته لم تكن إلا نوعا من التأديب لردع هذين الرئيسين المتعنتين وأمثالهما ممن يستغلون سلطة الوظيفة للنيل من صغار الموظفين بغير ذنب أو جريرة .

وأصغى القاضى إلى كلام العقاد وتمعن فى قراءة بعض أبيات من القصيدة ثم التفت إليه وقال اسمع يابنى : إن شعرك جيد، ولكن لا تستخدمه فى ذم أحد.

وحكمت المحكمة على العقاد بغرامة قدرها خمسون قرشا وذهب ليدفعها فوجد أن القاضى قد سبقه فدفعها إلى الخزين .

وهكذا انتهى عمل العقاد بوظيفته الأولى وقد لامه والده على ترك الوظيفة فى ذلك الوقت كانت أقصى أمانى الشباب .

ولعل العقاد كان أول رجل يستقيل من وظائف الحكومة فى هذا الزمن واشتغل العقاد فى وظيفة بوزارة الأوقاف فى الفترة ما بين ١٩١٢ و ١٩١٤ ولكنه لم يستطع صبرا مع رئيسه الذى كان يتعمد تصحيح الرسائل التى يكتبها لتكون كلغة الدواوين التى كانت سائدة فى ذلك الأوان . وكتب العقاد عن

الوظائف الحكومية مقالا فى صحيفة الجريدة تحت عنوان الاستخدام رق القرن العشرين وقد عدد فى ذلك المقال مساوئ الوظيفة واستبداد الرؤساء بالمرؤوسين على جهلهم وضيق أفهامهم .

والذين ناوءوه واختلفوا معه أو خالفوه حقدوا عليه وبغضوه لأنه ارتأى فى رسالة الأدب والثقافة رسالة مقدسة، ومن ثم تبتل فى محرابها وتعمق فى مفرداتها وأمعن فكره فى كل ما يقرأ فى شتى الآداب والعلوم والفنون فبذ أقرانه وعلا عليهم علوًا شديدًا منذ احترافه للكتابة سنة ١٩٠٧ بمقالات إضافية وبآراء لا يحيد عنها قيد أنمله ثم بسط هاتيك المقالات بعد ذلك فى كتب كان أولاها كتاب خلاصة اليومية وهو فى الثامنة عشرة من عمره وعندما بلغ الثلاثين عام ١٩١٩ اتخذ مكانه بالقرب من زعيم الأمة سعد زغلول .

و عن شانئ العقاد الذين أفرطوا فى كراهته ، فنسوق للقارئ القصة التالية:

كتب الأستاذ رجاء النقاش تحت عنوان علقة العقاد فى ١٤ يناير ٢٠٠١ :

حادثة طريفة يرويها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مذكراته المثيرة التى جعل عنوانها سيرة حياتي، وقد وقعت هذه الحادثة سنة١٩٣٩، وكان الدكتور بدوى أيامها معيدا فى كلية الآداب قسم الفلسفة، وكان فى الثانية والعشرين من عمره، وفى ذلك الوقت أيضا كان الدكتور بدوى عضوا متحمسا من أعضاء حزب مصر الفتاة بزعامة شخصية جذابة قوية مندفعة هى شخصية أحمد حسين، وهذا الحزب وزعيمه جديران بدراسات أخرى واسعة، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن الحزب قد نشأ فى مصر تحت تأثير ظهور أحزاب مشابهة له فى أوروبا وعلى رأسها الحزب النازى فى ألمانيا بقيادة هتلر، والحزب الفاشى فى ايطاليا بقيادة موسوليني، وحزب الكتائب فى أسبانيا بقيادة فرانكو. وهذه الأحزاب كلها أصبحت الآن ذات سمعة سيئة، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أنها أحزاب كانت قائمة على العنف والاستبداد والطغيان، وأنها كانت

سببا فى خراب بلادها، ومقتل مئات الآلاف من أبنائها فى مغامرات سياسية وعسكرية غير مجدية.

ذلك هو الرأى المستقر الآن حول تلك الأحزاب الأوروبية، ولكن هذه الأحزاب جميعا كان لها شأن آخر فى الثلاثينيات من القرن الماضي، فقد كانت أحزابا قوية جدا، حققت فى بلادها بعض الانجازات المهمة مثل القضاء على البطالة، وتكوين جيوش قوية، وتحقيق ازدهار اقتصادى لبلادها بعد الركود والكساد، وكان مالفت أنظار العرب الى هذه الأحزاب هو أنها كانت معادية عداء شديدا لانجلترا وفرنسا، وهما الدولتان اللتان كانتا تستعمران معظم الأقطار العربية، فكان التعاطف العربى مع النازية والفاشية ومايدور فى فلكهما من الأحزاب الأوروبية الأخرى هو تعبير عن كراهية الاستعمار أكثر مما كان تعبيرا عن حب النازية والفاشية، ولا شك أن حزب مصر الفتاة فى مصر، وحزب القوميين السوريين فى بلاد الشام، كانا متأثرين أشد التأثر فى نشأتهما بالنازية والفاشية، ويكفى أن نشير هنا الى أن أحمد حسين مؤسس حزب مصر الفتاة قد أصدر كتابا يصور قصة حياته وكفاحه وجعل عنوانه إيماني، وهو عنوان استوحاه من كتاب هتلر الشهير كفاحي. ويذكر تاريخ مصر الحديث أن بعض المظاهرات فى القاهرة سنة١٩٤٢ كانت تهتف: إلى الأمام ياروميل، وذلك عندما كان القائد الألمانى العبقرى الشهير روميل قد وصل إلى العلمين مكتسحا أمامه قوات الانجليز والحلفاء، وكان الجميع يتصورون أن روميل سوف يصل إلى مصر ويطرد الاستعمار الانجليزى منها.

هذا هو حزب مصر الفتاة فى نشأته الأولي، وهذه هى دوافعه الوطنية فى اختيار النازية والفاشية مثلا أعلى له. وإلى هذا الحزب كان الدكتور عبدالرحمن بدوى ينتمى فى شبابه، وكان متحمسا لهذا الإنتماء أشد الحماس، وفى هذا الإطار يروى فى مذكراته تلك القصة الطريفة التى كان بطلها الكاتب الكبير

عباس العقاد، حيث يقول عبدالرحمن بدوى فى الجزء الأول من مذكراته صفحة١٣٣:

كان العقاد سنة١٩٣٩ يهاجم حزب مصر الفتاة، فلما كتب أول مقال تشاورنا فى مصر الفتاة بماذا نرد عليه. فرأى البعض أن يكون ذلك بالرد القاسى فى مجلة مصر الفتاة وكتب أحدهم وهو الأستاذ محمد صبيح مقالا بعنوان العقاد جهول يريد أن يعلم الناس ما لم يعلم، فكتب العقاد مقالا آخر أشد وأعنف، وكان من رأيى - أى رأى الدكتور بدوى - أن العقاد يرحب بالمقالات فلا علاج له عن هذا الطريق، بل لابد من استخدام العنف معه لأنه لا يردعه غير العنف. وأخذ برأيى اثنان من أعضاء الحزب، فتربصا بالعقاد وهو عائد الى بيته رقم١٣ شارع سليم فى مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل، وأفهماه أن هذا كله تأديب مبدئى له بسبب مقالين كتبهما ضد مصر الفتاة، فإن عاد فسوف يعودان إليه بما هو أشد وأقسي. وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرسا تاما، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة.

تلك هى القصة الطريفة التى يرويها الدكتور عبدالرحمن بدوى فى مذكراته، وهى على طرافتها قصة مؤلمة من جوانب عديدة، فالدكتور عبد الرحمن بدوى مفكر كبير، وقد كان فى ذلك الوقت - سنة١٩٣٩ - من نوابغ شباب مصر الذين تنعقد عليهم الآمال، وكان الكثيرون من المفكرين المصريين الكبار ومنهم طه حسين ومصطفى عبدالرازق يعطفون عليه ويقدمون له العون والمساعدة، ويفتحون أمامه أبواب التقدم العلمى والثقافي، وينتهزون المناسبات المختلفة لإتاحة الفرصة له حتى يسافر إلى الخارج ليزداد علما ومعرفة، وكان من المنتظر من مثل هذا الشاب النابغة أن يكون صاحب أخلاق فكرية نزيهة ورفيعة، وألا يخطر على باله أبدا ذلك الأسلوب الساقط فى مواجهة الفكر بالعنف، ولكنه

للأسف الشديد يسجل على نفسه أنه كان تلميذا مخلصا للنازية والفاشية فى شبابه، وهما حزبان كانا لا يؤمنان بالحوار الحر، وإنما كان يسارعان إلى قتل المعارضين لهما دون أى محاكمة، أى أن هذا القتل كان نوعا صريحا من أنواع الاغتيال للمفكرين والمثقفين المختلفين مع هذه الأحزاب فى رأى واحد أو فى عدة آراء.

ومن المؤسف أن يكون صاحب الاقتراح بضرب العقاد هو الدكتور عبدالرحمن بدوي، وأنه يعترف فى مذكراته بذلك، ويعترف به فيما يشبه الفخر والاعتزاز، ولم يكن العقاد قد ارتكب جريمة تبرر مثل هذا العقاب، فقد كتب رأيا مخالفا لرأى عبدالرحمن بدوى ورأى حزب مصر الفتاة، وكان يكفى فى الرد على آراء العقاد ما كتبه محمد صبيح من رد عنيف عليه، وكان باستطاعة عبدالرحمن بدوى نفسه،وهو صاحب عقل كبير وثقافة واسعة ونبوغ ظاهر، أن يرد على العقاد كما يشاء.. أما أن يقترح توجيه علقة ساخنة له فى ظلام الليل، وأن يجد شابين مندفعين يقومان بتنفيذ هذا الاقتراح، فهو أمر يثير فى النفس أشد الأسف، وهذا الأسف يزداد مرارة عندما نجد الدكتور بدوى يتذكر هذه الحادثة دون أن يخجل منها أو يعتذر عنها، فيرويها فى مذكراته كأنها من إنجازاته وبطولاته.

وتشاء الأقدار أن يتعرض الدكتور عبدالرحمن بدوى لموقف مشابه فى السبعينيات من القرن الماضي، وذلك عندما كان يعمل أستاذا فى إحدى الجامعات فى بلد عربى خارج مصر، فقد ألقى على تلاميذه بعض المحاضرات وتحدث فيها عن آراء له لم تعجب السلطة فى ذلك البلد، فتم طرد عبدالرحمن بدوى من عمله فى تلك الجامعات بعد أن تعرض لإهانات شديدة وقاسية، بل لقد قيل إنه كان مهددا بالقتل فى تلك المحنة لولا تدخل السلطات المصرية لإنقاذه من هذا المصير.

والذى حدث للدكتور عبد الرحمن بدوى فى الجامعة العربية التى كان يعمل بها فى السبعينيات من القرن الماضي، لا يختلف من حيث المبدأ عن الطريقة التى تعامل بها الدكتور بدوى نفسه مع العقاد، وقد كان من الأنسب والأكرم فكريا للدكتور بدوى أن يعتذر عن العلقة التى تعرض لها العقاد باقتراح من الدكتور بدوي، بدلا من أن يرويها فى مذكراته بفخر واعتزاز، بل لقد كان على الدكتور أن يخجل من هذه الحادثة خجلا شديدا، فهى حادثة لا تسيء إلى العقاد فى شيء، بل فيها إساءة كبيرة للدكتور بدوى قبل غيره.

وفى هذه الحادثة بذرة أساسية من بذور الشر فى حياتنا الفكرية والثقافية، لأنها حادثة تقوم على الدعوة الصريحة إلى العنف فى مواجهة أى اختلاف فى الرأي، بينما يقتضى الموقف الصحيح عند الاختلاف أن يتم ذلك بمواجهة الرأى بالرأي، وعند الاختلاف مع مفكر كبير مثل العقاد لا يكون الحل هو ضربه علقة ساخنة، بل الحل الذى تفرضه الأخلاق الفكرية الصحيحة هو الرد والحوار.

على أن هذه الحادثة المخجلة التى يرويها الدكتور بدوى فى مذكراته بفخر واعتزاز تقودنا إلى بعض النتائج والخواطر العامة المستمدة من هذه الحادثة نفسها.

فالعلقة التى نالها العقاد بتدبير من عبدالرحمن بدوى معناها التسليم بصواب مبدأ العنف الثقافى وهو مبدأ هدام للأمن الفكرى فى أى مجتمع سليم. وهذا المبدأ هو نفسه المبدأ الذى خرجت منه المواقف الإرهابية المختلفة، ومن هذه المواقف اغتيال الكاتب المفكر فرج فودة فى أوائل التسعينيات، ومحاولة اغتيال الكاتب الكبير نجيب محفوظ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤ على يد شاب جاهل اسمه فى بطاقته المزورة محمد ناجى محمد، ولم يكن هذا الشاب باعترافه وعند التحقيق معه قد قرأ رواية نجيب محفوظ العظيمة أولاد حارتنا ولكنه

كان قد سمع أنها تنطوى على شيء من المعارضة للدين، وسمع ذلك فى حديث عابر فى أثناء جلوسه فى إحد المقاهي، فقرر مع عدد من المتآمرين القيام بمحاولة لاغتيال نجيب محفوظ، بعد الحكم عليه ـ غيابيا ـ بالإعدام من محكمة عشوائية لا تملك أى عنصر ـ ولو صغير ـ يؤهلها لإصدار حكم على أحد، أو يتيح لها حق الكلام فى الدين بغير علم ولا بصيرة ولا عقل ولا ضمير.

وفى الحادثة التى يرويها الدكتور عبدالرحمن بدوى عن علقة العقاد ينتهى الدكتور بدوى إلى أن هذه العلقة كانت رادعة للعقاد، فسكت عن مهاجمة مصر الفتاة وهذا معناه ان العقاد كان جبانا وكان لا يملك أى نوع من الشجاعة فى التعبير عن مواقفه وآرائه، وأنه كان يكفى أن يتعرض العقاد للتهديد بالضرب حتى يسكت أو يتراجع عما يدعو إليه ويؤمن به. وهذه صورة زائفة تماما للعقاد، وهى تدل على أن الدكتور بدوى كان ـ ولا يزال ـ منحازا انحيازا أعمى ضد العقاد مع كراهية عنيفة لشخصه وأدبه.

وفى تفسير ذلك يقول البعض: إن عبدالرحمن بدوى كان من تلاميذ طه حسين، وإن تلاميذ طه حسين كان يكرهون العقاد ويحاربونه، لأن الحزبية الأدبية فى ذلك العصر كانت قائمة على مركزين كبيرين، أحدهما يمثله حزب طه حسين، وفى هذا الحزب الأدبى يقف عبدالرحمن بدوي، أما الحزب الثانى فهو حزب العقاد، وفى هذا الحزب الثانى كان يقف كثيرون ومنهم زكى نجيب محمود وسيد قطب وعثمان أمين وأنيس منصور وغيرهم. ومن هنا كانت كراهية عبدالرحمن بدوى للعقاد، لأنه من حزب الطحاسنة ـ نسبة إلى طه حسين ـ وليس من حزب العقاديين.

ولكن السؤال المهم هنا هو: هل كان العقاد جبانا كما يصوره عبدالرحمن بدوى فى مذكراته المثيرة والمهمة؟ الحقيقة أن العقاد لم يكن جبانا على الإطلاق، بل كان مفكرا شجاعا معتزا بكرامته الشخصية والفكرية أشد الاعتزاز، وقد

دفع العقاد ثمنا باهظا لشجاعته فى مختلف مراحل حياته، فقد دخل السجن سنة ١٩٣٠ لمدة تسعة أشهر بتهمة العيب فى الذات الملكية فى عهد الملك فؤاد، وتحمل العقاد سجنه فى صبر وكبرياء، ويوم خروجه من السجن ذهب إلى ضريح سعد زغلول وألقى فى المحتفلين به قصيدة رائعة وشهيرة يقول فيها:

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
وهاأنذا فى ساحة الخلد أولد
عدائى وصحبى لا اختلاف عليهما
سيعهدنى كل كما كان يعهد

وكان العقاد سنة ١٩٣٠ عضوا فى مجلس النواب الوفدى المنتخب بأغلبية ساحقة فى انتخابات حرة، وفى إحدى الجلسات قال العقاد: ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد لأن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته.

ولم يتوقف العقاد عند حدود ما قاله فى البرلمان، فقد كتب بعد يومين من موقفه البرلمانى الرائع الشجاع مقالا فى جريدة كوكب الشرق يقول فيه: بتاريخ١٩ يونيو سنة ١٩٣٠:

إن البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور، هكذا نقول اليوم، وهكذا نقول غدا، وهكذا يقول القانون والدستور، فإن مصر دولة ملكية دستورية، تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر، وتعد حماية الدستور فيها فريضة لا تنسي، وواجبا أقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء. وقد دفع العقاد ثمن هذا الكلام غاليا، فدخل السجن لمدة تسعة أشهر لأن عبارة أكبر رأس فى البلاد كانت تعنى الملك فؤاد فى عز سلطانه وطغيانه. فهل هذا الرجل يمكن أن يقال عنه إنه جبان وأنه أصيب بالرعب والخوف من علقة

دبرها له عبدالرحمن بدوى ونفذها شابان مهووسان من شباب مصر الفتاة؟ الحق أننا يمكن أن نختلف مع العقاد فى كثير أو قليل، لكننا لا يمكن أن نصفه بالجبن، أو نجرده من صفة أساسية فيه هى الشجاعة والاستعداد لدفع ثمن هذه الشجاعة مهما يكن هذا الثمن غاليا.

فقد كان العقاد مفكرا شجاعا فى عصر كان مليئا بالمفكرين الشجعان، وقد أخطأ الدكتور عبدالرحمن بدوى فى مذكراته عندما دافع عن العنف الثقافي، وروى حادثة تحريضه وتدبيره لضرب العقاد سنة١٩٣٩، دون أن يعتذر عن هذه الحادثة، أو يخجل منها.

ولو أخذنا بمبدأ الدكتور بدوى لقلنا إنه يستحق على ما كتبه عن العقاد علقة ساخنة، فهل هناك من يتطوع بتنفيذ هذه العقوبة ضد الدكتور بدوى فى مقر إقامته الدائمة فى فندق كاليفورنيا بباريس؟!

و ها هو ذا مصطفى صادق الرافعى فى كتابه على السفود قد حَشَاه بالنعوت غير الكريمة فى حق العقاد، بل وأفعمه (بالطعن الفاحش) على حد تعبير العقاد نفسه وعبر الأستاذ سعيد العريان تلميذ الرافعى عن هذا الكتاب (بأنه شيئًا خليقًا بأن يطمس كل ما فيه من هجر القوم والهجاء، وفى هذا يقول الرافعى : أما العقاد فإنى أكرهه، واحترمه، أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه واحترمه لأنه أديب قد استملك أداة الأدب، وباحث قد استكمل عدة البحث، قصر عمره وجهده على القراءة والكتابة فلا ينفك بين كتاب وقلم أسلوب العقاد الأديب الحكيم تبرز فيه الفكرة الدقيقة فى مجتلى الفن الرفيع فيجمع بقوة تفكيره ودقة تعبيره طرفى البلاغة والعقاد مخلص لفنه:. فلا يخرج للناس ما لا يرضاه فهو لذلك أبعد الأدباء عن استغلال شهرته واستخدام إمضائه .

وهذا الكتاب (على السفود) الذى هو مثال لفرط الحقد عليه والذى يقول

فيه الأستاذ عباس خضر فى كتابه هؤلاء عرفتهم :

وسمعت عن كتاب ذائع الصيت اسمه على السفود قيل إن مصطفى الرافعي شوى عباس محمود العقاد . والكتاب ليس عليه اسم المؤلف وإن كان معروفًا أنه الرافعى . فلما وقع فى يدى وقرأته وقرأت فيه شعرت بالقرف من هذا النوع من الكتابة المفحشة، وأدركت لماذا لم يضع المؤلف اسمه على هذا الكتاب الذى يزرى بمؤلفه . وشعرت أنى مع العقاد المشوي على السفود . فى ذلك الوقت : ووقت أن قرأت كتاب على السفود كان العقاد قد انشق على الوفد وراح يكتب مقالات حامية ضد زعيمى الوفد مصطفى النحاس ومكرم عبيد . وكنت أعمل فى مجلة وفدية اسمها الكرباج وطلب إلى أن أكتب ضد العقاد ففعلتها بدافع الشعور العام الوفدى من جهة، وبدافع شهوة إعمال القلم فى البدء، ودافع أكل العيش من جهة أخرى . واستعنت بكتاب على السفود، وكان رئيس التحرير قد أحضره لى وقال لى : خذ من هذا الكتاب واشتم العقاد ! وكم أنا نادم على ذلك الآن .

ولكن مقالات العقاد أثرت فيّ، بحيث زعزعت أركان العقيدة الوفدية فى نفسى وعلمت أن العقاد والصحفى الكبير محمود عزمى ومن معهما فى جريدة روزاليوسف اليومية التى اتخذت منبرًا لمهاجمة الوفد بالاتفاق مع صاحبتها السيدة فاطمة اليوسف علمت أنهم يعيدون تنظيم الجريدة، فتقدمت إليهم لكى أعمل مندوبًا لها فى الأزهر والمحاكم الشرعية، واستعنت على ذلك بصديقى طاهر أبو فاشا الطالب الأديب الجريء الخفيف الظل الذى كان قد اتصل بالعقاد وصار من تلاميذه المقربين إليه وقدمنى طاهر إلى العقاد، وكانت أول مرة ألقى فيها العقاد شخصيًا . وكنت سعيدًا جدًا بهذا اللقاء وبعملى فى الجريدة الذى لم يطل أمده لإفلاس الجريدة وتوقفها عن الصدور لمحاربة الوفد إياها واتخاذ الموزع سلاحًا فى هذه المحاربة، فكانت شركة التوزيع تخفى

الجريدة ولا توزعها . وقد ذكرت بعض مغامراتى الصحفية فى هذا العمل بكتابي خطى مشيناها .

ولما تعطلت الجريدة رأيت من حسن الخلق أن أزور العقاد فى بيته، وذهبت إليه دون تحديد موعد سابق، وكان عاكفًا فى منزله لا يكاد يغادره، إذ كان فى محنة شديدة ذات وجهين : وجه مادى ووجه معنوى، الأول مفهوم لانقطاعه عن العمل الصحفى مصدر رزقه الوحيد والثانى إخفاق حملته على الوفد وما لابس ذلك من محاربة الوفد للجريدة، وقال لى بأسف شديد ونحن جالسان وحدنا قرابة ساعة فى الشرفة صيفًا إن المؤسف أن يتضامن الوفديون فى محاربتنا على حين يتقاعس أنصارنا عن مد يد العون إلينا أو حتى السؤال الذى لا يكلفهم شيئًا .

مكثت مع العقاد نحو ساعة كما قلت لم أر فى خلالها عنده أى أحد وعرفت أنه يعانى الوحدة وانفضاض الناس من حوله . وقد تبسط معى فى الحديث تبسط من يجد أى إنسان يكلمه !.

ولقيته بعد ذلك على فترات متباعدة، وأعتقد أنه لم يعرف أنى ذلك الإنسان فما أنا فى نظره إذ ذاك إلا واحد من عشرات الذين ينشدون الأدب ويحاولون أن يكونوا فيه شيئًا . ولكن كان مما يعجبنى فى العقاد مع تعاليه على الكبراء وتكبره على أهل الكبر أنه كان متبسطًا لطيفًا مع غيرهم ولا أقول متواضعًا، فلم يكن التواضع من سماته على أى حال، حتى فى أفكاره إذ يرى أن الفكر والأدب الرفيع مما يخص الخواص، أما بقية الناس فهم (همل أو قطيع) لا حساب له فى فكر أو أدب . وهذا كان بعد فن القصة قليل القيمة، لأنه كما يرى فيما يبدو لى يعنى بالناس العاديين، كتب فيه قليلًا، وركز على الشعر باعتباره فنًا عاليًا لا يهبط إلى العامة مثل القصص . ولما كتب قصة سارة كتبها بطريقة مختلفة عن سائر القصص، إذ جعلها أشبه بكتاب فى فلسفة الشك منها بقصة

تروى وتعالج كما يعالج عباد الله القصصيون قصصهم، والمعروف أنه تناول فيها حبًا شخصيًا له، ولهذا تراه حبًا عجيبًا لا يحبه إلا العقاد

وبعد أن هدأت المعركة بين العقاد والرافعى وإذ أصدر العقاد ديوانه الشعري وحى الأربعين دفع الرافعى بزميل له لشن حملة على العقاد . رد العقاد عليها على صفحات جريدة الجهاد بمقال تهكم فيه على زميل الرافعى ناعتًا إياه بمقدرته الكليلة فى فهم الشعر وعاب فيه على وزارة المعارف أن يكون بين مدرسى اللغة العربية أمثاله، وإذ أراد الرافعى أن ينتقم لزميله المذكور آنفًا كتب مقالًا يهاجم فيه العقاد فى صفحات ثلاث لا تقل بذاءة على ما ذكره فى حق العقاد في سفوده فرد عليه العقاد بمقال نارى معنونًا إياه (بأصنام الأدب) لقب فيه خصمه بالمهذار الأصنم كما قال : مصطفى صادق الرافعى رجل عامى من فرعه إلى قدمه أو من قدمه إلى فرعه، يظن كما يظن كل عامى أن المناقشة هى أن تغلب وأن علامة الغلب أن يظل يتكلم ويتكلم ثم قال له فى ختام مقاله : يا هذا عندى ما يشغلنى عن ضغينة نفسك الصغيرة فاذهب إلى عالم الأشباح الذى ألقيت بك فيه منذ سنوات .

و نهاية بعميد الأدب العربي طه حسين الذى كان صنوه فى الأدب وقرينه فى مجمع اللغة العربية ورشحه كما سبق ذكره لإمارة الشعر العربى .

وكان يذكر دومًا موقف العقاد معه إبان الأزمة الحادة التى تعرض لها العميد بعد كتابه الشعر الجاهلي إذ وقف العقاد فى وجه خصومه فى البرلمان المصرى أو خارجه منافحًا عنه مدافعًا عن حرية الفكر وحق العميد فى البحث دون رقابة من أحد عليه، ومات العقاد فإذا بالدكتور طه حسين يقول عن إحدى كتبه: إنه لم يفهمها ، ثم ثنى بموقف غير كريم منه اتجاه صنوه فى الأدب متهمًا إياه فى دينه، وفى شرفه، ولا ينسى الوسط الأدبى أن الدكتور طه حسين أثناء حديثه مع الأستاذ أنيس منصور قال له : إننى لم أفهم كتاب العقاد عن

عبقرية عمر ولم يفهمها حفيدي.

وفى عموده اليومي مواقف الذى دأب الأستاذ أنيس منصور على كتابته يوميًا بجريدة الأخبار يقول : أن عاملًا بسيطًا قد كتب إليه يقول: إنه قد قرأ كتاب عبقرية عمر وأنه فهم كل حرف فيه وأنه مستعد أن يجابه الدكتور طه حسين فيما ذكره له عن هذا الكتاب وأنه منتظر أن يرسل الدكتور طه حسين الجائزة التى وعد بها أن يمنحها لمن يفهم هذا الكتاب . وكان طه حسين قد وعد بجائزة لمن يفهم كتاب العقاد هذا.

يذكر الأديب الدكتور سعيد اللاوندي فى كتابه أوجاع مصرية فى الصفحة ٢٤٥ من كتابه هذا تحت عنوان (نعم كان لطه حسين وجه قبيح ياصاح !)

ها هو عميد الأدب العربى (طه حسين) الذى هو من هو فى دنيا الأدب والفكر وكان أحد أبرز الفرسان الذى يتحمسون كثيرًا (لبضاعة القيل والقال).

ويروى إنه كان يستمع جيدًا لوشايات الآخرين، وكثيرًا ماكان يحلو له أن يطلق لسانه فى الدانى والقاصى وكان يخطئ كثيرًا فكم من صديق له اكتوى بناره والقصص فى هذا الأمر كثيرة، (لكن قبل أن أسرد بعضًا من أطرافها أنوه إلى أننى من أشد المعجبين بالدكتور وبأدبه . بل عندما أعددت أطروحتى للدكتوراه أهديتها إليه، ولكنى أسوق ما أسوق كحقائق تكشف الوجه الأخر ل طه حسين لتكون لى ولأمثالنا ما تعذبهم افتراءات القيل والقال . عزاء وسلوى).

وأردف الدكتور اللاوندى قائلًا : أن أحمد أمين بعد أن تولى منصب العمادة فى كلية الآداب كان مستهدفًا من طه حسين عندما ولى منصب المستشار فى وزارة المعارف عاود رغبته بقوة فى السيطرة عليه . كان يكيل للمقربين إليه ما يشاء ولو لم يستحقوا . عندما أراد أن يرقى أستاذًا مساعدًا بقسم الجغرافيا

بكلية الآداب إلى درجة أستاذ وكتب بذلك تقريرًا مع إنه لم يكن مختصًا بذلك رفض مجلس الكلية ذلك، فلم يكن من طه حسين أن قال لهم : (إنكم تلعبون).

وعندما أراد الدكتور عبد الرحمن بدوي أن يدخل امتحان الماجستير وأقترح الأمر على مجلس الكلية فرفض، جن جنون طه حسين، ورفض كما رفض تجديد عقد (الدكاترة) زكى مبارك للتدريس فى الجامعة، فما كان من زكى مبارك إلا أنه هاجمه هجومًا مرًا قائلًا له : وقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من يد أطفاله ألا فيعلم حضرته أن أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه، ولكنهم لن يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله

كما أطلق طه حسين لسانه فى زملائه وأصدقائه، فقد اتهم الدكتور عبد الرزاق السنهوري هو و أحمد أمين بالتآمر ضده كما قال إن الدكتور محمد حسين هيكل لم يكن يؤلف كتبه وإنما كان يكتبها له أناس آخرون ثم ينسبها لنفسه، ومع ذلك تشتمل على أخطاء علمية ضخمة فهناك غلطة منكرة وقع فيها الدكتور هيكل فى كتاب حياة محمد، حيث قال :

لم يكن فى البحر الأحمر إلا أسطولان هما الأسطول الحبشى والأسطول المصري وهذا خطأ لأن الحبشة لم يكن لها أسطول، وأن النجاشى قد اعتمد على قيصر فأرسل إليه جيشه وأسطوله، والسبب فى هذه المعاونة أنهما كانا على دين واحد : .

وعن زميله الدكتور أحمد ضيف : أستاذ الأدب العربى بالجامعة وقتئذ ينسب إليه قوله : إن الدكتور ضيف أقام بفرنسا أكثر من عشرة أعوام، ولما أراد أن يكتب رسالة الدكتوراه لم يستطع أن يكتبها بنفسه، وذهب إلى شخص من هؤلاء الذين يكتبون الرسائل الجامعية لغير الفرنسيين، وجاءنى بعد أن طبع الرسالة وقرأها علىّ فوجدت فيها بعض النصوص التى تتعارض مع المفاهيم الإسلامية ومنها نص يتعلق بذات الله ويصفه بأنه مركب فقلت

للدكتور ضيف : هذا خطأ، الله سبحانه واحد وليس مركبًا غيرَّ هذه الكلمة إلى كلمة مجرد . فكتب فى صفحة الصواب والخطأ مركب خطأ والصحيح مجرد .
وفى يوم المناقشة قال أحد الأساتذة الممتحنين: ليس معقولاً أن يخطئ عامل المطبعة فيضع كلمة مكان أخرى، ولم يستطع الدكتور ضيف أن يجيب

أما عن الناقد الراحل محمد مندور ، فاتهمه طه حسين بأنه كان يحب الفلوس ، ويسعى إلى تجميعها بكل السبل، فقال فى روايته عن أعلام عصره.

إن الدكتور مندور فعلًا كان يحرص على المادة، فحين كان أستاذًا مساعدًا بجامعة الإسكندرية عرض عليه الأستاذ أحمد أبو الفتح أن يدفع راتبًا قدره ١٢٥ جنيهًا لقاء عمله فى صحيفة المصري، وجاءنى الدكتور مندور فقد كنت مديرًا للجامعة وقدم إلى استقالته، فحاولت أن أثنيه عن عزمه، وأذَّكره بمستقبله فى الجامعة، بيد أنه أصر على رغبته فى الاستقالة، فالراتب الذى سيحصل عليه من العمل فى الصحافة ضعف راتبه فى الجامعة، وبعد فترة من عمل الدكتور مندور فى صحيفة المصرى اختلف مع الأستاذ : أبو الفتح ووصل الأمر بينهما إلى القضاء.

ولعل ما قاله طه حسين عن عباس العقاد هو أبشع ما قيل من إنسان على آخر حتى الآن فقد نال الرجل فى شرفه، وكرامته، ودينه .

يبقى أن نذكر أن العميد الذى كان يحبذ النميمة، ويحرص عليها ويدلل مروجيها، ويهش فى وجه ناقلى الكلام ومختلفيه لم يكن يطيق أن يسمع كلمة تقال عليه، أو رأيًا ينال منه فبدأ بذلك متناقضًا أشد التناقض فهاهو يصب جام غضبه على زميله أحمد أمين : لأنه رفض سيطرته على قراراته عندما كان عميدًا لكلية الآداب، بينما هو يرفض أن تتدخل وزارة المعارف فى شؤون الجامعة عندما كان أستاذًا بها فيقول :

وفى يوم الخميس صدر قرار وزارى بنقلى من الجامعة إلى وزارة المعارف، فرفضت تنفيذ القرار : لأنه ليس من حق وزير المعارف أن ينقل أستاذًا جامعيًا، فالجامعة مستقلة ولا سلطان لأحد عليها، ولما رفضت تنفيذ القرار طلبنى رئيس الوزراء وقال لى :

لماذا لا تنفذ قرار الوزير؟ فقلت له : هذا الوزير حِمار ولا أحب أن أتعامل معه، كما أنه ليس من حقه أن يصدر مثل هذا القرار فقال رئيس الوزارة : لا تتعامل مع هذا الوزير وتعامل معى .

فقلت له : ولا أتعامل معك : فقال رئيس الوزراء : إذن فأنا حِمار مثله . فقلت : عفوًا يا باشا لم أقصد ذلك .

ويكمل العميد : وانتهت هذه المقابلة، ثم فوجئت بعدما بصدور قرار بإحالتى على المعاش

وأيًا كان الأمر، فإن مناورات طه حسين ومعاكساته الشرسة لأصدقائه وزملائه تبقى دليلًا على تأصل عيب آخر فى شخصيته هو الرغبة فى التشفى والانتقام فهاهو يروى حادثة وقعت فى إحدى جلسات المجمع اللغوى عندما طرحت فكرة الإشراف على المعجم الكبير الذى اعتزم الجميع عمله وما إن علم أن أحمد أمين (غريمه) يصر على أن يعهد بمهمة الإشراف على هذا المعجم إليه طمعًا فى المكافأة التى ستصرف لذلك وقيمتها ثلاثون جنيهًا شهريًا حتى رفض واحتدم الخلاف .

يروى طه حسين عن نفسه ويقول : وقفت وقلت : ما رأيكم فيمن يتولى الإشراف على هذا المعجم مجانًا، فاعترض أحمد أمين على هذا، فقال له لطفى السيد وكان رئيسًا للمجمع : هل تشك فى قدرة الدكتور طه العلمية؟

فرد أحمد أمين بالنفي، ولكنه أضاف : ولكن الدكتور كه بإعلان رغبته هذه

يعلمنا دروسًا فى الأخلاق ويردف الدكتور اللاوندي:

أى صديقى :

أرجو أن تكون قد وجدت فيها سردته عن عميد الأدب ورفاقه بعضًا من السلوى! .

كما أوصيك بتذكر ما قاله جلال الدين الرومى يومًا :

(إذا كانت الأصنام المادية ثعبانًا، فإن الأصنام الفكرية تنين)

ولعل من المفيد أن نذكر هذه العبارة التاريخية المنسوبة ل طه حسين والتى قال فيها : حيث كانت المعركة الأدبية بين العقاد وطه حسين محتدمة حول النقد اللاتينى والنقد السكسونى وقد ذكر طه حسين خصوماته مع العقاد، وكان عنوان هذه المعركة لاتينيون وسكسونيون وكانت هذه المعركة حامية الوطيس فيها بينهما فكل منهما ينافح عن وجه نظره ويؤيدها بما فى جعبته من الشواهد والبراهين .

ولاقت هذه المعركة اهتمامًا كبيرة من الأدباء إذ تتبعوها بشغف شديد .

ويذكر الأستاذ الجبلاوى فى كتابه ذكريات مع العقاد : وطلب إلىّ العقاد آنذاك أن أرجع إلى كتاب أناتول فرانس الحياة والأدب وهو كتاب يقع فى ثلاثة عشر جزءا مترجم إلى اللغة الإنجليزية وحِرت كيف استخرج له ما يريد من هذا الكتاب الكبير المتعدد الأجزاء، ومن المصادفات العجيبة أن يكون أول جزء تقع عليه يدى هو الجزء المطلوب وإن تكون أول صفحة فيه هى الصفحة الت تحمل قول أناتول فرانس فى تفضيل الأدب السكسونى الذى يدافع عنه العقاد .

وقال طه حسين: لقد هاجمت العقاد فى غير موطن من مواطن الخصومة، خاصمته فى السياسة وخاصمته فى الأدب وخاصمته فى السياسة والأدب

أيضا، ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار العقاد فى نفسي.

وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه ومعاصريه من يقدره مثل ما أقدره أنا أُكبره وليس يعنينى أن يكون رأى العقاد فى كرأيى فيه، وإنما الذى يعنينى أن أقول الحق وإن كرهه الكارهون،وإن كرهه العقاد نفسه، والذين عاصروا خصومات العقاد يذكرون من غير شك أنى أثنيت على أدبه فى جريدة السياسة حيث كانت الخصومة بين الوفد والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات، وقد كانت الحرب سجالا بينى وبينه ولم يمنعه ذلك من أن يقوم قيام الرجل الكريم فى مجلس النواب يدافع عنى حين كان الوفديون جميعا يشنون على حربًا، ولا أعرف أن الخصومة بين العقاد وبينى قد انقطعت، فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة ولكننا قوم نعرف كيف نختصم دون أن نفسد الخصومة رأى واحد منا فى صاحبه.

ومن المقطوع به أن لهذا الكلام معنى عميق وطه حسين لا يقوله مجردًا ولعله أراد أن يدفع به حملة من حملات العقاد ضد شيء ما، وقت كتابة هذه الكلمات.

ثم انظر ما قاله شيخ كبير من شيوخ الأدب هو الأستاذ أحمد أمين : (أول ما يروعك فى العقاد أنه صارم قوى الجأش لا يأبه للعواقب، وأصدق ما يكون فى القتال إذا نازل من مس كرامته أو جرح عزته، إذ ذاك يكون أجرًا من السيل، وأهول من الليل، ينسى نفسه وماله وكل شيء حتى يسترد كرامته ويتأثر لعزته. فإذا ما رأيناه أى العقاد يقول عن نفسه أنا أطلب الكرامة عن طريق الأدب والثقافة، واعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء فإنما هو يقول حقا.

يذكر صديقه الأستاذ طاهر الجبلاوي في كتابه ذكرياتي مع عباس العقاد : أن الأستاذ العقاد كان كثيرًا ما كان يقول له بالإنجليزية Dignity is the best policy أى الكرامة هى السياسة المثلى . ومن مأثور كلامه قوله: ليس أقرب من السعادة من المثل الأعلى الذى يسعدك كاسبًا أو خاسرا وناجحًا ومخفقًا فى كل معركة يهمك أن تخوضها .

حينذاك تزول الغرابة التى يلاحظها القارئ فى رأى زميله أحمد أمين . لأن من يطلب الكرامة عن طريق الأدب والثقافة لابد أن يثور كلما رأى أحدًا يحاول أن يقلل من قيمة الفكر الإنسانى أو يعمل على هدمه وتخريبه كائنًا من كان (عامر العقاد معارك العقاد الأدبية منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت).

وقد سبق لنا فى فترة الستينيات أن قرأنا لصحفى معروف حملة ضارية جرت على سنان قلمه ضد العقاد قائلًا فيه ما قاله مالك فى الخمر .

ثم بعد أن انتقلت روح العقاد إلى بارئها إذا به يكتب فى ذات الجريدة (الجمهورية) فى ٥/ ٢/ ١٩٦٩ : وعندما أخذت أنفاسى وعدت أستطلع ما كتبته منشورًا أصابنى الفزع والروع . فما هذا الذى فعلته، كيف تلد اللحظة الجموح تلك كل هذا الهرم من الأخطاء . نعم وأعترف بأنها أخطاء بل ذنوب . ففى حمية الاندفاع ضد العقاد تعثر قلمى فى تعابير فاحشة مترنحة لا يقترفها إلا ضرير طائش بعدت عنه الرؤية فى لحظة فقدان صواب . كما كتب الأستاذ رجاء النقاش :

إننى واحد من الذين أخطؤوا فى حق العقاد فالعقاد كثيرًا ما يفرض على الذين يناقشونه عندما يغضب أن يستخدموا ضده كل الأسلحة : حماية لهم من أسلحته التى يستخدمها هو والتى كانت بلا حدود .

(كتاب أدباء ومواقف المكتبة العصرية بيروت)

وكانت من أقدم معارك العقاد . معركته مع مصطفى صادق الرافعي ويحكى الأستاذ محمد سعيد العريان قصة الخلاف التى حدثت التى نشبت بين العقاد والرافعى بخصوص كتاب الأخير إعجاز القرآن الذى قال فيه الزعيم سعد زغلول :

(إنه كتاب كأنه أنزل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم)

يذكر الأستاذ العريان هذا الخلاف قائلًا :

حدثنى الرافعى قال : سعيت لدار المقتطف لأمر، فوافقت العقاد هناك ولكنه لقينى بوجه غير الذى كان يلقانى به . فاعتذرت من ذلك إلى نفسى بما ألهمتنى نفسى وجلسنا نتحدث وسألته الرأى فى إعجاز القرآن، فكأنما ألقيت حجرًا فى ماء آسن فمضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال، كان كأن ثأرًا بينه وبين إعجاز القرآن! ولو كان طعنه وتجريحه فى الكتاب نفسه لهان علي، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز . أصدقك القول يابنى : لقد ثارت نفسى ساعتئذ ثورة عنيفة، فكدت أفعل شيئًا، إن القرآن لأكرم وأعجز

وقد أحاطت به فى حياته وحتى مماته الأحاجى التى أبعدته عن الناس، فلم يكن لديه وقت لمقابلتهم حتى أن جيرانه غداة سكناه فى بيته فى مصر الجديدة قادمًا إليه من أسوان أرادوا أن يتزاوروا معه فنأى العقاد عنهم لأنه ليس لديه وقت يبذله مع الناس إذ كان يصرف جل وقته بنظام صارم دقيق فى القراءة والكتابة والعكوف على مطالعة أحدث ما أخرجته المطابع الأميرية من كتب علمية أو فكرية أو أدبية أو ثقافية، وكانت صناديق الكتب الثقيلة تأتى إليه من الخارج بكنوزها بأحدث المؤلفات العالمية باللغات الأجنبية بالعلوم والآداب.

وكان معركته مع أمير الشعراء أحمد شوقي معركة شرسة ضارية من أعنف

المعارك التى دارت رحاها على الساحة الأدبية فى مطلع القرن الماضي

حين كان شوقى ملء السمع والبصر وكان لصيقًا بقصر الملك وقريبًا من الوزراء والأمراء .

بدأت هذه المعركة عندما كتب العقاد مقالًا فى كتابه خلاصة اليومية حيث انتقد العقاد شوقى فيما قاله فى قصيدته في رثاء بطرس غالي وكان مطلعها :

قبر الوزير تحية وسلامًا الحلم والمعروف فيك أقاما

قد عاب العقاد على شوقى لجوئه إلى التقليد، فضلًا عن غياب الشعور الصادق فى تلك القصيدة، ومن بعدها أصدر هو وصديقه المازني كتابهما فى النقد والأدب . وكانت الصحف تنشر آنذاك بل وتتسابق هى والمجلات فى نشر قصائد شوقى وتتصدر صفحاتها الأولى منحية جانبًا ما عداه من الشعراء حتى الكبير منهم مثل حافظ إبراهيم .

كتب العقاد : كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتًا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد، لا استضخامًا لشهرته، ولا لمنعة فى أدبه عن النقد، فإن أدب شوقى وأتباعه من أتباع المذهب العتيق ، هدمه فى اعتقادنا أهون وأيسر الهينات، ولكن تعففنا عن شهرة يزحف إليها زحف الكسيح، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها على الضريح، ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا مجوًا شيئًا لسبب يقنعهم لم يألوا أن يطبق على الملأ الأعلى والملأ الأسفل عن تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقى وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة، وعلى كل باب وقفة وقد يكون هذا شأننا معه اليوم وغدًا لولا الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنع. فإن هذا الرجل يحسب أن لافرق بين الإعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء إلى أعلى مقام السمعة الأدبية والحياة الفكرية وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة كل السمعة أن يشترى

ألسنة السفهاء ويكمم أفواههم، فإذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم الخلود، وعفاء بعد ذلك على الإفهام والضمائر وسحقًا للمقدرة والإنصاف وبعدًا للحقائق والظنون، وتبًا للخجل والحياء، فإن المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة . وهل للناس عقول؟ .

وخلاصة القول فى منهج العقاد فى الشعر إن الشاعر الذى لا يعبر عن شخصيته بكلامه ليس بشاعر موفور الحظ من الطبيعة .

عندما التقى العقاد مع شوقى بعد اتصال شوقى به ضاربًا له موعدًا بجريدة كوكب الشرق التى كان يرأس تحريرها فى غياب صاحبها سأل شوقى العقاد : لا أدرى سر إعجابك ب ابن الرومي ؟، ولما أجابه العقاد متحدثًا عن ملكات ابن الرومي الشعرية قال له شوقي إنك تدفعنى أن أقرأه مرة ثانية .

ومن المفيد أن نذكر أن ثمة من كان يرى رأى العقاد فى شوقى بخلاف المازنى وعبد الرحمن شكري، واختلاف المدرستين مدرسة العقاد ومدرسة شوقى بين من يرى أن شعر النماذج وجد فى شوقى أما العقاد فقد كان ينقل من الطبيعة والحياة .

قال الدكتور طه حسين فى كتابه حافظ وشوقى : وقد قرأت مقدمة هيكل وكنت أظن أننى سأظفر فيها بمذهب شوقى فى الشعر . وأنا أعلم أن هيكلًا من أقدر الناس على التحليل وأبرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان جاك روسو وأناتول فرانس وبيير لوتي، فلم أشك فى أن كثيرًا من الناس يستطيعون أن يقنعوا بقراءة هؤلاء الكتاب أنفسهم . ولكنى لم أكد أظفر ب بشيء صريح من العقيدة الشعرية لشوقى فيماكتب عنه هيكل . أترى أن مصدر ذلك أن ليس لشوقى عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها؟ أم لأنه فصل القول فى شاعرية الشاعر فكشف عيوبها وجلاها للمخدوعين فيها؟! ربما !! هذا ما

نتركه لجيل النقاد المحدثين البعيدين عن التعصب لشوقى ومذهبه والمؤمنين بدعوات التجديد فى الشعر العربى المعاصر، وما أحدثته من أثر فى الشكل والمضمون فى المضمار .

كما كتب العلامة محمود شاكر فى مجلة الكتاب عدد أكتوبر عام ١٩٤٧ صفحة ١٥٧٥ حيث قال : كان شوقى رجلًا طموحًا إلى أشياء يعيبها عليه المسالك أن يكون شاعر الأمير وأن يظل شاعر الأمير وأن اختلفت الأمراء . فمن أجل ذلك تراه لا يزال يتمنى أن تتغير الحال بعد قليل فتتغير حاله فيؤثر أن يمسك لسانه ولا يسترسل مع أميره هذا الجريء . وكان هذا أو الداء العياء هو الخوف آفة الأحرار ومن أعجب العجب أن شوقى الذى كان إلى سنة ١٩٠٦ لا يدع شيئًا إلا قال فيه، قد اعتقل لسانه وسكن سكونًا حتى لاحراك به يوم وقعت كارثة دنشواي، فلم يقل شيئًا إلا أبياتًا من أرذل الشعر قالها بعد عام مر على حادثة هذه القضية فى سبيل طلب العفو عن سجنائها، كما قال فى ديباجتها، وكان غاية ما قاله :

نيرون لو أدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام

فمن شاء أن يرشدنى كيف استطاع أن يملك نفسه، فلا يذكر شيئًا عن احتلال بلاده وضياع استقلالها، وعن هذه الكارثة الوحشية التى حركت الكاتب الايرلندى برنارد شوفليفعل مشكورًا أما أنا فأرى أن القلب الذى سكن فلم يتحرك ولم يتمزق على هذين البلاءين الشديدين لا يستطيع البتة أن ينفخ الحياة فى شعر يقال لينفخ الروح فى شعوب موات من وطأة الاستعمار والجهل والاستعباد قديمه وحديثه . وهذا هو جوهر الشعر الوطنى القومى

وجاءت معركته التالية مع الشاعر العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوي بخصوص العقل والعاطفة أيهما أشد وأسبق، وبينما ركز الزهاوى على العقل منحيًا العاطفة جانبًا اعتنق العقاد الرأيين معًا مغلبًا العاطفة على الأول.

كتب العقاد مقالًا ضمه إلى كتابه ساعات بين الكتب متسائلًا : من طار بجناح العقل أخيرًا لندنبرج وصل إلى باريس من نيويورك فى ٣٤ ساعة فاليخبرنى الأستاذ إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة؟ .

ويعلق العقاد أن نصيب الأستاذ الزهاوى من الملكة العلمية أكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية .

ويرد عليه الأستاذ الزهاوى : أنه فيلسوف وأنه شاعر لا يقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكات العلمية، ويرد العقاد: وليس يضيرنى أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء فى الأرض واحدًا أو أكثر، فإننى لم أتكفل بهم ولا تحسب على أخطاؤهم أو يختلس منى صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل فى غير حقيقة تجلى فى رأى يستوضح، فإن الجدل الذى يطول فيه الأخذ والرد لغير شيء من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة . فإذا رجعت اليوم إلى الموضوع فليست رجعتى إليه لحرص على تقليل حظ الزهاوى من الفلسفة والشعر ولا لمطاولة فى الجدل وإنما هى لاستخراج الحقيقة التى أردتها من رد الأستاذ نفسه وبيان المعنى الذى ذهبت إليه من طريقة الأستاذ فى ملاحظة الأشياء وفهم أعمال الناس .

فليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير فى إدراك الأستاذ الزهاوى لأعمال الإنسان، ولهذا هو يخطئ فى تصورها والحكم عليها ومتابعتها إلى أسبابها وغاياتها، وفى رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف فضلًا عن الشاعر إلى حسبان ذلك الحساب، وفهم الإنسان ومكانه فى هذا الكون كما هو إنسان فى حقيقته لا يتصوره الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور . وإليك بعض هذه الأدلة المأخوذة من المقال :

يقول الأستاذ الزهاوى : من طار بجتاح العقل أخيرًا لندبرغ وصل إلى باريس من نيويورك فى ٣٤ ساعة فليخبرنى الأستاذ أين وصل الذين طاروا

بجناح العاطفة؟ .

وواصل العقاد حديثه قائلًا :

وأنا مخبره إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة : أخبره أنهم وصلوا من نيريورك إلى باريس فى ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غدًا فى أقل من هذه الساعات، لأن لندبرغ لم يَطِر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التى هتفت له هتاف الحمد والإعجاب ولم يسبق لندبرغ طائر فى الفضاء ولن يلحق به طائر مثله إلا كانت العاطفة هى محركه وهى جناحه وهى جزاؤه إذا نجح وعزاؤه إذا خاب، وليس الطيران كله إلا حلمًا من أحلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الأجير يحقق ما تعلقت به الأخيلة واتجهت إليه الرغبات .

وأى عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين فى هذا المضمار القاتل؟ وأى عقل يزين له أن يرفض المال الذى انثال عليه من شركات الصور ودور المحاضرات والمساجلات؟ ليس العقل هو الذى أعطانا الطيارين وآلات الطيران وإنما هى دوافع الإحساس وبواعث الخيال وهي العواطف التى تحمل الإنسان على كل جناح إذا قعد به التفكير وحده فى قراره بالعجز والجمود .

ونتجاوز نحن هذا الحد إلى ما بعده فنقول إن الغربيين فى هذا الزمان يسبقوننا فى ميدان الكشف والاختراع لأنهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب لا لأنهم يحسنون ما لا نحسنه من الفهم ولا من التفكير، فكل مصنوع يصنعه الغربيون نستطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله، ولكننا لا نستطيع البداءة لأنها وليدة البواعث وهى قاعدة عندنا ناهضة عندهم فالتفاوت بيننا وبينهم تفاوت فى البواعث أى فى الخلق والإحساس وليس

تفاوتًا فى العقل والتفكير، وطريقنا نحن فى الإحساس بالأمور هى التى ينبغى أن يتناولها الإصلاح وليست طريقتنا فى فهم ما يحتاج إلى الفهم والتحصيل .

أما معركته مع طه حسين فهى ترجع إلى زمن بعيد موغل فى القدم فقد حدث أن كتب العقاد سنة ١٩١٦ فى مجلة المقتطف نظرات فى فلسفة المعري وختمها يومذاك بمآخذ أخذها على دراسة الدكتور طه حسين للمعري، وكان الدكتور طه حسين أخذ على العقاد أنه بكتابه رجعة أبى العلاء وقد طاف به من خلال كتابه بين أرجاء الدنيا أن الأستاذ العقاد لم يغادر مصر . فكيف طاف بأبى العلاء حول العالم؟ وهو لم ير أى بلدة ممن بلدان العالم؟ وأجابه العقاد : إنه زار العالم كله من خلال الكتب وعرف تاريخها وسبر أغوارها وليس من الضرورى أن يزور الكاتب أى بلدة لكى يكتب عنها يكفى أنه إذا ألم بها إلمامًا كافيًا فإنه يكتب عنها ربما أكثر دقة وأروع وصفًا ممن زارها .

وأردف العقاد يقول للدكتور طه حسين : كيف أستطاع أبو العلاء المعري أو تمكن دانتي من وصف الجنة والجحيم فهل زار كلاهما أو أطلع على الجنة أو الجحيم؟! ونعلق نحن كذلك على نقد طه حسين للعقاد : وكيف استطاع الفنان العالمى العبقري ليوناردو دا فينشي: Leonardo da Vinci أن يصور بريشة رسمه للنار وبداخلها أحد أعدائه من القساوسة مع أنه لم يخبرها ولم يمر عليها بعد كذلك لوحة العذراء مع الطفل يسوع مع أنه لم يرهما؟!.

وإذ عبرنا صفحات السنين لنقف أمام ١٩٣٩ نجد أن الدكتور طه حسين يرد على مقال للعقاد هذه المرة كان موضوعه عن الترجمة وعلاقاتها بتعارف الشعوب وخاصة فيما قاله العقاد فى مقاله يومذاك أن الترجمة تكثر بعد الحروب بين الأمم المتحاربة لعناية كل أمة منها باستطلاع أحوال الأمم الأخرى، واستقصاء ما عندما من بواعث النصر والهزيمة، وفى الوقت نفسه لم يرد العقاد أن يحصى أسباب الترجمة كلها، أو يردها إلى المنافسات ورغبة الاستطلاع وإنما

أراد أن يلاحظ تلك الملاحظة من الوقائع التى صاحبت الحرب العالمية الأولى والحروب القريبة التى تقدمتها على الساحة العالمية.

على أن العقاد لم يجعل المنافسة أصل المعرفة فى جميع أحوالها، بل يذهب إلى أن الأمر فى ذلك مرجعه إلى شعور القلق والحذر الذى يحرض على رغبة المعرفة فى النفوس، ويرسم لها الميول والوجهات، كما ذهب فى موضع آخر من تلك المقالة إلى أن رغبة المعرفة الفكرية لا تحتاج عندهم إلى تحريض كثير من دواعى المنافسة وبواعث الخصومة.

ويرد الدكتور طه حسين على العقاد قائلاً : أن العلة الحقيقية الأولى لكل ترجمة ونقل إنما هى الطبيعة الإنسانية التى تجعل الإنسان حيوانًا اجتماعيًا كما يقول (أرسطاليس) فى السياسة، وحيوانًا مفكرًا كما يقول: فى المنطق، فطبيعته الاجتماعية تضره إلى أن يتصل بغيره من الأفراد والجماعات، ويشاركهم فيما يفكرون ويشعرون ويتحدثون، وطبيعته المفكرة تضطره إلى أن يبحث ويستقصى ويتعرف حقائق الأشياء .

وقد اتخذت تلك المناقشة بين الأديبين الكبيرين دروبا من الفهم، وأنماطًا من التفكير . والذى يهمنا من تلك المعركة كما عبر أديب هو معرفة منهج كل من المفكرين فى النظر إلى الأشياء .

فالدكتور طه حسين ينظر إلى الأشياء نظرة المحقق الذى يرى أنه يتقيد بمناهج البحث العلمى .

أما الأستاذ العقاد فينظر إلى الأشياء الخاصة والظواهر العامة نظرة الفيلسوف الذى يحلق فى السماء الجميلة المزدانة بعمق الفلسفة .

لم يشأ العقاد أن يترك طه حسين فيما يختص بالمنهج فى النظر إلى الأشياء الخاصة والظواهر العامة، لأن المنهج العلمى فى البحث الذى يتقيد به طه

حسين لا يصلح استخدامه إلا فى مجال الوقائع العلمية التى يدرسها العلماء، كأصول الدراسة الكيميائية والطبيعية وما إليها، ولا يدخل فى مجال الوقائع العلمية تعارف الشعوب ولا يستطيع العلم أن يستقل بالبحث فى هذا الموضوع، لأنه فى مجال الرأي، وإذا تقدما فى هذا الموضوع خطوة فلابد لنا أن نتقدم فيه بمعونة الفلسفة والخيال معًا، لأنه موضوع نفسيات فى نطاق اجتماعى فى تصور كما ما اختلف من الحالات وتسهل الخروج بالباحث من وضع واحد إلى جملة أوضاع . وبعد وفاة الأستاذ العقاد أقام مجمع اللغة العربية فى القاهرة حفل تأبين له فى ١٨ إبريل ١٩٦٤ وذكر الأستاذ زكى المهندس رئيس المجمع فى كلمته المعارك التى كانت تدور بين الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين فقال : مازلنا نذكر الجدال الجدال العنيف الذى كان يقوم أحيانًا بينه أى العقاد وبين خبراء المجمع المتخصصين ومنهم طه حسين وفى مسائل علمية بحتة، وكثيرًا ما كان العقاد يخرج من هذا الجدل العلمى ظافرًا منتصرا (مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الرابع عشر ص ١٦٥) .

وكان طه حسين نفسه يذكر هذه الخلافات بمناسبة حديث أجراه الأستاذ كمال الملاخ سائلًا إياه عن كُنه هاتيك الخلافات التى كانت مشبوبة الأوار فى المجمع اللغوى فقال له : أيوه أنا كنت كل حاجة . كل ما يجيبوا مصطلح جديد كنت أقول لهم عاوين التعريف . الأصل . فإذا العقاد ينفجر فى مرة ليقول : يا أخى خوتنا أنت متبطلش كلام فى التعريف، قلت له : عاوز أفهم؟

قال له العقاد : تفهم إيه ؟ إذا كنت مش فاهم الحاجات دى حتفهم التعريف؟

ومما يذكر فى هذا الخصوص أن لقاء جمع بين عملاق الأدب و عميد الأدب فى لجنة علم الجيولوجيا فى مجمع اللغة العربية .فإذا بالدكتور طه حسين يهز

رأسه تيهًا قاصدًا إحراج العقاد فقاله لـه : مـن أيـن لـك بهـذا الـرأى ياأسـتاذ؟ فغضب الأستاذ العقاد وفاجأ المجتمعين بقوله ردًا على الـدكتور طـه حسين – وكان العقاد قد أبدى رأيا فى مسألة من علم الجيولوجيا :

(هو ياسيدى لرجل ستسمع به أنت لأول مرة ولا إخال الجامعة ستسمع به بعد بضع سنين) .

وفى الجلسة التالية عقب العقاد ببحث تلاه على اللجنة مؤداه أنه حينما أطلقت اللجنة علم طبقات الأرض كمقابل لكلمة جيولوجيا لم يجانبها الصواب لأننا ماذا نقول عن العالم الجيولوجي؟ إننا لا نعرفه إذا قلنا إنه عالم أرضى أو عالم الطبقات الأرضية ولهذا ولما ذكرته فى جلسة المجلس أرى أن كلمة علم طبقات الأرض أفضل ترجمة لكلمة الجيولوجية وأن علم الأرض كلمة عامة لا تؤدى معنى من المعانى المحدودة) .

ولعل من المفيد أن نذكر كما أذكر أن أحد علماء الجيولوجيا الأمريكيين كان حاضرا بجلسة المجمع فانحاز إلى رأى العقاد مؤيدًا إياه فيما ذهب إليه .

وأعتنق مجمع اللغة العربية رأى العقاد بخصوص علم طبقات الأرض وليس علم الأرض ! .

احتمدت المعارك الضارية بين العقاد وبين الكثيرين من أدباء مصر البارزين منهم الأساتذة سلامة موسى و محمود أمين العالم و الشيخ أمين الخولي و الدكتور محمد مندور و الدكتور محمد كامل حسين وغيرهم، وعلى حد تعبير الصحف آنذاك أن العقاد أراق دم الجميع، وكانت معركته الأخيرة مع الدكتور مندور قد نشبت بينهما بسبب كاتب هذه السطور، وسوف يأتى ذكرها فى الصفحات التالية .

وعندما نشبت معركة لا تنسى فى تاريخ العقاد الأدبى بينه وبين الدكتور

محمد كامل حسين حول كتاب الأخير وحدة المعرفة التى سبق وأن بسطها صمويل الكسندر فى كتاب المكان والزمان والربوبية هذا الفيلسوف البريطانى الأسترالي المولد. من الواقعيين الجدد، وهو واضع النظرية المثالية فى التطور المفاجئ. حيث كان الكسندر يعتقد أن الزمان والمكان هما المادة الأولية للوجود وأراد الدكتور كامل حسين أن يتملص من تشابه ما نقله فى كتابه سالف الذكر من هذا الفيلسوف، وهاجم العقاد ناعتًا إياه بأنه لا يلم بفلسفة هذا الفيلسوف.

رد عليه العقاد بأنه يقرأ الفلسفة منذ خمسين عامًا خلت وأنه يمضى فى تأليف الكتب المستقلة عن الفلاسفة ومنها كتاب واحد عن عقائد المفكرين يميز بين مذاهب مائة مفكر على الأقل من أساطين الفلسفة الإلهية والفلسفة المادية، وبينهم من لا يستطيع الدكتور أن ينطق باسمه حقًا، ولو على طريقة نطقه باسم هذا الصمويل! وهو بهذا الذى نفاه عن تشابه كتابه مع كتاب هذا الفيلسوف ظن إنه يضع يده على طلسم مسحور أشبه شيء بطلسم (أفتح ياسمسم) الذى لا يغلق دونه باب من الأبواب، ولكنه إذا تحول إلى يد إنسان أخر تساوى فيه (أفتح ياسمسم) و (افتح يا حمص) و (افتح يافول) ! .

أردف العقاد قائلًا :

إن الدكتور محمد كامل حسين يختص (بعلاج العظام) . ولا شأن له بالفلسفة.

يقول العقاد: ونحن نقول له : بعد إنكاره على إنه بحث عن معلومات أى معلومات عن هذا الفيلسوف فلم يجدها فى دائرة المعارف البريطانية .

ويردف العقاد: يا مجبر عظام ! كيف ترجع إلى ترجمة حياه فيلسوف كان بقيد الحياة وظل بقيد الحياة بعد صدور الطبعة السابعة من دائرة المعارف البريطانية

بعشر سنوات وأن دائرة المعارف البريطانية ذكرته فى عدة مواضع وخاصته بقسم مستقل من تقسيمتها لتاريخ الفلسفة لخصت فيه مذهب الفيلسوف عن تفاضل القوانين باسمه الذى يقول الدكتور (مجبر العظام) أنه ابتكره ثم يقترح لأول مرة ويسميه (الهيرارشية Hierarchy) باللغة الإنجليزية وباللفظ الذى نقله الدكتور باللغة العربية . وقد ذكرت دائرة المعارف كما جاء فى صفحة ٧٥٨ من الجزء السابع عشر بترجمته الحرفية :

(إن الموجودات تنبثق فى أحوال معينة وتتكون منها هيرارشية)

ولقد لخصنا نحن مذهب الفيلسوف منذ سنوات طويلة قبل أن نعلم أن الدكتور سيبتكره وأننا سنقيم الحجة له أو عليه .

وختم العقاد رأيه الذى لخصناه آنفًا قائلًا :

(يا دكتور إذا كنت بعد هذا لا تحس بحاجتك إلى التمييز الذى جردتنا منه فأنت من أسعد خلق الله فالدكتور المجبر لم يمارس البحث مراسًيا طويلًا ولا قصيرًا وإلا لما فاته أن يعرف صمويل ألكسندر الذى عرفناه وشرحنا مذهبه منذ أكثر من ست عشرة سنة)

.. قلنا فى مقدمة هذا الفصل أن ثمة ثلاث علامات إذا اجتمعن فى إنسان كان من عظماء الرجال، وكان له حق فى الخلود وهى فرط الإعجاب من محبيه ومريديه وفرط الحقد من المنكرين عليه وحاسديه ولقد ذكرنا توافر هاتين العلامتين فى شخصية أستاذنا العقاد .

..أما الثالثة وهى جو من الأسرار والألغاز يحيط به وكأنه فلته من فلتات الطبيعة فقد نهضت أيضًا فى جانب العقاد . فقد عاش بعيدًا عن الأهل والخلان والمعارف والأصدقاء إلا فى يوم ندوته الأسبوعية ولقاءاته الشخصية فى مجمع اللغة العربية أو المجلس الأعلى للفنون والآداب حيث كان مقررًا للشعر به

وفيما عدا ذلك فهو العقاد الذى يعيش كعقاب الجو فى جو خاص به يحيط به الأحاجى والأسرار ولم تثلم قريحته ولم يغلب عليها التبلد والكلال وظل فى برجه العالى يقرأ ويكتب دون ملال . فقد كان مطبوعًا كما قال أفلاطون على طلب الكمال يركض جذلانًا فى فضاء الفكر الشاسع كدأب العبقرى (جيتة) مع نفسه والذى أحب وهو فى الرابعة والسبعين عامًا الفتاة الصغيرة واrليك . قبع العقاد داخل بيته وكأنه يحيا فى حديقة ذاخرة بالكتب التى بلغت أربعين ألف كتابًا كأنها الزهور تغرد عليها أجمل الطيور ومع إزوراره عن الناس ظل يخوض مع البعض منهم حربًا ضروسًا مع الأضداد فكل من كان يناصبه العداء كان يضمر له الكراهة والجفاء سواء من الأعداء أو الأصدقاء على السواء.

العقاد الفارس ومعاركه السياسية

يرتبط معنى الفروسية فى كل لغات العالم بالشجاعة والشهامة والثقة بالنفس، وهذا هو المعنى الأدبى للفروسية .

أما المعنى الرياضى لها وهو القدرة على امتطاء ظهور الخيل وامتشاق السلاح و مجابهة الأعداء واقتحام المجاهل والأنواء .

وقد عرفت الحضارات القديمة الفروسية ؛ فقد عرفها قدماء المصريين والآشوريون والفرس والإغريق والعرب. وقد تفوّق العرب والمسلمون فى الفروسية كما تشهد بذلك بطون الكتب وحوادث التاريخ. وهى كنظام حربى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ ولكنها كشرف عسكرى رفيع ترجع إلى القرن الحادى عشر فقط، بيد أن الفروسة أو الفروسية Chevalerie الإسلامية هى أقدم والأعرق فهى ترجع إلى عصر الإسلام الأول فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادي) ولم تكن نظامًا دينيًا أو سياسيًا بل كانت خلة وموهبة وكفاية، يفرد بن قتيبة فى كتابه فى عيون الأخبار باب عن الفروسة وآدابها، أما الفروسة النصرانية فهى لم تستكمل عناصر الاستخراج وغدة فوق صفاتها الحربية نظامًا سياسيًا اجتماعيًا قبل القرن الحادى عشر . وكانت صفة النبل Terra Nobillis تلحق دائمًا بمن يلتحق بالفروسة أو الفروسية . أما الفروسية فى أوروبا فلم تكن تتصف بأى تميز اجتماعي، بل كان بإمكان أى رجل أن يصبح فارسًا. وقد اتخذ العديد من اللوردات لأنفسهم فرسانًا لينجزوا لهم الواجبات المنزلية فى زمن السلم، وليقاتلوا فى وقت الحرب. وكان اللورد هو الذى يمد فرسانه بالسلاح والخيول. فى الفترة ما بين القرنين الثانى عشر

والرابع عشر الميلاديين تحوّل معظم الفرسان إلى تابعين للوردات الذين كانوا يزودونهم بقطع من الأرض. وبسبب ارتفاع أسعار الأسلحة وخيول الحرب لم يعد بإمكان غير الرجال الأثرياء تجهيز أنفسهم ليحاربوا كفرسان. وهكذا، أصبح الفرسان طبقة منفصلة عن بقية المجتمع، كما أصبح الدخول فى صفوفهم علامة على الشرف والتميز.

وفى بريطانيا تحولت الفروسية إلى شرف يسبغه الملك أو الملكة على أفراد معينين اعترافًا بفضيلة أو خدمة مميزة، ولم يعد لها أى معنى عسكري. تعتبر رياضة الفروسية من الرياضات الهامة .حيث تعلم الفارس قوة الشخصية والحزم والاحترام .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل).

وقد كان العقاد منذ ميعة صباه وهو يعشق الفروسية . أفلم يكن كما ذكرنا قائدًا لجيش مصر، وهو لم يزل بعد على مدارج الصبا وهو يمرح أو يجد مع لداته فى الأفنية والباحات فى معركة السودان ؟! وهو لم يزل طفلًا يعيش بين ربوع أسوان.

وأصبح خلقه مثل خلق الفرسان العظام حتى أننا ارتأينا أن آداب الفروسية هى (مفتاح شخصية العقاد) ولا يقدح فى ذلك أن هذا المفتاح ذاته اعتبره الأستاذ العقاد هو مفتاح شخصية الإمام على بن أبى طالب فى كتابه عبقرية الإمام .

فمنذ أن تخرج فى المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ وهو يحمل فى صدره قلب الفارس وما يجب أن يتحلى به من أخلاق الفارس وطبائعه هذا مع ميل جارف وشغف يضطرم فى أحشائه من عشق للزهور وحب للطيور وشفقة على

الحيوان . ومن ثم فقد بكى بكاءًا حارًا على كلبه بيجو عندما مات وظل حزينًا على فقدانه وكأنه فقد أعز إنسان، وألف فيه قصيدة من الشعر يبثه فيها أحزانه لفقده ولم يطق بعد ذلك من تأثره بموت هذا الكلب من سماع صوت نباح أى كلب بعد ذلك على حد تعبيره .

كان العقاد كما عبر الدكتور شوقى ضيف فى كتابه مع العقاد ذو وجدان فنى صادق فى طواياه (وفى حسن نواياه)، وهو وجدان جعله يتعاطف مع الطبيعة فى مختلف مظاهرها ويهيم بها على نحو ما يهيم الشعراء المولعون بوصفها وتصويرها أخذًا فى تعميق قراءاته حتى الأغوار البعيدة للفلسفة مستقرًا فى ضميره من أنه لا بد أن يعتمد على نفسه فى النهل من الثقافة العربية فى معرفة الثقافة الغربية وزوى وجهه عن كل ما هو غير مفيد له .

فأصبح فارسًا (للكلمة) ممتشقًا قلمه الجبار كسلاح بتار للذود عن حياض وطنه ضد من ناء عليها بكلكلة أو افتأت عليها بالبغى والعدوان وأراد أن يجعل من نفسه سيدًا ومن المصرى مسودًا .

وكان عدو مصر فى هذه الحقبة التى نشأ فيها العقاد هو الاستعمار الإنجليزى عدوًا غاشمًا أراد أن يعيد سياسة الرق فى مصر حيث يحدثنا التاريخ أن الفرس والروم فى العراق والشام ومصر كانوا ينظرون للسكان الأصليين نظرتهم إلى العبيد فاتخذوا كثيرين منهم أرقاء وكان منهم الأقنان جمع قن وهم عبيد الأرض ينقلون كالمزروعات من مالك إلى آخر بالشراء.

وكان الجهل قد أطبق جفونه على مصر فنامت العيون واستغل المستعمر الفرنسى ومن بعده المستعمر الإنجليزى هذه الكبوة لدى المصريين لكى يجعل من المصريين عبيدًا وكأنهم بقرة حلوب كى تدر لهم لبنًا سائغًا للشاربين

يذكر الأستاذ أحمد أمين فى كتابه من زعماء الإصلاح أن سائحًا فرنسيًا زار

مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وهو مسيو فولنى Volney وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات يقول : إن الجهل فى هذه البلاد فى هذه البلاد عام شامل، مثلها فى ذلك مثل سائر البلاد التركية، يشمل الجهل أغلب طبقاتها . ويتجلى فى كل جوانبها الثقافية، من أدب وعلم وفن، والصناعات فيها فى أبسط حالاتها، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبيًا . (راجع - الدكتور أحمد هيكل - تاريخ الأدب المصرى الحديث).

وهذه الحكومة المصرية نراها إذ ذاك تخشى تعليم الرياضة والطبيعة، فتستفتى شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الانبابى : هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف؟ فيجيب الشيخ فى حذر: إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها كانت هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها.

كان العالم الإسلامى منعزلًا، لا يتصل بأوربا إلا فيما تعانه تركيا من مشاكلها السياسية، فليس هناك بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية اتصال فى الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم، يمهد لها الاستفادة منها والأخذ عنها . لقد أغلقت على العالم الإسلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية، وأخذ يأكل بعضه بعضًا وقف المسلمون فى علمهم، فليس ألا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها . وفى صناعتها فلا اختراع، ولا إتقان للقديم، وفى آلاتهم وفنونهم العسكرية، فهى على نمط الأقدمين . وسكان المدن والريف قد أبعدوا عن الاشتراك فى الشؤون السياسية والحربية، فلا تراهم فى جيش ولا فى قيادة جيش، ولا رأى لهم فى الحكم ولا فى السياسة ولا فى الإدارة، إنما هو مزرعة الحكام ومستغل الولاة والأمراء، كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلًا لملئها بالمال يجمعونه من كد يمينهم وعرق

جبينهم. مركز الخلافة وهو الآستانة مفكك منحل، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضعضعة، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها، العلم فيها كتاب دينى شكلها يقرأ، أو جعلة تعرب أو متن يحفظ، أو حاشية على شرح . أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث، أو قبس من فلك قديم يستدل به على أوقات الصلاة .

والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء، وكل أمير له حزبه، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه، والبلاد ضائعة بينهم، الوالى يطيل المكث إلا ريثما يغتني، حتى أصبح اسم الحكومة والوالى والجندى مقرونًا فى النفس بمعنى الظلم والعسف .

وأعجب من هذا كله ألف الشعوب الإسلامية هذه الحالة السيئة واستنامتها إليها وكراهيتها لكل إصلاح، فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانكشارية، وإذا أريد أصلاح القضاء غضب العلماء .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامى إذ ذاك شيخًا هرمًا حطمته الحوادث، ونهكه ما أصابه من كوارث . فساد نظام، واستبداد حكام، وفوضى أحكام، وخمود عام واستسلام للقضاء والقدر، وترديد لقول الشاعر:

دع المقادير تجرى فى أعتنها ولا تبيتن إلا خالى البال

يقول الأستاذ العقاد :

فقد الدين روحه، وصار شعائر ظاهرية، لا تمس القلوب ولا تحيى الروح، سادت الخرافات، وانتشرت الأوهام، وأصبح التصوف ألعابا بهلوانية، والدين مظاهر شكلية، ووسيلة النجاح فى الحياة ليست الجد فى العمل، ولكن التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء، فهم الذين ينجحون فى العمل، وهم الذين

ينصرون فى الحروب . والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين.

فقد كانت القرون الثلاثة التى سيطر فيها الحكم التركى عى مصر،وكما ذكر الدكتور أحمد هيكل فى كتابه تطور الأدب الحديث فى مصر ، قد عملت عملها فى إغماض العيون وتكبيل العقول، وعقل الإرادات، وعقد الألسنة . فقد فرض الأتراك على البلاد نوعًا من الاحتلال هو فى حقيقته محاولة لقتل البلاد ماديًا وأدبيًا . وذلك أن احتلالهم قد عمل على امتصاص كل خيرات الشعب، ومصادرة جميع موارده، وسجن أروع قدراته، وعوق أعظم ملكاته . وفى سبيل تنفيذ ذلك قد نقل الأتراك من مصر أول احتلالهم كثيرًا من العلماء والفنانين، وعديدًا من الكتب والنفائس، ثم تركوا الدواوين، وجعلوا أهم الرياسات والأعمال الإدارية فى أيدى الأتراك وأذنابهم من المماليك، ثم أكثروا من فرض الضرائب، وأهملوا كل إصلاح، ولم يوجهوا أية رعاية إلى التعليم ؛ حتى لقد أغلقت المدارسى بل هدمت وانتهت . وكانت النتيجة أن انطفأت شعلة الحياة العلمية فى البلاد، إلا وميضًا ينبعث من الأزهر، الذى ظل الملاذ لما بقى من علوم الدين والغة، وإن كان يعانى فى تلك الآونة كثيرًا من الجمود، ككل مظاهر الحياة فى ذلك العد المظلم كذلك تعطلت الحركة الأدبية بل تحجرت، وانحرفن اللعة العربية بل فسدت ؛ فكثر فيها التركى والعامي، وحادت عن قواعد الإعراب، وابتعدت عن سلامة التركيب العربى الأصيل .

ومن هنا أصبح الأدب فى حالة من السقم تقارب الموت فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية هزلية، ليس وراءها أى صدق إحساس أو فنية تعبير، بل ليس وراءها حتى تقليد لتلك النماذج الرائعة، من أدبنا فى عصور الازدهار، وإنما هى نماذج شاحبة مفتعلة غالبًا، تغطى ركاكتها فى أكثر الأحيان ألوان من البديع، كثيرًا ما تبدو كأكفان ذات ألوان وتطاريز تلف أجداثًا وعظامًا نخرة.

ومما يذكر فى هذا الصدد وما ألم بمصر آنذاك ما حكاه الجبرتي عن حضوره بعض التجارب العلمية بمعمل علمى أتت به الحملة الفرنسية إلى مصر فصور ما رأه وكأنه رأى عملًا من أعمال المردة والشياطين . (المرجع السابق)

عرف التاريخ الفلاسفة الأباطرة والملوك الأدباء، وكان مثال الأولين الإمبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ومثال الثاني يوليوس قيصر Julius César الذى هو من عظماء التاريخ يعنى به تاريخ الحرب، ويعنى به تاريخ السياسة، ويعنى به تاريخ النظم المدنية، ويعنى به تاريخ التشريع.

فقد كان من الخطباء البارعين وهاجم بعض عظماء الرومان أمام المحاكم، واشترك فى حياتها السياسية وكان له من الخطوب التى جعلته مؤسس الإمبراطورية الرومانية، وبرع كما العقاد فى فنون الأدب كلها فكان مجادلًا ماهرًا، وخصمًا فى السياسة والأدب عنيفًا وشاعرًا لبقًا ينظم شعرًا جيدًا رقيقًا، ونحويًا لغويًا يؤلف فى النحو واللغة أثناء سفره إلى بعض حروبه، ثم هو بعد هذا كله مؤرخ من أبرع المؤرخين لا فى اللغة اللاتينية وحدها، بل فى كل اللغات التى كتب فيها التاريخ قديمًا وحديثًا . فأثره فى التاريخ ليس أثرًا أدبيًا لاتينيًا تفخر به اللغة اللاتينية ويباهى به الشعب الروماني، بل هو أثر أدبى إنسانى تستمتع به الإنسانية المثقفة كلها على اختلاف العصور، وقد كتب قيصر تاريخه بشكل مذكرات وصف فيها حربه فى غاليه Gallia (فرنسا) ووصف فيها بلاده فى الثورة التى انتهت به إلى الدكتاتورية، فأما وصفه لحرب غالية فيقع فى سبعة أجزاء صغيرة ضاع ثامنها . وأما وصفه للثورة فيقع فى ثلاثة أجزاء، وقد فتن الناس فى عصره، وبعد موته بهذا التاريخ فتنة عظيمة، حتى أسرع بعض الكتاب إلى تقليده فألفوا الكتب فى وصف حروبه هو ونسبوها إليه ابتغاء للرواج، ولكنهم لم يخدعوا أحدًا لأن تقليد قيصر لم يكن يسيرًا .

وهكذا كان العقاد متنوعًا فى كتاباته عميقًا فى أفكاره موسوعيًا فى ثقافته طرق أبواب الفكر المتباينة من شعر ونثر وسير وتراجم وفلسفة وتاريخ ونقد بناء وعمق فى البحث والدراسة، وكان قبلها ملكًا للفكر وإمبراطورًا للبيان.

سئل ذات مرة : يقولون أنك أورستقراطى الفكر؟

فأجاب : نعم، ولو استطعت أن أكون إمبراطورى الفكر لفعلت !.

وكان من غير الطبيعى أن ينسلخ العقاد الشاعر أو المفكر عن العقاد السياسى .

يقول الدكتور محمد صابر عرب فى كتابه المفكرون والسياسة فى مصر المعاصرة :

إن اختيار كتاب العقاد سياسيًا تقضى بتحديد ثلاث مراحل أساسية يبدو وكأن كل مرحلة قد اختلفت عن الأخرى بشكل واضح .

الفترة من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٩، حيث اتسمت بقدر من الحيرة والقلق فالثورة العرابية وما ترتب عليها من نتائج خطيرة كانت صورة حية فى فكر العقاد الذى ارتبط وجدانيًا بعرابى لدرجة أنه رفعه إلى ما يشبه الأساطير وأخذ يبرر كل مواقفه ويتهم منتقديه بالضعف والتخاذل، ولعل ذلك كان من أهم العوامل التى باعدت بين العقاد ومصطفى كامل .

وعلى الرغم من أن الحياة السياسية المصرية فى بداية القرن العشرين قد اتسمت بالصخب والتدافع بسبب حركة مصطفى كامل الذى استطاع أن يميل إليه معظم الشباب إلا أن العقاد بقى منفردًا فى موقفه رافضًا الانضمام إلى أى من الأحزاب السياسية القائمة وقتئذ، إلى أن قامت ثورة ١٩١٩ وما أعقبها من ظهور حزب الوفد، وظهور العقاد كأحد فلاسفته الكبار، لكن قبل ذلك ظل يرصد تفاصيل الحياة المصرية بأسلوب المفكر والفيلسوف مؤيدًا لمصطفى

كامل أحيانًا ومنتقدًا إياه بمرارة شديدة فى أحيان أخرى وخصوصًا فيما يتعلق بموقفه من الدولة العثمانية أو فى موقفه من فرنسا التى كان يعول عليها كثيرًا، وتبدو مواقف العقاد، التى يفسرها البعض على أنها تحمل قدرًا من التناقض، حيث يتعاطف مع الحزب الوطنى أحيانًا ويهاجمه فى أحيان أخرى يقرأ ما كتبه النديم بنهم شديد ويعترف بأنه تأثر به كثيرًا إلا أنه لا يتراجع عن السخرية منه فى مواقف كثيرة .

ومن ثم يقول العقاد فى كتابه حياة قلم عن النديم :

ولفتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف ووجدتنى ذات يوم اقطع الورق قطعًا على قدر المجلة واعمد إلى مكان العنوان منها فاكتبه بخطى متأنقًا واعارض عنوان (الأستاذ) بعنوان (التلميذ) أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضًا من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمنًا فى البيئات المصرية وهى المقالة التى جعل عنوانها (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) وافتتح بها الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه (لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم) .

وكان فحوى مثال النديم أننا نطلب الاستقلال وندعى أننا والأوروبيين أشباه وأمثال . ولكن الأوروبيين ينكرون هذه الدعوى، ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم . فإذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا : تلك دعواكم ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا .

واستغرقت مقالة النديم أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : إن آخر الدواء الكى وقد بلغ السبل الزبى فإن رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا أمكننا أن نقول لأوروبا نحن وأنتم أنتم وأن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقا بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس

الجبال . لتلحقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا.

ويقول العقاد : وتناولت فى مقالى فقرات النديم واحدة واحدة واذكر منها ما يدل عليه العنوان وفحواه أننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم أيها الغربيون فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الأموال واستباحة الحقوق وافتراء الأكاذيب والتعلل بالمواعيد ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم، وسترون فعلنا عما قريب .

ثم أصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة أعداد . لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة وأقاربى المشجعين أو المتنجرين المتفكهين ،ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .

إلى أن يقول مؤكدًا تأثره بالنديم : ولهذا ارجع ظواهر كثيرة صاحبت نشأتى الصحفية فلا استطيع أن أقول أننى على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم، وإن كان النديم أول من الفتنى إلى العمل فى الصحافة، وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتنى إلى هذه الصناعة.

لا بل هناك مشابهات عديدة بين النديم وبينى . لا أدرى هل جاءت من وحى القوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد منى ولا من أحد .

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم واشتغلت بالتعليم فى مدرسة خيرية كما اشتغل النديم، وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية أكثر من مرة فى إبان الحرب العالمية الأولية وكذلك فعل النديم عند مطارته فى أعقاب الثورة العرابية .

ولكننى مع هذه المشابهات لم أشعر من قبل ولا أشعر الآن بأن الرجل قدوتى المختارة بين أمثلة النبوغ التى أتمناها أو بين الشخصيات المثالية التى أجلها وأحب أن انتمى إليها . وأحسب أن المرجع فى هذا الاختلاف إلى سببين

احدهما يرجع إلى الأحوال العامة والأخر يرجع إلى المزاج الشخصى الذى فطرت عليه .

وقد أثر عبد الله النديم وصحيفته الأستاذ فى العقاد تأثيرًا شديدًا لدرجة أنه من شدة تأثره به أقدم على عمل مجلة على قدر مجلة النديم واسماه (التلميذ) معارضة منه على مجلة النديم (الأستاذ)

فقد كان تأثره الكامل بالإمام محمد عبده غيرته على الحق ونجدته للضعيف ووقوفه بجانب المظلوم وعدم اكتراسه بالقيل والقال ناهيك عن دماثة خلق الإمام ونهجه السياسى ونعرته الوطنية وتحيزه الكامل بأن مصر للمصريين مما جعله يبتعد عن جميع الأحزاب يقول العقاد وأنا مدين بخطتى فى السياسة الوطنية لإعجابى بالشيخ محمد عبده موروديه فإعجابى به هو الذى أعظم فى نفسى الثقة ب سعد زغلول يوم كان الفتيان من عمرى كلهم أنصارًا ل مصطفى كامل و عبد العزيز جاويش . واتباعًا لهما فى الحملة على سعد زغلول .

ولما اشتدت هذه الحملة ذهبت إلى سعد فى ديوان المعارف لاستطلع رأيه واسمع حجته على حضور . وقلت فى خطابى إننى أثق به لأننى أثق بأستاذه ودخلت المكتب فاستقبلنى واقفًا وأشار إلى كرسى أمامه فجلس وجلست وسألنى : أعرفت الشيخ محمد عبده؟ قلت نعم قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته. قال : أين؟ أفى الأزهر؟ قلت : لا بل فى أسوان قدمنى إليه أستاذى فناقشنى فى علومى المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة قال : ماذا سمعت منه؟ قلت : التفت إلى الأستاذ وقال وهو يربت على كتفى : ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد .

كان محمد فريد وجدي الذى كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين، وفضائل الإسلام، وكانت له شهرة بالإطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر، فاتفق معه العقاد، حيث كان

يكن له المزيد من الحب والقدير، وظل يشدو باسمه من خلال تأثره بـه، وكانـا قد اشتركا سويًا فريد وجدى والعقاد فى إصدار صحيفة الدستور عام ١٩٠٧ م ولتقدير العلامة فريد وجدى للأستاذ العقاد وحدبه عليه ظل العقـاد يـذكر لـه هذا الفضل طوال حياته.

نعود إلى العقاد الفارس الذى امتطى صهوة جواده واستل قلمه بعد أن سنّه وشـرعه فى وجه خديوى مصـر عبـاس حيـث كـان يـضمر لـه كراهيـة شـديدة، وكتب مقالًا ضده بعد أن حاول ذاك الخديوي أن ينال من نهضة الإصـلاح فى الأزهر، وكاد أن يقدمه هذا المقال إلى المحاكمة الجنائية بتهمة العيب فى الـذات الخديوية قبل أن يقدم فيما بعد بهذه المحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية بـما يزيد عن عقدين من الزمن .

كـان لقـاء العقـاد ب سـعد زغلـول فى ٢٩ مـايو ١٩٠٨ لقـاءًا تاريخيًا بـين صحفى صغير وزعـيم كبـير أوقـد فى قلبـه حـب هـذا الـزعيم الـذى وجـد فيـه الزعامة التى لا تتكرر فقال عن هذا اللقاء :

خرجت ذلك اليوم وفى نفسى صورة وافية للمصلح الذى كنت أعجب بـه على غير رؤية فعرفت سعدًا رجلًا مهيب الطلعة قوى العارضة فصيح العبـارة يملأ الناظرين والسامعين قوة وتوكيدًا تسمع حجته الدامغة فى صوته الـشجى فتجد للمنطق عذوبة الفن وسلاسـة التلحـين، بـل تـسمع سـليقة الرجـل كلهـا تتحدث إليك عن يقين لا ينتهى عندك إلا إلى يقين .

وقد كان العقاد قد سبق وقال عن الزعيم مصطفى كامل : إنـه رجـل أشـبه برجل أطلق صوته بالغناء فوجد أناسًا يسمعونه فاستمر فى غنائـه وصـار يزيـد من الصياح كلما زاد الناس إصغاء .

انخرط العقاد فى صـفوف ثـورة ١٩١٩ حـين شـب أوارهـا وأصـبح العقـاد الناطق بلسانها والمؤيـد بقلمـه وقلبـه لهـا، وكـان يكتـب منشورات جماعـة اليـد

السوداء وهى واحدة من الجامعات الثورية السرية التى كانت تقف وراء الثورة، فكاد أن يكون بين كتابنا فى مساهمته تلك المساهمة الفعالة فى ثورة ١٩١٩ بل فى هذه الفترة بالذات فترة اشتعال الثورة برز العقاد ككاتب للشعب بشكل لم نر له مثيلًا بين بقية كتاب عصره بل أن بعض نقاد العقاد ودارسيه يعتبرون فترة قيام الثورة وبعدها ببضع سنوات هى الفترة التى قدمت العقاد ككاتب سياسى من الطراز الأول . بل أنهم يربطون شهرته بهذه الفترة بالذات.

وربما يكون لهذا الإسهام البارز من العقاد مبرراته وأسبابه (راجع سامح كريم العقاد فى معاركه السياسية) . ومنها أن العقاد وقد تعرف عليه سعد زغلول وآمن بموهبته ككاتب وعهد إليه بطريق غير مباشر كتابة المقالات المؤيدة لوجهة نظر الحزب فقد كان سعد زغلول يعرف مقدمًا أن العقاد طراز آخر من البشر لا تصلح معه الأوامر وأنه من السهل الانتفاع بعقليته وثقافته وطاقته إذا حافظوا على كبريائه وكرامته، ومن هنا من معرفة سعد زغلول لنفسية العقاد وتركيبة عقله استطاع أن يستفيد منه ككاتب رهبه الخصوم، ومن ناحية أفاده شخصيًا حيث اشتهر العقاد وأصبح كاتبًا له قراؤه ومريدوه سواء على صفحات الأهرام أو على صفحات البلاغ بعد الثورة .

وثانى هذه الأسباب أن العقاد نفسه كان فى سن تسمح له بذلك إذ كان فى الثلاثين من العمر شابًا طموحًا مثقفًا ليس هناك ما يشغله عن بناء نفسه والوصول إلى أهدافه التى كان يحلم بها فى أن يصبح كاتبًا يوجه الرأى العام . وها هى أتيحت له الفرصة لكى يثبت كفاءته وقدرته وكانت الفرصة بقيام ثورة ١٩١٩ .

وثالث هذه الأسباب كان فى إيمانه بأهداف الثورة نفسها وبأنها لابد وأن تنجح .

كان لتألقه وعبقريته فى استيعاب اللغات ولاسيما اللغة الإنجليزية مقترنة بعقل علمى وهّاج كانت هذه الواقعة التى سوف يأتى ذكرها وهى تتعلق بفن الترجمة التى وصفها عالم الأدب المقارن أولريش فايستشتاين عندما وصف الترجمة بأنها الخيانة الخلاقة Trahison Creatrice (الدكتور جابر عصفور آفاق العصر ص ٢٠٧ وما بعدها) .

ولما كانت الترجمة من أقدم المهن فى التاريخ، حيث لازمت الترجمة وجود الإنسان واحتياجه الطبيعى إلى التواصل، حيث مر الإنسان بأزمة ساح فيها فى شتى أنحاء الأرض، وانغلقت كل جماعة على نفسها، واستقلت بمكانها ووجوده بسبب صعوبة وسائل النقل والانتقال . غير أن الإنسان بما فطر عليه من حب فى التواصل مع بنى جنسه، وما جبل عليه من حب للاستطلاع ورغبة فى ارتياد المجاهل والتعارف مع غيره من الأمم، راح يرنو إلى خارج حدود جماعته الضيقة، ويقتبس مما لدى الآخرين من طرائق للفكر ومن فلسفات وأنماط للحياة ودين .

وكانت الترجمة دومًا فى الجسر الرئيسى بين الشعوب والأمم، الذى أدى إلى التقارب والتعاون والتعارف ففتحت الأبواب المغلقة ونقلت المهارات والأسرار، وحققت المزايا الحضارية المختلفة ونشرتها بين الأمم، فكانت الترجمة بحق هى وسيلة الاغتراف من تلك الينابيع المعرفية والثقافية والعلمية والحضارية بوجه عام والأساس المتين فى نهوض الأمم وقيام الحضارات .

وهكذا، أخذت كل حضارة تغترف من معين غيرها (عن طريق الترجمة)، حتى تراكم على مر السنين تراث حضارى إنسانى ساهمت كل حضارة فيه بمقدار ما أوتيت من أسباب للرقى والحضارة .

لذلك بعد نشاط حركة الترجمة لدى أمة ما، ومدى اهتمام أولى الأمر بها

مقياسًا لتقدمها ورقيها، كما يعد إغفال أهمية الترجمة، وخفض قيمة المترجم اجتماعيًا انعكاسًا لفكر عقيم، وعدم وعى بأسباب التقدم والرقى . إن أى مجتمع عليه أن يقر بفضل المترجم كجسر حضاري، بل وكأداة توصيل جيدة للتجارب والعلوم والثقافات بين أمم العالم ؛ ووسيلة للتعارف إذ كيف يتسنى لهذا التعارف أن يتم فى وجود الحواجز اللغوية .

ولقد استوعب رواد الحضارة الإسلامية والعربية هذه الحقيقة، وأدركوا أهمية الترجمة فى ترسيخ مكانتهم بين الأمم . فانكب العرب فى عصر الفتوحات على التراث المعرفى لمختلف الأمم التى سبقتهم فى مضمار الحضارة، فترجموه إلى اللغة العربية . مثلما حدث فى العصر العباسى عندما نقلت علوم وفلسفات اليونان وأصبحت الترجمة نشاطًا خاصًا من أنشطة الدولة حتى قيل إن الخليفة المأمون كان يكافئ عن الترجمة بوزنها ذهبًا، وكان يضمن معاهداته شرطًا، هو أن ترسل له نفائس الكتب، وإذا كان العلم لا وطن له فالثقافة لها وضع ومن ثم أضحت مشكلة تعريب الآثار الأدبية وترجمتها عن الشعوب المختلفة مشكلة أصعب بكثير من مشكلة تعريب العلوم المختلفة، وكان من المترجمين العباقرة ابن سينا، وابن يونس، وابن الهيثم وكان كل من داود الأنطاكى و ابن البيطار لكل منهجه فى الترجمة، ويقول رفاعة الطهطاوى فى كتابه قلائد المفاخر أنه كان يكتب اللفظ المعرب بحروف عربية مراعيًا طريقة نطقه باللغة الفرنسية ثم ينهض على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة الأزهرية القديمة فقد أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة النحت عندما تلجئ إليه الطريقة العلمية.

ومن المؤكد أنه كانت هناك ترجمة قبل إنشاء دار الحكمة فى بغداد فى عهد الخليفة المأمون فى العصر العباسى (٧٥٠ – ١٢٥٨م)، ولكنها كانت ترجمة غير منظمة ولا نعرف عنها إلا أقل القليل .

وفى كنف الخلافة العباسية، شهدت الترجمة، مثلها مثل العلوم الأخرى دفعة قوية إلى الأمم واتخذت شكلًا منظمًا ونظاميًا . وتقدمت الترجمة فى تلك الآونة نتيجة للتقدم الذى شمل جميع مناحى الحياة وجاء ثمرة لانتشار الاستقرار . وكان خلفاء الدولة العباسية قد ازداد اهتمامهم وشغفهم بجميع صنوف المعرفة، وكانوا يجذلون العطاء للمترجين والمفكرين كلٍ حسب إنتاجه الفكري، وكان الخليفة هارون الرشيد والخليفة المأمون (٨١٣

٨٣٣م) يأمران بدفع وزن العمل المترجم أو المؤلف ذهبًا حتى كادت خزائن الدولة أن تنضب من الأموال بسبب ذلك .

ولعل من المفيد أن نذكر أن مراكز الترجمة قد أزدهرت فى صقلية Sicely و طليطلة أسبانيا Toledo و سرقسطة Zaragoza و برشلونة Barcelona أسبانيا و قطلونية Catalonia وغيرها .

إذن فى المترجم يضطلع فى مجالات العلوم والآدان والفنون بدور بارز وهو لا مشاحة (صاحب رسالة جليلة)

وهل هناك ما هو أجل وأعظم من نقله لروائع الأدب العالمى وأمهات الكتب والمراجع العلمية والمبتكرات التكنولوجية والطبية من بلدان برزت وتفردت فيها إلى لغته الأصلية فيفيج بذلك بلده وبنى جلدته ويرتقى بهم فى معارج العلم والثقافة والفن !!

يقول راينر شولت: إن لفظة يترجم to translate هى بالألمانية über – setzen أى يجعل شيئًا من إحدى ضفتى النهر إلى الضفة المقابلة . والمرادف الإنجليزى über – setzen وهو to translate لا يثير على افور نفس الصورة الذهنية التى تثيرها هذه اللفظة الألمانية . – mit der fahre den fluss über setzen التى تعنى حرفيًا to translate the river on a ferry – boat أى

تعبر النهر فى معدية .

وبسبب أهمية الترجمة جاء فى الثقافة الإيطالية هذا القول un traduttore e un traditore أي أيها المترجم أيها الخائن !.

ومثال الترجمة الخائنة هو ترجمة عبارة Encyclopedia of ignorance إلى اللغة العربية ب (دائرة معارف الجهل) فالأصح والأجمل أن تكون ترجمتها إلى (دائرة مجاهل المعرفة) .

راجع (مدخل إلى احتراف الترجمة إبراهيم السيد الخضري)

ويرى الجاحظ بخصوص الترجمة، أنه لا يكفى أن يكون المترجم عارفًا باللغة التى ينقل منها، أو اللغة التى ينقل إليها، فإنما يجب أن يكون متمكنًا فيهما معًا، لا فى اللغة فحسب ولابد أن يكون متوفر على ترجمة الأدب أديبًا، وعلى ترجمة الفلسفة فيلسوفًا، وعلى ترجمة العالم عالمًا، وهكذا، أن يكون أيضًا فى قامة من يترجم له معرفة وتمكنًا .

لما كان ذلك كذلك بالنسبة إلى الترجمة وأهميتها .

فها هوذا العقاد العبقرى يشذ عن نطاق مفكرى مصر وعلمائها ناهيك عن حكومتها وصحفها مترجمًا عبارة Under self geverneng Institution والتى ترجمتها مصر الرسمية والشعبية إلى تحت أنظمة دستورية إبان وضع الدستور المصري، وكانت هذه العبارة من عنديات المستعمر الإنجليزى . ولكن العقاد العظيم خلع على هذ المصطلح الإنجليزى العباءة الصحيحة له بما يقابله فى اللغة العربية بعبارة : تحت أنظمة حكم ذاتي وليس كما كان يجب أن تكون فى صلب الدستور تحت أنظمة دستورية .

وقامت القيامة آنذاك بسبب هذه الترجمة الدقيقة التى آتى بها الأستاذ العقاد وأحدثت دويًا فى الدوائر السياسية والأدبية فى مصر .

وقد كتب الدكتور لويس عوض مقالًا بجريدة الأهرام فى ٢٧/ ٣/ ١٩٦٤ قال فيه :

إن هذه الصياغة الملتوية الماكرة التى ربطت بين مبدأ الاستقلال ومبدأ الحكم الذاتى على هذه الطريقة قد أدخلت المبدأ الأول بالمبدأ الثانى وأدخلت العملية كلها داخل نطاق الهوم رول وقد كان لإظهار العقاد هذا التدليس فى الترجمة دوى شديد حتى إن العقاد نفسه تعرض للإيذاء، ولا سيما فى عهد كانت فيه مصر تحكم حكمًا عرفيًا . ومن هنا يمكن القول بأن دور العقاد وموقفه من ثورة ١٩١٩ كان إيجابيا بل كان موقفًا وطنيًا خالدًا غير مسبوق إليه .

ولعل من فات عليهم وهم جل المثقفين فى مصر الترجمة الصحيحة للعبارة السالف ذكرها لهم العذر كل العذر فى ذلك، فإن مبحث الدراسات الترجمة مبحث علمى جديد لم ينشأ فى العالم (شرق وغرب) إلا منذ عهد قريب

راجع الدكتور محمد عنانى مدخل إلى مبحث درسات الترجمة ص٣

ولا جرم أن نذكر العقاد الذى كان ضليعًا فى اللغة الإنجليزية حتى أنه قيل أنه كان يقرأ فى أية كتاب مكتوب باللغة الإنجليزية وكأنه يقرأ كتابًا مسطرًا باللغة العربية وقد كان له باع طويل فى الترجمة من اللغات الأجنبية للغة العربية شعرًا ونثرًا فترجم على سبيل المثال: قصة مختصرة من أغانى المهد

Nursery Rhymes .

three wise men of Gotham.

went to see in a bowl .

If the bow been stronger،

My story had been longer.

لم يترجم العقاد تلك الأغانى الطفولية ترجمة حرفية، وإنما أضاف عليها أسلوبه وفلسفته وشاعريته محافظًا على المعنى قائلًا:

ثلاثة شيوخ راحوا إلى البحر فى زورق

ولو زورقهم أقوى ! ولو بنيتهم أوثق .

لكانت قصتى أوفى، وكانت قصتى أشوق (عرائس وشياطين)

الدكتورة فاطمة طاهر عباس محمود العقاد أسوان مارس ٢٠١٤

وكذلك الكثير من ترجمه لأناتول فرنس (من حديقة أبو قور)، وكذلك شكسبير و دانتي وغيرهم .

فعندما سأله سائل عما إذا كان دارون قد ذكر فى مؤلفه عن أصل الأنواع . أن الإنسان كان أصله قردًا. أجاب العقاد :

. إن الترجمة الدقيقة والأوفر للعبارة الإنجليزية التى كتبها دارون وهى Survival of the Fittist هي البقاء للأنسب وليس للأصلح فبقاء الأنسب غير بقاء الأصلح من وجهة الصلاح العامة بين جميع الأجياء والبيئات.

فالإنسان (أصلح) من الميكروب وأقوى منه وأقدر على المقاومة إذا نظرنا إلى الميكروب على انفراد، ولكن هذا الميكروب يبقى فى المستنقع الموبوء لأنه (أنسب) لوجوده حيث يتعرض الإنسان للموت والفناء إذا أقام بذلك المستنقع ولم يتخذ لنفسه وسائل الحيطة والوقاية .

وقياسًا على هذا يصح أن يقال : إن الرجل الشرير يعيش ويسعد بين أبناء البيئة الشريرة لأنها بيئة تناسبه وتوافق استعداده لمجاراتها ولمقاومتها على السواء، ولكن الرجل الفاضل يهلك فى تلك البيئة ولا يوافق أهلها أو يوافقونه على شيء من أخلافه ومطالبه، فهو أصلح من أهلها إذا نظرنا إلى الوجهة الإنسانية العامة، ولكنه ليس بأنسب من أهلها للبقاء فيها كما يبقون، وهذا هو

الفارق بين الأنسب والأصلح فى الترجمة، وهو كذلك مصدر الأخطاء الكثيرة عند ممن يحسبون أن مذهب التطور يرادف معناه مذهب التقدم والارتقاء وسوف يأتى ذكرها فى حينه .

(جريدة الأخبار ١٤/ ١١/ ١٩٦٢، ٢١/ ١١/ ١٩٦٢)

وعود على بدء .

فقد سجل التاريخ السياسى لمصر المعركة الضارية التى نشبت بين الوفد من جهة وبين الأحرار الدستوريين من جهة أخرى والتى كانت تتكون من صفوة مثقفى مصر وكان الأغلب الأعم بينهم من الخارجين على سعد زغلول، وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ أعلن عن قيام حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن والتى كانت تتكون من الطبقة البرجوازية البعيدة عن مطامح الشعب، وكانت وزارة ثروت باشا ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ قد مضت نحو تنفيذ ما كلف بها الملك فؤاد وشكلت لجنة برئاسة حسين رشدى باشا أطلق عليها سعد زغلول لجنة الأشقياء، ونشبت هذه المعركة الضارية التى ألمعنا عليها بين الوفد والأحرار الدستوريين وتصدى لها العقاد بمقالٍ كان شديد الوطأة على أعضاء اللجنة المكلفة بوضع الدستور عنونه باسم مهزلة الدستور ، وإذ دافع الدكتور محمد حسين هيكل عن تلك اللجنة قال فى دفاعه صابًا جام غضبه على منتقدى تلك اللجنة وعلى رأسها بداهةً عباس محمود العقاد قائلًا : إنه لا يفقهون شيئًا من قواعد الدستور فضلًا عن جهلهم بكتب القانون

تصدى العقاد له بما عرف عنه من فروسية وقوة شكيمة موجهًا حديثه لهيكل باشا قائلًا له : نحن لا ننكر على حضرة البك الاعتقاد بأن ما يدعيه من دراسة القانون مزية لا تعوض إذا كانت المزية له ولأمثاله العجزة، الذين حرموا نعمة المواهب الحقيقية .

ولكننا نقول له إنه لو كان يفقه ما يقول ما كتب هذا الكلام فى الدفاع عن أعضاء اللجنة وهو يعلم أن عشرة منهم على الأقل لا يعرفون عن الدستور شيئًا ولم يقرءوا فى علوم القانون كتابًا ثم يوجه سؤالًا ساخرًا إلى الدكتور هيكل : هل رأيت قط رجلًا يتصدى لرئاسى تحرير صحيفة يومية وهو لا يقيم أبسط القواعد النحوية يقصد الدكتور هيكل شخصيًا هذا هو السؤال يا دكتورة؟ .

وخرج ثروت باشا من الوزارة، وحل محله يحيى باشا إبراهيم وهو نسج على منوال من سبقه فلم يقدم أو يؤخر شيئًا، ثم تلاه من الذين كانت لهم بصمة سوداء فى تاريخ مصر من خلال إصرارهم على العبث بالدستور (محمد محمود باشا ٢٥ يونيو ١٩٢٨، إسماعيل صدقى باشا ١٩ نوفمبر ١٩٣٠، توفيق نسيم باشا ١٤ نوفمبر ١٩٣٤)

وتصدى العقاد العظيم لهم بالحرب التى لا هوادة فيها ومن ضمن أقواله فى هذا الخصوص ما نعت به محمد محمود من إنه : (أراد أن تكون مصر مستعمرة بريطانية)، وعندما قال الأخير إنه سيحكم مصر بيد من حديد تهكم عليه العقاد قائلًا : يد من حديد فى ذراع من جريد ، وقال: إن محمد محمود عى ألكن منكر الصوت مسلوخ المخارج كأنه عجائز الجوارى ينشز فى محافل الزار . وقد كان كلاهما محمد محمود أو إسماعيل صدقي ربيبًا للقصر والإنجليز .

و قد أخذ العقاد موقفه العدائى من الإخوان المسلمين حينما تلقى خطاب من أحد أفراد الجماعة يهدده فيه و كذلك يتهدد النقراشى رئيس الوزراء لإصداره قراره بحل هذه الجماعة ، وكتب فى جريدة الأساس ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨ ، كما ذكر الدكتور راسم محمد الجمال فى كتابه (عباس العقاد فى تاريخ الصحافة المصرية) قائلا:

دليلا صادق على طبيعة النفوس التى يستهويها الى الشر طائفة من الدجالين باسم الدين والإسلام، نفوساً يقترن فيه الجهل بضيق العقل بسوء الأدب ، ثم يأتى الدجال فينفخ فيها من الغرور ما يزيد الجهل جهلا و الضيق ضيقا و سوء الأدب سوءً و يقول أنها مع جهلها و ضيقها هذا و سوء أدبه هذا هى التى تعطيهم حقهم فى الحرية و الحياة.

و بلغ العداء مبلغه بعد اغتيال الأخوان للنقراشى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ و كان العقاد يحمل له مودة خاصة لموقفه الوطنى فى ثورة ١٩ و على أثر ذلك شن حملة صحفية عنيفة ضد الجماعة و كان أعنفها ما قاله بجريدة الأساس – جريدة الحزب السعدى برئاسة النقراشى فى عددها الصادر ٢ يناير ١٩٤٩ ، وقال فيه: لم نجد نبيا واحد أباح لنفسه أو أباح له الدين أن يتصرف فى نفس بشرية بغير بينة و شهادة قضاء ، و أن أدب النبوة مع هذا كله ليوحى إليه بأن يدرا الحدود بالشبهات ، وتأتى بعد مرتبة الأنبياء ولاة الأمور ، وليس لأحد منهم بالبداهة أن يجيز لنفسه فى محاسبة الناس حقا فوق حق النبى أو حق الإله ، وعلى هذه السنة القديمة دام المجتمع الإسلامى فى جميع العهود ، وكل ما جاء من الشذوذ عن هذه السنة التى لا يستقيم أمر مجتمع من المجتمعات بغيرها ، و إنما كان من طائفتين خارجتين عن جامعة المسلمين ، و هما طائفة الخوارج و طائفة اليهود و المجوس الذين دخلوا الإسلام ليفسدوه و يهدموا دولته من داخلها .

و قال العقاد إن مؤسس الجماعة حسن البنا ، يهودى يعمل لإحداث فتنة داخلية فى البلاد ، فى الوقت الذى يحارب فيه الجيش المصرى فى فلسطين ، و شرح فكرته قائلاً: نظرة واحدة إلى أعماله و أعمال جماعته تغنى عن النظر إلى ملامحه و تدعو إلى العجب من هذا الاتفاق فى الخطة ، بين الحركات الإسرائيلية الهدامة و بين حركات هذه الجماعة ، ويكفى أن نسجل حقائق لاشك فيها ، و هى أننا أمام رجل مجهول الأصل ، مريب النشأة ، يثير الفتنة فى بلد إسلامى ،

وهو مشغول بحرب الصهيونيين ، و يجرى فى حركته على النهج الذى اتبعه دخلاء اليهود و المجوس لهدم الدعوة الإسلامية من داخلها ، بظاهرة من ظواهر الدين ، و ليس مما يبعد الشبهة كثيرا أو قليلا أن أناسا من أعضاء الجماعة يحاربون فى ميدان فلسطين ، فليس المفروض أن أتباعه جميعا يطلعون على حقائق النيات ، ويكفى لمقابلة تلك الشبهة أن نذكر اشتراك أولئك الأعضاء فى الوقائع الفلسطينية يفيد فى كسب الثقة ، وفى الحصول على السلاح والتدريب على استخدامه و فى أمور أخرى تؤجل إلى يوم الوقت المعلوم هنا أو هناك

ويضيف العقاد: أغلب الظن أننا أمام فتنة إسرائيلية فى نهجها إن لم تكن فتنة إسرائيلية فى صميم نيتها .

ظل العقاد الفارس يناوئ ويجابه كل من سولت له نفسه الاعتداء على مصر من خلال الاعتداء على الدستور حتى زج به فى غيابة الجب من خلال موقفه الوطنى الرائع فى برلمان مصر وأمام نواب الشعب عندما قال قولته التاريخية المشهورة :

إن البرلمان على استعداد لقطع أكبر رأس فى هذه البلاد يعطل الدستور ولا يصونه .

و كتب العقاد مقالات نارية صب فيها جام غضبه على الملك وحاشيته وحرصت السلطات المصرية على استغلال هذه المقالات و مضت تراجعها بدقة لكى تستجمع أدلتها لتقديمه إلى المحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية وكانت هاتيك المقالات قد اكتظت ليس فقط عيبا فى الملك و إنما حوت تحريضا على الثورة ضد نظام الحكم القائم والعمل على التخلص من أسرة محمد على برمتها ، و قد بدأت مقالات العقاد هذه فى التاسع من سبتمبر ١٩٣٠ بمقال اسمه (الوزارة البريطانية و الأزمة المصرية الحاضرة) و فى اليوم الرابع عشر من

سبتمبر من ذات العام استهل هجومه على الملك بعنوان (الرجعيون و الإنجليز المحليون) ، وقال فيه :

إن الملك آثم إثماً لا شك فيه ، ولا ينبغى أن يظل خافياً على أحد المصريين و ظلت مقالاته تترى فى هذا الخصوص حتى استدعته النيابة للتحقيق و أمرت باعتقاله بتهمة العيب فى الذات الملكية وضمت معه للتحقيقات محمد فهمى الخضرى صاحب جريدة (المؤيد الجديد إلى القضية) .

وقدم العقاد بسببها إلى محكمة الجنايات التى حكمت بحبسه تسعة أشهر واقتيد إلى محبسه وفى هذا يقول العقاد فى كتابه عالم السدود والقيود :

فتحت الكوة الصغيرة، ثم فتح باب الرتاج الكبير، ثم احتوانا البناء المخفور الذى يعرف فى مصلحة السجون باسم (سجن مصر العمومي) ويعرف على ألسنة الناس باسم (قره ميدان) أى الميدان الأسود باللغة التركية !

وخطر لى وأنا أخطو الخطوة الأولى فى أرض السجن قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :

دخولى باليقين بلا امتراء وكل الشك فى أمر الخروج

أما الدخول فها هوذا يقين لاشك فيه، وأما الشك كل الشك فهو فى أمر الخروج متى يكون وإلى أين يكون؟ ألى رجعة قريبة، من السجن وإليه؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى؟ أم إلى عالم الأموات؟

ويردف العقاد قائلًا : وكان فى نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب التمثيل مصر فى مؤتمر المجالس النيابية الذى عقد تلك السنة فى العاصمة الإنجليزية، وقد استخرجت جواز السفر السياسي، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوربية التى كانت أنوى زيارتها، ولم يبق ألا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق بأخواتنا الذين سبقونا إلى

باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية، ثم بدا لى أننى إذا سافرت فقد أمهد بيدى وسيلة لنفيى فى أوربا سنوات بلاعمل، ولا قدرة على البقاء فى ذلك الجو القارص أيام الشتاء، وربما كان منع عودتى أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهى بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها . فعدلت عن السفر فى اللحظة الأخيرة، وقلت إن السجن أحب من النفى الذى لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !.

وفى اليوم الثانى عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلًا وأنا وحدى بالمنزل، لأن أخى كان معتقلًا فى قضية (البلطة) المشهورة متهمًا بالتآمر على حياة رئيس الوزارة، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية، ففتحت الباب فإذا ضابط فى رتبة (اليوزباشي) على ما أكذر يبادرنى بالسؤال :

- هل حضرتك فلان؟

- قلت نعم .

فمد إلى ورقة من دفتر فى يده على هيئة ذكرتنى الكونت نيمور وهو يلقى القفاز فى محضر لويس الحادى عشر ،

قلت : تفضل أولًا فاجلس

فتردد فى الدخول، ثم دخل وجلس، فتناولت الورقة وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومى للحضور إلى مكتبه فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ووقعت على الدفتر كما طلب الضابط بأننى تسلمت الورقة، وأخذت فى إعداد الكتب التى سأقرأها فى السجن، والأدوية التى أتعاطاها، والملابس البيتية التى أحتاج إليها هناك . وزدت فأعددت الأغطية الصوفية التى تلزمنى للفراش والغطاء . لأننى كنت حتى تلك الساعة أجهل (تقاليد السجون) وأظن أن الأغطية الخاصة مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء

التحقيق وفى الفترة التى تسبق المحاكمة . ثم حضر الطاهى فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه سيحضرها لى فى السجن غدًا عند اللزوم .

فظهر لى أنه لم يفهم، وأنه ينوى أن يقصد بها سجن الأجانب الذى كان أخى معتقلًا فيه .

فقلت له : بل هى لى أنا فى السجن الذى سيخبرونك عنه غدًا بدار النيابة!! ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه جهد المستطاع .

وذهبت فى الموعد المحدد إلى دار النيابة . واستغرق التحقيق ساعات . ثم قال لى حضرة المحقق : (أننى آسف لأننا سنضطر إلى إبقائك عندنا قليلًا يا أستاذ !) وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى (الحيطة الصحية) الواجبة فى هذه الحالة، ومنها اختيار السجن الذى يوافقنى أثناء الحبس الاحتياطى أكثر من سواه .

فى تلك اللحظة عاهدت نفسى لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكون زيارتى الأولى إلى عالم الأموات، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك أى ضريح سعد زغلول .

أى وفاء مثل وفاء الأستاذ العقاد لزعيم مصر الخالد سعد زغلول، وأى خلق هذا الخلق الرفيع الذى يفصح عن نفس ذكية وهمة فتية يؤكدها هذا الخلق الغير مسبوق .

كان العقاد وكأنه يردد قول الشاعر :

سأقدم ما أبقى لى الدهر همة ... وأركب فى متنيه كل ركوب

لعل اجتهاد النفس يعقب راحة ... فتسكن أو يأتى لها بكروب

ويردف العقاد :

لم تقع منى هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة لأننى كنت أنتظرها منذ زمن طويل .

وظل بمحبسه تسعة أشهر كاملة خرج بعدها كاليث الذى يخرج من عرينه متوجهًا إلى ضريح سعد فى وجود رئيس وزراء مصر مصطفى باشا النحاس والوزراء وألقى قصيدته المشهورة قائلًا :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر وهأنذا فى ساحة المجد أولد

عداتى وصاحبى لا اختلاف عليهم سيلقانى كل كما كان يعهد

لقد حارب العقاد جماعة المعتدلين الذى أرادوا أن يحققوا نوعًا من التعايش السلمى مع الاستعمار الإنجليزى . فتكوين العقاد الاجتماعى كما ذكر رجاء النقاش فى كتابه العقاد بين اليمين واليسار ، هو تكوين اجتماعى نشأ فى ظل أسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة فأبوه موظف صغير، والعقاد نفسه قد بدأ حياته موظفًا بسيطًا، ولذلك فقد كان يحس بأن لطفى السيد وأعضاء حزب الأمة عمومًا بعيدون عنه وعن الطبقات الفقيرة المتوسطة من أبناء الشعب . فهم كلهم من كبار الملاك والاقطاعيين فكيف يلتقى هذا الشاب الفقير بتجاربه الاجتماعية القاسية المرة وواقع حياته الشائك مع هؤلاء الذين يمثلون فى النهاية طبقة عليا متعالية على الشعب مهما أظهرت من الاهتمام بشؤونه وقضاياه.

وحمل على وزيرها نجيب الهلالي حملة شديدة حتى قيل إنه دخل على رئيس الوزارة ذات يوم واستقالته فى يده وفى اليد الأخرى مقالات العقاد التى كان يكتبها أنذاك .

واستدعى النحاس العقاد فى الإسكندرية . ولما قابله حدثت هذه المناقشة المشهورة :

النحاس : لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ يا عقاد؟

العقاد : لأنها انحرفت عن الطريق السوي، وهى تماطل فى إعادة الدستور وتعمل لصالح السراى والإنجليز ووزير معارفها يضطهد الوطنيين .

النحاس : ولكن الوفد يؤيدها . وعند توليه الحكم يصلح كل شيء .

العقاد : أنا لا أستطيع أن أغض الطرف من أعمال الوزارة ولن أقف موقف الاغضاء عن مساوئها وهى تنكشف يومًا بعد يوم

النحاس : أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع ياعباس يا عقاد.

العقاد : أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك (مشيرًا إلى بضعة أشخاص وفديين) ولكنى أنا كاتب الشرق بالحق الإلهى .

النحاس : ان الوزارة باقية مادام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها

العقاد : لن تنتهى برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (وأخرج قلمًا صغيرًا من جيبه) وبالفعل سقطت وزارة النحاس بعد ذلك .

وانصرف العقاد والحاضرون يتشبثون به ويلاحقونه حتى يزيلوا ما بينه وبين النحاس ولكن العقاد أصر على الانصراف وكانت أول كلمة قالها بعد هذه المقابلة لصديقه محمد طاهر الجبلاوى :

لسنا مع الوفد بعد اليوم .

ولحق النقراشى العقاد واخذ يرجوه أن يعدل عن رأيه الذى أعلنه بل أخذ يصور له الموقف وبأن النحاس وأعوانه سيحاربونه فى كل ميدان حتى يذوق ألوانًا من العذاب، ويرد العقاد الفارس على النقراشى :

إننى لا أخاف من الحرب لأننى أؤمن بحرية رأيي، وشجاعتى الأدبية . وهما أنفس عندى من الاستقلال ذاته لأن الأمة الآبية هى التى تسلك رأيها

مستقلة فعلًا وحقًا ولو احتلتها فيالق الغاصبين، أما إذا خسرت الأمة حرية رأيها وشجاعة إيمانها فلا خير لها فى استقلال ولا دستور ولا نيابة ولا انتخاب . لأنها تساق سوق العبيد لكل من خطر له أن يسودها من الأقرباء أو البعداء وتعيش عيشة العبيد ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب ولا فرق بين عبد مسود وعبد مطلق اليدين والقدمين لأن العبودية فى النفوس والقلوب لا فى القيود والأغلال

وعاش العقاد حرب الوفد وخاض غمارها غير عابئ بالأشواك التى يلقيها رجال الوفد فى طريقه، بل نشرت مقالاته فى الصفحات الأولى من صحيفة روز اليوسف تندد بالوفد ورجاله .

وهكذا كان العقاد فى شتى أدوار حياته شجاعة رأى وقوة عزيمة ووطنية صادقة وقلب سليم غير غياب ولا وجل وعقل نير مستنير وإرادة حرة قدت من حديد حتى مناوئًا له كتب كلمة عنه قال فيها :

إن الوفد عندما ييأس من مناقشتنا بالبرهان والحجة يلجأ إلى ذلك (الوحش الرابض) بجريدة البلاغ فيفك عنه السلاسل والأغلال ويطلقه علينا

* * * * * * * *

عبقرية العقاد النقدية

كان العقاد درة التاج الملكي فى عالم النقد الأدبى والعلمى لم يعرف الكلال ولم يتسرب إليه الملال وهو يجول بفكره الثاقب فى عالم الكتب اللجى التى تذخر بها المكتبات العالمية بالمؤلفات الأدبية والكتب النقدية فمد بصره إليها وأعمل بصيرته عليها فيما ورد فيها من تواليف النوابغ فى العلم أو فى الأدب فى شتى مناحى المعرفة، وكان بمثابة الجراح الماهر الذى يستخدم مبضعه ليستأصل منها شأفة ما قد يكون قد اعتورها بين أعطافها من فساد فى الرأى أو قصور فى الفهم أو نقص فى الإفهام.

وله فى هذا الخصوص مئات المقالات ناهيك عن الكتب والدراسات المتعددة التى أمعن فيها نظره وأنعم فكره ليصل إلى الرأى القويم للفكر المستقيم ومحجة الرأى الصائب الخمير حتى قيل: إنه دائرة معارف إنسانية بل جامعة فكرية تميز بنقداته تلك على نظرائه وأنداده بعبقرية يندر وجودها بين الأدباء والمفكرين.

يقول الأستاذ خليفة التونسي عنه:

كان عقله بوتقة يصهر فيها قراءاته ليخرجها بعد ذلك على هيئة سبيكة رائقة من جوهر نفيس وجديد جمع العقاد فيها بين العقل والنقل وإن كان يغلب عليها العقل دائمًا.

قال جوج ديهامل فى كتابه دفاع عن الأدب الذى ترجمه الدكتور محمد مندور إلى اللجنة العربية : عش أولًا واكتب بعد ذلك، عش ثلاثة شهور لتكتب ثلاثة أيام؛ واكتب ثلاثة أيام لتملأ ثلاث صفحات .

وهكذا كان الأستاذ العقاد.

فى كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب لم يسلم من النقد الكثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربى بالإجلال والإكبار كـ امرئ القيس و الفرزدق ، و أبى نواس و أبى تمام و أبو الطيب المتنبي وغيرهم من شعراء العربية كما ذكر ابن الأثير .

وفى هذا النقد تجد كثيرًا من مظاهر التمسك بالموضوعية والذوق السليم الذى يرى ابن الأثير أنه أكبر من حجم القاعدة الموضوعية ، ويشجع فى كتابه هذا – كما كان الأمر مع أستاذنا – العقاد – من دعوته إلى الإكثار من القراءة ومداومة الإطلاع. ويقول ابن الأثير : إذا سألت عما ينتفع به الكاتب فى فنه، قيل ذلك له .

إن الدراية والإدمان أجدى عليك نفعا وأهدى صبرًا وسمعًا وهما يريانك الخير عيانًا ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا.

وهكذا كان نقاد العرب القدماء يفعلون ابن جعفر و الجاحظ و الجرجاني وغيرهم. بدءًا من تاريخ النقد الأدبى . وانظر لأستاذنا العقاد وهو يقول: لأن تقرأ كتابًا ثلاث مرات خير من أن تقرأ ثلاثة كتب .

أما ديكارت فقد كان مذهبه عبارة عن منهج فلسفى ذى ثلاث مراحل:

أولها : السير إلى معرفة الذات.

وثانيها : الانتقال من معرفة الذات إلى معرفة الله.

وثالثها : من معرفة الله إلى معرفة العالم.

كان الأستاذ العقاد ينتهج فى حياته دائما هاتيك الأبعاد الثلاثة.

فعرف ذاته وانتقل منها إلى معرفة الله ويتبدى ذلك جليًا فى العديد من

مؤلفاته ولاسيما كتابه الغير مسبوق الله ، ونهض العقاد بصنوف الأدب المختلفة ومنها بداهة فن النقد بنظرات تحليلية تذخر بها تواليفه بصياغة بديعة تجرى الألفاظ فيها فى نسق محكم مطرد .. يروعك منه – كما عبر الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الأدب المعاصر فى مصر – بعقل خصب لا يزال يلح على الفكرة بتوالیداته الفكرية واستنباطاته العقلية التى تتحول من بذرة صغيرة محدودة إلى شجرة باسقة الظلال تغذى عقلك وشعورك معًا باستيعاب للفكر الغربي، منذ ديوانه الأول الذى جاء بين دفتيه قصيدته الرائعة عن شكسبير وعنوانها فينوس على جنة أدونيس .

وفى ذكرى ميلاده الخامسة والعشرين بعد المائة أعدت له مصر مهرجانًا أدبيًا للاحتفال بتلك الذكرى حضرها رهط من المفكرين والأدباء تبارى كل منهم فى الإشادة بأدب العقاد، قال فيه الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي : وإذا نُظر إلى ما كتبه العقاد فى النقد نجده كافيًا لكتاباته النقدية ليكون الأول بها فى عالم النقد .

أما المفكرة الإيطالية فرانشيسكا كراو فقد ذكرت أنها هربت من إيطاليا لتجيء إلى مصر لكى تقترب من العقاد وأثنت ثناءًا طيبًا على كتابه جحا الضاحك المضحك ، وقالت: إنها كانت فى شوق أن تعرف من هو جحا حتى قرأت كتاب العقاد عنه.

ومن يريد أن يستزيد من أدب النقد عند العقاد عليه أن يتعرف على شخصيته من خلال ما دبجته براعته فى فنون الأدب وفى مجال النقد.

وهكذا كان سانت بيف Saint Beef يرى أن الأدب يتوقف فهمه على شخصية الأديب.

وكانت كان تين H.Teime . ولا جرم أن نقول أن الجاحظ قد سبقه فى هذا المضمار.

فى كتابه الفصول وتحت عنوان نظرة فى أدب هوجو يقول العقاد:

والآن ماذا يكون عطيل؟ إنه الليل. جرم شائع رهيب . فالليل قد أغرم بالنهار والظلمة تعشق الفجر، والإغريقى يحب المرأة البيضاء ، وعطيل يكون له من ديمونته نور وخيال مهيج، ومن ثم فما أسهل دبيب الغيرة إليه؟ إنه لعظيم وإنه لمبجل مهيب. إنه يسمو برأسه على جميع الرءوس ويمشى فى حاشية من الشجاعة والحرب وقرع الطبول وألوية الوغى والصيت الذائع والمجد الفاخر يتلألأ عليه عشرون انتصارًا وترصعه الدرارى فى حلكته. ولكنه بعد أسود الأديم ، فما هو إلا أن تنفث الغيرة نفثتها فينقلب البطل وحشًا والأسود عبدًا ويتصل ما بين الليل والموت .

وإلى جانب عطيل وهو الليل ترى (أياجه) وهو الشر.. وهل الشر إلا صورة أخرى من صور الظلام؟

يتولى العقاد مترجم الكتاب إلى اللغة العربية بالنقد مفندًا عيوبه محصلًا إياها فى إطنابه فى غير طائل، وإيثاره القشور المموهة على اللباب المثمر وإنه عظيم الشغف بالأخير الضخمة وترى هذه العيوب ظاهرة فى طريقة تناوله لشخصية عطيل وفى عكوفه على جانب واحد سطحى من هذه الشخصية وهو سواد لونه الذى جعله محور وصفه وطفق يبدأ منه ويفتأ ويعود إليه للمجاز والطباق واللعب بالألفاظ.

ويردف العقاد قائلًا: إن كتاب البؤساء لفيكتور هوجو كسائر كتبه محشو بما يأخذ عليه من عيوب الصنعة والفكر.. إلى آخر ما جاء فى نقده لمترجم الكاتب الشاعر حافظ إبراهيم، وكذلك لـ فيكتور هوجو نفسه.

ومثال آخر من نقدات العقاد اللاذعة إذا ذكر فى مقال له بتاريخ ٢٦/ ١١/ ١٩٢٦ ضمنه كتابه الموسوعي ساعات بين الكتب ورد فيه:

«جاءنى الجزء الثالث من السنة السادسة فى مجلة لغة العرب التى يصدرها فى بغداد الأب أنستاس مارى الكرملي الذى رأى القراءة مثالا من نقده للشعر فيما كتبناه عنه بالبلاغ الأسبوعى وفى هذا الجزء السادس مثال آخر من نقده يدل كما دل سابقه على جهل مطبق بقواعد اللغة وفهم ضيق للأدب ومعانى الشعر لم نر له مشابهًا بين جهلاء النقد وأدعياء اللغة وهو غير قليلين».

وفى ردنا على نقد هذه المجلة لديواننا فائدة قيمة غير فائدة التصحيح، وإظهار الأخطاء التى وقع فيها الناقد المغرور الذى لا نقرأ له فصلًا إلا رأيته يجزم بتحريم هذا واستهجان ذلك، ويقول فى ثقة الحجة العليم بالدقائق والجلائل: هذا يقال وهذا لا يقال وهذا حسن وهذا غير حسن.. ولو راجع أشيع كتب النحو والصرف، وفهم أبسط القواعد اللغوية لعرف خطأه وترك مجلس الأستاذ الناقد إلى مجلس التلميذ المتعلم المشكوك فى فلاحه وإن طال عليه زمام الدراسة والتلقين. فالكشف عن حقيقة هذه الشهرة الزائفة باب من أبواب العبرة خليق أن يقصد لذاته ويتخذ مثالا لغيره من ضروب السمعة التى لا تقوم على أساس.

يشتمل نقد هذا الأعجمى (الذى يرى أن ديواننا قبر للمعانى البالية والسخافات والأغلاط) على مأخذ معنوية ومأخذ لغوية. فأما المعنوية فهذا نموذج منها وفى إيراده الكفاية.

قلنا:

قد كنت تبلغ ما تروم وتشتهي ... لو أن للأيام علينا تقرب

لا يذهبن بك القنوط فربما ... عاد الصباح وأنت لاه تطرب

واذكر فى المعنى فقال : «كيف تؤمل له أن يلهو ويطرب بعد ما أحال أن ينال ما يروم ويشتهي ».

وقلنا فى قصيدة حمام البحر:

لا بـل منيـت بفتنـة خلعـت جلبابهـا للسكر والفـر

والغيـد أنفـذ مـا رمـين إذا جـردن عـن زرد وعـن سـتر

ونقد هذه العلامة الفهامة فقال : «أى علاقة لحسناء تستحم بالكر والفر».

وقلنا نخاطب الزهرة:

فريـدة الأفـق أسـعديني وخالـسى الـنجم وارمقيني

والعلامة الفهامة يقول: «إذا كانت الزهـرة كما يتوهم الأستاذ ربة الحب، فمن أى نجم تخاف ليأمرها بقوله: وخالسى النجم وارمقيني!».

وقلنا فى وصف البحر:

لـم أبـصر الأذى فيـه كأنـه خيـل الطـراد تـسوقهن صـباه

إلا وددت بـان أراه فـلا أرى أفقـا يـصد الطـرف دون مـداه

والعلامة الفهامة يقول فى نقد القصيدة: «من العجيب أن يورد رؤية البحر من يبصره، والقصيدة برمتها سخيفة..»

وقلنا فى الشمس:

لقد طال عمر الليل حتى حسبتها توارت من الغرب المعصفر فى رمس

والعلامـة الفهامـة يقـول: «خلاصـة البيـت أن الليـل قـد طـال فحـسب أن الشمس قد توارت فى رمس هو الغرب المعصفر. والغرب يكون معصفرا بعد توارى الشمس بقليل، ولكن هذه العصفرة لا تُشاهد إذا طال الليل.

هذا نموذج من فهم العلامة الفهامة للمعانى ونقدها. وما أظن هـذا الهـراء يحتاج إلى رد أكثر من إيراده بحرفه، فليكن ردنا عليه أننا نشير إليه.

أما المآخذ اللغوية.. وما انطوت عليه من جهل هذا الناقد الأعجمى بأصول النحو والصرف جهلًا يدفع به إلى تخطئة ما لا شك فى صوابه.

هذان مثالان لنقد العقاد لما يراه فى الآخرين.. ولما يراه الآخرون فيه وهو قطره فى محيط نقدات العقاد على طول عهده فى الكتابة والنقد وذلك كله بإيجاز فهو يختصر فلا يخل ويطل فلا يمل ويمدك فى الحالين بزاد من المعرفة والعلم الغزير وآية ذلك كتابه الفذ والذى انبهر به أحد المستشرقين الروس وأيد كل كلمة جاءت فيه وهو كتاب الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين أثبت فيه بما لا يقبل الشك أو اللجاج أن ثقافة الغرب هى الرائدة لهاتين الثقافتين، على خلاف ما قال به المؤرخون فى هذا الصدد.

ولم يكن العقاد فى نقده من دعاة (التوفيق للتلفيق) على ذكر كتاب الثعلبي الذى أسماه بهذا الاسم.

ومثال ثالث لدقة العقاد فيما ينقده، ففى كتابه الديوان فى الأدب والنقد الذى ألفه مع إبراهيم عبد القادر المازني وأحدث ضجة فى الأوساط الأدبية فى مصر إذ جاء يحمل فى ثناياه التجديد (فى الشعر) الذى رفع لواءه كلاهما العقاد والمازني.

فعندما كتب أمير الشعراء أحمد شوقي أبياته التى قال فيها:

بنى مصر مكانكم تهيأ ... فيها مهدوا الملك هيا

خذوا الشمس النهار له حليا ... ألم تك تاج أولكم مليا

انبرى العقاد لشوقى قائلًا ساخرًا مما قاله من أن الشمس كانت تاجًا للفراعنة، فتاج الفراعنة الأول هو تاج ممزوج جمعوا فيه بين تاج الملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحري.. ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة أو التى يرمز بها إلى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه

التيجان وإنما كانت معبودًا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها.

أما نقده للشعر فقد أسلفنا الكثير منه فى الصفحات السابقة وخاصة فيما ارتأه فى الشعر المنثور ويتفق فيه تماما بما رآه ابن رشد فهو يرى مثله «أن المحاكاة فى الشعر تكون قائمة على الوزن واللحن والكلام».

(راجع الدكتور محمد صقر خفاجة - تاريخ الأدب اليونانى - ص ١٨٧).

وكذلك كان رأى ت.س. أليوت الذى ذكر أن سبب إخفاق الشعراء فى القرن التاسع عشر من الأوروبيين إنما يعود إلى أنهم قيدوا أنفسهم بالشعر المرسل الذى صار غير قادر على التعبير عن لغة الحديث.

(الدكتور حسين نصار - فى الشعر العربى - ص ٥٣).

وهكذا كان يرى (طباطبا) إذ أنه لم يجز هذا النوع من الشعر.

عندما عن لى أن أسأله عن أولئك الذين يحلو لهم بين الحين والحين أن ينقدوا بعض ما يكتب.. أجابنى العقاد بمقال رائع فى يومياته بجريدة الأخبار محصله فى هذه الأبدة إذ بعد ما فند العقاد ما نقده البعض بخصوص كتابه الرائع عبقرية خالد تفنيدًا دقيقًا أثبت فيه صحة ما ذهب إليه وخطأ وخطل ما قال به الناقدون وأردف قائلًا فى آبدته: «هناك فرق شاسع بين النقد على المنهج .. والنقد على المنهش؟!».

يقول أنيس منصور فى كتابه سالف الذكر.. فى صالون العقاد كانت لنا أيام: «لا أظن أننى فكرت إلا أن الأستاذ العقاد هو الأستاذ الأول.. هو صاحب السيف الذى هو القلم أيضًا فهو الأعظم طولًا والأكثر عرضا والأبعد عمقا فهو الحاكم المطلق فى الفكر والفلسفة ولا صوت يعلو على صوته ولا أعرف كيف تجمع له ذلك ولم يُعط غير ما أعطيه فلا أحد يكتب مثله ولا أحد يكتب مقالا فيكون عمارة فكرية أو هرمًا منطقيًا.. إنه مختلف.. إنه الأفضل».

وليس من شك أن أستاذنا العقاد كان الأفضل.

ولا جرم أن نقول وكما عبر ديفيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦) : إن العقل أثير للعواطف، وينبغى أن يكون هكذا، فلا يمكن للعقل أبدًا أن يتظاهر بأى شيء آخر غير أن يخدم هاتيك العواطف وينفذ ما تمليه عليه. ومن ثم وبعد أن خضع أفلاطون لتأثير أستاذه سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ ق. م) بعد موت سقراط الذى يوجد وصف لحادث موته فى كتاب أفلاطون (الاعتذار) فعمل أفلاطون على تأسيس ما يعرف بالأكاديمية وهى نمط مبكر للجامعة فى أيامنا هذه. كذلك نهض العقاد على تشييد أكاديمية خاصة به قمين بنا أن نطلق عليها: أكاديمية العقاد فى الأدب والنقد.

سيكولوجية الفكاهة والضحك لدى العقاد

كان العقاد رحمه الله مع توقد ذهنه وحدة فكره مفكرًا خفيف الظل يطلق النكات التى لا يتوقعها من يحادثه لأنها تصدر من إنسان لا يتحدث إلا بالمنطق، وكان شديد العاطفة لم يصادف المرأة التى تصون العظمة الفكرية الكامنة فيه .

كنت دائم القراءة ليومياته بجريدة الأخبار ولا يفوتنى منها يومية واحدة، وكثيرًا ما كنت أقهقه ملئ شدقى على ما يطلقه العقاد على خصومه أو يذمهم به .

أستاذ كبير فى التاريخ قلب الحقائق التاريخية التى لم يرض عنها عقل العقاد فاستهل العقاد رده عليه فى يومياته داحضًا ما كتبه بأن كتب اسمه (بالمقلوب) كما قلب الدكتور المؤرخ الحقائق .

وثان يدعى (عمر) نسج على منوال الأول فى تناوله لبعض الأمور وإذا بالعقاد يخاطبه قائلًا : قل لنا (ياعمر) ما الدليل إن كان لديك دليل .

وكأنه يخاطبه باللفظة الشائعة عند بعض النسوة عندما يسخرن من الأخريات؟!.

وثالث دخل معه فى معركة حامية الوطيس وأراق العقاد فيها دمه على حد تعبير الصحف آنذاك ،وهو الشيخ أمين الخولي رحمه الله وكان ذلك بسبب أن الشيخ الخولى قال عن العقاد إنه يشيع الضلال ، وأنه مصاب بالجرئة المريضة ، وأنه غير ذى ضمير ، وعلى حد تعبير العقاد وإننا وإنه على مقال من هذا القبيل فى الصحف غير الباقية وفى مقدمة كتابه، وله طول البقاء . وقد نشبت هذه

المعركة إثر خطاب أرسله احد القراء للأستاذ العقاد يستفسر منه على ما كتبه بخصوص جعفر بن أبى طالب وأجاب الأستاذ العقاد قائلًا : إن الشيخ أمين الخولى يجترئ على حقائق التاريخ وعلى دعاء الإسناد إجتراء لا يقل ما فيه من دلائل الجهل بالتاريخ على ما فيه من مساوئ التبديل والتجريف . فيما ذكره من أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أنه أهدى السفارج إلى النبى صلوات الله عليه، والمعلوم علم اليقين أن جعفرًا قتل فى غزوة (مؤتة) فى شهر جمادى الأول، ومعاوية بن أبى سفيان أسلم بعد فتح مكة فى شهر رمضان، فبين مقتل جعفر وإسلام معاوية أكثر من خمسة شهور، ولا محل بعد ذلك للسؤال عن صدق الرواة للأحاديث فإن كذب الخبر بالتاريخ المحقق ثابت ثبوت اليقين الذى لا يحتمل الخلاف .

والشيخ أمين الخولى الذى وضع التاريخ كله جميعًا تحت حمايته يحذف اسم جعفر من الخبر، فيقول إن النبى أهدى إليه السفرجل بصيغة المجهول، فلماذا يختزل اختزاله حتى فى نقله للخبر المكذوب؟!لأن ذكر اسم جعفر قاطع فى تكذيب ما رواه .

قال الشوكانى فى كتاب الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة بعد إيراد ذلك الحديث المكذوب : وجعفر قتل فى مؤتة ومعاوية إنما أسلم عام الفتح، فلعن الله الكذابين .

و فى خضم هذه المعركة التى أكدت كما أكد غيرها من المعارك الأدبية بين العقاد وخصومه أن العقاد عندما يكتب فإنما يعتمد على حقائق مؤكدة لا يأتيها الباطل من بين يمينها أو خلفها قال العقاد :

أراد الشيخ أمين أن يعلمنا الأكل بالشوك والسكين فإنكسر السكين فى يمين الشيخ أمين !

يقول الأستاذ توفيق الحكيم عنه : العقاد فى نظرى ليس الشخص المتجهم العبوس العنيف ولكنه الإنسان الودود المبتسم اللطيف وكلما رأيته كانت له معى نادرة فكهة .

من ذلك أنه جاء لزيارتى فى مكتبى عندما كنت مديرًا لدار الكتب وكنت قبل تعيينى حرًا أجلس على قارعة الطريق فى قهوتى المعتادة وعلى رأسى القلنسوة التى تسمى (البيريه) فلما عينت فى وظيفتى لبست بالضرورة الطربوش شأن الموظفين فى ذلك العهد

ووجدنى العقاد وعلى رأس الطربوش مكبوسًا والعرق يسيل على جبينى من قيظ الصيف فقد كنا وقتذاك فى منتصف شهر يوليو فنظر العقاد إلى عرقى على رأسى حتى الأذنين وقال لي إنت خايف تقلع الطربوش يفتكروها استقالة!

تقول الأستاذة سناء البيسي والتى كانت من تلاميذ ندواته المعروفين لدى العقاد وكان العقاد يداعبها بالأستاذ البيسي، وعندما يراها تتلعثم فى الإجابة وهو يوصيها بأن تخفف من (الاتجاه السرياني) فى التعبير الفنى بريشتها فى جريدة الأخبار عن يومياته الاجتماعية والسياسية كانت العقاد يدير دفة الحديث وبحنان بالغ مختلقًا آفاق جديدة تفتح لها وللحاضرين فى الندوة عوالم أخرى من المعارف فى كل اتجاه .

كان الأستاذ العقاد يميل إلى القسوة فى السخرية من الذين يتعرضون له.

عندما انتقده الدكتور (عمر فروخ) الأديب اللبنانى رد العقاد قائلًا : للمرء أن يقدم أو يؤخر فى قراءة أحرف رسمه .

أراد العقاد بهذا أن يقول عن عمر فروخ أنه عمر خروف ؟!.

إن عنّ للوزير اللبنانى (عبد الله المشنوق) أن ينتقده رد عليه العقاد قائلًا :

إن (المشانيق) لا يفهمون شيئًا فى الأدب !.

ويقول الأستاذ العقاد هو عن نفسه أننى أضحك كثيرًا وأردد النكت بل وأفتش عنها وأسابق لجمعها من الناس وأحيانًا أضحك وحدى بل أننى أحسن الحديث لساعات مع الطباخ والساعى والباعة وطبيعى أن يكون حديثى معهم بعيدًا عن الفلسفة والأدب .

فى كتابه الرائع جحا الضاحك المضحك يستاءل العقاد :

ما الضحك ؟

ولماذا أضحك؟

وما الضحك بشيء واحد

وما نضحك بسبب واحد

وما نفكر فى الضحك على نحو واحد

ولكنها الكلمة التى لا غنى عنها، ولا أمان منها كذلك مالم نعرف سر الرصد المسحور .

وها نحن أولاء فى هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد فى كلمة واحدة كلمة الضحك لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين، ونعرف منها أضاحيكه بين أشتات المضحكات؟؟

الضحك ضحوك عدة إذا صح هذا التعبير، وليس بضحك واحد، ونحن نضحك لأسباب كثيرة، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التى تصدر عنها ولا تصدر عن حالة غيرها، كأنها هى لغة كاملة على أسلوبها فى التعبير .

هناك ضحك السرور والرضا، وهناك ضحك السخرية والأزدراء، وهناك

ضحك المزاح والطرب، وهناك ضحك العجب والإعجاب، وهناك ضحك العطف والمودة، وهناك ضحك الشماتة والعداوة، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المقرور، وضحك المشنوج، وضحك السذاجة، وضحك البلاهة، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان ولا تتشابه فى جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوًا بنفسه واحتقارًا لغيره، وقد يكون سروره فرحًا بغيره، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس ؛ لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح إليها، ولا يتمنى خلاص أحد منها، وقد يضحك من تلك العيوب ؛ لأنه ينفس عن عاطفة لا يستريح إليها عامة بين إخوانه الآدميين، وخاصة فى أحد يعينه من أولئك الإخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحماقة قد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذى يحكيه فى سخافته وحمقه، فيعرف كيف يحكيه، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره فى أثره وداعيه ومعناه .

العقاد هنا ومن خلال سيكولوجية الضحك والفكاهة يذكرنا بالساخر مارك توين الأمريكي، و تورجنيف الروسي و إبراهيم عبد القادر المازني المصرى فهم جميعًا من الكتاب الساخرين الذين يتميزون بالروح الفكهة، وهذه الروح وإن كانت موجودة فى بعض كتاب الغرب أمثال ما ذكرنا فهى أهم ما يميز المصريين وهى ليست روحًا جديدة عليهم فهى قديمة فيهم ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ كما ذكر الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفكاهة فى مصر .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإننا ننقل هنا للقارئ بعض نوادر جحا كما أوردها أستاذنا العقاد فى كتابه سالف الذكر :

فمن حكايات التمرد على سوء الحال أن رجلًا ضاقت به الدنيا، فعول على الانتحار، واشترى حبلًا ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت ؛ لأن الحبل ارساتز ، أى تقليد صناعى ،فاشترى سمًا من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت ؛ لأن السم ارساتز أى تقليد صناعى للمواد التى تصنع منها السموم واشترى مسدسًا وأطلقه على نفسه فلم يمت ؛ لأن المسدس والرصاص كله ارساتز لا يميت فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها، وذهب إلى مطعم أكل فيه وشرب وأفرط فى أكل اللحوم وشرب الجعة تعويضًا لما فاته من متعة الحياة فى اليومين السابقين فمات فى هذه المرة ؛ لأن الطعام والشراب ارساتز !

****

وشاع بين الفتيات زى الملابس القصيرة التى تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان، وعاد أحد الأزواج إلى بيته فى بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدرى يافلان؟! إنهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط . وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستانًا يوفز عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة.

فنظر الزوج إلى امرأته التى كادت أن تبدو أمامه بغير كساء، وقال هو يظهر الموافقة على مضض :

- أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان !

****

كان جحا يتولى القضاء، فجاءه رجل يستغيث به لأنه وجد طنبوره المسروق مع بائع فى السوق، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وانكره، فأرسل جحا فى طلب البائع المتهم، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده، فجاءه بشاهدين، أحدهما صاحب حانة، والآخر ماجن متبطل بغير عمل.

وشهد الشاهدان بأنهما يعرفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعي، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطًا بأسفله، وليست مفاتيحه محكمة الشد والحركة.

وطابقت العلامة وصف الطنبور، ولكن لسارق طلب تزكية الشاهدين وقال: إن شهادة الخمار والماجن لا تقبل فى الشريعة .

فقال جحا : نعم . وأما حين تكون الدعوى على الطنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود .

يمم جحا وجهه نحو سوق القرية فسأله سائل : إلى أن أنت ذاهب يا جحا؟

فرد عليه: أنا ذاهب إلى حيث أبيع بضاعتى .

فقال له السائل: قل: إن شاء الله.

فقالها جحا.

وعند أوبته سأله ذات السائل : ماذا فعلت يا جحا.

فرد عليه: إن شاء الله أنا سرقت.

* * * * * * *

وسئل : أيهما أفضل؟ المسير خلف الجنازة، أو المسير أمامها؟

قال : لا تكن فى النعش، وسر حيث تشاء .

* * * * * * *

وقيل له : إن امرأتك أضاعت عقلها، فأطرق يتأمل، وقام إلى داره يبحث فيها .

قالوا : ماذا تصنع يا جحا؟

قال : إنكم تقولون إنها أضاعت شيئًا، ولن يكون ذلك ال شيء عقلها فإننى لا أعرف لها عقلًا تضيعه؟! .

* * * * * * * * *

يقول الشيطان : الفضيلة فى الوسط، وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة .

ويورد العقاد أراء أفلاطون وأرسطون وتوماس هوبز و الإسرائيلي يوسف ألبوم الذى درس فلسفة الأندلس الإسلامية، وتكلم عن الضحك لأنه مذكور فى كتب التوراة ومنسب إلى الأنبياء وإبراهيم الخليل .

فالضحك بالعبرية سحوق تدل على الفرح كما جاء عن إبراهيم إنه خر على وجهه وضحك، ومعنى ذلك إنه فرح بما سمعه .

كما يذكر العقاد أيضًا فى كتابه هذا أراء ألفرد رسل ولاس Alfred Russel Wallace، داروين، وكانت (Kant)، واسبنسر، وكذلك رأى فرويد الذى يرى أن النكتة درب من القصد الشعورى العملى يلجأ إليه الإنسان فى المجتمع ليعفى نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة . وأن النكتة تشبه الحلم فى أساليبه وهى التورية و التأويل و الاختزال والمسخ والترفيق .

فإذا قال الناس عن الرجل : إنه يمزح أو يقولون عنه أنه يحلم على السواء حين يريدون أعفاءه من المؤاخذة ولا يردون الجد معه فى المحاسبة والتلفيق، وكما يختال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه الحجة والدليل، وكذلك يختال فى أحلامه على تحقيق الأمانى التى تفوته فى اليقظة وتشغل باله على غير

جدوى.

وكان الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز يدعو إلى الضحك فشعور الضاحك بتفوقه على موضوع ضحكه كأنه يشعر بعظمته أما حقارة ما يضحك منه، ويؤيد هذا التعليل أنه لا نحب أن يضحك الناس منا .

كما إنه كما يرى أن الضحك يأتى من الشعور بالتفوق على الأقران .

أما هربت اسبنسر قد أرجع الضحك إلى فقد التناسب بين الأعمال والأشخاص وتتابع الأفكار المتباينة فى الذهن، وقال :

أن سبب الضحك أنتقال العقل فجأة من الأمور الكبيرة إلى الصغيرة أو من الأشياء المهمة إلى الشياء التافهة فقال : المضحك هو الغريب المخالف للمعتاد لكن المسألة لا تزال مع هذا الإصلاح لا تشفى غليلًا لأن كثيرًا من الأشياء الغريبة التى تطرأ على الإنسان لا تضحكه قط لكنها قد تهيج احساسات أخرى.

وأحدث نظرية فى هذا الباب نظرية هنرى بيرجسن الفيلسوف الفرنسى الشهير . فالضحك فى اعتقاده يأتى عفوًا وللغرابة فيه دخل كبير . ولكن يجب أن تكون من نوع مخصوص كأن تتسبب عن حركة ميكانيكية غير مقصودة تقرب الأحياء من الجوامد فى ذهننا .

* * * * * * *

العقاد والفن

ترتبط كلمة الفن . كما ذكر هربرت ريد فى كتابه معنى الفن فى أبسط مدلولاتها بهاتيك الفنون التى تتحصل فى الفنون التشكيلية و المرئية لما فيها بداهة فنون الأدب والموسيقى .

وكان الدكتور الديدى قد عقد مقارنة فى كتابه فلسفة الجمال بين العقاد وشلير ، فيذكر عن شيلر أنه قال (أن الفن وحده هو الذى يستطيع أن يحقق تطور القوى الإنسانية كلها ، و يمكن استكمال جوهر الإنسان المبتور فى داخليته و الغريب عن ذاته و عن الطبيعة بواسطة الفن ... فالحياة قاسية ولكن الفن مصدر الأفراح).

أما العقاد فكأنه بالجمال يراه هو غاية الحياة القصوى التى هى أسمى من جميع ما تناله المنافع و الأغراض ، وما الجمال؟ ... أنه الحرية نحن نشترى الحرية العزيزة بالقيود الثقيلة ، بل نحن لا نجد الجمال و لا نوجده إلا إذا ألفنا بين القيود والحرية و أصالحنا ما بينهم من التنازع و التنافر.. فكلما اقتربت الأمة أو الفرد أو الحضارة أو الرآى أو الفن إلى حسن التأليف بين أفراح الحياة وأحزانها بين خيالها و عروضها ، بين معانها كانت أقرب إلى السمو و النبالة والصدق لأنها أقرب إلى القصد الإلهى ووجهه الكون البادية فى جميع أجزائه.

و كان العقاد يرى أن للآدباء جميعاً رسالة واحدة هى الحرية و الجمال، ويرى أن عدو الأدب منهم من يخدم الاستبداد و من يقيد طلاقة الفكر ومن يشوه محاسن الأشياء ، و يرى الدكتور الديدى أن اهتمامات العقاد قد تنوعت وجهود قد توزعت و ظهر من قواه الخارق العجيب فى الفلسفة و الأدب

والتاريخ و السياسة ، و تمخضت شاعريته عن أجزال ما عرف الأدب العربى من الأغانى و القصائد و ظل يتحف الأدب بشعره العاطفى فى الحب و الغزل إلى أخريات أيام حياته.

يقول العقاد : ولعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين جغرافيين بين أناس فى الشرق وأناس فى الغرب، أو أناس فى الشمال وأناس فى الجنوب.

فهناك موسيقى الحس المحدود وهى التى تؤدى لنا وظيفة الجارية والنديم وتسلينا بأنغام الفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح.

وهناك موسيقى الروح وهى التى تخاطبنا من منبر الإلهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام، لأن الألحان لا تقصرعن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعانى والحروف.

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحى التى تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوى الصحيح .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التى تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التى تترهل بها الأجسام فى مخادع اللذات .

وكما شوبنهور أول من قال بأن كل الفنون تطمح إلى أن تكون مثل الموسيقى .

فالاستماع إلى للموسيقى يطول القدرة على الإصغاء ويسمح للدماغ بأن يعيد ترتيب بعد العمليات المهمة التى ينهض عليها . ويرى بعض الباحثين أن ثمة رابطة بين تعلم الموسيقى والنجاح وأن تعلمها يعزز التفكير والقدرة على التدبير .

وكان من بين النقاد من اكتشف تأثيرات فن موسيقى الباروك على شعراء مثل طونسون و يونج و جراي و كولينز بل ذهب البعض يقارن بين شعر كيتس ١٧٩٥ ١٨٣١ بالتصوير مرة والنحت تارة والموسيقى طورًا أخرًا.

والعقاد بحكم أنه شاعر مطبوع فقد عشق الفن وجال وصال بين دروبه، وجاءت كتاباته تدل على فلسفته وعمق فكره فيما ابتدعه الموهوبون من الفنون، وكان كعادته عملاقًا فى ابداعاته فى مقالاته الضافية فيما دبجه يراعه من نظرات ثاقبة فى مجال الفن .

وكان غوصه فى مجالات الفنون غير مسبوق بالنسبة للمفكرين أو الأدباء الآخرين ولسنا بصدد المفاضلة بين العقاد وغيره . ولكن هكذا كان العقاد .

فالأدب لا يقاس بالنمو والتقدم فلا يمكننا القول أن تنسون الشاعر الإنجليزي أعظم من همر الشاعر اليونانى أو أن بروست أعظم من منتاني لأن الأدب ينساب فى نغمة إيقاعية ولا يسير فى خط متصل فلكل من الأدباء وقته وظروفه .

ارتاد العقاد واحات الأدب المتباينة مثل الرحالة الأروبيين الذين ارتادوا مناطق شديدة الوعورة يكتنفها الظلام ويحيط بها الإظلام وأسهموا فى خلال كتاباتهم عن رحلاتهم فى تعريفنا بهاتيك المناطق المجهولة التى جاسوا خلالها وكتبوا عنها وكذلك فعل العقاد بولوجه إلى أبواب الأدب المتباينة وساحات الفنون المختلفة التى لم يطرق بابها أديب قبله من أدباء مصر المعاصرين.

وهو بهذا يسير على درب فلاسفة الإسلام العظام ألم يحفل تراثنا الإسلامى بروائع الفنون التى خلفها الفارابي فى مجال الموسيقى، وكذلك الألحان بمؤلفه الموسيقى الكبير وألم يكتب ابن سينا عن الفنون من خلال تحدثه عن أسمى المشاعر الوجدانية فى التصوف الإسلامي؟ .

وأنظر كيف تفعل الفنون فى عقول الناس وأفئدتهم وليس هذا مقصورًا على الإنسان، بل كذلك على الحيوان فهو أى الحيوان يطرب عند سماعه للموسيقى أو الغناء، فالموسيقى كما يقول: غذاء كل المحبين كما ذكرنا فى كتابنا خواطر قاضٍ .

فى ديسمبر عام ٢٠١٣ ضربت عاصفة ثلجية قوية بلدان الشرق الأوسط. تنبه العالم فجأة أن الأطفال السوريين فى العراء. ليس هو الشتاء الأول الذى مرّ على اللاجئين السوريين فى العراء، لكنه كان الأكثر بطشًا وقسوة وأودى بحياة الكثيرين وبخاصة منهم الأطفال نتيجة الصقيع الشديد. فهزت هذه العاصفة المدمرة أبناء الشعب السورى وكادت أن تودى بهم وتحت عنوان لا مكان مثل الوطن هب الفنانون والموسيقيون الإنجليز فشدوا رحالهم لزيارة مخيمات هؤلاء البؤساء . كما ذهب إلى هناك نجوم العرب من أهل الفن ذهبوا إليهم بفنهم لمواساتهم والترويح عنهم فانتشلوهم من وهدتهم وأدخلوا بفنونهم على قلوبهم الراحة والأمان .

وكان للعقاد بتأثره بقيم الفن الرفيعة المقالات العديدة والنظرات الثاقبة فيما كتبه عن فنانى عصره، و عن فلسفة الفن أو فلسفة الجمال، ونظم من الشعر ما يوحى بهذا ويؤكده .

فلن يكون الفن جميلا إذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أى واقع؟ وأية مطابقة؟ الواقع فى الشعور، والمطابقة لذلك الشعور، وهى مطابقة لا ريب فيها، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى، إذا كانت المطابقات الأخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه فى فن من الفنون، سواء أديناه بالقلم أو بالريشة أو بالأزميل أو بالوتر والمزمار ».

وقد تناول العقاد فى مقالاته فى جريدة البلاغ الأسبوعى و الهلال بالتحليل

والنقد مجالات عدة من الفنون، يأتى فى مقدمتها الفن التشكيلي، وتحديدًا نقد اللوحات الفنية، والمنحوتات، واللذين نالا الجانب الأكبر من اهتماماته، وقد أثار مقاله الافتتاحى بالعدد الأول من جريدة البلاغ الأسبوعية جدلًا واسعًا، إذ تعرض فيه العقاد لما يمكننا تسميتها قضية التجديد والتقليد فى الفن، معتمدًا فى موقفه هذا على وجهته النقدية فى تلقى النصوص الأدبية، وهو الرأى الذى انتقده فى العدد الثانى من الجريدة الفنان المصور شعبان زكي ، ودارت بينهما على إثر هذا مساجلات عدة حفلت بها صفحات مجلة البلاغ، وأثرت فيما بعد فى تخفف العقاد من الانتصار لرؤيته والتحيز لها فى نقده للفنون التشكيلية، إذ يقول فى مقاله المعنون ب الجمال والشر فى الفنون :

أما الشر والجمال فقد اجتمعا كثيرًا فى الطبيعة والحياة، فلماذا لا يجتمعان كثيرًا فى القصيد وسائر الفنون؟ بل لقد كان القبح نفسه وهو نقيض الجمال موضوعًا للفنون الجميلة من شعر وتمثيل وتصوير فلم نستغرب مجيئه فى ذلك المعرض، ولم يمنعنا دور القبح أو الشر الذى يمثله الممثل أو يصوره المصور أو يصفه الشاعر أن نعرف فيه مزية الأداء الجيد الجميل .

ولم يحصر العقاد نقده للفنون على الصور واللوحات الفنية التى تعرض لها فى مقالاته الشهرية والأسبوعية، وإنما نال فن النحت جانبًا كبيرًا من اهتمام العقاد ونقده، فكان تعرضه لتمثال نهضة مصر لمثال مصر الخالد محمود مختار نموذجًا لإعادة الحكم وتغيير الرؤية ومراجعة النفس من جانب هذا الناقد، الذى كان قد تعرض للتمثال فى مراحله الأولى بالانتقاص إذ يقول العقاد فى مقالته المعنونة ب تمثال النهضة :

قلت يؤمئذٍ: وفى التمثال ماعدا هذا عيب آخر من عيوب النظر الفنى والنظر التاريخى معًا، ذلك أن أبا الهول المصور فيه لا يشبه فى شيء من ملامحه

أبا الهول القديم الذى بناه الفراعنة، وإنما هو صورة منقولة عما فى معابد البطالسة من هذا النصب،وإنه لمن الخطأ فى قصة الفن والتاريخ أن نختار لتصوير نهضة مصرية نصبًا بنته فى مصر أسرة أجنبية وعندنا تمثالنا ذاك العريق المهيب فمن ينظر الآن إلى وجه أبى الهول الذى أميط عنه الستار فى هذا الأسبوع يحمد للأستاذ أنه أخرجه فى صورة مصرية فرعونية تدل عليها الشفتان والأنف والذقن والخدان والعينان، ولم يجعله يونانيًا بطليموسيًا كما مثله فى صوره الأولى منذ ثمانى سنوات .

وفى كتابه سعد سيرة وتحية نجد العقاد يتعرض بالنقد لتمثال سعد زغلول الذى صممه وكذلك نفذه الفنان محمود مختار ، والعقاد فى انتقاده للتمثال يستند إلى وجهة شبيهة بوجهته النقدية فى تناول الأعمال الأدبية، إذ ينفض إلى الآثار النفسية التى يضفيها العمل الفنى (التمثال) على متلقيه (مشاهديه)، فنجد العقاد يقول فى مقال عنوانه تخليد الذكرى :

وتزداد النفس شعورًا بيبوسة المعانى المفرغة فى التمثال عندما تنظر إلى ذلك المعطف الطويل المفرغ على القامة المديدة بلا حركة ولا ثنية كأنه خارج من عند الكواء !، ومما لاشك فيه أن تمثيل رجل كسعد فى المعدن أو الرخام أو الصخر ليس بالأمر اليسير، فهو أصعب من تمثيل العسكريين لأن ملامح القوة العسكرية ليست بالعسيرة على التصوير، وهو أصعب من تمثيل الفلاسفة والشعراء لأن ملامح الحالمين والمثاليين ليست كذلك بالعسيرة التصوير .

ولعل موضع المشابهة بين نقد العقاد للأعمال الفنية ونقده للأعمال الأدبية هو ما يكشف عنه انتقاده لتمثال سعد زغلول فى كلامه السالف، فالعقاد فى نقده للفنون غير الأدبية لا يدخل تحت مدرسة نقدية بعينها وإنما يحتوى المدارس كلها، وهو لا يتبع مذهبًا من المذاهب أو منهجًا من المناهج النقدية إلا

مذهب الحرية الفردية الواعية والشخصية المتميزة فى الأدب واحياة، ولا يعنى هذا أن العقاد يذكر المنهجية النقدية، ولكنه لا يتقيد بها ولا يعتبرها نقطة البدء لنقده ورؤاه.

ورغم ذلك فإن العقاد يميل فى نقده للفنون إلى تبنى امنهج النفسى الشعورى الذى يستخدم فن النفس لا علم النفس بمعناه المحدد، فالعقاد لم يتبع مدرسة واحدة من مدارس التحليل النفسى للأدب والفن، وإنما استخدمها جميعًا. وكما جعل العقاد من النقد الأدبى قيمة مستقلة فى التعامل مع النصوص الأدبية، مغيرًا مفاهيم الشعر والأدب، ومستحدثًا فى النقد العربى مبادئ لم تكن معروفة تبعه فيها الأدباء والشعراء مسترشدين بنقده وأدبه، فإنه جعل أيضًا من نقده للفنون غير الأدبية مفاهيم جديدة، إذ كان شعار نقده حرية التعبير الفني فى الأدب والفن على حد سواء .

والعقاد لم يكن يقصر رؤاه على تناول الصور الفنية والتماثيل بالنقد والتحليل، وكان للعقاد أيضًا مقالاته فى نقد الموسيقى وأصولها ءتتبع مبدعيها وفنونهم، وقد كان لبيتهوفن على سبيل المثال حظًا من اهتمام العقاد، إذ تناوله بمقالتين فى ذكرى مئوية رحيله عام ١٩٢٧، واللافت للنظر أن العقاد لم يتناول بالتحليل مقطوعات بيتهوفن ومؤلفاته وإنما شغلته شخصية بيتهوفن وعزوفه عن الاختلاط بالناس، ووجهة نظر مجتمعه فيه، وزعمهم حدته ونفوره وجنونه، بينما هو شخصية تنطوى على عمق وسماحة وطيبة ومحبة.والعقاد فى تركيزه على الجوانب النفسية فى بيتهوفن الموسيقى يؤكد وجهتنا فى تشابه منهجيته التحليلية للفنون بوجهته التحليلية للأدب ونصوصه يقول العقاد فى مقاله الموسيقى :

فالتعبير الموسيقى يصدر عن النفس بمعونة قليلة من الخبرة الدنيوية

والمعارف العقلية، وهو فيها صدى التوافق الذى يشمل قوانين الوجود ويضبط نسبته الملحنون والرياضيون غير أن الذى نعجب له وننكره على الموسيقيين أن يدعوا ترجمة الكلام بالألحان أو ترجمة الألحان بالكلام . وأن يزعم أحدهم أنه يسمعك القصة منغومة كما يسمعها إياك منظومة أو منثورة بتفصيل كتفصيل الصور والكلمات . فهذه الدعوى تنزل بالموسيقى ولا ترفعها وتعلقها بالتعبير الكلامى ولا تجعلها مستقلة بتعبيرها الذى فيه الكفاية والغنى عن غيره من أساليب التعبير .

وقد تناول العقاد أيضًا فى مقالاته (فن النكتة) عند المصريين وعد أبطاله جنود إبداع مجهولين فى المجتمع المصري، وهو فى تناوله لفن النكتة والظرفاء يكتب تحت عنوان الظريف المجهول بمجلة الهلال الشهرية داعيًا لبناء نصب تذكارى لهؤلاء الفنانين الذين لا غنى للمجتمع عنهم وعن قفشاتهم، بل ويعرض لنماذج من مقولاتهم التى يعرفها العامة ب القافية وهو فى عرضه لفنون التنكيت عند المصريين يربط بين هذا الفن والواقع السياسى والاجتماعى الذى كانوا يعيشونه فى ذلك العصر، ويقدم براهين وأدلة على هذا الارتباط الذى يرى فيه محاولة للخروج بالمجتمع من مشكلاته وأزماته والتفريغ عنه ومقاومة الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة .

ولعل خلاصة القول ها هنا هى إن العقاد قد تعامل مع الفنون الجميلة بذات الرؤية التى تعامل بها مع الشعر والأدب، إذ كان تناوله للموسيقى والرسم والنحت والتمثيل نابعًا من رؤاه النفسية للفن . وهو فى ذلك كان محققًا لوظيفة الناقد الرئيسية، وفق مقاييس عصره، والتى تعمق التعاطف بين الإنسان وعالمه، أو بين الفنان وواقعه، إذ الفنون الجميلة هى المعبرة عن هذا العالم وذلك الواقع وإمكانية التعبير عنهما بحرية خارج حدودية النمط التقليدى اتباعًا، وبعيدًا أيضًا عن التطرف تجديدًا وإغراقًا فى التجريد إبداعًا .

إن مقالات العقاد وكتاباته عن الفنون تحتاج جهدًا كبيرًا لتحليلها والوقوف أمامها بالدرس والتفنيد، خاصة تلك المقالات التى تناول فيها صورًا زيتية ورسومات وتماثيل لفنانين غربيين، وهو فى ذلك التناول لم يكن فقط يحمل ثقافات وفنون المجتمعات الأخرى لقرائه، وإنما يقدم تحليلًا وموثقًا من هذه الفنون والمدارس والاتجاهات الفنية، ولعل مقال الدكتور بدر الدين أو غازي قدم تفصيلًا وافيًا فى هذا الجانب الرئيسى من جوانب نقد العقاد وكتاباته عن الفنون التشكيلية تحديدًا، وذلك فى مقاله المعنون ب العقاد والفنون التشكيلية ، والذى يقول فى افتتاحيته :

ليس من جيل العقاد مفكر أو أديب مثله، عكست كتاباته اهتماماته بالفنون، وأفصحت منذ البدء عن وجهة نظر، بل عن يقين فى ضرورة الفن للمجتمع، وعن مدلول الفن الجميل فى نظره، ومصاحبة العقاد فى كتاباته تطلعنا على منهج متمايك فى النظر إلى الأعمال الفنية يصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده

يراجع الدكتور شوكت المصري، نقد العقاد (بين الأدب والفنون) عباس محمود العقاد خمسون عامًا من الحضور المتجدد مجموعة باحثين أسوان مارس ٢٠١٤ .

إذن فإن مناط الفن عند العقاد هو تغلب عند الضرورة، فالعقاد قد قدم فى نقده للفنون التشكيلية موقفًا متماسكًا صادرًا عن منهج، وفق وضوح للفهم واستقامة فى البناء واستواء للقواعد والمقاييس ولا تستطيع كما عبر الدكتور بدر الدين أبو غازي أن تتغاضى عن شجاعته فى الرأى وسبقه للتعريف بأهمية الفنون ومكانتها وضرورتها فى المجتمع وارتياده بإصرار مجالاتها عبر سنى حياته الفكرية . بل هو الذى أكد فى اللغة العربية استخدام كلمة فنان بعد أن

كان الشائع استخدام كلمة الفني أو المتفنن .

قال فى ذكرى عبقرى الفن سيد درويش :

أبناء مصر تذكروا وتذكروا ... ما مصر خالدة لمن لا يذكر

وإذا جرى ذكر الفنون فيميزوا ... بالحمد فنا بالجمال يبشر

ذهب الزمان. زمان من لم ينعتوا ... بالمجد إلا من يصول ويقهر

إن الذى يعطى النفوس عزاءها ... لأحق بالذكر الجميل وأجدر

ف سيد درويش فى رأى العقاد قد رفع الأغانى من خدمة الفرد إلى خدمة الشعب

أوليس العقاد هو القائل :

إن للفن دَلاَلًا كدلال الحسان؛ لأنه يخاطب الإحساس والعاطفة والوجدان، وكل ما دار هذا المدار فهو موضع للإدلال لأنه موضع لاختلاف الأذواق، وللضنانة به على من يجهلونه ولا يرون فيه رأى أصحابه.

ويربط العقاد بين الفن والحرية فيقول: أنت لا تعرف أنك فى أمة أحرار حقا كارهين للاستبداد حقا، إلا إذا رأيت بينهم لعظماء المطربين شأنا لا يقل عن شأن أندادهم من ذوى المواهب والأعمار والأقدار. وهو يشجع جميع أشكال الفنون، نستثنى منها ما لم تستسغه ذائقته الفنية مما كان يدرجه تحت فنون العبث. وله مع الفن التشكيلى وقفات طويلة، فكانت له مع بعض رموزه صداقات متينة، وجلس أمام بعضهم طويلا لكى يصنعوا له «صورا شخصية «بورتريهات كصلاح طاهر وأحمد صبري، وغيرهما، كما صنع له بعض الفنانين النحاتين تمثالا، مكث فى بيته طيلة حياته، ولا نعلم الآن بعد بيع البيت ثم هدمه وانهيار مكتبته شيئا عن مصير هذا التمثال ومحتويات المكتبة، والبيت

بشكل عام!

أما بالنسبة لفن التمثيل، فقد كان يتابع الحركة المسرحية ويذهب من الزقازيق إلى القاهرة، فى أوائل القرن العشرين خصيصا لمشاهدة مسرحيات سلامة حجازى والحصول على الكتب، على الرغم من حياة الفاقة وشظف العيش الذى كان يعانيه الرجل، ومن ثم فقد كانت له فى هذا الفن أيضا آراء ووجهات نظر، فكتب الكثير من المقالات حول فن المسرح والسينما وفن التمثيل، وفلسفة الفن بوجه عام.

أما عن فن الغناء، فقد أدلى بآرائه الفنية والنقدية حول عدد من الفنانين، نعرج عليها بعد قليل، بل إن له قصائد وأشعارًا فى بعض رموز الفن، من الملحنين والمطربين، مثل موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب إذ أبدى إعجابه بصوته وقال :

إنه لا عيب فيه إلا إعجاب شوقى به ! .

ولما سئل عن رأيه فيه قال : صوته قوى عذب جذاب، واستعداده الفنى عظيم، ونظم فيه قصيدة قال فيها :

إيه عبد الوهاب إنك شاد	يطرب السمع والحجا والفؤادا
وقد سمعناك ليلة فعلمنا	كيف يهوى المعذبون السهادا
ونفينا الرقاد عنا لأنا	قد حلمنا وما غشينا الرقادا
بارك الله فى حياتك للفن	وأبقاك للمحبين زادا

وقد لاقت هذه الأبيات بهجة شديدة استبدت بأمير الشعراء أحمد شوقي بما نظمه العقاد فى عبد الوهاب حيث كان عبد الوهاب آنذاك عزيزًا عليه أثيرًا لديه.

سيد درويش، وأم كلثوم، وسلامة حجازى وغيرهم. وقد غنت له المطربة «نادرة بعض أشعاره وقصائده فى أحد الأفلام السينمائية، من ديوانه «عابر سبيل .

كما كان يتابع الحركة الفنية فى جميع المجالات، شرقا وغربا فى الداخل والخارج، بل ويعرض لها ويعّرف بها، وينقدها نقدا نزيها، بغض النظر عن انتماء هذا الفن إلى بلد عدو أو صديق! فالفن ثروة إنسانية كما كان يؤمن بهذا ويردده.

وفى الثانى من مارس سنة ١٩٢٨ كتب العقاد عن فن التصوير بين القديم والحديث قائلًا :

فى المعرض الفرنسى الذى يقام الآن فى القاهرة حجة للقائلين بأن تقدم الفن غير تقدم العلم وإن سنة الارتقاء لا تسرى على التصوير خاصة سريانها على الصناعة والاختراع . ففى الصور التى رسمها عباقرة التصوير قبل مائة سنة ماهو أجمل وأفخم وأدل على القدرة والأستاذية من أحدث الصور التى ابتدعتها قرائح المعاصرين، ولو جازلنا أن نوافق أو نخالف أحد الفريقين من الناقدين لقلنا وإن الفن الذى لهج به المصورون فى هذا العصر يهبط بالفن كلما تمادى إلى حيث يكثر فيه الأدعاء ويضعف المرجع المصطلح عليه ويصبح الشذوذ هو القاعدة .

وأردف العقاد يقول : لم يكن الفن القديم غفلًا من دلائل الشخصية التى ينزع إليها أنصار (الامبرشنزم) أى الذين يصورون وقع المناظر فى النفس لا المناظر كما هى فى الحقيقة والواقع أو (الاحساسيون)، لأنك لا تخطئ أن ترى لكل مصور قديم علامة يعرف بها وطابعًا ينم عليه وموضوعًا يكلف به وأسلوبًا فى الأداء والتلوين لا يشابه أساليب الأساتذة الآخرين . فالاحساسية

الحقيقية التى تبرز فيها ملامح الشخصية لم تكن مفقودة ولا منسية فى تلك العبقريات التى بقيت آثارها إلى اليوم تتحدى المنافسين بالتعجيز وتعلو فوق هام المناقضة والمحاكاة، وإنما الفرق بين تلك الاحساسية وما يقابلها من نوعية المصورين فى العصر الحاضر هو الفرق بين مزاج سليم متزن صادق مستوعب وبين مزاج قلق متفاوت يعنى بجانب ويصدف عن جوانب، أو هو الفرق بين المساواة والبساطة، وبين الإغراب والبهرج .

فالمصور الحديث الذى يجرى على أسلوب الاحساسيين المزعوم يريد أن يتخذ له لونًا وسحنة بارزة فى جميع مصنوعاته كل البروز فيوشك لأن تقارب حدود الكاريكاتور تلح على الأذواق إلحاحًا يخالطها بالضجر والنفور، وإنما هم يحرفون الأشكال والألوان لتدل عليهم وتؤخذ عند النظر إليهم مأخذ العلامة الشخصية التى ينفردون بها، أو هى بمثابة توقيع شائع فى الصور تعرف به أسماؤهم ولا يعرف له شيء سواها، فالتوقيع على الصورة بالحرف الصريح يغنى عن هذه الخواص التى ينتحلونها بغير معنى ولا مسوغ من الفكرة أو الأداء، والاحساسية فى هذه الحالة هى مجرد المخالفة للآخرين على نمط يستطيعه كل من يبغى الخلاف والشذوذ . ولقد رأينا فى معرض الخيال المصرى صورة نهج فيها صاحبها على منهج الاحساسية فأجاد ووفق أحسن التوفيق فى مخالفته لألوان الشجر واختياره اللون المغشى بالظلام بين الشحوب والسواد، لأنه هو اللون الذى يؤدى جو السكينة والظل المخيم على تلك الأرواح . فهذه المخالفة للون الأخضر الذى يبادر النظر من الشجر كله هى أقرب إلى إحقاق روح الصورة وتمثيل جوها من الصدق الحرفى فى محاكاة ألوان الطبيعة، ولكن المخالفة التى على هذا الأسلوب قليل فيما نراه عندنا من صور الاحساسيين، وأكثر ما نراه فى تحريفاتهم إن هو إلا أزياء لا نفهم لها حجة كزى السراويل الواسعة بعد زى السراويل الضيقة أو كزى اللون البنفسجى بعد

زى اللون الأزرق أو المرقط، وكلها ذاهبة مع الزمن كما يذهب كل جديد يؤتى به حبًا للجديد، ورغبة فى التنويع الموقوت ولا تبقى إلا الاحساسية المستمدة من الحس الصادق والعلم الصحيح.

وأن الإنسان الفنان قد بلغ قمته قديمًا وما برح الإنسان العالم ينتقل بين القمم والوهاد .

ولكن ماهى الاحساسية؟ .

يراها العقاد فى نشأتها، هى فيما رآها تكميل لنظر الأقدمين مسبوق إليه أو متوقع فى أثار بعد الأساتذة الأسبان والفرنسيين، و ديلكورا لم يكن إحساسيًا ولكن أسلوبه فى ملاحظة المسافة لا ينكره الأسلوب القديم ولا أى أسلوب صحيح . فلا يعاب عليه أنك حين تدنو من أزهاره لا ترى إلا بقعًا من الألوان يتعذر عليك تمييزها ثم تبتعد قليلًا قليلًا فإذا هذه البقع ورود وأزهار لا أجمل منها ولا أصدق فى رعاية اللون والرسم والمسافة، بل هذا من القدرة التى يعجب لها كل من يراها والتى تفوق قدرة الأقدمين فى فضيلة لا خفاء بها، وهى أن الأقدمين كانوا ينقلون ما يرونه على اللوحة، أما ديلكروا فإن الذى يضعه على اللوحة شيء غير الذى يراه وغير الذى تراه أنت حين تقف على مسافة محدودة . ولا ريب أن نقل المنظر كما هو أسهل من ترجمته إلى منظر آخر يختلف فى القرب أشد الاختلاف وينطبق على البعد المحدود كل الانطباق، وهكذا كانت صور سيسلي و مونيه و بيارو أو كانت بعض صورهم التى رأيناها فى المعرض الفرنسى واستدللنا بها على قيمة الصور الأخرى التى لا نراها إلا منسوخة فى مجموعات المتاحف، فإنها كلها صادقة إذا نظرت إليها من مسافتها المقدرة أو حبست الأشعة فى العين على القدر المناسب لألوانها الطبيعية، وكلها مبنية على قواعد يسهل ضبطها والرجوع إليها فى النقد

والتعليم، ومجمل هذه القواعد أن اللون الواحد كالأحمر أو الأصفر مثلًا ليس هو لونًا واحدًا فى الحقيقة، لأنه يختلف باختلاف اللون الذى كنت تراه قبله وباختلاف البعد والقرب والزاوية التى تنظر منها إلى الشيء الملون به، وإنك حين تنظر إلى هدف بعد هدف يلزمك حصر للنظر فى كل من هذه المرئيات يخالف حصره فى الهدف الآخر، وإن المنظر فى مجمله غير المنظر فى تفاصيله وأن تعميم الظلال على الأسلوب القديم ناقص فى حكم الحس لأن لألوان التظليل بها قانون غير القانون الذى أدركه القدماء؟ فكل هذا لا غبار عليه . ولكننا لا نريد أن نغلو فى تقديره كما يغلو المتشيعون للاحساسية ولا أن نجرد أسلوب الأقدمين من كل فضله فى هذه الناحية، مثال ذلك شجرة معينة تريد أن تصورها : فهذه شجرة ليست منظرًا واحدًا لأنها فى الصباح غيرها فى المساء وفى الربيع غيرها فى الشتاء . فما العمل فى هذه الحالة؟ هناك ثلاثة أساليب لاستجماع هذه الأشكال المتغايرة : أحدها أسلوب منيه الاحساسى الذى يريد أن يصور على طريقة العصفور المتنقل فى التغريد، فهو يرسم تلك الشجرة عشرة أشجار أو ثلاثين أو أربعين على حسب تغير الساعات والفصول والأنوار والظلال، وأسلوب آخر إحساسى يحصر الشجرة وحدها ويغض النظر عن تفاصيل المنظر الذى حولها وعن تفاصيل الشجرة نفسها ليعطيك إياها فى لحظة واحدة من الزمن كما لاحت لعينه وكما وقعت فى نفسه، وأسلوب الأقدمين وهو يضحى ببعض الظواهر التى لا تضحى الاحساسية بأكثر منها ليعطيك الشجرة فى كثافتها وتلوينها وتظليلها ولبابها الذى قلما ينال منه تغاير الأزمان والأجواء، فلا ريب أنه مهما اختلفت المظاهر فهناك الشجرة التى تمر بها كل هذه المظاهر والتى تحتاج إلى التصوير جملة واحدة كما يحتاج إليه كل مظهر من مظاهرها.

وهنا يبدو لنا أن الأقدمين كانوا احساسيين أكثر من (الاحساسيين) لأن

فضل الاحساسية الأكبر هو الاعتماد على الشعور أى تصوير ال شيء كما يبدو فى نفس ناظره من وراء المحسوسات الآلية، فالأستاذ الذى ينفذ من وراء الصباح والمساء والربيع والشتاء لينقل لنا الشجرة . كما قد يتخيلها واحدة كاملة فى جميع هذه الملابسات هو إحساسى ينقل من الداخل أكثر مما ينقل من الخارج من الخارج ويعطينا من الجوهر أُرب مما يعطينا من الأعراض وهذا هو الكمال الذى قد تفسده التجزئة حين يغلو فيها الاحساسيون إلى الحد الذى ترامى إليه ذلك الناقد المتهوس مارنيتى Marinetti الإيطالى فزعم أن الفن يجب أن يعنى برسم الأشياء فى الزمان لا فى المكان وحده وفسر ذلك بأن المصور يجوز له أن يرينا ظهور الكرسى من خلال جسم الرجل الجالس عليه لأن ذلك الرجل سيفارق كرسيه فى زمن قريب !! وأنه يجوز له أن يرسم أذرعًا خمسًا أو ستًا للرجل الذى يحك رأسه لأنه يؤديه بذلك أداء صادقًا فى أزمانه المتتابعة، ويسمى أنصار هذه المدرسة أنفسهم بجماعة المستقبلين Futurist ويقضى سوء حظ الفن أن تتفق لبعضهم بعض الإجادة الفكاهية على مثال صورة السيدة والكلب فتشيع أنماطهم بين الأغوار ويتخذون من تلك الإجادة الطارئة جوازًا يدخلون به فى دائرة المحظور. ثم تبحث عن هذه الكلمات الخاوية من مستقبلية إلى رسم فى الزمان لا فى المكان إلى النفاذ المحسوس فى خلال المادة إلى غير ذلك من الطبل والطنين فتلفيه كله لا يخرج عن رسم الحركة الذى عرفه الأقدمون وأدوه أجمل أداء ووصفه شاعرنا العربى أبن حمد يس حين قال :

أسد تخال سكونها متحركًا   فى النفس لو وجدت هناك مثيرًا

فليس بين (المدرسين والرمانسيين والاحساسيين) النابغين من لم يرسم لنا الجسم فى حركة تخيل لنا ما قبلها وما بعدها وترينا إياه فى الزمان لا فى المكان وحده ولكنهم لم يلجؤوا قط إلى تعديد الأرجل والأذرع والوجوه، ولو فعلوا

ذلك لكان أيسر عليهم وأقل مؤنة وأغنى عن البراعة الفنية من كل أسلوب معروف، إذ لا صعوبة فى محاكاة شريط الصور المتحركة الذى يؤدى من هذه اللمحات المستقبلية ما ليس يؤديه أبرع المستقبلين فى العديد والتلفيق .

وليت الأمر وقف عند حد المتهوسين . فإن الفوضى إذا بدأت لا تنتهى إلى نهاية معقولة، وقد بدأ (الاحساسيون) يبيحون الإنحراف عن القواعد لضبط المرئيات النفسية وفتحوا باب التصرف فى الألوان فظهر على أثرهم الاحساسيون المحدثون : Imressionists – New، والتقسيميون Divisionists والدواميون Vorticists والتعبيريون Experssionists وأولئك المستقبليون وطوائف أخرى لا تحصيها مما يدخل فى هذه الأسماء التى يشملها اسم ما بعد الإحساسية Post Impressionism أو اسم الوحشية الذى أطلق على بعضهم فى فرنسا Fauvism وإنه لأليق بهم قاطبة من جميع تلك . وإلى القراء مثلًا واحدًا من أمثلة هذه الصور التى رسمها كاندنسكي الروسى البولونى قبيل الحرب ولم تعدم ناقدًا مثل السير ميشيل سادلر يزعم أنه تبين فيها تعبيرًا عن حالة القلق التى تقدمت الحرب، لأنه بصر فيها بحطام المدافع والأجسام والدواخين ! فلينظر القراء إلى أى نهاية بلغ بالفن انحرافه عن الأصول لتصوير ما يسمى الإحساس المستكن فى العواطف والأوهام.

ولم يكن فى حساب الاحساسيين أن فكرتهم تهبط إلى هذا الحضيض وتمسخ هذا المسخ الشنيع، ولا كان هذا شأن جميع الاحساسيين فى هذا العصر أوربيين كانوا أو شرقيين، فى الدور الأعلى الذى عرضوا فيه العصريات صور لأرنست لوران يغبطه عليها أقدر الأساتذة المتقدمين . وفى معرض (هداية) الذى لا يزال مفتوحًا إلى الآن صورة (للرقص) أنصف فيها الأستاذ، كل حق من حقوق الرسم والحركة والمعنى، وأتى فيها من الآيات التى يفخر بها أكبر المصورين . فعلى مقربة من الصورة لا ترى إلا خطوطًا تبين للناظر عن شيء

قليل من الراقصة فى الراقص الشيخ والأثر ملموسًا فى الراقصة الفتية مع إتقان لا مزيد عليه فى الملامح وتمثيل الإحساس، وفى هذا المعرض نشهد الاحساسية التى يبعث المصور إليها عجزه فى الرسم وتمحله للهرب من الإتقان فيه، فإنك ترى دلائل القدرة على الرسم والافتتان بالأنوار والظلال بادية على الصور الأخرى التى قضى بها الأستاذ البارع حق القربان النفى للشمس المصرية ومعابد الفراعنة الخالدين.

.. لم يكن الشتات الذى آل إليه الفن الحديث فى حساب الاحساسيين السابقين، ولكنه كان مخشيًا من يوم أن شذ المجددون عن سنن المدرسيين فى الأصور العامة، فنشأت فى وقت واحد على التقريب طلائع مدرسة تدعو نفسها بأنصار الرسم الجيد La bonne Peinture على محاذاة الطلائع التى ظهرت للاحساسيين . وكأنهم يتهمون الاحساسية بالعجز فى الرسم لأنها تنحرف عن تقاليده فى بعض الأحيان . فإذا شاء المصورون القادرون أن يجنبوا الفن عواقب الفوضى والشتات فالسبيل إلى ذلك أن يغلقوا الباب علة الدعوى النفسية التى لا وازع لها وليجعلوا الظواهر أصولًا لا يعدوها المتخيلون ولا الواقعيون ولا يحاد عنها لأى عذر من الأعذار، ولا نستغنى نحن فى الشرق خاصة عن تقدير تلك الأصول إلى جانب العناية بما اقترحه صديقنا المصور الفاضل من الاتفاق على المصطلحات، وضبط الأسماء، فإن إرسال الترجمة على عواهنها خليق أن يوقع القراء فى الخطأ والإجحاف

أما بالنسبة لفن التمثيل، فقد كان يتابع الحركة المسرحية ويذهب من الزقازيق إلى القاهرة، فى أوائل القرن العشرين خصيصا لمشاهدة مسرحيات سلامة حجازى والحصول على الكتب، على الرغم من حياة الفاقة وشظف العيش الذى كان يعانيه الرجل، ومن ثم فقد كانت له فى هذا الفن أيضا آراء ووجهات نظر، فكتب الكثير من المقالات حول فن المسرح والسينما وفن

التمثيل، وفلسفة الفن بوجه عام.

أما عن (فن الغناء)، فقد أدلى بآرائه الفنية والنقدية حول عدد من الفنانين، نعرج عليها بعد قليل، بل إن له قصائد وأشعارًا فى بعض رموز الفن، من الملحنين والمطربين، كسيد درويش، وأم كلثوم، وسلامة حجازى وغيرهم. وقد غنت له المطربة «نادرة بعض أشعاره وقصائده فى أحد الأفلام السينمائية، من ديوانه «عابر سبيل .

وكان العقاد يتابع الحركة الفنية فى شتى المجالات، شرقا وغربا فى الداخل والخارج، بل ويعرض لها ويعّرف بها، وينقدها نقدا نزيها، بغض النظر عن انتماء هذا الفن إلى بلد عدو أو صديق! فالفن ثروة إنسانية كما كان يؤمن بهذا ويردده.

* * * * * * *

أما عن الموسيقى هذا الفن الر قى الجميل فمن فرط إعجابه بالموسيقى على وجه الخصوص، التى تلتقى من ;جهة نظره بالفلسفة العالية فقد اختصها باهتمام كبير. ويوضح العقاد أن الموسيقى تلتقى بالفلسفة من حيث إن كلتيهما تترجمان للإنسان من وحى البداهة، ولغة الحياة فى ضمائرها العميقة، فلا يعلم الإنسان لحقائق الفلسفة العالية برهانا أوثق من اقتناع البديهة، ولا يعرف للطرب الذى تنير به الموسيقى سرائر حياته تعليلا غير ذلك الإحساس البديهى. ولهذا التشابه فقد قرن بينها وبين المعرفة.

ولكل هذا، يختص العقاد «الموسيقى بقصيدة طويلة، نجتزئ منها بعض الأبيات:

معلمة الإنسان

مـــا لـــيس يعلـــم   وقائلـــة مـــا لا يبـــوح بـــه الفـــم

وكامنــة بــين النفــوس بداهــة ... ومــا علمــت فــى مهــدها مــا الــتكلم
ومخرجــة الأوهــام مــن ظلماتهــا ... علــى أنهــا مــن سـطوة النــور تحجــم
ومــسمعة الإنــسان أشــجان نفــسه ... فيطربــــه ترجيعهــــا وهــــى تــــؤلم
أعيدى على القول أنصت وأستمع ... حــديثا لــه فــى «نوتــة القلــب ميــسم
وأوغــل بالــذكرى فــأزعم أنــه ... قــديم كعهــد القلــب أو هــو أقــدم
ويــا ليتنــى أدرى أنفــس سـحيقة ... تنــادين منهــا أم فــؤادى المكلــم؟!

وقد كان العقاد من المعجبين بفن الموسيقى وفن الغناء .

فالموسيقى وكما ذكرنا فى كتابنا خواطر قاضٍ :

فن رفيع يرهف الجميع أذنه إليه . فإن لغة الموسيقى لغة عالمية بل مجموعة من اللغات تخاطب كل فرد وكل شعب فلكل منهما لغته الموسيقية . فقد توارث الإنسان حب الموسيقى عبر آماد طويلة من الزمن . وكذلك كانت هى مع الحيوان، فإن الحيوان يطرب أيضًا للموسيقى .

أما فن الغناء فيرى العقاد رأى أفلاطون فيه والذى قال عنه إن تغيير أغانى أمة يضارع تغيير الشرائع فيها .

وللعقاد آراء فى فن الغناء جديرة بالتأمل والتقدير والاحتفاء، منها قوله: هناك تطور واضح جدا فى فن الغناء العربى، فقد تطور «التخت» وأصبح «أوركسترا»، والمطرب الذى كان يغنى وهو جالس أصبح يغنى وهو واقف، والأغانى التى يؤديها المطرب أو المطربة تغيرت جدا، فقد كان المطرب أو المطربة يغنى دورا، والدور يصلح لكل إنسان، ولكل أوان، أما الأغانى الآن فهى «بالمقاس أى «تفصيل»، بمعنى أنها تعبر عن حالة خاصة عن مشكلة فتاة، ابنة، عائلة، عن حيرتها، عن عذابها وكل هذا شخصي، فهى عندما تغنى تحكى

لـك حكايتهـا، تأخـذك معهـا، تـضمك إلى صـفها الأغـانى كلهـا تطـورت، وأصبحت شيئا مؤثرا مقنعا، والآلات تحركـت وراحـت تنطـق وتتكلم وتعبر كالمطرب تماما. ثم يضيف: واهتمام الفن بالأسـرة هو اهتمام بالحياة ومعنى ذلك أن الفن حياة وأنه يشجع على الحياة، وهذه رسالة الفن الحقـة ويلاحـظ العقـاد أن الأصوات فيما عدا صوت أم كلثوم كلها ضعيفة، والنقص الذى بها تكمله الميكروفونات أما صوت عبد المطلب فهو قوى ولكن ليست فيه مرونـة صـوته قوى ولكن لا ينزل تماما كصوت عبد الوهاب تحت، ولكنه (لا يطلع) أما عبد الحليم حافظ فصوته «مقبول» وعندما يغنى كأنه يسلى نفسه عنده أزمة ، عنـده مشكلة يعبر عنها لوحده وهو لهذا ينجح. لأن الأغنية تعبير عـن حالـة خاصـة يعانيها إنسان. أما المطربة صباح فهذه صاحبة صوت جميل، فحينما تستمع إليها تشعر أن الآلات الموسيقية فى خدمتها، وأنها هى التى تلون الغناء والموسيقى فى الوقت نفسه، وهذا مقياس للفنـان «المبـدع»، أى الـذى يعطـى مـن عنـده شيئا شخصيا ثم قال العقاد لمحدثه وهو يضحك ضحكة مجلجلة: تعـرف أن الجـدع شكوكو ده نموذج ممتاز لابن البلد كأحسن ما يكون ولكن عيب «شكوكو» فى نظرى أنه يسخر من ابن البلد. وأنا أفضل أن يكتفى بتقليد ابن البلد. فشكوكو صـورة فوتوغرافيـة جيـدة لابـن البلـد، وصـورة كاريكاتوريـة رديئـة لـه! ومـن تقديره للفن تقديره للفنانين، وقد أدرك القيمة الفنيـة لـسيد درويـش وسـلامه حجازى وكتـب عـن فـنهما وأثنـى عـلى مـواهبهما، أمـا سيدة الغنـاء العربـى أم كلثوم، فقد كان يكن لها تقديرا خاصا، وقال فيها شـعرا فى مناسـبات متنوعـة، منها هذه الأبيات التى قالها بمناسبة عودتها من أوروبا بعد رحلة علاج ناجحة بعنوان «كوكب الشـرق»، وجاءت فيها هذه الأبيـات التـى تعـبر أصـدق تعبـير بفرحته بعودة الفنانة الكبيرة بعد شفائها:

يـا عـروس السماع لبّـا ... ك مـن يـسمع الدعـاء
وشـفى أنفـسا لعينـي ... ك تـسترخص الفـداء
انظـرى فـى وجوههـم ... تعرفـى نـضرة الوفـاء
كلهـم ودّ لـو يغنـى ... مـن البـشر والـصفاء
أيهـا الكوكـب الـذي ... أسـعد الأرض باللقـاء
رددى الطـرف فـى الفضـا ... ء، ومـا أرحـب الفـضاء
واسـأليه سـؤال مـن ... يلحـن الطيـر فـى الهـواء
هل سـرى فيـه مثـل صـو ... تـك فـى الحـسن والنقـاء
فـى قـديم الزمـان أع ... نـى وفـى حاضـر سـواء
لا تجيبـى . أنـا المجـى ... ب ولـم أغـل فـى الثنـاء
أنـت كالـشمس لا تعـدّ ... د فـى هـذه الـسماء

وعن فن الرسم قال العقاد : أنه قد جاء فى صفحة الأدب بجريدة الأخبار. أن أشهر رسام فى العالم وهو بيكاسو كان أفشل تلميذ فى الرسم خلال المرحلة الابتدائية كما قال صديقه بوشيم فى ترجمته، فلم يحصل على أكثر من صفر أيام التلمذة الفنية؟ ويقول مترجمه إنه تنقل بعد تخرجه من المدرسة بين الكلاسيكية والواقعية والتكعيبية، والسريالية، وأخيرًا كفر بكل المذاهب، وأشهرها التكعيبية التى اخترعها منذ خمسين سنة .

وقد أحسن محرر الصفحة الأدبية السيد أنيس منصور فى إيراده لهذا الخبر، لأنه يرد به ضمنًا على دعاة اللغة العامية بيننا، فيعلم الناس أنهم يحاربون اللغة الفصحى لأنهم (صفر) أيضًا فى اللغة العامية لو قدرت لها درجات وأصفار .

و بيكاسو ليس بأشهر الرسامين العالميين، لأنه لا يزال (صفرًا) فى الرسم حتى اليوم، وليست مذاهبه كلها إلا خروجًا على قواعد الرسم والشكل والتلوين وتخبطًا بين (التقاليع) التى يسمونها مذاهب فنية وليست هى من الفن فى قليل ولا كثير .

بل ليس (بيكاسو) مخترعًا للتكعيبية المأثورة ولا للتكعيبية المهجورة فإن المصور الفرنسي هنرى ماتيس Mtisse كان فى سنة ١٩٠٨ يصنع صورته المعروفة ساخرًا بالمصور براك Braque التكعيبى فيسميها (كفاية تكعيبيات) Assez de Cubisme .

ويخيل إليه أنه نعى هذه المدرسة الهزيلة وكتب لها بذلك التوقيع شهادة الوفاة .

كلا ليس بيكاسو هنا ولا هناك من المدارس التى يتقلب بينها ويجهلها جميعًا على السواء، إنما مدرسته الوحيدة هى مدرسة (قصر النيل) أو مدرسة (الأزعرية) التى لا تشرف أصحاب الأذناب .

* * * * * * *

العقاد والمرأة

يقول الروائى الفرنسي أونوريه دى بلزاك Honoré de Balzac :

إن معظم الرجال العظام صنعتهم النساء .

فالمرأة هى صانعة الرجال وملهمة الحكماء ومصنع الأبطال والفلاسفة والأدباء، ومن هنا جاء قول نابليون بونابرت :

إن الشيء الحقيقى الذى تخلقه المرأة هو طفلها .

ولقد عرف العقاد المرأة أمًا وأختًا وصديقًا وعاشقة ومعشوقة، ويبدو إنه تأثر برأى الفيلسوف شوبنهور من أن الزواج نقمة على البشرية، فغض العقاد بصره أن تكون المرأة زوجة له، ولكنه لم يغضض بصره تأثرًا بالفيلسوف الألمانى الأشهر . فقد أجاب العقاد نفسه على عدم إقدامه على الزواج بقوله:

أننى لا أكره الزواج ولا آباه، فهو سنة الحياة، والطريق الطبيعى لقيام الأسرة، ولكنى طبعت على ألا يشاركنى أحد حياتي، ولا أطيق هذه المشاركة التى أراها عسيرة علي، وعلى من تريد أن تشاركنى الحياة، ولقد طبعت على أن أتحمل آلامى وحدي، وما أكثر تلك المغامرات أننى لا أريد أن أعذب امرأة معي، ولا أريد أن تعذبنى امرأة معها .

كتب العقاد عن المرأة وأفاض بالحديث عنها فى كتبه الإنسان الثاني، وهذه الشجرة، والمرأة فى القرآن الكريم وفى العديد من المقالات .

وفى تاريخ الأدب المصرى القديم أن حب المرأة قد شب وترعرع وزكا عوده على ضفاف نهر النيل فقد خلف ملوك الفراعنة وكذلك الملكات تراثًا

يفصح عن قصص الحب بين ملوك مصر وملكاتها بقى على مر الزمان، وتعاقب الحدثان.

يحدثنا الدكتور زاهى حواس فيقول : لم يكن الحب آنذاك مجرد نزهة خلوية، ولم يكن طرفًا للعشاق ولكن كان حياة ومدادًا للعمر . وكانت كلمات الحب فى ذلك الزمان السحيق تذوب رقة وجمالًا كما تخبرنا برديات مر عليها آلاف السنين. تقول إحدى البرديات (ليتنى مرآتك كى تنظرى لى دائمًا، ليتنى ملابسك كى ترتدينى دائمًا، ليتنى الماء الذى ينساب على جسدك والعقد فى جيدك . عشق فرعون مصر رمسيس الثانى الملكة نفرتارى (معناها جميلة الجميلات) وَشَيَّد لها الملك بعد وفاتها مقبرة تعد كما رأيناها إبان عملنا وكيلًا لنيابة الأقصر درة مقابر البر الغربى .

وكذلك قصة حب الملكة نفرتيتى لفرعون مصر أخناتون ووقفت بجانبه عندما قرر تغيير الديانة المصرية القديمة وعبادة الإله الواحد آتون ثم أقام لها معبدًا (أبو سمبل الصغير) بجوار معبده فى أبى سمبل . ناهيك عن عشق الفرعون أمنحتب للملكة (تي) إلى درجة أنه أنشأ لها بحيرة خلف تمثالى ممنون بالبر الغربى . ولا ينسى التاريخ بداهة غزو كليوباترا ملكية مصر لقلب أنطوني، وكذلك حب المهندس المصرى سنموت للملكة (حتشبسوت)، ويحكى التاريخ أنه حفر نفقًا يمتد من مقبرته ومقبرتها تحت الأرض اعتقادًا منه أنهما سوف يلتقيان فى الحياة الأخرى .

ناهيك عن قصص الحب التى خلدها التاريخ ومنها : روميو وجيوليت و أنطونيو وكليوباترا ، و ديانا ومحمد الفايد ، و الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت ، و باريس وهيلين التى جاء ذكرهما فى الإلياذة للكاتب اليونانى الشهير هوميروس ، و نابليون وجوزفين .

وفى تاريخ الأدب العربى قصصًا كثيرًا عن الحب الذى جمع بين المحبين .

من أجمل هذه القصص وأكثرها تداولا، قصة الشاعر والفارس عنترة العبسي، الذى وقع فى حب ابنة عمه عبلة بنت مالك ، وصادف أن أحبته هى الأخرى.

وكان عنترة قد نشأ من أب عربى هو عمرو بن شداد، وكان سيدا من سادات قبيلته، وأم أجنبية هى الأمة السوداء الحبشية زبيبة ، واكتسب عنترة السواد من أمه.

وبلغ الحب بعنترة وعبلة مبلغه فصارا عاشقين، وتقدم عنترة إلى عمه يخطب إليه ابنته، لكن لون بشرته السوداء ونسبه وقفا فى طريقه. فقد رفض مالك أن يزوج ابنته من رجل يجرى فى عروقه دم غير عربي.وحتى يصرفه عنها ويشعره بقلة الحيلة والعجز عن دفع مهرها، طلب منه أن يدفع لها مهرًا ألف

ناقة حمراء من نوق الملك النعمان المعروفة بالعصافير، فسعى عنترة لتحقيق ذلك، وبلغ منه الأمر من المشقة أقساها، إلا أنه لم يستسلم، وجاء بمهر عبلة، إلا أن والدها لم يقبله منه، وبدل ذلك جعل من مهر ابنته رأس عنترة لمن أراد الزواج منها، فرأى من ذلك عنترة الويل، وواجه المستحيل، وفى النهاية قضى الأمر أن تتزوج عبلة من فارس عربي، وتترك عنترة فى حزنه، هائما فى حبها ينظم الشعر فيها حتى مات.

* * * *

وسجل التاريخ لنا قصة قيس و ليلى ، فقد احب قيس بن الملوح ابنة عمه ليلى بنت المهدى وهما صغيران يرعيان ابل اهلهما، ولما كبرا حجبت عنه ليلى، وظل قيس على حبه وبادلته ليلى الحب، ولما شاعت بين الناس قصة حبهما غضب والد ليلى ورفض زواجه منها فحزن قيس واعتلت صحته بسبب حرمانه من ليلى فذهب والده الى أخيه والد ليلى وقال له: إن ابن أخيك على

وشك الهلاك أو الجنون فاعدل عن عنادك وإصـرارك، إلا أنـه رفض وعانـد وأصـر على أن يزوجها، فلما علـم بحبهـا لقـيس هـددها إن لم تقبـل بـزوج آخـر ليمثلن بها، فوافقت على مضض، ولم تمض الا عدة ايام حتى زوج المهدى ابنته من ورد بن محمـد فـاعتزل قـيس النـاس وهـام فى الوديـان، ذاهـلا لا يفيـق مـن ذهوله الا على ذكرى لـيلى. وأصـبح قـيس يـزور آثـار ديارهـا ويـستعبر ويبكـى وينظم الشعر فى حبها، حتى لقب بالمجنون.

وبادلته ليلى ذلك الحب العظيم حتى مرضت وألم بها الداء والهـزال، فماتـت قبله، وعلم بموتها فما كان منه إلا أن داوم عـلى قبرهـا راثيـا لهـا ولحبهـا، حتـى مات.

ومن قصص الحـب كـذلك، قـصة لم يتـداولها الكثـيرون، وهـى قـصة عـروة وعفراء.

كان عروة يعيش فى بيت عمه والد عفراء بعد وفاة أبيه، وتربيا مع بعـضهما فأحبا بعضهما وهما صبيان.

فلما شب عروة تمنى أن يتوج الزواج قصة حبهما الطاهرة، فأرسـل إلى عمـه يخطب إليه عفراء، ووقـف المـال عقبـة فى طريـق العاشـقين، فقـد غالـت أسـرة عفراء فى المهر، وعجز عروة عن القيـام بـه. وألـح عـروة عـلى عمـه، وصـارحه بحب عفراء، ولأنه كان فقيرا راح والدها يماطله ويمنيه الوعود، ثم طلب إليه أن يضـرب فى الأرض لعل الحياة تقبل عليه فيعود بمهر عفراء. فما كان منه إلا أن انطلق طلبا لمهر محبوبته.

وعاد بعدما جمع مهرها ليخبره عمه أن عفراء قد ماتت، ويريه قبرًا يقول له إنه قبرها، فانهار عروة وندب حظه وبكى محبوبته طويلا، حتى جاءته المفاجأة، فقد ترامت إليه أنباء بأن عفراء لم تمت، ولكنها تزوجت، فقد قدم أمـوى غنـى من الشام فى أثناء غيبته، فنزل بحى عفراء، ورآها فأعجبته، فخطبها من أبيها،

ثم تم الزواج رغم معارضتها، ورحل بها إلى الشام حيث يقيم.

ولما علم بذلك انطلق إلى الشام، ونزل ضيفًا على زوج عفراء والزوج يعرف أنه ابن عم زوجته ولا يعلم بحبهما بطبيعة الحال، ولأنه لم يلتق بها بل بزوجها فقد راح هذا الأخير يماطل فى إخبار زوجته بنبأ وصول ابن عمها. فألقى عروة بخاتمه فى إناء اللبن وبعث بالإناء إلى عفراء مع إحدى الجواري، وأدركت عفراء على الفور أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم فالتقاها، وحرصا منه على سمعة عفراء وكرامتها، واحتراما لزوجها الذى أحسن وفادته وأكرم مثواه، غادر تاركا حبه خلفه.

ومضى الزمن عليهما، ومرض عروة مرضا شديدا، وأصابه السل حتى فتك به، وأسدل الموت على العاشقين ستار الختام بموت عروة، بلغ النبأ عفراء، فاشتد جزعها عليه، وذابت نفسها حسرات وراءه، وظلت تندبه حتى لحقت به بعد فترة وجيزة، ودفنت فى قبر بجواره.

* * * *

ومن قصص الحب التى تتخذ منحا آخر لم نعتده فى قصص العرب، قصة (تاجوج والمحلق)، فتاجوج لم تحرم من حبه وهو لم يحرم من الزواج بها إلا أنه فرط بها دون قصد فخسرها.

كانت تاجوج بنت الشيخ محمد بن على بن محلق بن محمد بن على التى دوت أخبارها فى أكثر الآفاق وتناقل الناس حديث جمالها. فتقدم المحلق إلى والدته يطلب منها أن تخطبها له من خاله. فامتثلت الأم وطلبت من أخيها ابنته تاجوج لأبنها المحلق، فرضى الخال ولكن بعد أن طلب مهرًا غاليًا من ابن أخيه فاستعان المحلق بوالده وأوجده لأصهاره، وكل عاشق لا يعوقه غلاء المهر وتم القران.

عاشت تاجوج تحت سقف الزوجية يرفرف فوقهما ملاك الحب المتبادل، وكانا أسعد زوجين عرفتهما أرض القبيلة. لكن حبه المتقد لها كان عثرة لحياتهما، فأكثر من المدح فيها وتناقل الشعر فى محاسنها، حتى أشعل غيرة الفتيان، فما كان من أحد أبناء عمومته، يقال له النور بن اللمم إلا أن جاءه ونهره فى ذكره زوجته فى أشعاره حتى صارت غناء الفرد والجماعة ومضغة لأفواه تلوكها الألسن وعرف أسمها ووصفها القاصى والداني.

وهنا وقعت الطامة، فقد ذهب حبها بعقله حتى لم يعد يدرك ما يفعل، فدعا ابن اللمم ليراها قائلا: تعال معى إلى الخباء كى أريك إياها فى غفلة منها ، وكانت هذه الدعوة كافية لأن تظهر اللوثة التى أصابت المحلق من جنون حبه وأنه أصبح لا يعرف ما يصح وما لا يصح.

ورافقه إلى موقع لا تراه فيه، وشق له ثقبا فى خبائها ظنا منه أنها لم تشعر به، ثم دخل عليها وطلب منها أن (ترقص له)، فتعجبت من طلبه ولكنها صبرت وتجلدت وقالت سمعًا وطاعة، إلا أنها استحلفته أن ينفذ لها طلبا بعد ذلك لا يردها أبدا، فوعدها ظنا منه أن طلبها لن يتعدى ما تطلبه النساء فى مثل هذا الأمر.

فلما ضمنت منه تنفيذه لطلبها نفذت طلبته، ولما انتهت من (رقصاتها) كان الفرح قد تملكه والهيام أسكره فشكرها وطلب منها أن تذكر مطالبها، فنظرت إليه طويلًا وقالت له طلبى واحد وهو الطلاق والفراق الأبدي ، فصعق حين سمع طلبها وأنزعج ابن اللمم وولى هاربًا من وراء الخباء ، إلا أن الأمر كان قد انتهى ووقع الطلاق بلا رجعة فيه. وبذلك خسر المحلق زوجته التى هام بها، رغم كل محاولاته لاستردادها، فما كان منه إلا أن قضى نحبه كغيره من المحبين.

* * * *

وعلى نحو من ذات الصورة السالفة كانت مأساة (عبد الله بن العجلان وهند)، وكلاهما من نهد من قضاعة، وهى أقرب مأساة جاهلية إلى مأساة قيس بن ذريح ولبنى، وأشدها شبهًا بها.

رأى عبد الله هندا على صفحة المياه فأحبها، ثم مضى إلى أبيها فخطبها، وتحقق له أمله فتزوجها وعاش معها بضع سنين كأسعد ما يكون، حبيبان ربط بينهما رباط الزوجية المقدس.

ولكن القدر أبى عليهما السعادة التى ينعمان بها، فقد كانت هند عاقرا، وكان عبد الله وحيد أبويه، وكان أبوه سيدا من سادات قومه المعدودين، ومن أكثرهم مالًا وأوسعهم ثراء، فطلب إليه أن يطلقها ويتزوج غيرها عسى أن ينجب منها من يحفظ على الأسرة مالها وكيانها.

وأبى عبد الله، وتحرجت الأمور بينه وبين أبيه الذى أقسم أن لا يكلمه حتى يطلقها، وتمسك عبد الله بزوجه الحبيبة، ولكن أباه جمع عليه أعمامه وأبناء أعمامه، وما زالوا به حتى ضعف أمامهم فانفصل عنها. وما إن نفذ السهم حتى أسف عليها، وندم على فراقها، واشتد حزنه وجزعه من أجلها.

ثم تزوجت هند من شخص اسمه نمير ، فضاقت السبل فى وجه عبد الله، وانهارت أعصابه، واصطلحت على جسده العلل والأدواء. وعرض عليه أهله فتيات الحى لعل إحداهن تعجبه فتنسيه صاحبته الأولى، ولكنه رفض الزواج. وقضى عبد الله بعد ذلك حياته يبكى حبه القديم، وفردوسه المفقود، وسعادته الضائعة، حتى مات حزنا عليها، وأسفا على أمل كان بين يديه ثم فرط فيه فضاع منه إلى الأبد.

* * * *

كما أن هناك قصة قيس آخر، هو قيس بن ذريح الذى عشق لبنى فى زمن معاوية بن أبى سفيان ، فى نفس الوقت الذى شهدت نجد فيه مأساة مجنون ليلى شهدت الحجاز مأساة أخرى من مآسى الحب العذرى بطلاها قيس بن ذريح وصاحبته لبنى.

كان قيس ابن أحد أثرياء البادية، وذات يوم حار كان قيس فى إحدى زياراته لأخواله الخزاعيين وهو يسير فى الصحراء شعر بالعطش الشديد، فاقترب من إحدى الخيام طالبا ماء للشرب، فخرجت له فتاة طويلة القامة رائعة الجمال ذات حديث حلو هى لبنى بنت الحباب، استسقاها فسقته، فلما استدار ليمضى إلى حال سبيله دعته لأن يرتاح فى خيمتهم قليلًا ويستبرد، فقبل دعوتها وهو يتأملها بإعجاب شديد. وتقول الحكاية أن أباها الحباب جاء فوجد قيسا يستريح عندهم فرحب به وأمر بنحر الذبائح من أجله واستبقاه يوما كاملًا.

ثم تردد عليها وشكا لها حبه فأحبته. وعندما عاد قيس، مضى إلى أبيه يسأله أن يخطبها له فأبى. فالأب ذا الثراء العريض كان يريد أن يزوجه واحدة من بنات أعمامه ليحفظ ثروة العائلة، فقد كان قيس وحيده، فأحب أن لا يخرج ماله إلى غريبة، وقال له: بنات عمك أحق بك. فمضى إلى أمه يسألها أن تذلل له العقبة عند أبيه، فوجد عندها ما وجد عنده. لم يجد قيس أذنا صاغية، ومع ذلك لم ييأس ولجأ إلى أحد أقاربه، ووسطه فى الأمر. وشاء الله أن تكلل وساطته بالنجاح.

وتحقق لقيس أمله وتزوج من لبناه، لكن القدر أبى عليهما سعادتهما ولم يشأ للعاشقين إلا أن يتحولا إلى زوجين عاديين ممن يقتلهما السأم. وظل الزوجان معا، لعدة سنوات دون أن ينجبا، ودون تردد أشاعت الأسرة أن لبنى عاقر، وخشى أبواه أن يصير مالهما إلى غير ابنهما، فأرادا له أن يتزوج غيرها لعلها

تنجب له من يحفظ عليهما مالهما. ولما كان أبو قيس تواقا لذرية تتوارث ثروته الطائلة، فقد ألح على ابنه أن يتزوج من أخرى لتنجب له البنين والبنات.

لكن قيسا أبى، كما رفض أيضا أن يطلق زوجه الحبيبة، وتحرجت الأمور بينه وبين أبويه، فهما مصممان على طلاقها، وهو مصمم على إمساكها. وظل الأب يلح ويسوق عليه كبار القوم، دون جدوى وإمعانا فى الضغط عليه أقسم الأب ألا يظله سقف بيت طالما ظل ابنه مبقيا على زواجه من لبنى، فكان يخرج فيقف فى حر الشمس، ويأتى قيس فيقف إلى جانبه ويظله بردائه ويصلى هو بالحر حتى يفيء الظل فينصرف عنه، ويدخل إلى لبنى ويبكى وتبكى معه، ويتعاهدان على الوفاء.

وازداد الأمر تعقيدًا، وساءت العلاقات بين طرفيها، واجتمع على قيس قومه يلومونه ويحذرونه غضب الله فى الوالدين، وما زالوا به حتى طلق زوجه. كان قيس شديد البر بوالده فلم يشأ أن يتركه يتعذب فى الهجير، واضطر اضطرارا لأن يطلق لبنى.

رحلت لبنى إلى قومها بمكة، وجزع قيس جزعًا شديدًا، وبلغ به الندم أقصى مداه، ومع ذلك فقد كانت تتاح للعاشقين من حين إلى حين فرصة لقاء يائس حزين. وتزوج قيس كارها زواجًا لا سعادة فيه، وبلغ الخبر لبنى فتزوجت هى أيضًا زواجا لا سعادة فيه. واختلف الرواة حولها، فمن قائل إن زوجها طلقها فأعادها قيس إلى عصمته ولم تزل معه حتى ماتا، ومن قائل إنهما ماتا على افتراقهما.

* * * *

أما قصة جميل بثينة فى العصر الأموى فتقول : إن جميل بن معمر العذرى قد أحب بثينة بنت الحباب وبدأت القصة، عندما رأى بثينة وهو يرعى إبل أهله، فقد جاءت بثينة بإبل لها لترد بها الماء، فنفرت إبل جميل، فسبها، ولم

تسكت بثينة وإنما ردت عليه، وبدلا من أن يغضب أعجب بها، واستملح سبابها فأحبها وأحبته، وبدأت السطور الأولى فى قصة هذا الحب، فراحا يتواعدان سرا.

لقد اشتد هيام جميل ببثينة، واشتد هيامها به، وبدلًا من أن يقبل قومها يد جميل التى امتدت تطلب القرب منهم فى ابنتهم رفضوها، ولكى يزيدوا النار اشتعالًا سارعوا بتزويج ابنتهم من فتى منهم، هو نبيه بن الأسود العذري .

ولم يغير هذا الزواج من الحب الجارف الذى كان يملأ على العاشقين قلبيهما، فقد كان جميل يجد السبل إلى لقائها سرا فى غفلة من الزوج. وكان الزوج يعلم باستمرار علاقة بثينة بجميل ولقاءاتها السرية، فيلجأ إلى أهلها ويشكوها لهم، ويشكو أهلها إلى أهل جميل، فنذروا قتله، ففر جميل إلى اليمن حيث أخواله، وظل مقيما بها زمنا، ثم عاد إلى وطنه ليجد قوم بثينة قد رحلوا إلى الشام، فرحل وراءهم.

وأخذ النور يخبو، ثم ينطفئ السراج، وتودع بثينة الحياة بعيدة عن جميل الذى وهبته حبها وإخلاصها، وودع العاشق حياته على أمل فى أن يجمع الله بينه وبين صاحبته بعد الموت.

* * * *

وتأتى قصة كثير عزة لتنضم لغيرها من قصص العشاق من الشعراء الذين آلمهم عشقهم فجعلهم يبدعون أروع القصائد فى وصف الحبيب والشوق إليه، وكان كثير هو أحد أبطال العشق الذين نسبت أسمائهم إلى أسماء معشوقاتهم، وكثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح من خزاعة، هو شاعر متيم من شعراء العصر الأموي، من أهل المدينة، توفى والده وهو لا يزال صغيرًا فكفله عمه، وأوكل له مهمة رعاية قطيع من الإبل.

أما الحبيبة فهي عزة بنت حميل بن حفص من بنى حاجب بن غفار كنانية النسب، كناها كثير فى شعره بأم عمرو .

ويقال عن قصة حبه مع عزة أنه فى إحدى المرات التى كان يرعى فيها كُثير إبله وغنمه وجد بعض النسوة من بنى ضمرة، فسألهن عن أقرب ماء يورد إليه غنمه، فقامت إحدى الفتيات بإرشاده إلى مكان الماء وكانت هذه الفتاة التى دلته على مكان الماء هى عزة والتى اشتعل حبها فى قلبه منذ هذه اللحظة وانطلق ينشد بها الشعر، وكتب فيها أجمل ما قال من غزل.

عرفت عزة بجمالها وفصاحتها فهام بها كُثير عشقًا ونظم الأشعار فى حبه لها مما أغضب أهلها وسارعوا بتزويجها من أخر ورحلت مع زوجها إلى مصر، فانفطر قلب كثير وانطلقت مشاعره ملتهبة متأججة ولم يجد سوى الشعر ليفرغ به آلامه وأحزانه فى فراق الحبيب.

سافر كثير إلى مصر حيث دار عزة بعد زواجها وفيها صديقه عبد العزيز بن مروان الذى وجد عنده المكانة ويسر العيش، وجاءت وفاته فى الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس فى نفس اليوم فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.

* * * *

وثمة قصة أخرى من قصص الحب انتهت بمأساة كانت بين عمرو بن كعب بن النعمان الملك وابنة عمه عقيلة.

نشأ عمرو معها فى بيت أبيها بعد وفاة أبيه، وربط الحب بين القلبين الصغيرين، حتى إذا ما كبرا تقدم إلى أبيها يطلب عونه لما كان بين أسرتيهما من صلة. ثم يبلغه أن عمه زوج عقيلة لأحد من بنى فزارة، فكانت صدمة له لم تقو على احتمالها أعصابه فانهار، وانطلق إلى الصحراء ذاهلا عن كل شيء هائما على

وجهه فى إقليم اليمامة، وقد شد بصره إلى السماء، حتى أدركته منيته فى تيه لم يعرف مكانه فيه.

وفى بيت الفزارة، تعيش عقيلة كما يذكر الرواة عذراء، وتنهار أعصاب زوجها، فيخرج هو أيضا إلى الصحراء هائما على وجهه فلا يدرى أين مذهبه. وتعود عقيلة إلى بيت أبيها تندب حظها، وتبكى مأساتها، وتدب الأدواء والأسقام فى جسدها حتى تذويه وتضنيه، ثم يضمها الموت إليه لتلحق بحبيبها.

وغيرها الكثير من القصص التى ملأت جعبات التاريخ، إلا أن بابها لو فتح فلا مجال لإغلاقه.

ولقد زخر الأدب الأوروبى بما امتلأ به الأدب العربى من قصص المحبين وغرامياتهم ممن مثل شوبان و شوبير ، ولامارتين و الفريد دى موسيه ، وجورج صائد (الكاتبة) وفرانز ليس، وألكسندر ديماس ورافائيل ، وليوناردو دافنشى وجويا وفولتير، ومئات غيرهم ممن تناولت سيرهم الغرامية الأقلام

* * * *

كذلك سار الحال على هذا المنوال مع أستاذنا عباس محمود العقاد .

وفى حياة مفكرنا العظيم نساء ثلاث أحبهن ولاقى عذاب الهون من خلال هذا الحب متمثلًا فى الغيرة والشكوك والهجران .

وقد خبا حبه لهن، بالبعد والفراق وهن مي و سارة و هنومة الممثلة المصرية الشهيرة . (راجع – محمد رضوان – عندما يحب الشعراء).

كانت الأولى هى النابغة الأديبة والمفكرة الرصينة كما يصيفها الأستاذ طاهر الطناحي . كانت أبنة صحفى لبنانى هاجر إلى مصر عام ١٩٠٨ هو إلياس زيادة وأصدر صحيفة المحروسة ، وكانت تعقد صالونها الأدبى يوم الثلاثاء

ويحضره كبار أدباء العربية ومفكريها فى مصر مثل أحمد لطفى السيد، طه حسين، العقاد، شبلى شميل، خليل مطران، مصطفى صادق الرافعي، إسماعيل صبري، وكان هؤلاء الأدباء يتنظرون صالون الثلاثاء بشغف ولهفة عبر عنها الشاعر إسماعيل صبرى :

روحى على بعض الحى هائمة   كظامئ الطير حواما على الماء

إن لم أمتع بمي ناظرى غدا   أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

هذه الفتاة المثقفة الجميلة التى كانت تحسن ركوب الخيل على حداثة سنها وقطعت على ظهر جوادها، سهولًا وجبالًا، بين الأشجار، وعلى الصخور، وحول القمم . فقد هام بها معظم أدباء مصر، وكان الأستاذ العقاد يأمل فى السنوات الأولى من معرفتها أن يحتل من قلبها مكانًا مرموقًا، إن لم يكن المقام الأول، فحام حول الحمى سنوات، ولكن كبرياء المتنبي فيه حال دون أن يفصح أو يواصح، وكانت مى على الطرف الآخر يلفها حياء شديد، وفى خلقها احتشام درجت عليه منذ الصبا رغم شبابها المتوقد، فلم تصرح ب شيء رغن الرسائل المتبادلة بينهما كما ذكر الدكتور الطاهر أحمد مكي فى كتابه فى الأدب المقارن .

وقد أحبها العقاد وبادلته مي عاطفة نقية صافية ممزوجة بالإعجاب والإكبار وتبادل الاثنان رسائل غلب عليها الطابع الفكرى والثقافى ولكن إذا أنعمنا نظرنا وجدنا العاطفة الدافقة عند (مي) ولكن طبيعتها تقف حائلًا بينها وبين المضى فى تلك العاطفة إلى نهاية الشوط التى يرجعها العقاد إلى شعور التبتل العميق فى سليقتها الدينية .

وإذ أعتذر العقاد يومًيا عن زيارة صالونها الأدبى ويمم وجهه شطر الصحراء يذرعها وحده جَيئة وذهابًا، وقد ذكر الأستاذ أنيس منصور فى كتابه

كانت لنا أيام فى صالون العقاد ، أن (ميًا)قد اعتورها الغضب فأعتذر العقاد لها بقصيدة يقول فيها:

حياك يا مي ما غنى وما عبقاوفاض حولك بشرا كل ما شرقا

وفى آخر القصيدة يقول عن نفسه:

وفى الصدور التى تهفو القلوب بها ... قلب يناجيك ما استحيا له رمقا

يحيا على النور من عينيك مقتبسًا ... من ومضة فرحا أو غمضة شفقا

أتعلمين به؟ بل أنت عالمة ... بالود فى هذه الدنيا إذا صدقا

طوبى له ألف طوبى إن وثقت به ... فإنه بك، دون الناس، قد وثقا

ويقص علينا العقاد فيما كتبه عنها أنه كان يتواعد مع مي فيذهبان إلى دار الخيالة (السينما) التى توجد بحديقة إحدى الكنائس بحى (الظاهر) بالقاهرة حتى يبعدا الأنظار عنهما .

وذات مرة طلبته (مي) فى الهاتف وكانت (سارة) حبه الثانى هى التى رددت عليها حيث كانت موجودة عند العقاد، فأيقظ ذلك الشك الممزوج بالقلق اتجاهه إذ شعرت أن هناك من يشاركها حبها للعقاد، فاعتورها الغضب وتأبت عن محادثته عن طريق الهاتف، فأرسل العقاد إليها منظومة شعرية معنونة باسم وساوس الهجر ورد فيها :

قلت للقلب وهو جد عجول ... يشتكى بعدها، ويبغى الشفاء

إن يكن عندها هواك فدعها ... سوف ترجو كما رجوت اللقاء

ويروى العقاد أنها لما وصلتها هذه الأبيات لم ترد عليها بأية رسالة، بل ذهبت إليه بعد مرة حين غرة ودخلت عليه مكتبه بجريدة البلاغ وقالت له

بصوت متهدج : لست زائرة، ولا سائلة فقلت : إذن ولم أتمها ؛ لأنها نظرت إلى، كمن يستحلفنى ألا أتكلم، وانحدرت من عينها دمعتان فما تمالكت نفسى أن تناولت يدها ورفعتها إلى فمى أقبلها، وأعيد تقبيلها، ثم استجمعت عزمها، ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسة : دع يدى ودعني!

وقد شيع العقاد هذا الحب الراحل بقصيدة (موت الحب) :

ولد الحب لنا، وافرحناه	وقضى في مهده وا أسفاه
مات لم يدرج، ولم يلعب	ولم يشهد الدنيا، ولم يعرف أباه
ليته عاش فإما إذ قضى	فليكن بردا على القلب جواه
أشكر الموت وأشكوه معا	غال حبى قبل ما تنمو قواه

وامتدت علاقة العقاد ب(مي) بين مد وجزر، وحين كانت تخاصمه يشتد فى كتابة المقالات السياسية التى تعرضه لخطر السجن فتنزعج (مي) وتسارع لاسترضائه بحجة أن يخفف من غلوائه حتى لا يتعرض للاعتقال وظلت (مي) زينة صالونها الأدبى كطاقة زهر فواحة العبير .

وفى سنى عمرها الأخير أصيبت (مي) بمحنة نفسية أثرت على تصرفاتها واعتكفت فى بيتها ويروى العقاد زيارته لها محنتها الأخيرة فيقول:

زرت الآنسة (مي) ورأيتها ترتجف وهى تفتح الباب وتشير إلى المسكن الذى أمامها وتضع إصبعها على فمها لتحذرنى من الظلام، وتقول ألا ترى هذه الحجرات وما فيهت من نور؟ إنها خالية وخاوية فلماذا ينيرونها فى هذه الساعة؟

فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملًا وجدته عند بابها فعلمت منه إنهم يعدونها للإيجار فى اليوم التالي، فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها

أننى أخفى عنها المؤامرة أو اشترك مع المتآمرين .

وتنتهى محن (مي) بموتها وهى فى الخامسة والخمسين من عمرها وبكاها العقاد وهو ينظم قيصدته فيها :

أين فى المحفل مى يا صحاب

عودتنا ها هنا، فصل الخطاب

كل هذا فى التراب

أه من هذا التراب

ثم يقول :

تلكم الطلعة مازلت أراها

غضة تنشر ألوان حلاما

بين آراء أضاءت فى سناها

وفروع تنهادى فى دجاها

ثم شاب الفرع والأصل وغاب

قد أسماها الأستاذ العقاد فى قصته (سارة) وفى كتبه، وفى أحاديثه الصحفية (هند) .

ولا جرم أن نذكر أن مى زيادة كان لها صالون أدبى استمر قرابة ثلاثين عامًا كاملة، وكما يذكر الأستاذ الطاهر أحمد مكي فى كتابه فى الأدب المقارن أن هذا الصالون قد استمر أطول فترة عرفها صالون أدبي، فى الشرق أو فى الغرب الذى كان يسخر بالصالونات الأدبية فى القرن السابع عشر ولعبت دورًا هامًا إلقاء الأدوار الكاشفة على الآداب الأجنبية تبدأ من صالون أوتيل دى رامبوييه وكانت صاحبة الصالون كاترين دى فيفون، وكان من رواده الروائى الفرنسي

بلزاك ومدام لافييت الأديبة المعروفة.

* * * *

أما الثانية هى (أليسا) وهى تنحدر من أسرة تعمل فى الصحافة كما يذكر المرحوم الأستاذ عامر العقاد فى كتابه (غراميات العقاد) وأطلق عليها العقاد اسم (سارة) وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها تحذق الكثير من اللغات. كما أن لها باعًا فى الفلسفة والأدب، وكانت والدتها من رائدات الصحافة النسائية، قد تزوج عام ١٩٢٠ من الصحفى اللبناني أسعد داغر ١٨٨٦ ١٩٥٨ وكانت لها مقالات وقصص مترجمة منها (فى الفضاء الواسع)، (والماضى لا يموت) وكانت إمرأة مثقفة كما يذكر تلميذه وصديقه الأستاذ طاهر الجبلاي وكانت صحفية ومترجمة وتركت أثارًا عميقًا فى حياة العقاد وأدبه، وظل يذكرها طوال حياته .

قد تعرف عليها العقاد أثناء زيارته لصديقه الدكتور محمد صبرى السربوني ويصفها العقاد فى قصته (سارة) بأنها كانت أجمل ما رأيتها فى أيام فتنتى وشغفى بالجمال، كانت حزمة من الأعصاب تسمى امرأة استغرقتها الأنوثة وليس فيها إلا أنوثة، وكانت تزوره فى شقته مصر الجديدة فى الخامسة مساء كل يوم الجمعة .

ويذكر الأستاذ طاهر الجبلاوي فى كتابه ذكرياتى مع العقاد أن تأثير (أليسا) فى حياة العقاد كان تأثيرًا بالغًا ملأت حياته سرورًا ومرحًا : وتمتع جوارها بسعادة لا يحلم بها إنسان وكان للأيام السعيدة التى قضاها معها أثر كبير فى أدبه فقد خلعت عليه حللًا من الجمال ووشته بأفانين من بدائع الخيال، وألهبت شعوره الذى يستمد منه قلمه قوته وروعته، فكانت مقالاته الأدبية والسياسية فى تلك الفترة تمتاز بلون جديد وإسلوب فريد لا يخفى على أحد .

وقد شغف العقاد ب أليسا وشغل بها حتى أنسته بعض من كان يخصهم بزيارته من حين لآخر، وكان يقضى معها بعض الوقت إما فى نزهة خلوية فى الهرم مرة وإما فى القناطر الخيرية مرة أخرى وأحيانًا يقضيان بعض الوقت على زورق على صفحة النيل، ومضى العاشقان ينهلان من نبع الحب الصافى بدأت نهاية القصة بالشك، شك العقاد فى خيانتها، فاستحال الوجد إلى فتور والشوق إلى خنجر، وقام الشك فى نفسه على علامات وقرائن لم يقطع بها، حتى عمد إلى صديقه الحميم الشاعر الأديب محمد طاهر الجبلاوي بمراقبتها الذى استمر عامًا كاملًا، انتهى بتلك الرواية للجبلاوى : وانصرم عام وكنا قد يئسنا من الرقابة ولكننى ضننت على جهدنا أن يذهب سُدى فعدت أراقب سارة .

وفى هذه رأيتها بميدان المحطة تسير الهوينى ثم تلتقى بضابط برتبة ملازم كان يريدى الملابس الرسمية ويقف أمام سيارة عند باب قطار الليمون وما أن دنت منه حتى حياها وركبا السيارة معًا وانطلقا من طريق حدائق القبة .

ثم يستطرد الجبلاوى : لم يكتف العقاد بما أخبرته به، وهو فى نظرى كاف للوصول إلى اليقين الذى ينشده وكانت آخر المراحل فى أمر سارة التقاء النظرين، وهى تخرج من مكان يعرفه جيدًا وله عنده أخبار وقد أسرعت فدعوته من المقهى الذى كان ينتظرنى فيه، فسار معى إلى حيث تلقى الشكوك فى لجة اليقين، هنا استراح العقاد، وقضى معى تلك الليلة وهو فرح مسرور ولم يكتب بعد ذلك شعرًا فى الحب والغرام، وبدأ يقول فى سارة :

غفر الذنب من بكائى عليك إننى لا أعود ما عشت أبكي

لا يساوى وقد تعلمت منك نسل حوائكن دمعة شك

خير ما فى النساء ساعة ضحك

ولكن هذه الصدمة القاسية أدمت قلب العقاد ومزقت مشاعره، وفى غمرة تلك الأزمة النفسية اللاعجة بعد أن ودع أليسا الوداع الأخير سافر إلى شاطئ البحر بالإسكندرية صيف ١٩٢٦ عله ينسى ويسلاها، ويغرق فى مياه البحر نيران حزنه ومن هناك أرسل رسالة إلى صديقه الحميم الشاعر عبد الرحمن صدقى الذى اعترف بأنه ذلك العشير القديم الذى شهد مأساة صديقه العقاد يوم القطيعة (مجلة الهلال المصرية مايو ١٩٦٧).

تقول بعض سطور هذه الوثيقة النادرة التى بعث بها العقاد إلى صدقى من الإسكندرية فى ١٢ إبريل ١٩٢٦ : (سبحان الله هذه دنيا واسعة خارج الدنيا التى طويت فيها الكون أجمع دنيا تطلع عليها الشمس ولا تبالى نظرات من تنظر، ومن لا تنظر من النساء، فكيف نسيت هذه الدنيا ولم استبق لها لفتة عين منى ولا فضلة إحساس؟ .

(وما كدت أسترسل مع هذه السلوى حتى تحرك شيطان الوساوس يتهيأ بهواجس التنغيص والتكدير، ورقى إلى بسؤال يمتحن به صلابة تلك السلوى: أو كنت تبالى أن تبعد عنك هذه الدنيا كما تبالى الآن أن تبعد عنك أهون لمسة من يد امرأة واحدة بين نساء العالمين؟ فلم المغالطة فى الصبر والكذب على العزاء؟)

والحق أننى رأيت بعد ذلك أننى لم أغالط نفسي، إذ لو أننى فقدت ضوء الشمس كما فقدت تلك اللمسة من يد تلك المرأة لتلهف على شجرة واحدة أراها معنى العزاء تحت قبة السماء كلهفتى الآن على حب ما أشتاق من ذلك النعيم المفقود، فليست العزة وفقًا على ذلك النعيم المفقود، ولكنها حظ مباح لكل ممنوع ومزءود والزهرة التى يريدها السجين على شجرتها ولا تطول إليه يده هى أعز عليه من كل ما فى الأرض من النساء وغير النساء، وهنا عدت إلى فكرتى فى الحرية وعلمت مرة أخرى أننا إنما نأسى على أى شيء من الأشياء

وأى حظ من الجمال وهذا البحر الذى أراه ممتدًا أمامى فى سعة مطمئنة وعمق رصين هذا البحر القوى الكبير أطالبه بأمر هين وأحسبه يخجل من عجزه عن تلبية هذا الطلب الصغير أقول : يا شيخ أنت تغرق عشرين قطرًا كاملًا بما فيها من الرجال والنساء والعاشقين والأعداء ثم تطويهم فى ضميرك لا يبين منهم إلى فقاقيع ولا تثبت على مس الهواء أفيعجزك أن تغرق فى جوفك هذا اللاعج اللئيم الذى جئتك به من القاهرة ألقيه إليك؟ وأخاله سيستحى على طوله وعرضه فلا أعود إلى القاهرة إلا وقد شيعت ذلك الغريق وأمنت من ملاحقة أطيافه التى لا تطاق .

هذه حالتى الآن بين ما أزود به النفس من دواعى العزاء وبين ما تثيره فى الهواجس من الألم الممجوج، والخواطر السود، وسنرى إن لم أكن قد رأيت إلى الآن ما فيه بلاغ) .

هذه هى رسالة العقاد لصديقه الشاعر عبد الرحمن صدقى أرسلها إليه بعد فراق أليسا وتؤكد مدى قوة إرادة العقاد واعتزازه بكرامته وصلابته حتى وإن ناداه قلبه للرجوع إلى المرأة التى أحبها، وبعد أن هدأت عواصف العقاد سجل تجربة الحب والشك مع أليسا فى قصته التحليلية اليتيمة سارة سنة ١٩٣٨ أى بعد حوالى ١٢ عامًا من فراق أليسا .

ولم يكن يرضى العقاد أن يراها مع غيره إذ كان (ينشد فيها الروح والمودة والعاطفة المتبادلة)، ويرى فيها الإيناس من الوحشة والنور من الظلمة، ولم يكن يرضى بها مستباحًا كما عبر ذلك بقوله فى قصيدته أشجان الليل :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى	وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحًا وطالما	لقيت جم الخوف جم التردد
رويدك إنى لا أراك مليئة	بلذة جثمان ولاطيب مشهد
جمالك سم فى الضلوع	يرد سهاد الصفو غير ممهد

إذا لم يكن بد من ألحان والطلى ففى   ففى غير بيت كان بالامس معبد

وقال عن المرأة أيضًا :

خل الملام فليس يثنيها   حب الخداع طبيعة فيها

هو سترها وطلاء زينتها   ورياضة للنفس تحييها

وسلامها فيما تكيد به   من يصطفيها أو يعاديها

وقد أحب الأستاذ العقاد المرأة وأيما حب، فهو القائل :

لم أدر كيف يتاح لى نسيانها   وخيالها من ناظرى معلق

حتى نسيت فعدت أذكر أنها   كانت هواي، فلا أكاد أصدق

إن إفتتانى لحظة بغرامها   لأحق بالعجب العجاب وأخلق

ماكنت أجهل من عيوب   عيبًا، ولكن كل حب أحمق

فى غضون عام ١٩٣٦ رأى العقاد (أليسا) مرة واحدة إذ كان انقضى على فراقها حوالى عشر سنوات، وفى عام ١٩٣٦ بينما كان يلقى محاضرة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومدير الجامعة إلى جواره يناوله أوراق الأسئلة التى يكتبها المستمعون بعد المحاضرة؟

فتناول ورقة غريبة نظر فيها فإذا هى بخط أليسا وقد كتبت فيها (أنت وحشتنا) ويروى لنا الجبلاوى أن العقاد بكى أمامه وهو يستمع إلى أسطوانة عليها أغنية لبنانية أحضرها معه وهو عائد من رحلته إلى لبنان ومطلعها : (نار الغرام لا تنطفى ولا المحبة تختفي) فحبس دمعة كانت توشك أن تسقط حزنًا وألمًا ودارت الأيام دورتها ورحلت أليسا إلى باريس حيث عاشت مع ابنتها هنالك وكان ذلك سنة ١٩٦٠ ثم أرسلت إلى العقاد صورتها فإذا هى عجوز شمطاء، فنظر العقاد إلى الصورة ثم كتب تحتها هذه الكلمة : (من تكون!) .

وعندما صور العقاد تلك التجربة العاطفية مع أليسا فى روايته التى نشرها أولا مسلسلة سنة ١٩٣٦ تحت عنوان (مواقف فى الحب) فى مجلة الدنيا المصورة، التى كانت تصدرها دار الهلال ثم أصدرها فى قصة (سارة) سنة ١٩٣٨ اعتبرتها د. سهير القلماوى سيرة عبقرية للشك فى أمواج تعلو به وتهبط حتى ينتهى إلى ما يشبه راحة اليأس وفراغ الضياع وقالت :

((عبقرية الشك فى نظرى صنف من عبقريات العقاد شاذ وفريد، ولكنه يخضع لمنهج العقاد فى تصوير العبقرية، إن سارة هنا زمان وتاريخ وأحداث تصنع العبقرية والشك هنا عملاق يتقبل آثار الأحداث والتاريخ ولكنه يتصدى لها ليخرج آخر الأمر شكًا عبقريًا .

وقد أوحت تجربة العقاد العاطفية مع أليسا التى اسماها (سارة) الكثير من قصائده العاطفية التى تعكس مشاعره فى مختلف أحوالها من حب وشوق وعشق وشك وضياع حيث تظل أليسا أو (سارة) هى الحب الحقيقى الكبير الملهم فى حياة العقاد ! .

بعد أن هدأت عواصف العقاد سجل تجربة الحب والشك مع أليسا فى قصته التحليلية اليتيمة سارة عام ١٩٣٦ أى بعد حوالى ١٢ عامًا من فراق ألأيسا والفراق بينهما فقال :

أحببت فى حياتى مرتين، أحببت سارة وهذا ليس اسمها الحقيقى وإنما هو اسمها المستعار، وأحببت مي

* * * *

أما ثالثتهن فهي هنومة خليل السيدة مديحة يسري تلك الفتاة الصغيرة دون العشرين التى كانت تتردد على العقاد فى الأربعينيات وزودها بالكتب لتقرأها وأحبها بعنف رغم فارق السكن الكبير، حيث كان يقترب من

الخمسين، وهى مازالت دون العشرين، كانت سمراء دعجاء العينين، ذات جاذبية آسرة، كان يعمل فى صحيفة الجهاد فى تلك الفترة (عام ١٩٤٠) وكانت الفتاة طموحة أعتقدت أن العقاد قد يساعدها على تحقيق هدفها فى التمثيل للسينما، وحاول العقاد أن يثنيها عن ذلك، ويجعلها تتجه للقراءة والثقافة ولكنها صممت على تحقيق هدفها المنشود، وكان يلتقى بها كثيرًا ونشأت قصة حب عاصفة بين الملهمة الصغيرة والأديب الشيخ ابن الخمسين وأتيحت الفرصة للملهمة الطموحة للعمل فى التمثيل، وثار العقاد ثورة عنيفة ولكن بلا جدوى، وظل معتصمًا بكبريائه أمام توسلاتها ورسائلها التى كانت تلقى بها من تحت باب مسكنه وكان يرفض أن يفتح لها الباب مرارًا، ومن الطرائف التى كان يرويها الأديب الكبير توفيق الحكيم أن هذه الفتاة عندما كانت تتردد على أماكن تصوير الأفلام، على أمل أن يراها المخرج ليعرض عليها دورًا، وقيل للعقاد : أن توفيق الحكيم (الذى كان يشرف على تصوير قصته رصاصة فى القلب ينظر إليها أكثر من اللزوم، ويحاول أن يتقرب إليها، مما ضايق العقاد، وصار يروج أن الحكيم أكبر منه لعل هذا الكلام يصل إلى مسامع فتاته، ولكنه تأكد فيما بعد أن هذا مجرد أوهام ناتجة عن غيرته عليها ! .

وبعد احتراف هذه الفتاة التمثيل، قاطعها العقاد، رغم أنه أحبها بعنف وذاب فى أنوثتها الغامرة :

ثناياهـــا، ثناياهـــا	هـــل ذقـــتم ثناياهـــا
وعيناهـــا، ويـــا للقلـــب	كـــم تـــسبيه عيناهـــا
وتلـــك الوجنـــة الخمريـــة	الـــسكران رائيهـــا
أفـــى الجنـــة	تفـــاح يحاكيهـــا

وجاهد العقاد مشاعره لأنه لم يقبل المشاركة فى الحب بعد أن اندمجت فى غمار عالم التمثيل السينمائى :

هونـــت خطبـــك جـــدا وخلتـــه لـــن يهونـــا

بـــدلت بالنـــار بـــردا وبالعـــذاب ســـكونا

إنى أمنت الفتونا

وأنت ماذا أمنت

قد هنت، والله هنت

ولكنها لم ينسها وإن حاول أن يسخر من عملها فى المجال السينمائى :

أفـــى حجـــرة النـــوم أم قاعـــة

المعـرض جمهـور فئـك مستحـضـر

ومـــن تعـــرفين أمـــام الـــستار

أم خلفـــه دائمـــا أكثـــر

وهـــل أنـــت (نجـــم) لأن النجـــوم

فـــى ليلهـــا أبـــدا تـــسهر

وكان ديوانه (أعاصير مغرب) نفثات قلب أحب فانكسر ومشاعر وجدان فى مغرب العمر، فأخذ يصرخ من قلب مكلوم بالخيانة كما يعتقد :

خـــلّ المـــلام فلـــيس يثنيهـــا

حـــبّ الخـــداع طبيعـــة فيهـــا

هـــو ســـترها وطـــلاء زينتهـــا

ورياضـــة للـــنفس تحييهـــا

وســـــلاحها فيمـــــا تكيـــــد بـــــه
مـــــن يـــــصطفيها أو يعاديهـــــا
وهـــــو انتقـــــام الـــضعيف ينقـــذها
مـــن طـــول ذلٍ بـــــات يـــشقيهـــا

ودلف العذاب قابعًا فى سويداء قلب العقاد فأوقد فيه النيران فأوحى لصديقه الفنان صلاح طاهر أن يرسم لوحة جد غريبة تصور فطيرة حلوى يشتهيها الجائع والشبعان، وعليها الذباب والصراصير تحوم فوقها، وفى القدح الذى يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت فلا يأكل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان، بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام! .

وعلق اللوحة فى حجرة نومه يراها عند نومه واستيقاظه حتى يزهد فيها وينساها!

ومن هنا من خلال شعور العقاد بوقدة الحب التى اشتعلت فى فؤاده جاء قوله:

خنها ولا تخلـــص لا أبدًا
تخلص إلى أغلى غواليها

لم يكن الأستاذ العقاد بمثل هذا الذى قال عنه الشاعر :

ألقيت للغيد الملاح سلاحى ورجعت أغسل بالدموع جراحي

لأنه كان دائمًا يزود عن حياض كرامته فى كل شؤون حياته حتى مع المرأة مهما كانت درجة أنوثتها أو شدة جمالها . فإذا ما ارتأى أن حبه للمرأة يتعارض مع كرامته ودع المرأة غير أسف ولا حزين فى سبيل عزته .

ومـن رأى العقـاد فى المـرأة أن المـرأة فى شـتى صـورها وأوضـاعها رهـن بالأمومة فالمرأة الأمر هى بقية القديسين فى زمن يطلب فيه القداسـة فـإنما هـى زوجة لتكون أمًا، إنما هى محبة محبوبة لتكون أمًا، وإنما هى كل شيء بأمومتهـا، وليست بشيء على الإطلاق إذا نسيت هذه الأمومة .

وأن الأم سـر العظمة فى أبنائها ويستدل على ذلك بالملامح التـى تـربط بـين الزعيم التركي مـصطفى كـمال وأمـه، وأمثلـة عديـدة فى تـاريخ العظـماء، أمثـال (موسوليني، وهتلر) .

وقد قدس العقاد قيمة الأم، ونظر إليها من خلال الشـريعة الإسلامية التى كادت أن تجعل الطاعة لها غير مسبوقة إلا بطاعة الإله المعبود .

كما سفّه العقاد رأى الكاتب الإنجليزي ويلز بالرجوع إلى رأي أفلاطون فى ولاية الأم على الأطفال كما سخر من الـوزير الفرنـسي ليـون بلـوم الـذى نـادى برفع سن الزواج إلى الثلاثين والتغاضى عما يقع بين الجنسين قبل هذا السن.

وإن كان العقاد قد فضل العقاد المرأة الشـرقية عن المرأة الغربية فى فـضائل الأمومة والزوجية ودعاهـا إلى أن تحـافظ عـلى تلـك الميـزة ولا تفـرط فيها قِيـد أنملة .

بيد أنه هو صاحب القول القائل :

الغش عنـد المـرأة كالعظمـة عنـد فـصائل الكـلاب، يعـضها الكلـب المدلل ويـدخرها حيـث يعـود إليهـا، وإن شـبع جوفـه مـن اللـبن واللحـم والأغذيـة المشتهاة.. فالمرأة من هؤلاء تشتهى العظمة بجوع عشرين ألف سـنة، وتـشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات ، هكذا وصف العقـاد المرأة، فى روايتـه الوحيـدة سارة .

* * * *

العقاد وعلم الفراسة

علم الفراسة من العلوم التى كرس علماء الغرب لها وقتهم وقد شاع استخدام نظرية علم الفراسة والمبادئ التى يرتكز عليها فى أعمال الكتاب المشهورين من أمثال شكسبير و جون ميلتون John Milton و جون درايدن John Dryden ومن صار على نهجهم .

ومع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته أخذ رجل الدين والمعلم والشاعر والفنان النمساوى جون كاسبر لافاتر على عاتقه مهمة الربط بين ملامح الوجه والقدرات العقلية والميول الطبيعية وتعد المقالات التى كتبها فى علم الفراسة أحد أهم المراجع فى هذا المجال كما أصبح كاسبر مؤسس ومكتشف هذا العلم الجديد .

وفى بداية العشرين قدم فراتر جوزيف جول نظريته القائلة بأن الشكل ومحيط الجمجمة أيضًا يشيران إلى أن بعض جوانب المخ ذات تأثير قوى وفعال وأشار فراتر إلى ٢٧ نتواءًا فى الجمجمة تعكس سلوكيات وتوجهات الفرد ولعل ما يميز ملاحظات فراتر عن غيرها أنها تستند إلى أدلة مادية بشكل أكبر من سابقيه ثم جاء بعد ذلك جون جاسبر سبور زيم الذى عكف على دراسة نظيرة جول ليخرج علينا بمصطلح جديد أسماه علم فراسة الدماغ وهو علم أساسه أن شكل الجمجمة ونتوءاتها وبروزاتها تدل على خلق الإنسان وعقله وهو العلم الذى اشتهر كثيرًا فى القرن التاسع عشر وقد ألقى (سبوررزيم) العديد من المحاضرات فى جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر العشرين ثم بعد ذلك استلم لواء علم فراسة الدماغ (الأخوان) فارلر

اللذان حولاه إلى مجرد استعراض ترفيهى ومشروع تجارى يهدف إلى جمع المال فى المقام الأول مما أدى فى نهاية الأمر إلى إفقاد هذا العلم مصداقيته ومكانه واكسبه سمعة سيئة عند الناس.

وفى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين عكف عالم النفس ويليام شيلدون على دراسة العلاقة بين ثلاثة أنواع من البنى الجسمانية أطلق عليها أنواع بنية الجسد وقد لاقت نظريته المصير نفسه الذى لاقاه علم فراسة الدماغ وعلى الرغم من التغيرات الكبيرة التى شهدها علم دراسة السلوك الإنسانى فإن فكرة وجود علاقة جينية بين الملامح الجسمانية . والسلوك لازالت مطروحة ويعمل بها فى كثير من الأحيان .

وقد ساعدت إسهامات إدوار جونز فى فهم الطبيعة الإنسانية .

وقد علق أحد علماء الطب النفسى على هذا قائلًا : إننا تمكننا من إنجاز أفضل النتائج فى سويعات قليلة أكثر مما ننجزه فى أيام طوال فإن دراسة وجه الإنسان تفصح عن شخصيته إذ أثبت علم الفراسة أن الميول تنتقل وراثيًا من الوالدين إلى الطفل ناهيك عن تأثير البيئة والظروف المحيطة به التى تدعم هاتيك الميول وعلى تبيان السمات الشخصية السلبية والإيجابية .

وبمقابلتى العقاد فى معرض الكتاب فى عام١٩٦٠ ثم مشاهدتى إياه فى ذات العام رأيت ملامح العقاد العبقرية التى يغنينا صديقه وتلميذه الأستاذ محمد خليفة التونسي عن الحديث عنها والذى وصفها فى كتابه فصول فى النقد عند العقاد .إذ قال :

بنية قوية ركب فيها صلابة العزم وشدة الميراث ثبتت لها جميعًا .

عملاقًا أتاه الله بسطة فى الجسم و(بسطة فى العلم)، وركبه كما يركب أهل الصراع والجلاد فى ميادين الفروسية وميادين العزم : قوام فارع لدن ألف

وألواح عريضة، ووجه يميل إلى الاستطالة، أبيض وضيء خفيف الحكم، مليح القسمات، صريح التعبير عن كل مواجده، يتحير فيه الفتاء والنشاط، كما يبدى إهابه الشفيف حتى كأنه اليوم شاب (كتب هذا التونسى هذا عام ١٩٤٨)، وينبئ عن طبيعة مناضلة ذات عزم صليب، وسريرة عميقة الأغوار، جياشة بالعواطف والأسرار، وتطفو عليه ولاسيما العينين والشفتين دلائل خيبة يغالبها الترفع عن الظهور، كى تغوص إلى قرارها فى أغوار سريرته فيغلبها حينًا وتغلبه أحيانًا لصدقه، فى هذا الوجه تتألق عينان فيهما سعة، دعجاوان أو أدنى إلى الدعج، حافظتان لسلامتهما ولمعانهما مع الكهولة، وإن كانت تستعينان على القراءة أحيانًا بمنظار، فيهما حنان مكبوح وحزم وديع، وأحلام ترفرف فى لطف، بعضها سليم وبعضها جريح، تحفهما أهداب أدنى إلى الطول تحت حاجبين أميل إلى الغزارة، يعلوهما جبين منبسط يميل أعلاه قليلًا إلى الخلف، ورأيه أدنى إلى الكبر، تغلب فيه الاستدارة على الاستطالة، ويحتفظ بكل شعره البسط المرسل المنسرح دائمًا إلى الخف، بكر إلى بعضه الشيب قبل الثلاثين، ومازال به حتى كاد يستوعبه، وشعراته البيض لامعة كأنها خيوط الفضة خارجة من المصهر، وخدان خفيفان من اللحم والشحم بينهما أنف أشم مستقيم مطمئن يسيرًا عند اتصاله بالجبهة، منفرج المنخرين، وصدغان مستقران، وأذنان تنبسط كلتاهما من أعلى، وتضيق من أسفل، كصورة الكمثرى مع خفة إطارها الأعلى واطمئنانه، أما الفك الأسفل فيبدو كأنه صب من الفولاذ، عارضان بسيطان، وذقن عريض يندفع قليلًا إلى الأمام دون حدة، ويعوقه انكسار خفيف لا يكاد يرى، وفم وسط فى انفراجه، وسط فى رقة شفتيه وسعة شدقيه، يقوم ذلك الرأس على عنق فيه طول خفيف يتسق مع القوام الفارع، ينبت هذا العنق بين منكبين عريضين ، يخرج منهما ذراعان عريضتان قويتان لفّاوان، تنتهى كلتاهما بكف عريضة الأصابع، بارزة البراجم،

صلبة العضلات، كأنها كسرت ثم جبرت، وتحت المنكبين صدر عريض مستقر يسير بنشاط، ويحرك ذراعيه كالممدوتين فى سمت وعزم دون تكلف يصافح بملء يده، ويتحدث ساكن الأوصال بكل وجهه، ويستعين فى الحديث بحركة يده وأصابعه، فإذا تحدث متحمسًا لاسيما عند الجدل فوصل حديثه إلى مقطع الرأى قبض أصابعه داخل راحته بعزم فبدت كأنها صخرة، أو بسطها بعزم فبدت كأنها سيف، وقد يدق بها خفيفًا على منضدة إن كانت أمامه ولكنه يهوى قويًا بجمع يده، كأنما هى صخرة يحط بها على رأس غريم ليهشمه، أو يهوى ببسطة كفه كأنها سيفيحط به على مقتل غريم ليمزقه .

هكذا كانت ملامح العبقرية فى وجه العقاد وفى هيئته وفى بسطة جسمه ناهيك عن بسطة العلم التى وهبها الله له كما أسلفنا، وكما جعلت من العقاد مدرسة فكرية ومنارة علمية يؤمها طلاب العلم من كل فج عميق .

العقاد وهؤلاء

عقب وفاة الأستاذ العقاد فى الثانى عشر من مارس عام ١٩٦٤ وبعد مرور أيام ثلاثة من انتقاله إلى الدار الآخرة كنا نجلس فى إحدى مدرجات كلية الحقوق جامعة القاهرة، وكانت المحاضرة المقررة علينا فى الشريعة الإسلامية، وكان المحاضر هو فضيلة الشيخ العلامة الدكتور محمد أبو زهرة وهو من هو، وإذا به عند دخولنا إلى المحاضرة يتحدث إلينا والحزن يكسو وجهه وهو ينعى إلينا وفاة استأذنا العقاد ويطلب منا الوقوف دقيقة حدادًا عليه. ثم يردف قائلا موجهًا الحديث إلينا :

(كان الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد شيخى وأستاذى !).

وقال عنه زعيم مصر الخالد سعد زغلول :

(أديب فحل، له قلم جبار، ورجولة كاملة ووطنية صادقة واطلاع واسع ما قرأت له بحثًا أو رسالة فى جريدة أو مجلة إلا أعجبت بها غاية الإعجاب وهو لا يعالج موضوعًا إلا أحاط به جملة وتفصيلًا إحاطة لا تترك بعدها زيادة لمتزيد وله أسلوب أدبى فريد).

※ ※ ※ ※ ※ ※ ※ ※ ※

وقال عنه الزعيم جمال عبد الناصر :

(كنت دائمًا معجبًا بالعقاد ولاسيما فى الفترة التى خرج فيها على الوفد وكان يكتب فى روزاليوسف اليومية وخلال الحرب كان يكتب مؤيدًا للحلفاء واتهمه البعض أنه عميل لهم، ولكنى لا اعتقد أن العقاد أن يكون عميلًا لأحد).

قال عنه أيضًا الرئيس الراحل محمد أنورالسادات :

(إن حرية الفكر والنظر تتطلب غزارة معرفة واتساع أفق وعمق بحث وسلامة منطق ونصوع حجة وإيمان قلب وأنصاف رأى واستقامة مذهب وتنزهًا عن الهوى، ولما كان محل اتفاق أن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد موفور النصيب من هذا كله، كان طبيعيًا أن يتجه التفكير إليه، وكان طبيعيًا أن يرتاح هو إلى هذا الاتجاه لما أخذ نفسه به من مؤازرة الحق وتأييده ومقاومة الباطل وتفنيده)

* * * * * * * * *

وقال عنه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين :

(إنه ملأ الدنيا وشغل الناس)

* * * * * * * * *

ينفرد العقاد فى وجدان الشعب المصرى بمكانة خاصة استوعب تراث أمته وهضم ثقافتها وعاش كل همومها لدرجة أنه صار ظاهرة فريدة فى عالم السياسية والأدب والفكر . حيث بدت كل ملامح النبوغ والتفرض بشخصيته التى اتسمت بعصامية فلقد توحدت فى شخصيته كل مظاهر العبقرية .

(الدكتور محمد صابر عرب)

وزير ثقافة مصر السابق

* * * * * * * * *

ومن أحسن ما كتب العقاد أشهر أدباء مصر والعرب فى العصر الحديث وكل ما كتبه هو الحسن نفسه عبقرية جيتى .

(الدكتور محمد حلمى القاعود)

بناء على اقتراحى سجل تليفزيون (أرامكو) فى الظهران خمسة تسجيلات

للأستاذ العقاد تمثل ثروة فريدة ينبغى الحرص عليها وإعادة إذاعتها تذكيرًا بفضل العقاد .

لم يرحل العقاد خارج مصر سوى بالسفر بالطائرة إلى السودان عندما وصلت قوات المحور الألمانى إلى العلمين، وكان المذيع العراقى فى راديو برلين يونس بحرى قد توعد بشنق العقاد عقوبة له على تأليفه كتاب (هتلر فى الميزان).

كان العقاد شديد الصرامة فى مواعيده وإذا تأخر زائر ولو كان وزيرًا أو مسؤولًا عن الموعد المضروب أغلق الباب فى وجه .

(وديع فلسطين)

كان يشع النور فى جوانب نفسى كلما رأيته مقبلًا من باب المكتبة ويملأ قلبى بهجة وسرورًا، ولازمت فى الغدوات والرواحات لا أبارحه .

(صبحى جريس صاحب مكتبة الأنجلو)

* * * * * * * * *

الكلمة لا تكون أسًا وفعلًا بغير حرية فالكلمة بغير حرية كجسد بلا روح، وهذا ما أمن به العقاد طوال حياته وحرية الكلمة حق مطلق لا تخضع لأى اعتبار ولا يملك أى قانون حق تقييدها .

وهكذا كان يؤمن العقاد ومن ثم لاقى الكثير من شظف العيش طوال عمره واكتفى بأن تكون زينة حياته هى تلك الكلمة

(سامح كريم)

* * * * * * * * *

لا يزال كتاب عبقرية محمد الصادر فى عام ١٩٤٢ هو أحد المراجع الرئيسية

فى دراسة المرحلة الأولى من نشؤ الإسلام كما سيظل الكتاب معلمًا فى تاريخ العقاد

(دكتور محمد عزب)

من أغزر كتاب العرب المحدثين إنتاجًا وأكثرهم تنوعًا فيما كتب وهو صاحب منهج فكرى .

(الدكتور صلاح عبد الحافظ)

* * * * * * * * *

الأستاذ العقاد صاحب طريقة فى الكتابة أطلق عليها طريقة المحكم بالألفاظ والكلمة المحكمة فيها الدقة وفيها القصد وفيها التركيز وفيها دسامة الذات ويغلب عليها الإبانة والإفصاح ولا ينقصها الجمال .

(الدكتور أحمد هيكل)

وزير ثقافة مصر السابق

* * * * * * * * *

تحول من أحد كتاب السياسة المصرية إلى الزعيم السياسى

عباس العقاد زعيمًا!

(الدكتور راسل محمد الجمل)

* * * * * * * * *

مأساة النيابة العامة فى أنها رأت أن تتخلص من الجوهر إلى المظهر فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هى أشبه الصور بالحق و إن لم تكن من الحق شيء وفى ذلك خطر كل خطر فإن أخطر الباطل وأشد تضليلًا هو الذى يفصله عن الحق طلاء خارجى أو قشرة رقيقة .

(مكرم باشا عبيد)

فى دفاعه عن العقاد بعد تقديمه محكمة الجنايات عام ١٩٣٠ بتهمة العيب فى ذات الملكية

ابتدع العقاد فنًا جديدًا يجعل سير عباقرة الإسلام صادقة لصاحبها يتمثل فيها الباطل والظاهر ويبدو القريب والبعيد بالمنطق العقلى والأساليب العلمية

(طاهر الجبلاوي)

* * * * * * * * *

أشفى بكتابه (عبقرية محمد) صدور قوم مؤمنين وأقام الحجة على الشاكين والجاحدين وفتح للناس طريقًا جديدًا فى البحث عن الشمائل المحمدية وكان صادق الإيمان قوى البرهان ناصع الأسلوب مشرق الديباجة .

وإذا أجتمع لمؤلف هذه الصفات فقد كملت رسالته ودانت له مطالبه .

(الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي)

شيخ الجامع الأزهر

* * * * * * * * *

كما قال هؤلاء :

كنا نجلس أمامه فى ندوته فنذوب كما يذوب الشمع .

(أنيس منصور)

قال عنه الدكتور محمد مندور :

(إنه خاض المعارك فى صلابة وشجاعة)

* * * * * * * * *

كما قال الدكتور يوسف نوفل :

(يجد القارئ له ثورة المقاتل وعناد المدافع، وحجة المجادل، وصلابة الشجاع، وروح الجندى المصر على النصر . بل روح المتحمس لغير المعاصرين) .

* * * * * * * * *

بعد حضورى لأول مرة صالون العقاد فى بيته (تجليات الشيخ وإبداع المريدين) رحت أتمشى وحدى وكأننى نزلت من السماء إلى الأرض فقد طوف الرجل بنا فى أجواز فضاء رحب وكأنه ركب لأحدنا جناحين يطير بهما معه خلال الآفاق .

(عباس خضر)

من يقرأ العبارات التى كتبها سيد قطب عن أستاذه العقاد يلاحظ مدى التقديس والولاء

(شعبان يوسف)

* * * * * * * * *

اعتمد فى تعريفه للفن والفنان على فهمه لقواعد علم الجمال وتغلب الحرية على الضرورة وكانت الفلسفة مصدرًا لأهتمامه بالموسيقى فكتب عن سيد درويش وصالح عبد الحى وأعلام عصره

(الدكتور نبيل حنفى محمود)

فضضى الماء ياقمر

وانقشى النور بالحجر

وأنظم الغصن بالندى

والثم الزهر فى الشجر

وأجعل الكون ضاحكًا

عن سماء من الغرر

واملك الليل مفردًا

ومع الشمس فى البكر

فى مجاليك راحةٌ

راحة النوم والسهر

فى لياليك بهجة

بهجة الفكر والنظر

ليتك الليل فى الظلام

وأنا الصبح فى الكدر

أنت كالطيف والدجى

ناعس الطرف ياقمر

بهذه الكلمات تغنت الفنانة نادرة أمين فى فيلم شبح الماضي كتب أشعار جميع أغنيات الفيلم الأديب عباس محمود العقاد ومع صعوبات كلمات العقاد إلا أنها تنم عن عبقريته بفهم مفردات اللغة العربية ووعيه بنظومها

(دكتورة ياسمين فراج) .

العقاد هو رائد التطوير للرؤية السردية فالرؤية السردية سبق عقادى

(الدكتور محمد زيدان)

ارتبط اسم العقاد بالجدية والصرامة والاعتزاز بالكرامة ووصف بالقاسى

والمتكبر وعدو المرأة مع إنه شرب كأس الحب إلى النهاية نعيمًا ولهيبًا، وقد أحاطت به باقة من النساء والجميلات وكان يستهويه فى المرأة ذكاؤها وأنوثتها

(محمد رضوان) .

* * * * * * * * *

أبدت إسرائيل اهتمامًا مثيرًا لكتابات العقاد وأعماله ليس فقط لشخصه وإنتاجه الأدبى بل لتأثيره على أجيال كاملة وليس غريبًا أن تهتم إسرائيل من خلال مراكزها الأكاديمية والجغرافية وباحثيها بإبداعات العقاد لأنها بذلك تقرأت الواقع المصري، ولقد تناول أساتذة الأدب العبرى الأثر العميق لفكر العقاد وتوجهات الكراهية ضد إسرائيل من خلال المقدمة التى كتبها (بورتوكولات حكماء صهيون)

صادر الملك فاروق كتاب ١١ يوليو وضرب الإسكندرية فرر صدوره لأن العقاد أفشى فيه بعض أسرار ١١ يوليو .

(الدكتور سامح عباس)

فى أوروبا يقفون أمام موضوعيته فى خشوع، ويرونه فى أعلى جبال الفكر، يقف شامخًا، وصفته جان بيرك شيخ المستشرقين الفرنسيين، أنه كان أشبه ب هرقل فى جبروته وعنفوان فكره .

(الدكتور سعيد اللاوندي)

موت هرقل !

(الدكتور لويس عوض فى اليوم التالى لوفاة العقاد)

كان الأستاذ العقاد يقول إننى أقيس الإنسان بعدد الكتب التى قرأها ولقد قرأ الأستاذ العقاد حوالى مائة ألف كتاب .

فبماذا إذن يقيس نفسه؟ وبماذا إذن يقيس غيره من الناس؟ هؤلاء الذين لم يقرأ البعض منهم حتى كتابًا واحدًا .

(المستشار محمد مرشدى بركات)

القاضى ورئيس محكمة استئناف القاهرة الأسبق

* * * * * * * * *

كنا فى الخمسينات نحرص على حضور صالونه بمنزله بمصر الجديدة نصطف على المقاعد الخيرزان أمام جلسته المتمركزة بالروب الكاروهات نستمع إلى العبقرى وعلى رؤوسنا الطيرليسود صوته العميق المؤثر المسيطر على كل المواضيع وفى كل المواضيع .

(سناء البيسي)

* * * * * * * * *

كان أحب الناس إلى عقلى وإلى قلبى وكان شأنه شأن كل العظماء يحمل تناقضات عديدة كان وفيًا مخلصًا جدًا لأصدقائه ولم أر فى حياتى إنسانًا يعتد بكرامته مثل العقاد .

(الفنان صلاح طاهر)

تعامل العقاد مع الفنون الجميلة بذات الرؤية التى تعامل بها مع الشعر والأدب إذ كان تناوله للموسيقى والرسم والنحت والتمثيل نابعًا من رؤاه النفسى للفن، وإن مقالات وكتاباته عن الفنون تحتاج جهدًا كبيرًا لتحليلها والوقوف أمامها بالدرس والتفنيد

(شوكت المصري)

* * * * * * * * *

ليس من جيل العقاد مفكرًا أو أديبًا مثله عكست كتاباته اهتماماته بالفن، وأفصحت منذ البدء عن وجهة نظر بل عن يقين فى ضرورة الفن للمجتمع . ومصاحبة العقاد فى كتاباته تطلعنا على منهج متماسك فى النظر إلى الأعمال الفنية يصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده .

(بدر الدين أبو غازي)

وزير الثقافة مصر

* * * * * * * * *

أكد العقاد فى اللغة العربية استخدام كلمة فنان بعد أن كان الشائع استخدام كلمة (الفني) أو (المتفنن) .

(شوكت المصري)

* * * * * * * * *

ولو أطلقنا لقلمنا العنان لسجلنا العشرات والعشرات من الأقوال الخالدة عن عملاق الأدب العربي الأستاذ العقاد فقد كان رحمه الله : (رجلًا فى أمة وأمة فى رجل) .

غيض من فيض مما قال به المفكرون والسياسيون والأدباء الذين عاصروا العقاد أو لم يعاصروه ممن عرفوا رحابة فكره وسعة أفقه وقوة بيانه وإيمانه دائما بأن يكون الكاتب مترسمًا فى كتاباته محجة الصواب إن دلت على شيء فتدل على المنزلة الرفيعة التى استقرت فى سويداء قلوب هؤلاء الجهابذة من المفكرين والعلماء الذين ارتأوا فى عبقرية العقاد فنًا ولجه العقاد دون سواه بها وهبه الله وحباه .

قبل أعوام من نيل الأستاذ نجيب محفوظ جائزة نوبل رشحه العقاد لها

وقارن بينه وبين أدباء الغرب من النابهين والنابغين فى فن الرواية ذاكرًا أنه تفوق عليه فى عمق كتاباته ولما فاز الروائى الكبير بالجائزة قال : إن أساتذتى العقاد وطه حسين والحكيم أحق بها مني .

وعندما سئل العقاد قبل ذلك عن أى كتاب من كتبه يستحق جائزة نوبل . أجاب العقاد إنه ليس هناك كتاب من كتبى يستحق هذه الجائزة لأنه خارج نطاق الرواية . ولكن مجموعة كتبه تستحق جائزة نوبل .

إننا نرى أستاذنا العقاد فى قراءاته وفى صومعة فكره كالمتصوفين فالتصوف كما يقول معروف الكرخي :

(إنه الأخذ بالحقائق واليأس مما فى يد الخلائق)

وهكذا كان أستاذنا العبقري عباس محمود العقاد .

* * * * * * * *

العقاد وأنا ؟

منذ بكورة حياته وأنا متفوق فى اللغتين العربية والإنجليزية وأحصل فيهما على الدرجات النهائية.

بينما كنت منتظماً فى مدرسة الفيوم الثانوية،أحاطنى أستاذى فى اللغة العربية نور الدين شريبة بكريم رعايته إذ والنى بالتشجيع الدائم و كان كل موضوع من موضوعات الإنشاء، الذى يطلبه منا يعقب على كل ما أكتبه بكلمات رائعات منها : استمر على اجتهادك، وعلى تألقك فى اللغة العربية، و على حسن تنسيقك .. تفلح.

و كذلك خط بقلمه لى عبارة لن أنساها، قال لى فيها: أهنئك بنوبغك المبكر، كتب الله لك النجاح و الفلاح.

وكان الأستاذ محمد إبراهيم دغدغ أستاذ اللغة العربية فى مدرسة التوفيقية الثانوية قد تفضل على عقب كتابتى لأحد الموضوعات الإنشائية بعبارة مازلت أحتفظ بكراسة الإنشاء التى كتب لى فيها:

(قد يقف الإنسان أحيانًا عاجزًا أمام روعة الإنتاج الأدبى ليعبر لصاحبه عن تقديره وأعترف لك يامحمد بأننى ذلك الإنسان ولا أملك إلا أن أشكرك وأشكر والدك وأشكر نفسى كذلك)وكان هذاالموضوع خاص بقريتى منية المرشد

أما الأستاذ مراد مدرس اللغة الإنجليزية فقد كان يصفنى .

بال Excellent ، وأننى the first one in the class وكنت قد شغفت

بالقراءة فى هذه السن الباكرة التى لم تتعدِ الثامنة من عمرى ، وأذكر أننى أنشأت مجلة حائط لأخوتى أكتب فيها ما يعن لى أن أكتب من موضوعات ثقافية مختلفة أثناء إقامتنا بمدينة الإسكندرية عام ١٩٤٨م .

وفى مطلع النصف الثانى من القرن المنصرم عرفت العقاد ففتح لى مغاليق الفكر والأدب.

كانت معرفتى بهذا الكاتب العبقرى بفضل والدى رحمة الله عليه إذ دخل على حجرتى فى عمارة عرفة التى كنا نقطن فيها فى مدينة الفيوم إذ كان يعمل والدى رئيسًا لمحكمتها ، وكانت لى حجرة مستقلة خصصها لى والداى ملأتها بالكتب ، وكنت أقرأ فى آنذاك كتب التراث العربية القديمة وبعض المؤلفات الأروبية والروسية المترجمة وكذلك الروايات البولسية التى تتحدث عن مغامرات أرسين لوبين والمفتش تيل وغيرها . فضلًا عن كتب المنفلوطى التى استهوتنى تمامًا قبل ذلك فى سن باكرة من حياتى ومنها فى سبيل التاج و النظرات و العبرات و تحت ظلال الزيزفون و مجدولين وغيرها ومن قبلها كنت أحرص على إقتناء مجلة سندباد والبلبل وعلى بابا وكنت أنتظرها جميعها على رصيف محطة الإبراهيمية بالإسكندرية حال وضعها على أفريز الطريق وأزعم أننى كنت أول من كان يبتاعها ، ومازالت أحتفظ بمجلداتها الضخمة حتى هذه اللحظة فضلًا عن بعض الصحف التى كان منها النداء و البصير و الزمان . ولطالما كان والدى يتركها لى على مكتبى حتى يدفعنى إلى قراءتها .

ومازالت أذكر تلك اللحظة التى قال لى فيها والدى : ماذا تقرأ؟ فلما أجبته نصحنى بأن اقرأ للأستاذ العقاد وكذلك للدكتور هيكل باشا وأن أحفظ خطب مكرم باشا عبيد وسعد زغلول ويرصد لها جنيها عن كل خطبة أقرأها وكذلك وأحفظها

وأحضر لى والدى كتابين للعقاد أحدهما عبقرية محمد والثاني عبقرية عمر

ومعها كتاب حياة محمد لهيكل باشا ما أن قرأت هذه الكتب حتى جذبنى فكر العقاد ومن ساعتها وأنا اقرأ له وحرصت تمامًا على أقتنائى جميع كتبه التى دبجته يراعته فانفتح أمامى عالم الفكر والمعرفة فضلًا على أن اللغة العربية قد ذكا لدى عودها واستقام أمرها من قراءتى لتواليفه الرائعة ، وبسببها كنت أحصل على الدرجة النهائية فى اللغة العربية حتى نهاية المرحلة الثانوية التى أذكر أننى قرأت إبانها أول كتاب علمى فتق ذهنى على أشياء كثيرة اسمه مع النجوم فى تطورها وكنت آنذاك فى المرحلة الإعدادية.

وبدأت أكتب فى الصحف منها جريدة الأهرام وكذلك الأخبار بالإضافة إلى جريدة الشعب التى احتجبت بعد ذلك وغيرها من الصحف والمجلات .

أدمنت قراءات كتب أستاذنا العقاد ومن فرط إعجابى بها بدأت فى مراسلته على عنوان بيته الكائن فى شارع السلطان سليم بمصر الجديدة فكل ما كان يعن لى من أسئلة حيرى أرسلها إلى أستاذنا ، وكان يتفضل بنشرها والإجابة عليها فى يومياته بجريدة الأخبار وهى منشورة فى يومياته بأجزائها الأربعة ، ومنها : (هل كان قدماء المصريين عربًا؟ . سقراط واحد أو أثنين؟ . أهمية دراسة الإسبرانتو؟. قريتى (منية المرشد) فى التاريخ . الزعيم سعد زغلول وما يقال عنه؟ . الكتاب المنكوب؟ . سعد زغلول وقناة السويس؟) الدادية والشعر الدادي ، نقد كتابه عبقرية خالد إلى آخر هذه النتف مما كنت أناقش فيه أستاذنا .

وقد لفتت هذه المحاورات التى كنت أحاور بها أستاذنا العقاد نظر الشاعر الكبير الأستاذ صالح جودة فكتب فى مجلة الكواكب مقالًا بدأه بأن المتبعون ليوميات الأستاذ العقاد يعرفون أن القارئ الأديب محمد مرشدى بركات يداوم على إرسال اللمحات الذكية إلى الأستاذ العقاد الذى كان يجيب عليها فى يومياته بجريدة الأخبار

عندما فاز العقاد بجائزة الدولة التقديرية فى الآداب ترددت فى إرسال برقية له أهنئه فيها بهذه الجائزة فمن أنا حتى أهنئ العقاد؟

ولما طال ترددى خلال شهر قد إنصرم من تسلمه لهذه الجائزة . أزمعت على تهنئة الأستاذ العقاد فأرسلت له البرقية التالية : كنت آخر المهنئين له بقلمى ولكننى كنت أولهم بقلبي .

وفوجئت ببرقية مرسلة إلى من الأستاذ العقاد على منزلنا الذى نقيم فيه بالعباسية بالقاهرة يقول لى فيها : أشكركم قلبًا وقلمًا وأرجو لكم التهنئة أولًا وآخرًا .

شعرت بالغبطة الشديدة إذ لم أكن أتوقع منه الرد على برقيتى السالف ذكرها من هذا المفكر العظيم

وتوالت البرقيات بينى وبين الأستاذ العقاد ومنها برقية جاء فيها:

(نرجو للمرشدى ذروة المجد الأدبى والخلود الأبدي)

هل هناك أعظم من هذا؟ ، وهل هناك تحية أسمى من تلك؟ .

جمعتنى مع العقاد مناسبة رائعة إذ كان وهو يحضر عيد العلم عام ١٩٥٩م يتسلم جائزة الدولة التقديرية من الرئيس جمال عبد الناصر كنت مدعوًا لحضور هذا الحفل الكريم من خلال فوزى بالجائزة الأولى عن بحث كتبته بعنوان احتكار العلم يهدد البشرية بأوخم العواقب وأشد الأضرار وهو بحث كانت الإدارة العامة للثقافة قد أعلنت عن مسابقة أدبية لكتابته .

كان والدى يجلس فى الصف الأول وأنا بجانبه لتسلم جائزتى من الرئيس جمال عبد الناصر عن بحث كتبته موسماً باسم: (احتكار العلم) وارهفت أذنى للعقاد وهو يقف متحدثًا بالإصالة عن نفسه والإنابة عن الحاضرين فى هذا العيد بما سلف ذكره فى الصفحات السابقة.

كنت مشغوفًا بالذهاب إلى الجامعات والمكتبات العامة التى تناقش فيها رسائل الدكتوراه والماجستير ، وكذلك الندوات الثقافية المختلفة التى كانت تعقد فى مكتبات العاصمة ومنها مكتبة البارودى بالعباسية ومن قبلها مكتبة البلدية بالإسكندرية ومن بعدها مكتبة الفيوم.

وإذ قرأت خبرًا يقول: إن الأستاذ العقاد سوف يحاضر فى معرض الكتاب فى المكان الذى شيد عليه دار الأوبرا المصرية حاليًا شددت الرحال إلى هناك ووجدت الجموع المحتشدة من المثقفين ومن محبى العقاد وتلاميذه ، وبعد أن فرغ العقاد من محاضرته وأفرد وقتًا لسماع أسئلة الحاضرين والإجابة عليها شققت الصفوف المتراصة التى كانت تحول بينى وبين العقاد مدفوعًا بمحبتى وتقديرى الشديد له وتوجهت إليه حيث كان بصحبتى صديقنا الأديب القاص الأستاذ أحمد هاشم الشريف الذى كان يعمل فى مجلة روزاليوسف ومددت يدى وهو جالس على مقعده . وقلت له : محمد محمد مرشدى بركات وإذا بى أفاجأ أن هذا الرجل العظيم قد انتصب واقفًا وهو يصافحنى بشدة قائلًا لى : زبون قديم زبون قديم ثم وجدت من يحتضنى ويقبلنى ، وكان هو ابن شقيقته الأستاذ الأديب عامر العقاد الذى اصطحبنى بعد ذلك مترجلين من معرض الكتاب عبر كوبرى قصر النيل إلى ميدان التحرير حيث قال لى بالحرف الواحد :

لقد أرسلنى الأستاذ العقاد للبحث عنك فى كلية الآداب بجامعة عين شمس حيث كنت أنتظم فيها وسألت عنك فى الأقسام التى علمت أنك انتظمت بها فى الكلية بدءًا من قسم علم الاجتماع ومرورًا بقسم اللغات الشرقية حتى قسم اللغة العربية ولما أصابنى اليأس من العثور عليك سألت عنك أحد أساتذة الكلية وهو الدكتور عبد البديع ولم يكمل الأستاذ عامر باقية اسمه. وأخبرنى إنك حولت أوراقك إلى كلية حقوق الإسكندرية .

ثم أردف قائلًا : الأستاذ معجب بمقالاتك وبما تكتبه فى الصحف ويريد أن يلقاك وقد بعثنى إليك من أجل هذا ولكننى فوجئت لأننى علمت إنك يممت وجهك إلى كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية وأنت تعرف أن ندوة العقاد تقام فى يوم الجمعة من كل أسبوع ولكن نظرًا لحب الأستاذ لك فأننا سوف ننتظرك يوم الأحد القادم لملاقاة الأستاذ فى لقاء خاص معه.

كان هذا شرفًا كبيرًا لى أسبغه على الأستاذ العقاد بترحيبه الشديد بى حتى أن الأستاذ أحمد هاشم الشريف وبعد ما شهد من استقبال الاستاذ العقاد أن قال لى : (مبروك يامحمد) ألم تشهد هذا الاستقبال العظيم لك من الأستاذ العقاد؟ .

وكان شرفًا كبيرًا لى أيضا ما أنهاه إلى الأستاذ الأديب عامر العقاد رحمه الله ، وليت الظروف قد ساعدتنى للذهاب إلى بيت الأستاذ الكبير العقاد فى الموعد الذى ضربه لى فقد ضاع منى الكثير بعدم اهتبالى لهذه الفرصة الذهبية لزيارة عملاق الأدب العربى والجلوس إليه.

كانت الندوة التالية فى ذات المكان الذى عقدت فيه ندوة الأستاذ العقاد خاصة بالدكتور محمد مندور فحضرتها وآلمنى أن الدكتور مندور شن حملة بدون مناسبة على الأستاذ العقاد فأمسكت بقلمى أرسلت رسالة للأستاذ العقاد نشرت فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢٠/ ١/ ١٩٦٣ على النحو التالى :

فى ندوة حضرتها للدكتور محمد مندور فى معرض الكتاب العربى سأله سائل : ماهى الملامح التى توضح مدرسة الدكتور فى النقد؟ وما هى المميزات التى تميزها عن مدرسة العقاد؟ وأجاب الدكتور : إن مدرسة الأستاذ العقاد تأخذ بمنهج التفسير النفسى للأدب : ويظهر ذلك على سبيل المثال فى كتاب العقاد عن أبى نواس وكتابه عن ابن الرومى على حين أننا نرى للأدب قيمًا

جمالية أخرى تنأى بنا عن النزول إلى مستوى ذلك التفسير والذى أراه ياسيدى أن الصورة النفسية التى دبجتها يراعتكم عن أبى نواس تكاد تنطق من فرط براعتها.

....فإذا رأيتم أن فى ردكم على هذا الكلام ما يفيد الدراسة النفسية وبالطبع هو سيفيد فهو كذلك.

محمد محمد مرشدى بركات .

ورد على رسالتى الأستاذ العقاد بما هو آت :

ونحن نعرف من أسئلة الطالب الأديب أنه (جيد الفهم لما يسمع) ؛ وأنه يحسن السؤال الذى يجاب عنه ، ولكننا نقدر على سبيل الظن أن الكلام الذى رواه عن الدكتور محمد مندور منقول بمعناه الغالب دون ألفاظه وكلماته ؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة صواب أو خطأ يقع فيه الدكتور منـور ، ولكنها مسألة وجود أو عدم ؛ أو مسألة كائن حقيقى فى عالم الواقع أو خرافة لا تتفق صفاتها وصفات الموجودات ؛ إذ كان الإنسان الذى يتصدى لرسالة النقد الأدبى ويجهل أثر النفس الإنسانية فى صور الجمال ومذاهب مخلوقًا وهميًا لا تصدقه العقول ؛ وصاحبنا هذا المندور بحمد الله الذى يحمد على كل شئ مساحة ثابتة فى الفراغ قابلة للتصديق على الأصل بشهود العيان!

وربما ساغ فى عصر غير هذا العصر أن يقول القائل إنه ينجاهل القيم النفسية فى تقدير شعور الأديب بالجمال وتقدير أسلوبه فى التعبير عنه ؛ ولكن كلامًا كهذا لا يمكن أن يقال فى عصر الدراسات النفسية وهى اليوم مرجع الاختبارات فى كل مجال من مجالات الأعمال الصناعية التى لا تخلو معاملها الكبرى من خبير نفساني يقدر قيمة العامل والصانع والمهندس والمحاسب

والخازن بمقاييس الاختبار التى تعول على النفسيات قبل تعويلها على علامة أخرى من علامات الكفاية والصلاح لأداء العمل والتعاون مع المشتركين فيه .

وهذا هو شأن القيم النفسية فى الشئون المادية التى يعزها السيد المندور ولا يحسبها من المنحدرات فيها تحت القمم العالية ولا فيها تحت السراديب ، فما قوله فى القيم النفسية فى تقدير الشعر والشعور؟

ويتساوى هذا الشأن الجلل فى بلاد الكتلة الغربية وبلاد الكتلة الشرقية على تباعد القواعد الأيديولوجية بين الفريقين ، فليس خبراء الأيديولوجية فى بلاد الكتلة الشرقية بالذين ينكرون شأن النفسيات عند الاستدلال على الأعمال وعلى ثمرات الفنون والصناعات ؛ ولا هم ممن يهملون تعبيرات النفس ويرفضون النظر إلى حسناتهم وسيئاتهم على ضوء الدراسات الحديثة ؛ وكل ما هناك أنهم يرجعون بأسباب الحسنات والسيئات إلى تمام الموافقة بين الإنسان والبيئة الاجتماعية أو إلى نقص الموافقة بينهما

أما أن نفس الشاعر أو الأديب تدل عليه وعلى مجتمعه فذلك هو المستوى المعقول ولا منحدر عنه لمن يحمل رأسًا آدميًا فوق قدمين اثنتين .

ونحن قد نقول فى نقد الأشياء التى لا نفوس لها إن القطن مثلا يعرف بفتلته ولونه ورائحته وشكله مع شكل بذوره ولا ينفى ذلك أنه نبت فى حقل تنبت فيه ألوان شتى من الزروع والغلال .

فإذا عرفنا القطن بهذه العلامات فقد عرفنا منه كل ما يستحق أن يعرف فى المصنع والسوق وعلى أجسام لابسيه .

أما إذا كان قصارانا من المعرفة أن نذكر مساحة الحقل بالفدان والقيراط ، وأن نذكر موقعه من المنوفية أو الجيزة ؛ وأن نذكر سماده الكيمى أو الكفرى ، فقد بقيت كل قيمة صناعية أو طبيعية لذلك القطن مجهولة مفتقرة إلى البيان ،

وجاز أن يكون ذلك الحقل منبتًا لثمرات شتى من القمح والشعير والكتان ؛ فضلًا عن شتى الأصناف والألوان من الأقطان؟

وإن مدارس النقد الأدبى التى كثرت فى الأزمنة الماضية وفى هذا الزمن الذى شاعت فيه الدراسات النفسية أيما شيوع ؛ وإننا نقدرها كل قدرها ونقدر الكثيرين من أعلام النقد الذين تناولوا الأعمال الأدبية على أصولها .

نحن نقدر المدرسة التاريخية كما نقدر المدرسة الاجتماعية ؛ ونقدر المدرسة الفنية ، كما نقدر معها المدرسة اللغوية والبلاغية .

وكل منها قد دل على شئ من قيم الأدب لا نستغنى عن الدلالة عليه .

ولكننا نفضل عليها المدرسة النفسية لأن المدرسة النفسية تغنيناعنها ، ولا تلجئنا إلى مزيد من البيان بعد المعرفة لنفس الشاعر وبواعثها الظاهرة فى معانيه وألفاظه وأسلوبه وأغراضه النفسية المتمثلة فى تلك المعانى والألفاظ وذلك الأسلوب .

نحن نعرف كل ما نريد أن نعرفه وكل ما يهم أن يعرف متى عرفنا نفس الشاعر وعرفنا كيف يكون أثرها فى كلامه ، وكيف يكون أثر هذا الكلام فى نفوس الناس .

ولكن المدارس الأخرى لا تكفى هذه الكفاية للعلم بالشاعر وشعره.

لا تكفى مساحة الحقل ؛ولا موقعه من المنوفية أو الجيزة ؛ ولا نوع السماد الذى بذروه فى أرضه إذا جهلنا بعد ذلك كله ما هو الفرق بين أصنافه وماه الفرق بين أصناف القطن وأطناف النبات الذى يزرع معه فى أرض واحدة .

والتاريخ كله والمجتمعات كلها ، والمنحدرات السفلية بحذافيرها لن تغنينا مقدار فتلة عن العلم بأسباب الفوارق الشاسعة بين مائة شاعر نشأوا فى بلد واحد وفى بيئة واحدة وحقبة واحدة ؛ وكلهم بعد هذا مخالف لأخيه بل مناقض

له فى لفظه ومعناه ؛ وفى غرضه ومرماه .

ولهذا نفضل المدرسة النفسية لأنها تحبط بالمدارس كلها فى جميع مزاياها ولا تحيط مدرسة من المدارس التاريخية أو الاجتماعية أو اللغوية أو الفنية بمدرسة النقد النفسانى إذا جهلنا ملامح الشاعر وجهلنا المميزات بينها وبين غيرها ، مع حدة البيئة والزمان .

ولينحدر الدكتور المندور أو يرتفع .

ولينزل المندور الدكتور أو يطلع .

وليشرق حيث يحب ويهوى أو يغرب ويستغرب .

وليكن حيث كان فيها يحسبه على هواه على عليين .

إننا لراضون أن نقيم حيث نحن مقيمون لأن مكانًا لا محل فى للنفس الإنسانية ولا للقيم النفسية : نحسبه نحن أسفل سافلين ؛ ولا الضالين آمين آمين .

عاود الدكتور محمد مندور مهاجمة الأستاذ العقاد على صفحات جريدة الجمهورية بعد مضى أسبوع من مقال العقاد السابق موسومًا باسم : (العقاد المعقود بالسكر المندور) اذكر أنه أعاد فيه الكرة مرة ثانية مؤكدًا على أن مدرسة التحليل النفسى الذى سار على خطاها الأستاذ العقاد لا ترقى إلى مدرسته فى النقد وإنه فى عصمة من أن ينزل إلى مستوى مدرسة العقاد .

* * * * * * * * *

رد عليه الأستاذ العقاد بجريدة الأخبار بتاريخ ٤-١٢-١٩٦٣ بمقال شديد الوطأة معنونًا باسم شيخ النقاد هل ولد؟ إسألوه؟ .

ورد فيه :

شيخ النقاد بلا قافية ينسى دروس صباه يا ولداه !

وشيخ النقاد بشهادته لنفسه هو الدكتور المندور .

ودروس صباه التي ينساها هي دروس كثيرة جدًا نستعيد منها في هذه اليوميات درسًا واحدًا صغيرًا كان موضوعه التصغير في شعر المتنبي ، شاعر العربية الكبير .

وبلا قافية ليست من مخترعاتنا نحن ، ولكنها هي مذهب الشيخ مندور شيخ النقاد بعد دعوته إلى الشعر الذي يكون شعرًا ويسمى شعرًا ويلغى الشعر كله بلا وزن ولا قافية . ولماذا لا يسمى نثرًا ونخلص من إلقاء الأوزان والقوافي؟!. هكذا والسلام ، على عهدة المشايخ الكرام .

وحديث هذا الدرس يرجع عشرين سنة إلى أوائل سنة ١٩٤٣، ثم يردع قبل ذلك نحو عشرين سنة إلى أواخر سنة ١٩٢٣ .

ففي عدد البلاغ الذي صدر في العاصر من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣ كتبنا مقالًا عن التصغير في شعر المتنبي قلنا فيه إنه يدل على طموح المتنبي واغتراره بعظمته واحتقاره لمن ينافسهم وينافسهم وينافسونه من أهل زمانه فهو إذا افتخر بالغ في التفخيم والتصخيم وإذا هجا بالغ في التصغير والتحقير ى، كأنما ينظر من طرفي مجهر مكبر يرينا الأشياء غاية في الكبر أو غاية في الصغر من الطرفين ، وقلنا بعد التمثيل لتفخيماته وتضخيماته.

اعكس هذه الصورة بعد هذا وأقلب المجهر المكبر وانظر في الناحية الأخرى : ماذا ترى؟ ترى صورًا صغيرة ضئيلة لا تدرى كيف تبالغ في تصغيرها وتهوين شأنها ترى شعور التفخيم قد انقلب إلى شعر بالتأفف والإشمئزاز ، أو أنت ترى المتنبي ذلك الذى امتلأ أمام العظمة روعة وتوقيرًا قد نظر في المجهر من ناحيته الأخرى فامتلأ أمام الضئولة تقززًا وتحقيرًا

وكان فى هذا البلد طائفة قليلة أطلقوا على أنفسهم لقب (أدباء الشباب) كهذه الطائفة التى تلقب نفسها اليوم بهذا اللقب وتحصر جهودها فى غرض واحد وهو هدم شيخ واحد فقط لا غير يسمى عباس العقاد .

وإنما الفارق بينها وبين أخت لها بالأمس أن أختها بالأمس كانت تتعلل بهدم أدب الشيوخ وتخص عباس العقاد وحده بالشيخوخة مع إنه لم يمكن يجاوز الأربعين ، ثم يقوم وتقعد بنشر الدعوى لأحمد شوقى وخليل مطران ومحمد المويلحى وأصغرهم قد جاوز الستين .

وفتش عن القصر تارة وفتش عن السياسة تارة أخرى وفتش عن الغرور بالألقاب المدرسية تارات وفتش عن الحزازة الشخصية مع كل تارة من هذه التارات ، فإنك ستعرف السر الكامن وراء الشيخوخة فى الأربعين والفتوة الناشئة فيما وراء الستين .

أما أخت تلك الطائفة ممن يسمون أنفسهم اليوم بأدباء الشباب ففى الصبغة الحمراء تفسير لما يعلنون ويضمرون ، وفى غير ذلك من المعللات تفسيرات أخرى تتفرع إلى فروع شتى ، يبرز بينها أصحاب الدجل الدينى وأصحاب الدجل الحزبى وأصحاب الدجل من كل طائفة تعرضت للحملة عليها من كانت هذه السطور ، وتتخللهم جميعًا طائفة المغرورين بالألقاب المدرسية ، وليس عندهم من محصول الثقافة غير الغرور والقشور .

ولقد كان مسلكنا مع هؤلاء المتربصين بنا على ألوانهم الكثيرة أن نعرض عنهم ونتركهم يهدمون ما استطاعوا ليعلموا بعد حين أن الغبار الذى يثيرونه إنما هو أنقاضهم الهزيلة تتهاوى فوق رءوسهم وتتساقط تحت أقدامنا دون أن تحوجنا بعد ذلك حتى إلى الطلاء لتلميع الحذاء.

فما أجبنا أحدًا منهم إلا أن يكون فى كلامه موضوع سؤال نتلقاه من

أصدقائنا القراء ، ويومئذ نعرض له بالبيان الضرورى لأنه حق للقارئ على كاتبه الذى يحرص على تمحيص آرائه بين الموافقين لها والمعترضين عليها .

وكان شيخ النقاد فى تلك الأيام من صبيان النقد بلا قافية قبل ثلاثين سنة!.

وكان همه فى هذه السنين جميعًا أن يتتبع ما تقوله بالإنكار والتسفيه فى الجملة والتفصيل كأنما قد خلقنا الله معجزة أخرى من معجزات الخلق فى هذه الدنيا : وهى معجزة العصمة من الصواب ، ولعلها أندر من معجزات النبوة التى تتصف بالعصمة من الأخطاء .

كل ما نقوله خطأ ، وكل ما يكتبه شيخ اليوم ، صبى الأمس بلا قافية ، تصريح أو غمز بالإعادة والإبداء فى تسفيه كل ما نقول

شعرنا ليس بشعر، لأن شعر الهمس هو الذى يرتضيه شيخ النقاد وقد نسى شيخ النقاد أنه الناقد الاجتماعى العصرى الصناعى المادى الذى لم يكتب حرفًا واحدًا فى نقد المذهب الماركسى ثم نسى مع ذلك أن الهمس آخر أساليب التعبير عن ضوضاء الصناعة وثورات الإجتماع .

والقصيدة يجب أن تكون بغير ترتيب ولا انتظام بين معانى الأبيات ، لأننا نحن نقول فى الشعر بوحدة القصيدة .

والوزن والقافية فضول فى الشعر العربى عند شيخ النقاد : رأى لم يقل به الشيخ ولم يتحمس له إلا بعد أن أصبحت معارضتنا له هي بيت القصيد وأصبح الواشح فى رأينا أن الوزن أصل من أصول الكلمات العربية فضلًا عن القصائد والأبيات ، فلا يوجد فى لغة الضاد لفظ واحد له معنى بغير وزن يقاس عليه ، ولا يوجد فى اللغات الأوربية لفظ واحد له وزن مقصود .

والأدب يجب أن يؤخذ سطورًا وشطورًا بغير نفوس لأننا نحن نعتمد على التعبير ونعتمد فى التعبير على الفوارق بين نفوس المعبرين .

وكل إنسان فى هذه الدنيا لا يستحق عند الشيخ حرفًا من الثناء إلا بمقدار ما فى الثناء عليه من التعريض بكاتب هذه السطور .

ثم المرأة وما أدراك ما المرأة عند مولانا الشيخ؟ إنها سيدة الرجل لأننا نحن نقول إنها والرجل جنسان لم يختلفا تركيبًا وخلقًا ليصبحا نسخة مكررة ، وإن المرأة يعيبها أن يقال عنها إنها كالرجل كما يعيب الرجل أن يقال عنه إنه والمرأة سواء.

والثقافة العربية لابد أن تتأخر عن الثقافتين اليونانية والعبرية عنوة لأننا نحن نقول بقدم الثقافة العربية ولا نقول ذلك عبثًا بل نسده بكل دليل من التاريخ والفكر السليم ، لأن اليونان استعاروا حروفهم الأبجدية من حروف العرب ، وليست ألفا بيتا، جما، دلتا إلا أبجد بعينها لأن الأبجدية العربية أكمل من أبجدية اليهود . ومشتقات لغة الضاد تمت قبل المشتقات فى سائر اللغات السامية ، ونظم الشعر العربى أسبق من نمط الشعر العبرى الذى لاوزن فيه إلى الآن وقد كان لإبراهيم وموسى معلمون من أبناء العرب على تخوم العراق وفلسطين .

وكدنا نعتقد أننا لو استطعنا يومًا أن نقول إن المندور جنين لم يولد بعد ، أو يصبح بعد فيه هذا المندور بعيد ومينه عقادًا آخر مبرءًا من الحسنات معصومًا من كل قول وعمل غير المساوئ والسيئات .

****

وعلى هذه السنة كتب المندور قبل ثلاثين سنة ينكر رأينا فى ولع المتنبى بالتصغير، وينكر أن يكون للتصغير فى شعره شأن غير شأنه فى دواوين عامة الشعراء، ولن يقول بذلك أحد فتح ديوان المتنبى فى حياته مرتين على صفحة من الصفحات .

وعلى سنتنا نحن أعرضنا عنه حتى وصل إلى مجلة الرسالة التى نكتب فيها سؤال بتوقيع محمد جابر يشير فيه إلى رأينا فى ولع المتنبى بالتصغير ويعقب عليه قائلًا : وقد أطلعنا أخيرًا على مقالة فى مجلة الثقافة لبعضهم يقول فيها إن هذا من طغيان النفسيات على الأدب وإن التصغير فى شعر المتنبي، لم يكن لتكبره وإنما هة أداة من أدوات الهجاء يعرفها شعراء هذا الفن فى الأدب العربى وفى غيره من الآداب .

فهل لكم أن تدلوا برأيكم فى تعقيب الكاتب لأنه تفسير لرأيكم وفيه بيان لمسألة من مسائل النفسيات والأدب؟ .

وحق علينا جواب السائل دون أن نذكر شيخ النقاد اليوم بغير الإشارة إلى كلامه فى مجلة الثقافة ، وكان جوابنا توكيدًا لوجوب الدراسة النفسية فى فهم كل أسلوب من أساليب التعبير . لأن النقد الذى يأخذ البلاغة أخذه لمجموعة من الكلمات والألفاظ المنسوقة لن يصل إلى نقد التعبير كما صدر من صاحبه ، إذ كانت العبارة ونفس المعبر صفتين حيوتين ، ولا قيمة للأدب الذى ينعزل عن الحياة .

وخلاصة ذلك الجواب سؤال وجيز فحواه: إذا كان كل مافى الأمر أن التصغير قاعدة فى اللغة وفن من فنون الهجاء فلماذا خلا منه شعر الهجائين من أمثال الفرزدق وجرير وابن الرومى ودعبل والحطيئة من قبل هؤلاء . ولماذا اجتمع منه فى شعر المتنبى وحده وهو ليس من المختصين بالهجاء مالم يجتمع فى دواوين هؤلاء الشعراء متفرقين؟ .

هنا لابد من التفسير النفسانى لتعبيرات الشاعر عن ذات نفسه ، ولا سبيل إلى فهم الكلام بغير فهم المتكلم ، لأن الاتصال بينهما كما تقدم إنما هو ذلك الاتصال الوثيق بين المؤثرات والمعبارت ، ولا سبيل إلى العزل بين هاتين الصلتين .

ولو أن شيخ النقاد أرادد أن يفهم جلية الرأى لفهم من هذا الدرس الصغير بما هو كفيل بتصحيح خطئه .

ولو أن شيخ النقاد أراد أن يفهم جلية الرأى لفهم من هذا الدرس الصغير ماهو كفيل بتصحيح خطئه .

ولكن الآراء عند شيخ النقاد لا تنقسم إلى صواب وخطأ ، وإنما تنقسم إلى رأى نقول به فهو خطأ لا صواب فيه ، ورأى يعارض ذلك الرأى فهو الصواب كل الصواب !.

****

وفى ندوة الكتاب بعد ثلاثين سنة سأل الشيخ سائل عن الفرق بين مدرسة العقاد فى النقد وبين مدرسته هو فكان جوابه : أن العقاد يعتمد على النفسيات وأنه هو يعرف أصولًا للنقد الأدبى تعصمه أن ينزل إل ذلك المستوى .

وبدر إلينا الشك فى الصيغة التى جاءت بها هذه العبارة على لسان شيخ النقاد ، ولكنه رواها بعد ذلك بصيغة لا تختلف كثيرًا عن صيغتها المنقولة إلينا، فكتب فى إحدى الصحف الصباحية يقول : إننى أجنح نحو النظر إلى الأعمال الأدبية والفنية كوثائق نفسية لتحليل نفسيات مؤلفيها على أساس من فلسفى فرويد وتلاميذه المعروفة وذلك بينما أرفض أنا النزول إلى مستوى الوثائق النفسية فحسب .

وعلى السنة التى توخيناها قديمًا لم نعرض لكلام الدكتور المندور فى الندوة حين نقل إلينا ، ولكننا عرضنا له حين سألنا عنه أحد أصدقائنا القراء فى اليوميات الأديب المرشدي ، وجاء بعد ذلك جواب الدكتور المندور فى الصحيفة الصباحية فإذا هو أحق بالتصحيح مما ورد فى سؤال القارئ الصديق من وجوه كثيرة.

فما كنا يومًا من أشباع مدرسة فرويد وتلاميذه فى الدراسات النفسية .

وما قلنا قط إن التحليلات النفسية هى غرضنا من دراسة نفوس الشعراء ، وإنما قلنا ونقول إن نفس الشاعر هى التى نرجع إليها حين نلتمس الفوارق التى لا تفسرها البيئة الاجتماعية . وهى واحدة حيث يختلف العشرات بل المئات من الشعراء ، وما كتبنا عن شاعر واحد دون أن نحيط الكلام عليه بالبحوث المطولة عن أحوال عصره وعن معنى ظاهرته الأدبية من الوجهة الاجتماعية.

ولا جديد فى قول صاحبنا عن كاتب هذه السطور : إن الأستاذ قد أهتبل هذه الفرصة لكى يشن هجومًا دونيكشوتيًا صاخبًا لا شئ فيه من وداعة سانكوبانزا وما حيلتى فى العملاق الباطش العقاد المعقود .

ولا جديد فى هذا الإدعاء إلا أنه يتم على شئ من اللياقة تعلمه المندور فى السنين الثلاثين فنحن نحن اللذين نلاحقه بالحملة (الدونكشيوتية) بغير حكمة ، وهو هو ويا للبراءة ذلك المظلوم الذى لا حيلة له فى تلك الغارة القديمة التى جعلتنا نترصد له فى كل مناسبة وغير مناسبة ، والتى بدأنا بها حياتنا القلمية لنهدمه قبل أن توضع فى طوبة إلى طوبة ، وقبل أن يترقى في كادره الخاص إلى مشيخة النقاد .

إنها لباقة ياشيخ؟

لكنها لباقة في زعبوط لم يتغير فيه لون فروه الأيل .

ومن ذا يغفل عن ذلك الزعبوط المعتبر حتى يبحث عن الطرفين المتهمين، ومن منها البادئ فى كلمته ، ومن هو المحبب بعد إعراض وسؤال؟

* * * * * *

كانت هذه المعركة الأدبية بين الأستاذ العقاد والدكتور مندور هى آخر

معركة أدبية بينهما ، وقد سجلها الدكتور عبد الحى دياب فى أطروحته للدكتوراه عن : العقاد ناقدًا .

ومما أذكره فى هذا الخصوص أن الدكتور دياب وهو يناقش اللجنة المعقودة لمناقشة أطروحته هذه جاء على لسانه وهو يتحدث عن هذه المعركة الأدبية قال:

ولقد نشبت هذه المعركة الأدبية على إثر فرية من شاب نقلها إلى الأستاذ العقاد وكنت حاضرًا نناقشه هذه الأطروحة العلمية.

ولما عاتبت الدكتور عبد الحي فى الفترة التى تسبق رأى اللجنة فى رسالته السابق ذكرها ضحك الدكتور عبد الحي ملء شدقيه ، وأعتذر لى لأننى قلت له : هل الرسالة التى أرسلتها للعقاد خاصة بهذا كانت فرية؟ ألم يشهد لى العقاد بأننى كنت صادقًا ولا أقصد إلا أن أرد غيبة العقاد؟ .

ومرت شهور قلائل و صعدت روح أستاذنا العقاد إلى بارئها

كنت أغط فى نومى وإذا بالسرير الذى كنت أنام عليه يهتز بى اهتزازًا شديدًا ويروح بى جَيئة وذِهابًا وسمعت من يُسِر فى أذنى قائلًا :

انهض من فراشك فلقد مات العقاد؟!

والذى أذكره تمامًا إننى قمت فزعًا من نومى ، وألفيت الدموع تترقرق فى عينى وتنثال على خدى ، فكفكفت دموعى بينما أنا ذاهل مندهشًا ونظرت إلى الساعة فوجدتها الساعة الثانية صباحًا وآويت إلى فراشى مرة أخرى.

ولما نهضت فى صبيحة اليوم التالى فوجئت بالصحف وفى صدر صفحاتها الأولى تنعى إلى المصريين خبر وفاة الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد.

تذكرت الحلم الذى راودنى بل أزعم أن هذا الحلم كان رؤية صادقة التى لأنها صادفت الحقيقة . عندما قرأت الخبر قلت فى نفسى :

مات الذى فى الناس ليس له ند

رحت كما قال الشاعر بعد قرائتى لهذا النبأ الحزين ، فى شبه ذهول كأن يدًا شدت على عنقى فى عنف مهتصر.

كنت مع شدة حبى لوالدى رحمة الله عليه وتقديسى إياه ، وإتخاذى له مثلًا أعلى فى الحياة ، حيث كان قاضيًا عادلًا ومثقفًا واعيًا ، وراوية للشعر جيدًا . ومع غزارة علمه فى القانون إلا أنه كان لا يألوا جهدًا فى قراءة كل كتاب يصادفه ، وكان أبا رائعًا طيبًا حنونًا . إلا إننى مع هذا كنت أعتبر أن الأستاذ العقاد هو والدى الروحى . وكان والدى يطيب له ذلك مني.

اشتركت فى تشييع جنازة الأستاذ العقاد وكنت فى الصف الأول منها حيث ألفيت الكثير من عظماء مصر ومفكريها يسيرون وراء جثمان العقاد وأذكر أن كان منهم العلامة الدكتور عبد الرزاق السنهوري و إبراهيم باشا عبد الهادي و الأديب الكبير يوسف السباعي و الدكتور عبد القادر حاتم وغيرهم .

ورثاه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين بكلمة نشرتها الصحف جميعها وهو يظهر حزنه على موت العقاد وكان من بين ما كتب فى رثاءه أن العقاد ملأ الدنيا وشغل الناس .

وقد تبارى الأدباء والعلماء فى الإشادة به وبفكره بعد وفاته ومن بين هؤلاء كان عميد كلية العلوم بجامعة القاهرة الذى قال :

(مات صاحب أول منهج علمى فى الأدب العربى الحديث) ذكرًا أن العقاد بترجمته لعبارة داورن التى استقرت فى العقول والأفهام من أنه قال فى نظرية التطور إن البقاء للأصلح . مع أن صحة الترجمة كما ترجمها العقاد ورأها داورن

تقول :

إن البقاء للأنسب وليس للأصلح ، وأن ترجمة العقاد لها كانت الأدق والأصح وليس غيرها .

ورثاه أحد الشعراء قائلًا :

قضيت (أبي) وكفنك التراب	وطال عن الحياة لك
ونحن هنا لرؤيتك اشتياقا	يطول بنا لأوبتك
دعونا أن تعود (أبي) إلينا	وما لدعائنا من مستجيب

كما رثاه شاعر أخر يقول فيه:

عصامي عصامي	بنفسك لا عظامي
فأنت الأصل	وخير المجد أصلي
منحت الخلد للماضي	وفيك الحاضر الحي

وقال آخر :

وقفت ، وما وقوفى غير سجدة	لوجه الله حين رأيت لحده
لقد قالوا هنا العقاد يغفو	وهذا قبره قد صار مهده
وهل يسع الثرى من كان أفقا	فسيحا لا تمس الأرض حده؟!
نظرت وليت لى فى الترب	لأشهد منه بعد الموت مجده
حنوث على التراب وبى	أقبله ، وأرجو منه رده

كما قال آخر بما تعيه ذاكرتي:

شــاء بالليــل رحيلـا فرحــل إنـــه كـــان إذا شـــاء فعـــل

كــل شـــيء شــاءه أنفـذه ليتــه عـــن رحلـــة الخلـــد عـــدل

كما رثاه الأستاذ مصطفى أمين :

إننى قد عرفت الأستاذ العقاد صحفيًا ، وقد رأيته جالسًا على مائدة سعد زغلول وهو يجلس على يساره مباشرة وبعده يجلس الوزراء ، وقد لفت نظرى أن العقاد يجلس قبل البشوات ، ولما فاتحت سعد زغلول فى هذا قال لى : كيف يجلس الأستاذ العقاد قبل بشوات مصر؟ . أجابنى سعد : إن العقاد هو صاحب الجلالة أما الوزراء فهم أصحاب المعالى فقط . فصاحب الجلالة يجلس قبل أصحاب المعالي .

ويذكر الأستاذ مصطفى أمين بعضًا من ذكرياته عن هذا الكاتب العبقرى فيقول : كان العقاد كباحث عجيبًا جدًا . اذكر فى يوم من الأيام أن أستاذا بجامعة بركلى بكاليفورنيا اتصل بى تليفونيًا وقال لى : إننى حضرت من أمريكا لأقابل العقاد فاتصلت بالعقاد وأخبرته بذلك . فقال لى يمكنك أن تحضره لى فى اليوم التالى فأخذته معى وذهبنا إلى العقاد . وإذا بأستاذ جامعة كاليفورنيا يقول للعقاد :إننى قرأت ترجمة لمقال لك فى جريدة الأخبار ذكرت فيه إن هناك نوعًا من الحشرات معينًا وأنا أستاذ فى علم الحشرات ولم أقرأ عن هذا منشورًا فى كتاب ظهر فى أمريكا وقام إلى مكتبته وأخرج الكتاب وفتح الصفحة فوجد أستاذ علم الحشرات . المعلومات التى ذكرها العقاد مضبوطة كما قالها:

وفسر الأستاذ الأمريكى الموقف استنادًا إلى سفره للهند لمدة ستة أشهر وهى الفترة التى ظهر فيها هذا الكتاب؟!.

وقال عنه الأستاذ أنيس منصور : (مات أعظم المفكرين العرب فى القرن العشرين) .

انقطعت رسائلى إلى الأستاذ العقاد بانتقاله إلى الدار الآخرة بيد أننى مازلت أهفو بقلبى إلى بيته فى مصر الجديدة حيث كانت مراسلاتى معه . ألم يقل الشاعر :

لك يامنازل فى القلب منازل !

وألم يكن هذا البيت هو الذى كتب عنه العقاد كتابه في بيتي قائلًا عنه:

وبيت الكاتب هو العالم بما رحب ! .

ففى اليوم الذى سكن فيه ونظر من نافذته أعجبه أنه إذا فتحها فلم ير منها إلا النور والفضاء .

والحق إنه لا فضاء حيث يكون النور .

وقديمًا كان يقول إن الأرواح تخف فى النور كما تخف الأجساد فى الماء ، كأنما هى تسبح فيه وتطفو عليه .

فالنور سر الحياة	النور سر النجاة
ألمحه بالروح لا	لمح العيون الخواة
لا تبصر العين من	معناه إلا أداة

أحب العقاد النور حين ينظره وأحبه حين ينظر به وأحبه حين اهتدى به فى عالم البصر ، وأحبه حين اهتدى به فى عالم البصيرة ، وحسبه سر الأسرار ، أو حسبه سبيل الهداية إلى سر الأسرار أوشك أن يؤمن بهذا الحسبان كل الإيمان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الأستاذ العقاد عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو أزجى إليها التحيات مقرونًا بالتمنيات بهذه الأبيات الرائعات :

أهلـــا بنيـــروز وليـــد　　أهلـــا بمـــيلاد ســـعيد
يـــوم جديـــد قلـــت : بـــل　　عهـــد علـــى مـــصر جديـــد
عهـــد تـــصان كرامـــة　　فيـــه وتتبعهـــا جهـــود
لا تـــستذل ولا تـــسا　　م علـــى الهـــوى ســـوم العبيـــد

وهذا هو العقاد العظيم الذى كان دائم الحديث عن الموت لإيمانه بالبعث والنشور:

إذا شيعتمونى يـوم تقـضى منيتـي　　وقـالوا أراح الله ذاك المعـذبا
فلا تحملونى صامتين إلـى الثري　　فـإنى أخـاف اللحـد أن يتهيبـا
وغنـوا فـإن المـوت كـأس شـهية　　ومـا زال يحلـو أن يغنـى ويشـربا
ولا تـذكرونى بالبكـاء وإنمـا　　أعيدوا على سمعى القصيد فاطربا

وها هو ذا العقاد ينتقل بجسده من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية .

والآخرة خير وأبقى .

هذا هو العقاد العظيم الذى كان كما عبر توماس كارليل عن عظمة الرجال بقولته: الرجل العظيم هو البرق الساطع فى السماء ..

.. هذا هو عبقرى الفكر الذى لعب معه الدهر أو كما ذكر الشاعر المهجرى سعود سماحه :

ويلعب فينا الدهر حتى كأننا　　سِفيـن بيم أو قلوع سفين

.. ولكنه بإرداته الفولازية وعبقريته الثقافية بلغ ذرا المجد الأدبى وأصبح خالدا مع الخالدين

بعض المقالات التى نشرت لنا
عن الأستاذ العقاد
نشرت فى جريدتى الأخبار والجمهورية



العقاد وأفول العقل ؟!

فى بواكير هذا القرن ، الذى أوشكت شمسه ان تغيب ، دعت مجلة الهلال المصرية ، عملاق الفكر العربى الاستاذ عباس محمود العقاد ،وعميد الأدب الدكتور طه حسين أن يكتب كل منهما مقالا عن الأخر: عما يعنيه ، وعن فكره وأدبه، ويدلى بدلوه فيه.

وبعد أن أفاض كلاهما على الأخر ثناء وإطراء ، قال الدكتور طه حسين فى معرض نقده للعقاد: إن عقل العقاد أطول من لسانه ورد عليه الأستاذ العقاد قائلا: إنه بالقياس على ما قاله الدكتور طه عنى فإننى أقول: إن لسان الدكتور أطول من عقله! .

أراد الدكتور طه حسين بمقولته السابقة أن يبين أن (الجانب العقلى) يغلب دائما على الأستاذ العقاد فى كتاباته. وهدف الأستاذ العقاد إلى أن يوضح أن الجانب العاطفى يجور على الجانب الفكرى فيما يخطه عميد الأدب .

وفى احتفالية حضرها رهط من الأدباء، وكوكبة من المفكرين، وزمرة من العلماء فى عيد ميلاد الأستاذ العقاد، ،وقد بلغ السبعين ، سأل سائل الدكتور الفيلسوف زكى نجيب محمود عن رأيه فى فرسان الأدب الثلاثة: العقاد ،وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، فأجابه: إن طه حسين يمثل فى كتاباته (الأديب).

وتوفيق الحكيم يمثل (الفنان) أو الفن . كما ذهب مجمع اللغة العربية .أما العقاد فيمثل فى كتاباته (المفكر). وهذا هو مثلث الأدب العربى الحديث.

****

وفى سفره الضخم الفخم غير المسبوق (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) كتب الأستاذ الكبير أنيس منصور من بين ما كتب يقول : كان عقل الأستاذ العقاد كالشمس المتوهجة وكانت عقولنا لها طبيعة الشمع وطبيعة الزبد ،وكنا نخاف عليها أن تذوب فلا نكون شيئا ولذلك كنا نجلس أمامه وقد انحنينا احتراما له. وإخفاء لما عندنا وهو قليل، ووقاية لقلوبنا وعقولنا لولا هذا الخوف على ما عندنا لانفتحنا له اكثر، وتمددنا فى شمسه ونعمنا بظلاله ولكن عذرنا إننا كنا صغارا.

وأردف الأستاذ أنيس قائلا وقد كان يومها يدرس الفلسفة بالجامعة: إن فهم الأستاذ العقاد للفلسفة التى ندرسها أحسن . وأدق . وأوضح .

ومن نافلة القول أن نذكر أن الكثيرين من شأن الأستاذ العقاد أو قل ممن عجزوا عن استيعاب أغوار أدبه نثرًا ، أو أعماق فكره شعرًا ، قد دأبوا يرومون نفى العاطفة عن العقاد، و يرومونه بالعقل دونها، إذ أن العاطفة فى هواجسهم مغيبة لديه ، مع أن الأستاذ العقاد كان يمثل مع عقلانيته وجبروت عقله فيما دبجته يراعته وأفاء به فكره . روح المفكر العبقرى الممتزجة بعاطفة الأديب اللوزعى ، فقد مج مرقمه بالسحر. ينفثه أفانين وألوانًا من الشعر العاطفى الذى يخاطب العاطفة ، والوجدان وإن كان لا يطغى على العقل. فالعقل إمام للآدميين وأولى بالاتباع من كل إمام .

نقول هذا ، وقد أخذنا العجب العجاب فيما قرأناه أخيرًا للدكتور مراد وهبة فى كتابه الذى أسماه (ملاك الحقيقة المطلقة) . فقد جاء فى الصفحة السابعة والسبعين تحت عنوان (العقاد وأفول العقل) ما كتبه من أن فهم العقاد

ل (جوتـة) قـد جـاء فى ضـوء العقـاد نفـسه بلغتـه العربيـة التـى تتميـز بجـرس موسيقى قد يطغى على أبراز الفكرة ولم تجئ فى ضوء التنوير ولا فى ضوء فلسفة (كانت) وأغلب الظن أن العقاد لم يفهم روح القرن الثامن عـشر ألا عـلى أنـه القرن المتعطش إلى المعرفة والحرية ، وهذا ألفـاظ بـلا مـدلول لأن الـتعطش إلى المعرفة والحرية لا يميز هذا القرن وحده وإنما الذى يميزه هو دعوته إلى تحريـر العقل من كل سلطان ما عدا سلطان العقل الأمر الـذى أدى إلى أبـداع الثـورة العلمية والتكنولوجيا .

وتمنـى الـدكتور لـو أن العقـاد قـد جـاء نقـده ل (فاوسـت) مـن زاويـة روح العصـر ، ولكنه لم يفعل . وإنما رد الإنتاج الأدبى لجوته إلى عبقرية جوتة .

وختم الدكتور مراد وهبة مقاله قائلًا ، والعقـاد فى نهايـة المطـاف ، لم يـدرك روح عصـر التنوير إذ يقول عن هذا العـصـر الـذى نـشأ فيـه جوتـه إنـه لم يكـن عصـر إحصاء بل كان عصـر إحاطة وإجمال ، وتمهيد من الإجمال إلى التفصيل .

وأنهى الدكتور مقالة بقوله : وليس عندى من خاتمة توجز ما انتهينا إليه من تحليل فكر العقاد سوى عنوان هذا المقال أى أفول العقل.

****

هل هذا كلام يا دكتور؟! . وهل هذا هو النقد العلمي؟! وهل هذا هـو مـا تعلمه لتلاميذك فى الجامعة عندما يريدون أن يتصدوا لمسألة فكرية أو علمية أو لمقولة فلسفية ، أن يتهموا صاحبها إن اختلفوا هم معه فيها قاله أو كتبه أو رواه بأفول العقـل .! ألـيس يمكننـا إذن أن نقـول للأسـتاذ الـدكتور أن ألفاظـه هـى الأخرى ، كما رمى الأستاذ العقاد ، بلا مدلول (لأن الدعوى) إلى تحرير العقل من كل سلطان ما عدا سلطان العقل كانت هى الأخرى مما يميز القرن الـسابع عشـر . وكذلك القرنين الخامس عشـر والسادس عشـر ، وقد ظهر فيهما العديد من المفكرين والعلماء الذين أحدثوا انقلابا فى تاريخ العلم والتكنولوجيا ، فقد

كان (كوبرنيقوس) هو العالم الذى قام بالانفلاق الأكبر عن الماضى مبشرا بمجيء عصر العلم الحديث مع بدايات اهتياج تمخض عنه أعظم كشوف القرن الخامس عشر: اكتشاف أمريكا وما تلاه من إبحار حول العالم عن فكرة كروية الأرض من استنباط عقلى إلى واقع عينى فى نهاية القرن الخامس عشر وألف كتابه العظيم حول دورانات الكرات السماوية فى منتصف القرن السادس عشر كما ظهر (فبياليوس) الذى فجر ثورة فى علم التشريح ، كما اكتشف (ويليام هارفي) الدورة الدموية ، أو بالأحرى حل مشكلتها ، كما نشر الإيطالى (فانوكير بيرينجيكو) عام ١٥٤٠ بحثه حول استخدامات النار فى العمليات التقنية . كما كان هناك فى عالم الرياضة (كبلر) و (بيزاجاليليو جاليلي) و(روبرت هوك) و (فرانسيس بيكون) وغيرهم من العلماء الذى أحدثوا ثورة فى كل مجالات العلم المتباينة .

وفى غضون القرن السابع عشر ومنهم اسحق نيوتن الذى ابتكر حساب التفاضل والتكامل ناهيك عن نظرية الجاذبية الأرضية .

****

ثم أليس من الثابت يادكتور مراد أن مظاهر التطور فى حركة النقد الأدبى والتى كانت بمثابة الثورة العاتية على الكلاسيكية كما عبر الأستاذ الدكتور محمد زكى العشماوى قد تبلورت فى القرن الثامن عشر (وفى مذهب جديد) ، كان أبرز صفاته التحرر والفردية . ومحاولة سبر أغوار النفس الإنسانية ، واكتشاف أفاق جديدة لإسرار الابتكار والإبداع ؟ .

فيم إذا كان خطأ الأستاذ العقاد فيما ذهب إليه على نحو ما قلته : من أن الأستاذ العقاد لم يفهم روح القرن الثامن عشر ، إلا على أنه القرن المتعطش إلى المعرفة والحرية؟! وهل يميز القرن الثامن عشر وحده بدعوته إلى تحرير العقل من كل سلطان ماعدا سلطان العقل كما قلت؟! .

قال فولتير : إنى أختلف معك فى الرأى ، ولكننى مستهد لأن أدافع عن رأيك أنت حتى الموت ؟!.

ألم يكن من اللائق يا دكتور وهبة إذن أن تختلف مع الأستاذ العقاد دون أن تصمه بأفول عقله؟! .

كما كنا نود وأنت الأستاذ الكبير أن تيمم وجهك شطر هذا ، وإلا تكون كمثل الذين (قتلتهم أشعارهم) ، أو ياترى هل أردت أن تقول للأستاذ العقاد ما قاله الشاعر إيليا أبو ماضى للبحر فى قصيدته العصماء (الطلاسم) :

إنما أنت بلا عقل ، ولى يا بحر عقل فلماذا يا ترى أمضى وتبقى؟

لست أدرى ! .

****

المقال الثانى
العقاد عبقرية علمية

من المسلمات وأيضًا من البديهيات التى يلحظها البصر ولا تخطئها البصيرة أن السماء تبدو على البحر أعظم مما هى ، كما لو كنت تنظر إليها من سماء لا من أرض؟

ومن عجب أن السماء ذاتها كما عبر أديب مصر مصطفى صادق الرافعى وهى فوقنا فى كل مكان يرتحل الناس إليها فى الأماكن الخالية لى يروها مع أشياء أخرى فى هاتيك الأماكن فهى تبدو المرائى حينئذ . أكثر صفاء ، وأشد نقاءه وأبهى ضياء؟

وقد يكون مرد ذلك فيما نرى أن من يرى عن قرب لا يرى بوضوح فالإنسان بحاجة لكى يمعن نظره . وينعم فكره فى قيمة أى شئ أن يبتعد عنه قليلًا حتى يتسنى له أن يراه من بعد على حقيقته وفحواه .

وقد باعد الزمن بيننا وبين عبقرى الفكر المصرى والعربى الأستاذ عباس محمود العقاد الذى رحل عنا فى مثل هذا اليوم منذ خمسة وثلاثين عامًا بعد أن (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما عبرعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى رثائع بجريدة الجمهورية آنذاك كان الأستاذ العقاد ولا يزال ، بل وسيظل ملء الأرجاء والأجواء بيد أنه أصبح اليوم بعد أن بعد عنا كالسماء البادية على صفحة مياه البحر المترامى الأطراف تتسع وقعتها ويشف منظرها للرائى من بعيد . فهاهوذا العقاد العظيم يصبح كالمعين الصافى يفيض ولا يقيض يتسابق الزمرة من البلغاء والمفكرين والأدباء ناهيك عن العلماء ، فى الكتابة عن مواهبه المتعددة وإثارة المتوهجة . تؤلف عنه الكتب ، بل والوسائل العلمية

الجامعية التى تترى يومًا يعد يوم عن فكره ، وأدبه ، عن شعره ونثره ، فى شتى مناحيه ، وفى مختلف فلسفته ومراميه .

وإذا كان (شيللي) قد أعتنق القول القائل : (وطنى هو العالم) فقد أمن العقاد بأن : (وطنه هو الكتاب) .

ألم يعلمنا الأستاذ أنه لا غنى للأديب أو العالم عن الألمام بغير ثقافته الخاصة ليصبح الحكم على حقيقة من حقائق المعرفة العامة؟ .

ومن هنا دبجت يراعه كتابه الجميل الجليل (فى بيتي) وجعل له مقدمة يقول فيها : وبيت الكاتب هو العالم بما رحب ؟ .

ألم يقرأ ، ويقرأ حتى . فى الكتب العلمية المتخصصة حتى بن أقرانه رفاق أترابه وجعل الزعيم سعد زغلول يصفه بأنه جبار القلم ؟ .

وأنظروا إليه وزعيم الأمة سعد يعتب عليه والعقاد ينعى عليه نسيانه لمسألة حالة بالسودان الشقيق : لو عاتبنى كل فرد فى الأمة عتابك . لما نجوت من العقاب . ويرد العقاد العظيم : ولكن لبس كل فرد فى الأمة يا باشا ، هو عباس العقاد ؟ .

ومن أوجز وأشمل ما يمكن أن يوصف ب العقاد أنه (أديب فى ثوب عالم . وعالم فى ثوب أديب) فهو على كثرة ما كتب وعلى وفرة انتاجه الأدبى والشعرى فإن الكثيرين يجهلون أن العقاد كان ذا ثقافة علمية خاصة عالية وأنه أول صاحب (منهج علمي) فى الأدب العربى الحديث؟

فهو أول من أثبت تأثير العلم على الأدب كما سوف نرى .

يقول العقاد : الثقافة اليوم تنقسم إلى علمية وأدبية ، بنى (عالم) لا يعرف شيئًا عن (هوميروس و(فرجيل) . وأديب لا يعرف شيئا عن المادة ونظان الأفلاك .

وكلاهما نصف إنسان، ، أما الإنسان الصحيح فهو الذى يعرف العلم ، ولا يجهل الأدب ، أو يعرف الأدب ، ولا يجهل العلم . وأن لم يبلغ منهما معًا مبلغ التخصص والامتياز ثم يردف قائلًا : لقد قيل أن المتخصص نصف إنسان . فقل ولا حرج : كلا ولا هو نصف إنسان وإنما هو كما قال نيتشه : أذن كبيرة أو لسان طويل ، تمشى به قدمان؟! .

ومن هنا جاءت عبقرية العقاد العلمية التى فاق بها المتخصصين وبز بها المتعمقين فى مجال العلم نفسه .

فكان أول من صحح مقالة (داروين) التى شاعت وذاعت على ألسنة الخاصة قبل العامة والتى نسبت إليه خطأ : (البقاء للأصلح) ليعلنها أن داروين لم يقل بهذا وإنما قال البقاء للأنسب وليس للأصلح فإن الإنسان يموت وهو الأصلح ويحيا الميكروب وهو الأنسب ؟ . وعندما يعترض العقاد على تهليل بعض العلماء الأمريكيين على اكتشافهم لذبت أخضر على سطح المريخ يثبت وجود حياة على أرض هذا الكوكب . فينبر له أستاذ علم الفلك فى جامعة القاهرة يريد أن يدهشه أو يعلمه أن هناك عالمين أحدهما يدعى (برسيفال) والثانى يسمى (لويل) قد قالا بهذا يرد العقاد على أستاذ الفلك : أن هناك عالمًا واحدًا فقط وليس عالمين .

يدعى (برسيفال أويل) ؟؟ ثم يزيد أن ما أكده دكتور الفلك جاء منفيًا فى كتب الثقات من الفلكيين وأخرهم أكبر عالم فى علم الفلك ويدعى (شباريلي) فى كتاب بلغ من نبوغه وانتشاره أنه كان مثاو التقريظات الصحفية والإذاعية فى أوربا وفى أمريكا والعقاد أول من كتب عن (البحث العلمي) فى (تاريخ الأدب) وسلط (قراءاته العلمية) على كشف أسباب وفاة أمرئ القيس وابن الرونى من الأقدمين وجمال الدين الأفغانى ، وعبد الرحمن لكواكبى من المحدثين ، فحلل أسباب وفاتهم باستخدام علم الطب . وعلى غبر مادون عنها

فى كتب السيرة وفى كتب التاريخ وهو نفسه العقار الذى ألم به المرض . فرفض أن يعالج خارج الديار . (لأنه لا علاج له) . وشخص حالته المرضية بدقة حتى أن عالمًا طبيًا كبيرًا هو المرحوم الدكتور أنور المفتى قال للكاتب الكبير أنيس منصور الذى كان أول وأخر من عاده : أن تشخيص العقاد لمرضه لا يعرفه واحد فى المائة من الأطباء المتخصصين .

وعندما مات العقاد كتب الأستاذ أنيس منصور يقول :

لقد قضى العقاد الطبيب ، على العقاد الأديب؟! .

رحم الله العقاد العالم الأديب فى ذكرى رحيله

المقال الثالث

فى ذكرى ميلاده ٢٨ يونيو (١٨٨٩)

صاحب الجلالة عباس محمود العقاد ؟!



عندما زار الأستاذ الإمام محمد عبده (عبقرى الإصلاح والتعليم) ، كما وصفه الأستاذ العقاد و أسماه فى كتاب له تناول فيه بالتحليل الدقيق حياته وآثاره مخلدا به ذكراه المدرسة التى كان يتنظم بها الأستاذ العقاد فى المرحلة الابتدائية بأسوان ، وقرأ موضوعًا إنشائيا له ، تهلل وجه الإمام وهو يقول : ما أجدر صاحب هذا ، أن يكون كاتبا بعد !.

وتمر سنوات قلائل قصار ، ويبزغ ضوء كتابات العقاد ، وأشعاره كالمنار الذى يهدى من يمخرون عباب البحر فى الظلمة الظلماء ، وفى الليالى الداكنة السوداء.

ويتقلد سعد زغلول نظارة المعارف العمومية عام ١٩٠٦ ليصلح من شأن التعليم الذى كان الفساد قد اعتوره ، واستشرى فيه جراء سياسة دنلوب الإنجليزى ، بعد إذعان الإنجليز للحركة الوطنية وقبل عزل (كرومر) بسنة واحدة . . ويذهب أستاذنا العقاد للقياه ، ليجرى معه حديثًا وقد أجراه ليكون بهذه المثابة أول صحفى مصرى يدير حوارًا مع الوزير الجديد ، الخطير، وكان هذا الحديث . . حديث الطبقة المثقفة فى مصر آنذاك، ويدأب هو فى كتاباته الرصينة ، وقرض أشعاره الجزلة العميقة ، فارضا ذاته على الحياة الثقافية والاجتماعية بقراءته الرشيدة ، الغزيرة ، المتنوعة ، وموهبته بل مواهبه العقلية المنفردة ، وشخصيته العنيدة المتمردة التى قدت من صخر أسوان بما يفصح عن مكنون عبقربته ، التى إنثالت منها تواليفه فى الأدب والشعر والفكر والتاريخ ،

فهو أديب ، وشاعر ، ومفكر ، ومؤرخ ، وقاص ، عالم من علماء النهضة المصرية فى القرن العشرين .

الذى شهد مولد العباقرة وسمى بحق جيل العمالقة هذا الجيل الذى أخرج مصر من دياجير الظلام إلى عالم النور.

و تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها ، تجابه مصر بأقوى دول الأرض قاطبة. هكذا كانت بريطانيا وقتها : إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس ، تقبض على ربع الكرة الأرضية ، ذات قوة عسكرية ، وذات بأس فى البر والبحر كما عبر الزميل النابغ المستشار طارق البشرى فى كتابه القيم سعد زغلول مفاوضا .

ونتدلع ثورة ١٩١٩ بقيادة زعيمها سعد ، وتتأجج نيرانها ، ويشتعل أوارها رافضة بقاء المستعمر الدخيل على أرضها . ويصبح هو لسانا من ألسنتها ، ثم قلمها الجبار الذى لا يشق له غبار وتتوطد أواصر الصداقة ووشائج المحبة بينه وبين قائدها الفلاح العبقري كما أطلق عليه الدكتور حسين مؤنس فى كتابه الرائع عن ثورة ١٩١٩ ، وكما وصفه العلامة إميل لودفيج فى سفره الجليل النيل . ويدعوه الزعيم إلى (بيت الأمة) ويجلسه على يمينه ثم يتناثر من بعده الكبراء والعظماء ، ويحتج الطفل (مصطفى أمين) على (خال والدته) سعد زغلول قائلًا : أليس هذا مخالفًا (للبروتوكول) أن يجلس عباس (أفندي) العقاد بجوارك قبل وجهاء الأمة وعلية القوم؟ . ويجيبه سعد: إنه ليس عباس أفندى ولكنه صاحبة جلالة .

ويمضى العقاد فى كفاحه الأدبى ، وتألقه الذهنى وجرأته فى سبيل الحق . ويتكسر على نصال قلمه كل من يحاول أن يفتئت على هذا الحق ، حق مصر فى أن تحيا حياة حرة عزيزة .

وعندما قام إسماعيل صدقي بتعطيل العمل بالدستور وقف النائب «عباس محمود العقاد ليقول: يا حضرات النواب إن رأى مجلس النواب لا يمكن أن يكون مجهولا لحظة واحدة بعد البيان الذى أدلى به حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء، لأن الأزمة ليست أزمة وزارة فحسب، بل هى أزمة مجلس النواب نفسه بل أزمة الدستور المصرى ألا فليعلم لجميع أن هذا المجلس مستعد لأن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته. وعلى العكس من أغلبية أعضاء المجلس الذين استقبلوا العبارة الأخيرة، بالتصفيق الحاد المتواصل، تنبه «ويصا واصف» رئيس المجلس إلى خطورتها فصاح معترضا: ما هذا يا أستاذ «عباس أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام واستمر «العقاد فى كلمته بعد أن أمر رئيس المجلس بحذف العبارة من المضبطة يقول: مازلت أكرر أننا جميعا مستعدون للتضحية محافظة على الدستور ومقاومة كل من يعبث به، وأن البلاد جميعها على أتم استعداد للتضحية، لأن الأمة قد جاهدت فى سبيل الحصول على الدستور ستين عاما .

واستل العقاد قلمه وسلط سياط مقالاته يكوى صدقى بها كيا ، على حد تعبير الدكتور شوقى ضيف

ويتولى محمد محمود (باشا) دفة الحكم ليعلن أنه سوف يحكم مصر بيد من حديد . ويشرع العقاد قلمه أو سيفه فى وجه الطاغية الجديد هازئا به ، فى مقال له : يد من حديد فى ذراع من جريد ؟!.

ويتهم بالعيب فى الذات الملكية ويساق إلى غياهب الجب ، ويمكث بين جدرانه تسعة أشهر يؤلف خلالها كتابه القيم عالم السدود والقيود الذى هو عبارة عن أنشودة بديعة فى الحرية ويخرج من محبسه وهو ينشد أمام ضريح سعد زغلول وبين رهط من كبار رجالات الدولة يتقدمهم الزعيم مصطفى النحاس ، وقد جاءوا برمتهم للترحيب بكاتب الشعب عباس العقاد :

وكنت جنين السجن تسعة أشـــهر وهاأنذا فى ساحة الخلد أولـد

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهم سيعهدنى كل كما كان يعهد؟!

****

ويشتجر الخلاف بينه وبين زعيم الأمة مصطفى النحاس لاستنكاره لسياسة الوفد والتى رآها مغايرة لسياسة الوفد إبان رئاسة سعد زغلول له على يد رئيس الوزراء محمد توفيق نسيم .

ويضرب العقاد عرض الحائط بالصلات الطيبة التى تربطه بزعيم الأمة مصطفى النحاس ، وينحى عليه باللائمة فى هجوم قاس شديد ، معترضًا على هذه السياسة فينبرى له النحاس غاضبًا : أنا زعيم هذه الأمة ويرد العقاد عليه قائلًا : وأنا كاتبها بحق الوحى الإلهى ،ولن تنتهى برية هذا القلم حتى أكون قد أسقطت وزارتك؟!

وتقذف نيران الحرب العالمية بحممها ، ويدق (هتلر) وجنوده أبواب مصر. ويطلب البعض من زعماء مصر الأمن والأمان . . ويؤلف هو كتاب (هتلر فى الميزان) يشرح فيها شخصية الزعيم النازى المصاب بجنون العظمة ويتنبأ فيه بالفشل والهزيمة ويتهدده هتلر وجنوده بالويل والثبور وعظائم الأمور ، فيشد العقاد رحاله إلى السودان ، ينتهى هناك من كتابه عبقريًا عمر .

ثم يكمل سلسلة عبقرياته التى فتح بها بابا جديدا فريدا فى الأدب العربى الحديث (ما ان تذكر حتى تشكر). فهى مرتبطة به ارتباطًا لا يقبل التجزئة ، فهى نؤكد عبقريته فى استكناه أسباب العظمة ، وتحليله الدقيق الموغل فى سير أغوارها ، يتقلد إمارة الشعر من عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى ألقى خطابًا فى مؤتمر ضم أدباء مصر قال فيه : إننى أقلد الأستاذ العقاد إمارة الشعر فى مصر ، ضعوا أيديكم فى يده وقلده إياها .

كان هو وزميلاه قد فتحوا بابًا جديدًا للشعر من خلال مدرسة الديوان التى أنشاؤها وعابوا على الشعر فيها اهتمامه بالألفاظ دون المعانى ، وكان العقاد هو صاحب القدح المعلى ، واليد الطولى فيها من هنا جاء شعره فى دواوينه العشرة التى جادت بها قريحته شعرًا عميقًا يملأ ساعات العمر ويغنم به القارئ عمارًا من المتعة والبهجة والنشوة الرقيقة التى تضاف إلى الأجل المحدود كما عبر الأستاذ الأديب فاروق شوشة فى كتابة (مختارات من شعر العقاد) .

ويرتبط اسم العقاد (بأبولون) Apolon رب الضوء والفنون والحضارة وبصفه النقاد والأدباء بعملاق الأدب العربى .

وينال جائزة الدولة التقديرية ويقف أمام الرئيس جمال عبد الناصر فى عيد العلم وكان كاتب هذه السطور من بين المكرمين فيه ليلقى كلمته أمامنا ، فماذا قال؟

قال: إن جوانز الدولة مرادفة فى معناها لجوائز الأمة وإن تقديره من قبل أمته اشتراك معه فى الفهم والإفهام ومعاونة له على الفيض والإلهام .

ثم يردف قائلًا : فى عزة القاضى الجليل، وأنفة المفكر الأديب اللبيب :

إن جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم ، وإن جوائز الدولة مرادفة فى معناها لجوائز الأمة .

وهكذا كان العقاد يرتفع دائما بقيمته الفكرية وقيمة أى مفكر فى كل مكان وزمان من خلال اهتمامه بكرامة المفكر ، ومبدأ (الحرية) التى آمن بها العقاد ايمانا راسخا ، حتى أن البعض اعتبره ممثلًا لهذه الحرية بأجلى معانيها وعلى سبيل المثال لا الحصر وصفه كاتب مصر العالمى نجيب محفوظ بأنه (الحرية بكل ما تعنى من أبعاد) .

(فهو) الحرية إذا التمسنا لشخصيته فكرة يرمز بها إليه . . فالحرية هى الجمال فى فلسفته وهى الديمقراطية فى سياسته ، وهى الفردية فى رأيه الاجتماعى ، وهذه هى القيم التى دافع عنها وسجن فى سبيلها واضطهد كثيرا من اجلها . ومنها استلهم أدبه على تعدد جوانبه فكان رائدا كبيرا من رواد الشعر الرومانتيكى الثائر ، وكان ناقدًا فذًا يدعو إلى تحرير العقل والشعور من سلطان السلف والتقاليد وكان كاتب سيرة يؤمن بالعبقرية باعتبارها القوة الخالقة وسط الأحداث والمجتمعات وكان قصاصا تحليليا سيكولوجيا من طراز عال فى قصته سارة (راجع سامح كريم العقاد فى معاركة السياسية). فلا غزو إذن أن نجده يعتز بكرامته أشد الاعتزاز أليس هو القائل. أعترف أنى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى اعترف كذلك أننى لا أطلبها لقاء ثمن يهيض من كرامتى . وإننى إذا أحسست أن إنسانا يعتز بشهادة يبذلها ، أو شهادة يمنعها ، فلا نصيب له عندى غير التحدى ، الذى يذهب به إلى الحائط ، ولتذهب الشهرة ، وليذهب الخلود معها الى الشيطان . كان رحمة الله يردد مقولة له ، ويكررها بالإنجليزية Dignity is the best policy ، أى أن الكرامة هى السياسة المثلى وعن هذا يعبر : الكرامة هى التى تسعدنا حين نحسن ونظفر ، لأننا نفقد ما نفقد ، ونفضل آخر حفظناه ، وهو أعزوا علينا مما ضيعناه .

جدير بنا نحن المصرين جميعًا أن نتوجه بالتحية والتقدير، لعملاق الفكر المصرى والعربى القدير فى يوم مولده .

المقال الرابع

خواطر قاض ردًا على خواطر مؤرخ !.

لا مشاحة فى أن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال فى باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق .

ويردف العلامة ابن خلدون قائلًا : ان فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها، خلقها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم وابتدعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولادفعوها فالتحقيق قليل ،وترف التنقيح فى الغالب كليل .

ولقد اختلف العلماء فى تفسير معنى التاريخ على نحو ما ذكره صاحب كتاب المدخل إلى علم التاريخ بين ما يراه السيوطي هو ربط الأحداث بالزمن أو هو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث، وبين من يراه نظرية المعرفة تلقى ضوءًا على حقيقة هاتيك الأحداث، وثمة نفر آخر السخاوي يذهب إلى أنه العلم الذى يهتم بالنشأة والميلاد والتطور عبر الزمن ، أما كولن جود فيقول : أن علم التاريخ هو نوع من أنواع البحث العلمى بهدف

الكشف عن جهود الإنسان فى الماضى معتمدًا فى ذلك على تفسير الوثائق .

ومن أوجز وأشمل ما قرأناه فى هذا الخصوص هو ما قاله الأستاذ العقاد عن التاريخ التاريخ هو عرض الإنسانية .

ومن هنا فإن المؤرخ أو حتى الهاوى للتاريخ يجب أن يتوخى الدقة فيها يكتب يستبطن ما قد يظهر ويستظهر ما قد يبطن ، نأيا بنفسه عن الجموح والجنوح بخطأ يشغب به على القواعد المقررة ، بما يغشى به أفكار العامة ، أو بما يمس به ، أعراضا فى يومها الحاضر ، أو فى أمسها القريب ، أو فى غدها الموشك ، ويقع الناس صرعى الأوهام والخيالات ، وكم من الناس قد اعتمد على الخيال وأقام به الرواسى من الجبال .

نقول هذا بمناسبة ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان وتحت عنوان : الأستاذ العقاد لم يكن ملاكًا والمنشور بجريدة الجمهورية فى ٢٩/ ٧/ ٢٠٠١ ، إذ قال : إنه يعجبه كثيرًا البرنامج التليفزيونى الذى تقدمه السيدة جميلة إسماعيل على القناة الأولى فى التليفزيون المصرى الذى يختبر معلومات الشعب المصرى عن الشخصيات المصرية المشهورة وتقدم فيه فى النهاية للفائز هدية على الطريقة القرداحية جورج قرداحي أكثر تواضعًا قد لا تتجاوز صينية بسبوسة أو كنافة ولقد تركزت الحلقة الأخيرة من تلك البرنامج على شخصية محمود عباس العقاد كذا ! الذى كانت تدور حوله هذه الحلقة التى ركزت على سجن العقاد بسبب عيبه فى الذات الملكية وتقصد الحلقة بذلك عندما وقف العقاد فى مجلس النواب يوم ١٧ يونيه ١٩٣٠ بعد أن أعلن رئيس الحكومة مصطفى النحاس باشا استقالته بسبب عجزه عن تقديم مشروع محاكمة الوزراء فألقى العقاد عبارته الشهيرة ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته فلو قدمت المذيعة حياة العقاد كاملة لعرفت أنه بعد سبع سنوات فقط انقلب

على هذا الموقف وعلى الحياة البرلمانية وعلى الدستور ووقف يساند الملك فاروق فى أخطر معركة دستورية شهدتها البلاد وأخذ يجند كل ما يملك من قوة منطق وبلاغة حجة فى الدفاع عن (حقوق الملك) ، ضد (حقوق الشعب) ! فقد زعم فى إحدى مقالاته أن الضمان الوحيد للحقوق الدستورية فى أيدى الملك الكريم حرسه الله ! ذلك هو الضمان الذى لا خطر فيه على أحد بل فيه الوقاية من جميع الأخطار ، إنه الضمان الذى يفديه المصريون بأرواحهم وأموالهم فيفدون أنفسهم ويفدون بلادهم ! وفى مقال آخر ادعى العقاد أن حقوق الملك هى حقوق الأمة! تغار عليها كما تغار على أعز الحقوق الدستورية لتوطيد الأمور وحماية الناس من أغلاط الوزارات على توالى القيام والسقوط ، وأضاف : هنا يتجلى لنا أن الأمة تحمى الملك لأنه يحيمها ! وتضمن حق الملك لأنه يضمنها وترفع حق الملك على حقوق أخرى لأنه الحق الباقى لها على تعاقد العهود وتتابع الأحزاب واختلاف الميول والأحوال وواضح هنا أن العقاد انقلب على موقفه انقلابًا تامًا وب ١٨٠ درجة ! ومن هنا فالمطلوب دائمًا لإنصاف التاريخ تقديم صورة الشخصية للناس بما لها وما عليها مع تفسير المواقف وليس تبريرها ! بدلًا من تقديمها فى صورة ملائكة لا يخطئون ولا يزلون ! فالأستاذ العقاد كان أستاذا (ولكنه لم يكن ملاكًا) !.

هذه خلاصة ما كتبه الأستاذ الدكتور رمضان قد جاء على شاكلة خلاصة المحاكمات فى قضايا الجنايات اشبه بعنوان كتاب سرمرست موم فى كتابه SUMMING UP

ولما كان ذلك ، وكنا نؤمن بآبدة والآبدة هى جمع آوابد وهى الكلمة التى تذهب فى اسماع الزمن مذهب الخلود . يقول : على بن ابى طالب كرم الله وجهه الساكت أخو الراضي ومن ثم ، وأخذا بمذهب الامام على ، فإننا نوجز القول ، ردًا على الأستاذ الدكتور ،فنقول : إنه قد سبق وأن تطاول المتطاولون على الأستاذ العقاد بمثل ما ذكره الدكتور رمضان ومنهم الأستاذ سلامة

موسى ، والأستاذ فتحى رضوان ،إذ رماه الأول بأنه أى الأستاذ العقاد هو والدكتور طه حسين ، والدكتور هيكل كانوا من الكتاب الملوكيين ، وذلك لسبق مدحهم للملك فاروق ملك مصر السابق ، وتكفل الأستاذ بالرد على الأول إبان حياته ففند مزاعمه ، وأورد فى رده سبق مدح الأستاذ سلامة موسى نفسه للملك فاروق وأما الثانى فلو يكن العقاد على قيد الحياة لكى يجهض رأيه ذاك ، ومما قاله الأستاذ العقاد ردًا على هذه الشائعة ما دبجته يراعته أما فاروق فقد لعنا أباه حرفيا وهل سمع أحد أننا زحفنا على بطوننا إلى عرشه يوم كان له عرش تزحف إليه البطون ممن تعلمون ولا تعلمون؟ ، إنه على هيامه بذكرى أبيه فقد تقرب إلينا ولم نتقرب إليه ، وسألنا أن نستقبله فى بعض المناسبات يوم كان الناس جميعًا يمدحونه ولم يكن أحد يعيبه سرا ولا علانية ، فقدمنا له النصح فى قالب المدح ووصفناه بما ينبغى أن يتصف به من الحرص على الرعية وصيانة الإستقلال والحرية ، ولم نطلب أن نلقاه ألا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء .

وهذه سجلات القصر محفوظة يرجع إليها من يشاء ، وفى هذا يقول الأستاذ المحقق سامح كريم أن موقف العقاد من الملك السابق فاروق يتضح من هذه العبارة الصغيرة وكذا موقفه من أبيه الملك فؤاد الذى كان يرى انه لا بد أى العقاد أن يكون : كبرناردشو الذى دعى لزيارة الملك جورج فأجاب : بأنه يكون سعيدًا إذا زاره الملك فى بيته ، لا أن يكون كالمتنبى الذى كان العقاد يستصغر عظمته ، تلك التى تخنقها تبعيته للأمراء وإن كانت هذه التبعية للعيش الرغيد المألوف فى عصر المتنبى

ومن الثابت أن الأستاذ العقاد قد دعى لإلقاء قصيدة فى حفل ملكى أقيم بالصحراء الغربية بوصفه عضو البرلمان النائب عن هذه الدائرة وألقى القصيدة وكان تعليق الملك السابق فاروق عليها موجهًا كلامه للأستاذ العقاد لماذا لم

تكن تقول هذا الكلام فى عهد أبى الملك فؤاء؟ فكان رد العقاد على هذا التعليق الملكى أنه قد خرج على التقاليد الملكية وشق الصفوف منصرفًا عن الحفل قبل أن ينصرف عنه الملك بل وغادر المنطقة كلها إلى القاهرة .

ويبقى السؤال الذى أورده الأستاذ كريم ، يزداد حدة وعنفا أو تزيدا وتجاوزا حين يطلقه فتحى رضوان كالرصاص على العقاد وقد أصبح جثة هامدة، ، لماذا كان يمدح العقاد فاروقًا؟ ونسج على عنوان ذلك الكاتب الناقد الأستاذ رجاء النقاش ، والحقيقة التاريخية تنهض بجلاء من خلال تاريخ مصر السياسى لتقول : أن ثمة معركة حامية كانت قد نشبت بين العقاد والوفد أثر خروج الوفد عن خط زعيمه سعد زغلول ، متبعة فيما ذكره المؤرخون لتلك الفترة سياسة الرجل الفرد أو الحكم الدكتاتورى ، وكان من أبرز مظاهرها تكوين فرق القمصان الزرق لتكون يده التى يبطش بها لكل مخالفيه ، وعاثت تلك الفئة فسادًا فى البلاد ، وضاق بها العباد الذين شكوا ، فما أصغت الوزارة إلى شكواهم ومازال الأمر يتفاقم حتى لجأ الناس إلى الملك ليدلى فى هذه الحالة بدلوه وكان النحاس يرفض تدخل الملك محتميًا بالدستور ووقف الملك مكنوف اليدين ، وهنا ظهر العقاد أو هرقل كما أطلق عليه الدكتور لويس عوض وأعلنها صيحة مدوية من أجل اصلاح الوضع الخاطئ ومما قاله الأستاذ العقاد آنذاك أن قيام القمصان الرزق لا يخالف الدستور وحسب بل هو يخالف الديمقراطية فى صميمها وهى شئ أعم من الدستور وأولى منه بالغيرة والصيانة ومتى كان حق الوزارة أن تحكم على الطريقة الدكتاتورية وهى لم تتسلم الحكم إلا على اعتبار واحد وهو إنها وزارة ديمقراطية؟ وهل فى الدنيا أعجب من قيام وزراء دكتاتوريين فى عهد ملك دستوري؟ ثم أردف العقاد قائلًا من حق صاحب الجلالة أن يشير بيده فى هذه المسألة لأنه قائد الجيش الأعلى فيحق له أن يصون سمعة الجيش وأن يمنع قيام هيئة عسكرية غير الهيئة

التى هو قائدها وحافظ نظامها وقد تساءل سائل بحق أين كان فتحى رضوان عام ١٩٥٤ يوم أن قال العقاد : أما فاروق فقد لعنا أياه على النحو المذكور آنفًا، لماذا لم يرد رضوان آنذاك على العقاد؟؟.

وقد كانت الفترة التى كتب فيها الأستاذ العقاد ماكتب فى وقت كان الناس يتطلعون مشوقين لتولى الملك فاروق سلطته الدستورية ذلك لأنهم رأوا فى الملك الشاب من يمن الطالع ما جعلهم ينظرون للمستقبل بعين ملؤها الأمل والرحمة وقد أحاطوه بعاطفة ، وكما عبر الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه مذكرات فى السياسة المصرية ص ٣٥٤ بعاطفة من الحب الصادق لما نجم عن هذا الشاب من براءة وطهر ومن الرجاء الخالص لله أن يجعل عهده عهد حرية وسعادة للمصريين جميعًا ، راجع الدكتور عبد العزيز شرف ، عصر العقاد ص ٣٢٨ فيما أثبته بخصوص خروج الأستاذ العقاد عن الوفد .

ولعل من المفيد أن نذكر كيف كان موقف الأستاذ العقاد من الرئيس جمال عبد الناصر الذى رأى فيه حاكمًا مطلقًا ويرى أن اختياره لرجاله ليس اختيارًا للموهبة أو الكفاءة إنما هو يختار الذى يريحه ، أو الذى ينحنى له ، ويذكر الأستاذ أنيس منصور فى هذا الخصوص فى كتابه غير المسبوق فى صالون العقاد كانت لنا أيام أن الأستاذ العقاد بعد حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب فى سنة ١٩٦٠ أرسل له الكلمة التى سوف يلقيها أمام الرئيس جمال عبد الناصر لكى يعيد كتابتها على الآلة الكاتبة فقراها وأنزعج فلم يجد بها كلمة واحدة عن الرئيس جمال عبد الناصر أو حتى عن الثورة لافى أولها ولا فى أخرها؟! ، وشاطره هذا الانزعاج المرحوم الأستاذ كامل الشناوي .

وإن ننسى لا ننسى ما كتبه الأستاذ رجاء النقاش مهاجمًا الأستاذ العقاد فى هذه الفترة متهما إياه بأنه الكاتب الوحيد الذى لم يكتب حرفًا واحدًا عن ثورة ٢٣ يوليو ، أنظر ايها القارئ العزيز ، ماذا كان رد الأستاذ العقاد عليه؟ وأنا هنا

انقل من الذاكرة قال الأستاذ العقاد له : إن الثورة التى تعتمد فى تأييدها على كاتب مثلك لهى أضعف الثورات؟؟!.

ثم هل لنا أن نتساءل ونوجه سؤالنا للأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان الذى نكن له المودة والتوقير وهو يعرف ذلك سلفًا أين كنت يا دكتور عبد العظيم إبان الحكم الدكتاتورى للرئيس جمال عبد الناصر ، كما أسميته أنت؟ ولماذا لم نقرأ لك كلمة واحدة عن نقدك له أو لسياسته على النحو الذى سودت به الصفحات الطوال عنه ناقدًا ومحللًا ومفسرا ومهاجمًا له ، فى جميع ما كتبته عنه؟ قد تقول أنك لم تمدح ولكن الجميع يقولون أنك قدحت وبعد موت عبد الناصر؟! أين كنت إذن يا دكتور؟!.

قمين بنا إذن أن نعطى لكل إنسان حقه بعد البحث والدرس والفحص والتمحيص ، فيما قد يلغط به من بعض الشانئين عن زعمائنا وعلمائنا وأدبائنا الذين يفنون أعمارهم فى خدمة البلاد ، فى أكثر الأحايين بغير دليل يكفى لإدانة متهم فى قضية مخالفة على حد تعبير أستاذنا العقاد فضلًا عن أبناء الوطن المخلصين؟ فهناك الإشاعات التى تذاع وتشاع حقدًا وغلًا وافتئاتا على كرامة الخلصاء والشرفاء ، وهم منها براء يسقط كذبهم من الأقلام و يسرى بهتانهم على الأفواه بغير دليل ، أو قد يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، وهم يدافعون عن أنفسهم بإتهام الأخرين ، ويقينًا فإن الدكتور عبد العظيم رمضان المؤرخ القدير ليس قطعًا من بين هؤلاء؟!.

من نافلة القول إذن أن نقول أن الأستاذ العقاد كان من أهم ما يميزه مواقفه الثابتة فى الحياة ، فهو يقف كما عبر العلامة الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الأدب العربى المعاصر يقف دائمًا عند رأيه ويثبت ثباتًا وكأنه حصن من حصونه ، يعيش فيه ويعيش له ، ويذود عنه ذود العربى الأصيل عن عرضه

ويروعك عنده دائمًا نصب عينيه لا تغيب بل هى دائمًا التبغ نصب عينيه لا تغيب بل هى دائمًا النبع الروحى لأحاسيسه ومشاعره بكل ما تموج به من أحداث سياسية وكل ما تزهى به من أمجاد ماضية .

صدقت يا أستاذنا الكبير عباس العقاد رحمة الله عليك فيما قلته فى قصتك سارة ذو الوجهين منافق وذو الوجه الواحد ميت .

ولقد مت فى نظر شانئيك ولكنك حى خالد فى عيون عارفى فضلك ومحبيك.

خطرات وشذور

الشرق والغرب:

الفروق بين أساليب الشرقيين والغربيين فى التفكير كثيرة ، ولكن لعل أوجزها وأجمعها فرق واحد : هو أن الشرقى طبع على النظر إلى غايات الأشياء ، وأن الغربى طبع على النظر إلى عللها ، وربما كان سبب هذا الاختلاف أن الشرقى وجد ثمرات الطبيعة مجهزة أو سهلة التجهيز فنظر إلى معناها وفحواها ، وأن الغربى احتاج إلى استخراجها فنظر إلى أسبابها ومناشئها.

العدل والقوة:

أيهما خير للناس جميعًا وللأقوياء والضعفاء معًا : أن يكون القوى عادلًا ينصف الضعفاء من نفسه ولا يستأثر بحظ من حظوظ الحياة دونهم فيظل قويا بلا منفعة له من قوته ويظلون هم ضعفاء بلا ضير عليهم من ضعفهم ، أم أن يكون مفتئتًا طاغيًا يؤرث باستعلائه وكبريائه نيرانهم ويتغلغل بسطوته فى دخيلة نفوسهم وفى حيث يخامر الذل قلوبهم فلا يدع ثم موضعًا من مواضع الدعة إلا زلزله ولا عدة من عدد النهضة إلا شحذها ، حتى يضطرهم اضطرارًا إلى تنكب أسباب الضعف والأخذ بأسباب القوة ؟

الذى يحصل هو هذا والذى يتمناه الناس هو ذاك ولكن الذى يحصل هو الخير والرحمة والذى تمنوه هو الضير والوبال .

ما دام فى الأرض ضعف وقوة فمن الرحمة بالعالم أن لا يتساوى الضعفاء والأقوياء.

نشر ألدين :

الغيرة على نشر الدين مقصورة على الموحدين ولا أظن الوثنيين كانوا يرتاحون إلى مشاركة الأجناس الأخرى لهم فى نحلهم وأديانهم ، لأنهم يعتزون بامتيازهم بدين خاص لهم اعتزازهم بجنسهم ونسبهم ولغتهم . . ويرون آلهتهم كآبائهم وأجدادهم ينبغى أن تكون لهم بلا شريك .

محاكاة الطبيعة :

القول بأن الشاعر يغنى محاكاة للطير فى شدوه لا يقل فى الغرابة عن القول بأن الإنسان يطهى الأطعمة محاكاة لأكلة البرسيم ´ونهشة اللحوم من الدواب. إن حاجة الشاعر إلى الغناء كحاجة الطير إلى التغريد فلم يكون أحدها حاكيا ؟

حكم طبيعة المرأة عليها:

الله مذكر فى اللفظ . ولو أمكنك أن تخطف أجوبة الرجال والنساء من قرارات أفكارهم وعلى غير انتباه منهم وسألتهم : هل الله مذكر أو مؤنث لأجابوك على الفور : بل فو مذكر . فللإله صفة الذكورة الوهمية فى بدائه الرجال والنساء على السواء ؟ ونعنى بالبداءة ذلك الجانب الذى لا يعيه الذهن،حيث مستودع التصورات والأخيلة التى لا سلطان للبحث ولا للروية عليها .فالمرأة لن تستطيع أبدًا أن تتصور فى أبعدخبايا نفسها أن يكون هذا الإله الفرد بصورة الأنثى ولن ترى من حق تنزيه الإله عليها أن تتصوره كذلك . فكيف تراها تصدق فى الإعراب عن حكم طبعها إذا قالت: إنها لا ترى فرقًا بين الرجل وبينها ؟

شواغل الحاضر :

شواغل الحاضر الضئيلة قادرة على أن تحجب عن بصرة الإنسان جلال الأزل والأبد بما تهيج من عواطفه وتبلبل من خواطره . كما تحجب الكف القريبة من العين اتساع الفضاء الذى لا نهاية له.

أمن الصغير :

لا يهز الإعصار الجارف ماء الحوض الصغير ولكنه يقيم الخضم الواسع ويقعده .

المجاملات:

الصادقون فى عواطفهم لا يبالون بالتحيات ومظاهر المجاملة . والذين لا يشعرون بصدق العاطفة يحسبون أن هذه المجاملات هى الإخلاص بعينه والحب فى لبابه . وقد يتفق أن يرغب المخلصون فى مجاراة الناس فيتكلفوا المجاملة فيبدو عليهم كأنهم يراءون فى إشاراتهم وأقوالهم وكأنهم يظهرون من العطف للناس غير ما يبطنون لهم . على أن غيرهم يجامل بلا كلفة فيلوح عليه الإخلاص والصدق وهو بعيد عنهما .

ولسنا نقصد بالإخلاص هنا ما يقابل الختل والغش . وأنما نقصد به اشتمال

العاطفة على النفس وشيوعها فى كل جزء من أجزائها . ونقصد بما يقابله ذلك الشعور السطحى الذى لا تعرف النفوس الضئيلة نوعًا من الشعور غيره وهو شعور لا يبالى صاحبه قبلته منه أو رفضته لأن محوه أو استئصاله لا يكلفه إلا أن ينزع عن نفسه غشاء رقيقًا مفصولًا عنها لا يمس نزعة اللحم والدم . أما شعور الإخلاص الحق فشديد على نفس صاحبه أن يفارقها ، لأنه يخرج منها خروج الحياة من أوصال الجسم فيزعجها من أعماقها - وكثيرًا ما يساء الظن بالمخلصين فيكون احتقارهم لمن يسىء بهم الظن شديدًا ويزيدهم احتقارًا للمرتابين فيهم أن يروهم يحسنون الظن بغير المخلصين . ومن ثم خرج أصلح الناس للحب الظاهر من هذه الدنيا وهم متهمون جهلًا باحتقار الناس أوبغضهم إياهم . وقلَّ فى عارفيهم من يعلم أن لهذه الجفوة سببًا هم منصفون فيه غير ملومين.

الشر النافع:

لا يندر أن يكون القضاء على رجل شرير قادر فى شره أضر بالعالم من القضاء على رجل غفل لا يرجى نفعه ولا يرهب له أذى .

العصبية :

لا يقدر أحد على أن يخدم الناس جميعًا . وإذا نصب نفسه لذلك أوشك أن لا يخدم أحدًا . فلابد من العصبية التى تجعله قوة فاعلة فى جانب من الجوانب فيؤدى ما عليه من واجب عام من طريق الواجب الخاص .

أنانية الإنسانية :

العالم الإنسانى شديد الأثرة . فهو لو علم أنه ينال الخير ممن يسديه إليه ولكن بعد تحطيمه وإتلافه لم يحجم عن ذلك ولم يذكر للمحسن إليه حق الشكر ولا خطر له أنه مدين به لذلك المحسن المغمور . وكثيرًا ما يكون الانتفاع بالخير وإهلاك جالبه أقرب طرق الإنسانية إلى اغتنام ذلك الخير .

بين الموت والحياة:

أقمت زمنا فى «الإمام» ، وكنت أرى الموت هناك فى كل ساعة فكان يتمثل لى كأنه وحش فاتك لكنه من الدواجن التى تقيم بين البيوت ، وكان يخالجنى فى معظم الأوقات شعور لا أدرى أهو الاستهزاء بالموت أم الاستهزاء بالحياة ، ولعل الشعورين بعد متقاربان ، فما استهزأ أحد بالموت إلا كان للحياة نصيب من ازدرائه.

وكان يوم عيد . فقيل لنا: إن هذه المدافن كثيرا ما تكون مواخير للفجور يغشاها الفساق أيام الأعياد والمواسم قضاء للبانات الهوى بين العظام النخرة والجثث البالية والذكريات المحزنة ، فقال أحد الحاضرين ولعله كان متهكما : حسن هذا انتصار للحياة على الموت .. أليست الشهوة من الحياة ؟

ولا أدرى بعد : لم لا يكون هذا الفجور فى المقابر انتصارًا للموت على الحياة؟ أليس هو انتصار للدعارة على الخلق الوثيق والطبع السليم ؟ نعم وما أقرب الدعارة من الموت وما أضيع الحياة بغير خلق وثيق وطبع سليم .

إرادة الراحة:

لو كانت الراحة غرض الحى من الحياة لوجب أن يكون الكسل أصلح حالة يستقيم عليها نظام الجسم ، وهذا خلاف المشاهد فإن الكسلان المتراخى تتداعى قواه النفسية والعقلية والجسمية ويهبط شيئا فشيئا إلى الضعة والعته والسقم . فإذا كان قولهم: إن المادة تقتفى الطريق المريح صحيحًا فى الجمادات فليس بصحيح أن تقاس حركات الحياة على هذا الحكم كما فعل سبنسر ، ولابد من تعديله عند النظر إلى الأحياء ، ومع هذا أرى أن أى قول من الأقوال فى بيان المحرك الأكبر للحياة سواء أكان قولهم بإرادة الوجود أم بإرادة المعرفة أو السعادة أو الاتصال خيرًا وأشرف من القول بإرادة التطفل التى ذهب إليها «نوردو» غلوا فى تطبيق رأى سبنبر . لأن الأقوال الآنفة تعين لنا أغراضا نسعى إليها وأما قول سبنسر أو قول نوردو فلا يعين لنا إلا مهربا من أغراض شتى. وإلا فماذا فى قولك أن الإنسان يريد أن يستريح من العمل أو يريد أن يعمل له غيره ؟ ثم ماذا يعنينا أن نعلم أن المادة فى الإنسان خاضعة لأحكام المادة العامة إذا كنا نعلم أن الحياة هى قوة تحرك مادته فتنقاد لها وأن هذه القوة لا تملك زمامها حيال قوى أخرى مجهولة ؟ نعم ماذا يعنينا أن الحجر يؤثر السكون وهو لا يملك لنفسه الحركة أو السكون ولا مناص له من قوة تقذف به مرة من المرات لأنه لا يقذف بنفسه ؟ إن الذى ينبغى أن نبحث عنه هو طبيعة هذه القوة لا طبيعة الحجر . فهل هذه القوة تؤثر الراحة ؟ كلا فالذى يبنى علم الأخلاق على حب الإنسان للراحة ويجعلها مرمى كل حركاته وسكناته هو كمن يبنى علم « الميكانيكا» على طبيعة الثقل فى الأجسام ، لا على أحكام القوى المحركة لها ، وهذا الذى فعله سبنسر ومن حذا حذوه فى علم الأخلاق.

حب المرأة:

كل اهتمام قوى وشيك أن ينقلب فى نفس المرأة إلى حب ، حتى الاهتمام بالاحتقار .. على أن الاحتقار شعور قلما يتفق للمرأة أن تطيل فيه إلى أن يبلغ حده. لأنها إذا أخذت فى احتقار رجل لم يلبث أن يتحول احتقارها إلى مقت أو شفقة ،وبين المقت والشفقة وبين الهوى فى نفس المرأة حجاز لا تطول شقته، ولا سيما إذا كان المحتقر رجلا لبق اللسان بصيرا بأهواءالقلوب.

الأنانية :

اعتاد الناس أن ينظروا إلى الأنانية كأنها أحبولة ينصبها الحى ليصطاد بها الحياة . فلماذا لا ينظرون إليها كأنها أحبولة تنصبها الحياة لتصطاد بها الحى ؟؟ إننا نعلم أن الحى لم يطلب الحياة ولم يدعها إليه ولكنها هى التى طلبته ودعته إليها . فالأولى أن تكون هى التى تخدعه بالأنانية لتقنعه بأنه رابح منها وتضطره إلى الصبر على ملازمتها . وليتقرر ذلك فى أفهامنا نفرض أن الأحياء خلقوا بلا أنانية ألا تراهم حينئذ يخلعون ثوب الوجود لأول صدمة يلقونها فى سبيله ويرونه أهون عليهم من أن يصروا له على ألم أو يتعللوا من أجله برجاء ؟؟ وإذا فعلوا ألا تكون الخسارة إذن كونية عامة لا أنانية محصورة؟؟ فالأنانية الصحيحة هى الإيثار الأكبر فى هذا الوجود . والذى يعمل «لمصلحته»إنما يعمل لشىء أكبر منه فى الحقيقة ، ولهذا تتقارب الأنانية والغيرية فى النفوس العظيمة حتى يوشك أن لايختلفا ولايمكن الفصل بينهما.

جناية آداب المدنية :

كل اضطراب نفسانى شديد.لا يظهر أثره على العضلات والأعضاء ينقلب إلى شعور مكظوم . ومن هنا نرى جناية المدنية على الأخلاق إذ تضطر الناس إلى كتمان غضبهم وامتعاضهم فتغرس فى نفوسهم الحقد والضغينة وتبدلهم من عدوان الغضب عدوانا هو شر منه وأضعف وعندى أن كظم الغيظ ما لم يكن

مظهرًا من مظاهر ضبط النفس وغلبة الإرادة على الأهواء فهو هزيمة لا انتصار ورذيلة اضطرارية لافضيلة متارة .

طلب السعادة:

إن طلب السعادة - إن صح أنه العامل الوحيد فى حياتنا - لايفسر لنا لماذا تكون سعادة هذا الرجل فى إيذاء الناس بينما يلتمس غيره السعادة فى الترفيه عنهم . فلا بد أن يكون هناك غرض آخر وراء السعادة إذا اصطدم بها أهملها الإنسان مختارا أو مكرهًا لأجله . وقوام هذا الغرض الضمير.

الرياء والصراحة:

بعض الرياء خير من بعض الصراحة . أما الرياء الذى يفضل على الصراحة فهو رياء من يحس فى قلبه مثلا أعلى للأخلاق ويشعر من نفسه بالتقاصرعن شأوه فيتجمل بستر عيوبه ليظهر للناس على مقربة من مثله الأعلى . وهو رياء مبعثه حب الكمال وحسن الظن بمستقبل الإنسان. وأما الصراحة المذمومة فهى صراحة من لايرجو للناس أملا وراء حاضرهم المحسوس . يرى العيوب فاشية والعصمة معدومة ولايجد أحدًا براءة من نقيضة ، أو مستجمعا لكل ما يحمد من فضلة فيخلع العذار ويجهز بالفجوركأنه فى حل من إتيان مايشتهى من منكر إذ كان الناس لا يخلون من مثله ، وهذا خلق أشبه بالرياء منه بالصراحة لأنه يجعل قوام الفضائل كلها موافقة الناس ، فلا يشعر صاحبه فى قلبه بحب الفضلة لذاتها ولكنه يحبها إذا وجد حوله من يشاركه فى حبها .

فذاك رياء أصحاب الطبائع الصادقة الذين ينظرون بعين البداهة فيعلمون أن للناس على نقصهم الحاضر أملًا فى الكمال وأنهم مازالوا يتكملون منذ خلقوا .

وهذه صراحة أصحاب النفوس الناضبة التى تمشى ضمائرها وراء حواسها ولاتسبقها ، فعالمها كله مشاهد محسوس وليس لها عالم مغيب مأمول ،

وخلائقها تستمد القوة من خارجها وليس لها من قوة دافعة فى باطنها .

لهذا لا نعجب من اقتران رياء الانجليز بقوة السليقة فى الشعر والدهاء البديهى فى السياسة ، ولا نعجب من اقتران الصراحة الفرنسية بالفصاحة المزوقة التى لا عمق لها والجرى فى السياسة وراء «النظريات» التى تعوزها الخبرة العملية والأصالة الفطرية وتتعالى عن منطق الطبائع الفعال فى شؤون الأمم على ما فيه من غرارة ظاهرة وبساطة مضحكة .

الكد والترف:

إن فى الشغل الشاق من البهيمية بقدر ما فى الترف والتهالك على الشهوات، وما أقرب الكادح المستغرق فى عمل بدنه من المترف المخلد إلى لذاته !! ذاك يحتمل التعب لأنه جسد صرف وهذا يخلد إلى الدعة واللذة لأنه كذلك جسد صرف . فهما شبيهان على بعد ما بينهما فى الظاهر . ولذلك يوجدان جنبا إلى جنب فى المدنية المضمحلة . وكلاهما تنبئك حاله عن روح ميتة لا مطلب لها وراء مطلب اللحم والدم.

الدم المهدر:

كان الملوك الأقدمون يهدرون دم من يغضبون عليه فلا يطالب أحد بحقه. وهذه العادة باقية . فالعرف اليوم يهدر دم من يخرجون عليه ولا يقرونه على عيوبه ، فإذا حقوقهم كلها مضيعة وإذا الإساءة إليهم محللة لمن يشاء . وكأنما الناس لاينتظرون إلا الترخيص من العرف ليستجيزوا هذه الإساءة التى لا تجوز يتبعها ويتممها ، وهو أن العقل الصحيح والعقل الممتاز ليسا بشيء واحد.

قد يكون العقل صحيحًا ولكنه غير ممتاز وقد يكون ممتازًا ولكنه غير صحيح - ولابد للناس من تصحيح الأجسام والعقول ، ولاغنى لهم عن ثمار

العقول الممتازة . فلنطلب كلا منهما فى موضعه ولا نرجح الصحة على الامتياز إذا كانت لاتغنينا عنه ولا تبلغ شأوه فى كل حال .

الطاعة:

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الأمم القوية ، والأمم التى لا طاعة فيها لا يعرف أفرادها الواجب ولا يلتزم أحد فيها حده . إذ الطاعة هى أن يعرف كل إنسان حدّا لنفسه يلتزمه وحدا لغيره يحترمه ، وحيث لا واجب ولا تبعة لا يكون عمل شريف ولا فضلة نبيلة . على أن فرقًا بين الخوف والطاعة فإن الخوف اضطرارى والطاعة اختيارية.

الحقائق والشعر :

ليس المشاعر مطالبًا بالقضايا العلمية ولا بالدقة التاريخية ، ولكن هل هو يطالب بنقض القضايا المقررة ومسخ الأخبار الثابتة ؟ ليس من الضرورى أن يقول لنا الشاعر أن (٥+ ٥ يساوى ١٠) . ولكن هل من الضرورى أن يقول: أن (٥+ ٥ يساوى ٨مثلا أو١٢) ؟ وإذا لم يذكر الشاعر فى قصيده أن نابليون ولد فى سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا فليس من يلومه على هذا الإهمال ، ولكن هل لو ذكر أنه ولد فى القرن الخامس للميلاد ببلاد اليابان أتراه كان يسلم من اللوم لأنه ليس بالعالم المحص للقضايا ولا بالمؤرخ المحقق للأخبار والأقدار؟

يجب أن لا يخالف الشاعر ظاهر الحقيقة إلا ليكون كلامه أوفق لباطنها، فأما أن يتخبط فى أقاويله يمينًا وشمالًا مخالفًا ظاهر الحقيقة وباطنها ، مدابرًا أحكام الحس والعقل والصواب لغير غرض تستلزمه خدمة الحقائق النفسية ، أو تصوير الضمائر الخفية فذلك سخف ليس من الشعر ولا من العلم .

تنازع البقاء:

رجلان دخلهما متساو وبيئتهما واحدة أحدهما يفقه مطالب الحياة فيربى أبناءه تربية حسنة ويروح عن نفسه ويروض جسمه وعقله ويلتذ جمال الفنون والأذواق . والآخر غبى ثقيل الطبع يدخر ثلثى دخله ولا يفهم للرياضة والمطالب النفسية معنى أى هذين يصرع صاحبه فى ميدان الحياة ؟

خطأ المذاهب:

مصدر الخطأ فى مذاهب الإصلاح الاجتماعى أو الدينى أن دعاة هذه المذاهب يبنون مذاهبهم على النظر إلى غرض الإنسان من أعماله لا إلى الدافع الذى يستاقه إلى الإتيان بتلك الأعمال ، ولو فطنوا إلى قوة سلطان الدوافع وأن أغراض الإنسان بنت دوافعه فى الحقيقة لأصلحوا كثيرًا من أغلاطهم النظرية أو لالتفتوا على الأقل إلى الجهة التى يجب الالتفات إليها والصدور عنها .

الكتب:

إن الكتب قماقم سليمانية لاتزال الأرواح والوجدانات محبوسة فيها حتى تفك أرمادها فتنطلق من معقلها وتنشب فى قارئها فتستعيد حياتها فترة قصيرة فى نفسه . ولو كانت تلك الوجدانات والعواطف تجيش فى صدور الكتب كما كانت تجيش فى صدور أصحابها لأحرقت صفحاتها زفرات الوله والوجد ، ولسودت وجوهها لواعج الغم والعذاب ، ولأصم الآذان ما ينبعث من أحشائها من التأوه والأنين ، وفتت الأكباد ما يرتفع من جلودها من النشيج والخنين ، بل لكان يفزع الناس منها فزعهم من أشباح الموتى ويهون عليهم أن يمروا بساحة الوغى بعد مقتلة شنعاء ولا يمروا بباب مكتبة .

لذة المطالعة:

إننا نقدر الكتاب بما يوحيه لا بما تدل عليه حروفه ومعانيه . وإن القارئ وهو يتلو القرآن قد يؤلف فى ذهنه كتابًا غير الذى يقرؤه ويفهم فيه من المعانى

غير ما أراده مؤلفه ولكنه يحسب أنه يقرأ كتاب المؤلف وينسب الفضل فيما يشعر به من اللذة إليه ، وربما تناول أحدنا الكتاب الثمين فى ساعة ضجره ثم أقفله وهو يتأفف . ويتناول الكتاب الغث وهو منشرح الخاطر مفتح نوافذ الذاكرة فيرتاح إليه وتتوارد على ذهنه الخواطر والطرف من كنوز الذاكرة المدفونة ، فيثنى على الكتاب وكاتبه ، وإنما اللذة لذته لا لذة الكتاب أو صاحبه، ومن ثم كان الكتاب لا تعرف قيمته البتة من قراءة واحدة . ووجب على الناقد أن يكرر قراءته فى حالى سآمته ونشاطه قبل أن يحكم عليه.

وأذكر أننى أعوزتنى الكتب يوما فعمدت إلى قائمة بعض المكاتب الإفرنجية فجعلت أتصفحها بشوق وتأمل كأنها سفر مغعم بطلى الأخبار وحلو الفكاهة .

وكنت إذا استوقفنى اسم كتاب فيها تمثل لى مصفه وسنحت لى آراؤه ومواقفه فى حياته ولطائف ما يؤثر من نكاته وأعماله . فكنت كأننى عاشق قديم يراجع أسماء أحبائه فيقف عند كل اسم منها وقفة تسترسل فيها نفسه ويهيم خياله فى فجاج الماضى ، فيجمع تاريخ أشواقه فى لحظة ، ويستشعر لذة كل قبلة والتزامه وغبطة كل نظرة وابتسامة ، ولو أننا نحكم على الكتب بما يولينا من المسرة والرضى لكان طابع تلك القائمة من القائمة من أئمة الكتاب فى العالم .

كلام الناس:

من الناس من يعلم براءتك من وصمة ، فإذا سمع قوما يصمونك بها صغرت فى عينيه وهو أعلم بكذبهم وافترائهم عليك .

المكابرة :

المكابرة قرينة الضعف فى كل حال ، وهى تمويه لا حقيقة ، وحيلة لا قوة ،

وتسليم لا مقاومة . وكل الفرق بين مكابرة وتسليم ، أن التسليم صريح واضح ولكن المكابرة تسليم مراء يخاف ظهور ضعفه فلا يعترف بنفسه ، مثلها كمثل الدخان الذى يغشيه المنهزم بينه وبين عدوه مداراة لهزيمته . ومن عكف على أن يقول : لست ضعيفا لست ضعيفا ، فإنما يقول بلسان أفصح وأصدق لست قويا لست قويا . وما رأيت إنسانا يكابر فاحتجت بعدها إلى دليل على صغر عقله وضعف نفسه.

شارلى شابلن :

عجبت إحدى الصحف الفرنسية من الحفاوة التى قوبل بها شارلى شابلن فى لندن وقارنت بين فتور الجماهير قبل أصحاب الفضل عليها من المخترعين والمصلحين وبين شغفقا بالمضحكين وتهليلها لهم وإقبالها العظيم عليهم ، وضربت الصحيفة مثلا بالطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس فقالت وهى تستغرب : ما تقول : ترى لو كان هذا الطبيب بين الجموع المهللة لشارلى شابلن أما كانوا ينحونه عن الطريق ويزورون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز؟؟

نقول ليس ذلك ببعيد . ولكن هل من الظلم حقا أن يظفر شارلى شابلن بذلك الإعجاب وأن يحرمه أمثال فنان فى حياتهم ؟؟ لعمرى أن الإنسان ليرى شيئا من العدل فى هذه الأطوار التى تشاهد فى الجماهير ، فإن الممثل الهزلى لن يظفر بعد موته بكثير ولا قليل من الإعجاب الذى هو حقيق به . فمن الإنصاف أن يكافأ فى حياته هذه المكافأة على إضحاك الناس وتسرية همومهم وتنشيط عقولهم وقلوبهم وما هو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن فى هذه الدنيا المفعمة بالشواغل والهموم ، والأمر على خلاف ذلك مع فنسان وأمثاله فإن ذكرهم لاينسى بعد موتهم والإعجاب بهم يبقى زمانًا وهم تراب فى لحودهم.

وليس هذا الإعجاب بالعملة الزائفة وإنما هو عملة صحيحة مقومة يقبلها كل إنسان جزاء لأعماله .

وهناك ضرب من الاقتصاد الشعورى غير مقصود فى حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطيب فنسان يفيد بعلمه ولو لم يلق هتافًا وتهليلًا ، أما شارلي شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل ؟؟ أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذى يضحك الناس فيه والوقت الذى يهللون له فيه ويهتفون ؟؟

دم الحياة :

إن الذين يذمون الحياة هم الراغبون فى حياة خير منها لا الراغبون فى الموت كما يتوهم الكثيرون . وربما كان ذو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون فى صفوها ونعيمها . كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين فى ملازمة مائدة اللعب إلى النهاية .

كل ذى عاهة جبار:

يؤثر الإنسان أحيانًا أن يكون عرضة للمقت والغيظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف – وهذه علة ما يرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة من تعمد إسخاط الناس واستنفاد صبرهم يحاولون الهرب من رحمتهم إلى نقمتهم، ومن إحسانهم عليهم بالعطف إلى مساواتهم بالمنازلة.

كن شريفا أمينا لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة بل لأنك أنت لا تستحق الضعة والخيانة !

إذا كان الشيخ لا ينخدع فذلك لأنه مقفر من الحياة ليس عنده ما يستحق مؤنة الخداع ، إنما تخدع الطبيعة الشباب لأنها تجد عنده ما ينخدع فيه.

هناك أناس يجادلون لئلا يفهموا ولا يجادلون ليفهموا، وهؤلاء هم الذين يجادلون ليثبتوا لك أنهم فاهمون .

***

إذا عز عليك أن تكسب العقيدة فى عمل من الأعمال بعرفانك المثل الأعلى

فاعرف المثل الأدنى وهو غير عسير المعرفة.

اعرف أقل ما يجب عليك فى كل حادث وكل عمل تكسب العقيدة التى تعينك فى الرفض والإباء ثم لا تلبث أن تعينك فى العمل والإنشاء.

فى أيام الثورات لا أمان لأحد.

لا أمان لأنصارهم لأنهم قلما يسلمون من عقارب التنافس والضغينة التى تكون بين أنصار الثورات.

ولا أما لأعدائها لأنهم يحاربون الفوضى الجامحة والغضب الطائش والقوة الهوجاء.

ولا للمعتزين لأنهم يهتمون فى حماسهم للثورة ومبالاتهم بالثائرين فتظن بهم الظنون.

الله هو الحقيقة ، ولابد للكون من حقيقة على كل حال، فما يجوز أن كون فى ذلك خلاف.

إنما يبدأ الخلاف بين الناس حين يبحثون عما يعنيهم من وجود الله، لأنهم يبحثون حينئذ عن الجزاء والمصير وما يصيبهم مما يحبون أو يكرهون، وهذا هو مثار كل خلاف.

الواقع ليس هو الحق، لأن الباطل واقع لا شك فيه.

إنما نبحث عن الحق حين ننكر الواقع فنبحث عن تسوفه أو نبحث عما وراءه. والحق شيء نبحث عنه، أما الواقع فشيء غنى عن البحث، لأنه موجود وملموس!

فى الدنيا العادة وهى معطلة لحكم العقل.

وفى الدنيا الجهل وهو معطل لحكم العقل.

وفى الدنيا الغرض وهو معطل لحكم العقل.

وفى الدنيا عقول لا تتفق وهى معطلة لحكم وتسمع أن كل شيء فى هذه الدنيا بالعقل!!

***

ليس فى هذه الدنيا كلمة أدل على تعطل العقل من هذه الكلمة الجارية عن كل لسان!

النسك صورة من صور حب الحياة وليس أدل على ذلك من أن الأمم الناسكة تحرم قتل كل حياة حتى حياة الحشرات.

كلما أمعنت فى الحس والتفكير تبين لى أن النور هو سر الأسرار وأننا سنكشف حقيقة الدنيا يوم نكشف حقيقة النور.

فالنور ينسخ كل شيء ، وكل شيء نهى إلى النور ، وهنا ينبغى أن يرتفع الستر وينقشع الغمام.

بعض الحركة عجز عن السكون وبعض السكون عجز عن الحركة.

مجازفات العلماء والمخترعين ينبغى أن ينظر فيها إلى حياة النوع الإنسانى كله لا إلى حياة فرد من الأفراد.

فمن الجنون أن يضيع الفرد عمره سعيًا وراء اختراع مرجح للفشل من البداية.

ولكن ليس من الجنون أن يضيع النوع الإنسانى واحدًا من ملايين الملايين فيه وسعيًا وراء ذلك الاختراع الذى إن فشل ضاعت فيه حياة فرد وإن نجح استفاد منه الملايين أحقابًا بعد أحقاب.

فما يكون جنون عند النظر إلى حياة الفرد يكون هو الحكمة كل الحكمة عند

النظر إلى حياة النوع كله!

فرق بين الرجل الذى يأكل طعامًا محظورًا لأنه يشتهيه ولا يقوى مغالبة شهوته مع علمه بوبال عقباها ف اعتقاده.

وبين الرجل الذى يأكل ذلك الطعام لأنه لا يدرى لماذا يمتنع من أكله ولا يدين بالنهى المفروض عليه.

الأول عبد شهوته.

والثانى طامح إلى سيادة نفسه.

فى الحالة الأولى الطعام المحظور هو المسألة المهمة.

وفى الحالة الثانية حرية النفس هى موضع الاهتمام.

***

ما يقبله العامى من الحاكم لا يصح أن يكون مقياسا للعدل والإنصاف لأن العامى يقبل أمورًا كثيرة لا قبلها ذوو الشرف والكرامة ، ويجوز ما لا يجوز لأنه يجهل وجه الضرر فيه ، ولهذا وجب أن يكون للحكومة مقياس غير الرضا من طبقة العامة.

***

ليس الميل إلى الشجار فى الأمة دليلا على طبيعة القوة والاستقلال إلى النساء أميل من الرجال إلى الشجار.

إن الرجل الذى يثق بنفسه ولا يحفل برأى الآخرين قلما يميل إلى مشاجراتهم، ليعرف كل شأنه فذلك لا يعنيه، إنما يميل إلى مشاجرة الآخرين من يحسب أن مخالفتهم شيء يعنيه ولا يسعه الاستقرار عليه وذلك نقيض القوة والاستقلال. ومن ثم كانت الأمم الضعيفة أكثر الأمم جنوحًا إلى الشجار

واللجاج.

***

الآداب الشائعة وضعت الحماية للأنذال ، شمتك النذل ولا يليق بك أن تكشف نذالته، فيقول فيك الباطل وأنت لا تقل فيه الحقيقة ، وهو الرابح فى الحالتين، ويدس لك النذل فلا يليق بك أن تجزيه بالدسيسة ، فإن جزيته بالعقاب الصريح لاح عليك أنك المعتدى وأنه هو المعتدى عليه وهو كذلك رابح فى الحالتين.

***

الساسة الذين يعالجون السياسة «جديًا» لا يحسبون جديين فى رأى الساسة المليين ، لأنهم لا يقبلون المساومة ، والمساومة هى أساس التفاهم والمنفعة عند أصحاب الطبائع العملية.

دهاء النساء مبالغ فيه..

فكثيرًا ما يظن الناس أن الرجل الذى ينكر خيانة امرأته إنما يفعل ذلك لأنها خدعته وضللت عقله بالحيلة والمراوغة.

أما الحقيقة فهى أنه ينكر خيانتها لأنه يهرب من الألم ويخادع نفسه قبل أن يخدعه أحد غيره.

كذلك الأب الذى ينكر اتهام ابنه الصغير باللصوصية لا يفعل ذلك لأن الطفل الصغير خدعه وضلل عقله بحيلته ودهائه ، وإنما ينكر التهمة التى يرمى بها وليده لأن هذه التهمة تؤلم وتخيب رجاءه ، فهو يعتصم منها بالتكذيب والمغالطة، ولا شأن هنا لدهاء الطفل ولا شأن هناك لدهاء المرأة.

***

الشبه العظيم بين ملامح مصطفى كامل وموسولينى ودى فاليرا وربما دل

ذلك على أن هؤلاء الزعماء جمعوا شيئا من قوة الرجل وشيئا من قوة المرأة فباتوا أكثر من رجال وأكثر من نساء، وبلغوا بذلك مرتبة السيادة على عامة الناس!

***

بعض الحيوانات يرى فى نور خافت وبعضه يتلقى الروائح من مسافات لا يدرهما غيره، وبعضها مزوده بحاسة غريبة كحاسة الاتجاه التى يعرف بها الطائر طريقه خلال الأميال الطويل.

فالمحسوسات موجودة لا تتوقف على الحواس، وليس عجز الحواس عن إدراكها دليلا على عدم وجودها.

وإنما تتركب الحواس لتدرك ما تدركه فى الكون على حسب الحاجة أو على حسب الاتفاق، ما المانع على هذا من نشوء عقول غير العقول الإنسانية تفكر فى أمور لم يفكر فيها الإنسان قط، وتتخذ للكون صورًا لا يقبلها الآن عقل الإنسان!

إن فى الكون لمتسعًا لعقول كثيرة منوعة فى طبيعة الإدراك لا درجات الإدراك وحسب.

وإن فى الكون الرسائل كثيرة لم تخلق بعد «محطاتها» التى تتلقاها وتشعر بهزاتها.

ولعل العبقريات وملكات الإلهام هى ضرب من تلك «المحطات التى تتلق الحقائق من حيث ينكرها أو يجعلها الذين حولها!

***

الشاب الناشئ ينظر إلى المرأة كالمتهيب لا يدرى ما تريده ومالا تريده، هو

كالسائح فى أرض مجهولة لا يدرى مسلكها، فإذا تهيب المرأة سرى إليها التهيب بعدوى الشعور فتقوم الحواجز بينهما وتكثر الحاجة إلى المراوغة والمطاولة لتقريب المسافة بين نفسيهما، إلا أن تكون المرأة أريبة عالمة بالرجال فتخطو هى الخطوة السريعة التى تختصر الطريق!

أما الرجل الخبير بالنساء فإنه ينظر إلى المرأة نظرته إلى أرض معروفة طال اطمئنانه إليها وعلمه بمسلكها، فإذا أحست المرأة وقع نظرته علمت أنه قد كشفها واطلع على خفاياها فلم تبق بقية للمداراة والمراوغة فإما اقتراب وإما اجتناب!

***

خليفة العناد والعزيمة لا تتناقض خليفة التفاهم والمساومة بل هما خليقتان تسيران جنبا إلى جنب فى الأفراد والشعوب.

إن الإنجليز أشهر الأمم بالعزيمة والعناد وأشهرها بالتفاهم والمساومة كذلك، وسبب ذلك معقول قريب إلى التعليل.

لأن التفاهم والمساومة تتمتعان فى الأمم التى يخضع فها فريق لمشيئة فريق آخر، عندئذ لا ضرورة للتفاهم والمساومة لأن سهولة الخضوع تعنى عنهما فى عرف الخاضعين والمخضعين.

أما إذا عرف كل إنسان أن غيره يصر ويعاند كما يأبى الخضوع كما يأبى هو الخضوع كما يأتى هو الخضوع فالتفاهم والمساومة هنا ضرورة لا محيص عنها!

***

أكثر الناس استخفافا بالظواهر السطحية هم السطحيون ، لأنهم لا يستطيعون أن ينفذوا من السطوح إلى الأعماق ، ولا أن يفقهوا دلالات الأشكال، ولا الفرقة بين دلالة ودلالة.

ومن ثم ازدراء السخفاء بالفنون ، لأنهم ينظرون إلى الصور الظاهرة ولا ينظرون إلى ما وراءها.

***

صاحب المكانة الأدبية الكبيرة بغير جاه «مادي» ولا سلطان على الأرزاق هو عرضة أبدًا لإيذاء اللئام لأنه محسود على مكانته وهو فى الوقت نفسه غير محذور على المنافع المادية التى يحسب اللئام حسابها ولا يشعرون بالحاجة إلى غيرها.

***

كل اتصال جنسى هو تنفيذ لتدبير محضر فى البنية منذ ملايين السنين: منذ نشأ اختلاف الجنسين فى بنية الإنسان ، بل فى بنية الحيوان ، بل فى بنية الخلايا الدنيا قبل تلك الملايين : فكيف لا تفرح البنية فى لحظة تزدحم فيها ملايين السنين!

المرأة التى تملك إرادتها أقل عنادًا وأسهل مقادًا من المرأة المسلوبة الإرادة فى عهد الاستعباد، لأن العناد فى الواقع إنما هو احتجاج المرأة الفطرى على سلب إرادتها، فإذا زال الاستعباد زال الموجب للاحتجاج وزال العناد.

العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة حرب ودية تجمع بين أمتع ما فى العداء من لذة الانتصار ، وأمتع ما فى الصداقة من لذة الألفة والمعاونة!

***

ليست المسألة فى الجمال مسألة درجة أو شكل محدود، ولكنها مسألة دلالة معنوية لا تقدر بالدرجات والحدود، ولهذا يساوى الأجمل فى بعض الأحيان ألوفًا ممن يتلونه فى مرتبه الجمال.

***

إن هجاء المتنبى ما هو إلى ضحية حنق تنفعنا إذا أردنا أن نفهم نفسه ومضامين شعره ، ولكنها لا تنفعنا إذا أردنا أن نفهم بها نفس أمة أو نقابل بها بين جيل وجيل، ولو أننا أحصينا كل ما ادعاه شاعر أو متشاعر على رجل أو قبيلة أو وطن أو عنصر لخرج بنو الإنسان جميعًا وليس فيهم فريق حقيق بكلمة ثناء!

***

المعبد المصرى فى العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو الموت ودهليز العالم الآخر ، ثم لنعلم بعد أن الموت عند قدماء المصريين هو هجمة الحس إلى حين وراحة الجسم إلى أجل ، ثم تعود الروح إلى هذا الجسد الأول كما كانت قبل بعثها من عالم الأموات.

قبلتنا فى النظرة إلى الغد أن نسأل الماضى عن معناه، وأن نلتمس هذا المعنى فيما سيكون ، وفيما سوف يكون ، قياسًا على ما كان.

***

إن للتاريخ الإنسانى وجهة تدل علها العقبات والعوائق كما تدل عليها الدوافع والمهدات ، وإن تاريخ الآلة من عهدها الحجرى إلى عهد الذرة لمعالم قائمة تهدينا إلى تلك الوجهة من البداية إلى النهاية.

إن المجتمع المثالى هو المجتمع الذى تستطيع كل طبقة فيه أن تأخذ نصيبها وتذود عن حقها بوسائلها ، ومثل هذا المجتمع لم يوجد بعد على تمامه، ولكنه يوجد شيا فشيئا كلما اتسع نطاق الصناعة الكبرى وتعددت مرافق المعاملات الاقتصادية ، وحالة الطبقة الوسطى هى أصدق المقاييس التى تقاس بها درجة المجتمع من الارتقاء والعدل والحرية ، فلا سبيل إلى استبداد فئة بغيرها فى مجتمع تتكافأ طبقة وتتوازن فى القدرة والوسيلة ، وإنما ينجم الاستبداد حين

تتغلب فئة على سائر الفئات وتعجز الفئات المغلوبة عن مقاومتها ورد عاديتها بسلاح من أسلحة المصلحة والكفاية.

***

كنت أبصر «سعد زغلول فى أيام الأزمات والأخطار فأبصر الحوت فى بحره والطائر فى سمائه ، لا كرب ولا وجوم حين يكون هناك مراس ونضال، وإنما الكرب والوجوم حين يكون الفراغ والسكون.

***

توضع قضية المرأة فى موضعها الصحيح يوم يقضى فيها على أنها علاقة بين شريكين يتوزع بينها العمل على حسب اختلاف الوظيفة والاستعداد وكلاهما خاسر مغبون إذا أخل بحق شريكه ونازعه فى عمله وكفايته، وكلاهما رابح إذا عرف أين يعطى وأين يأخذ من قسمة الخلق بين الجنسين.

***

إن النفس الكريمة حقًا ليؤذيها أن ترى الذل والصغار فى غيرها لأنها وصف تنفر منه الطبيعة القوية ، أما أولئك لا يعافون منظر الذى ومن ثم لا يشعرون بحقيقة العزة ، وإنما يعيشون فى عالم من ظواهر مصطنعة زائفة تروج فى أرخص الأسواق.

من التجارب المكررة عندى أننى كلما ألمت بى نوبة ضعف وهانت على نفسى لا أسترد المرض عنها ولا أفلح فى تسرية غمها حتى أوفق إلى عمل منعت أجرب به قوتها أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها فإذا أفلحت التجربة اطمأنت إلى نفسى ورضيت عنها كما يطمئن المرتاب فى قوة جسده حين يروض عضلاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب، وكلما كان روض عضلاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب، وكلما كانت الرغبة أشد كان

التغلب عليها أفعل من طرد الشكوك، وأدعى إلى الغبطة وأقمن أن أبيح لنفسى بعدها ما كنت أخشاه عليها فى حالة الضعف والارتياب.

***

إن الصيام – بكل نوع من أنواعه وفى كل حاجة من درجاته – وسيلة من وسائل تقرير الذات لا يستغنى عنه أحد فى فلوات الحياة ولابد منه فى كثير من الأحيان للشعور بها فينا من علو على الجهاد المسخر واستقلال عن تيار الضرورات.

***

ما هى العاطفة الجنسية؟ أهى شيء مقصور على الإنسان؟ أهى شيء مقصور على الحيوان؟ أهى شيء مقصور على النبات؟ أهى شيء مقصور على الجماد؟ كلا ! بل هى شيء شائع فى جميع هذه الكائنات وفيما هو أخفى منها على العيان والتقدير، شائع حتى فى الكهارب التى تتعانق سالبة وموجبة لتستوى بها الذرة الدقيقة التى لا يدرك إلا بالحساب وهى حيثما وجدت مظهر للرغبة فى التمام والدوام وهما أعلى ما تصوره العقل من صفات الجمال فى الكائنات.

فما من كائن فى هذا العالم إلا وهو يسعى سعيه الحثيث إلى أن يتم بصنوه المتمم له ويلتمس الدوام بواسطة الاتصال به ، وما من صفة مبثوثة فى الكائنات هى ألصق بطبيعة التكوين من صفة الرغبة فى الكمال والدوام.

***

ليست العاطفة الجنسية هى التى تخلق الرغبة فى الجمال وإنما الرغبة فى الجمال هى التى خلقت العاطفة الجنسية بمظاهرها المختلفة فى الكائنات، ولقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والأنثى أصلا للحب بجميع صنوفه وألوانه، ولكننا إذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق يتبين لنا أن هذا الحب بين

الذكر والأنثى هو فرع طارئ من أصل إلهى قديم شامل للموجودات مستقر فى طبيعة الوجود هو حب الكمال والدوام ، وليس الحب بين الذكر والأنثى غاية فى ذاته وإنما هو واسطة من وسائط ذلك الحب الأصيل.

***

إن الزهرة المتفتحة التى تطويها فى ذلك قد تروى لك من فخامة هذه الأسرار ما تمتلئ به آفاق الأرض وأبراج الشموس والأقمار، فإذا أخذتها بين أصبعيك فاذكر أنها رمز الحب! وإذا ذكرت الحب فاذكر أنه - فى كل ما يحيط بنا من الظواهر والخفايا - هو رمز الجمال الإلهى والخلود السرمدي.

ما الجسم الجميل؟ لا أظن أننا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال بأصدق ولا أوجز من أنه هو الجسم الحر الطليق ، وسواء أنظرنا إلى الجسم فى جملته أم كل عضو من الأعضاء على حدته فإننا لا نرى له صفة جمال وفى طيها صفة حرية وطلاقة ، فالجسم يعاب إذا عطلت إحدى وظائفه ، والعضو يعاب إذا زاد أو نقص عن حد حريته ، وكل وجه تنكر منه وصفا من الدمامة لابد أن تحس بعد تأمله أن مانعًا يمنع ثم لا يعجبك ولا تنشط إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة فى نفس صاحبه ، وذلك ما يسمونه بثقل الروح، وهو تعبير غاية فى الدقة والعمق لو أمعنت فيه لاستوحيت منه معانى لا يحويها الدرس الطويل والتمحيص الدقيق، لأنه يدلك على حقيقة الإحساس بالجمال فى طبائع الناس وأنه شيء ينافى «الثقل» ويصاحب الخفة والطلاق!

فكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون، فلا فن بغير تطلع ولا تطلع بغير حرية ، ولكن ينبغى أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع، وأن الجمال هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين الضرورات وليس هو بالحرية الفوضى التى لا يمازحها نظام ولا يحيط بها قانون، فلا عجب أن يمثل

«الفن قيود الجمال وأنظمته كما يمثل حريته وانطلاقه، وأن نرى الفن حافلا بالأوزان والأوضاع كما نراه حافلا بالتطلع والرجاء.

***

مما لا مراء فيه أن الحب يرينا من فتنة الحياة ما لا نراه بغيره وأن جمال المرأة أغلى محاسن هذه الدنيا المشهورة ، بيد أن الحب لا يخلق فتنة الحياة وليس جمال المرأة هو كل ما فى الدنيا من المحاسن ، ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لأنهما يوقظان القلب ويذكيان الشعور ويبعثان كوامن الوجدان فيفتح لما حوله ويرى ما لم يكن يراه ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين ويستحسن ما كان فى غفلة فى حسنه.

***

الصور الخيالية والمعانى الذهنية هى الأصل فى جمال الأساليب فى الأدب والفنون، وإن الفن لا يطالب أن يكون سهلا لكل إنسان ولا يقيد بالمعانى والحوالج التى يتساوى فى التفطن بها والتأثر بها جميع الناس.

***

المنفلوطى منشئ وليس بكاتب ، أو هو يحسب مع أصحاب الإنشاء إذا قسمنا الأدباء الناثرين إلى كتاب ومنشيئن.

والفرق بين الكاتب والمنشيئ فى عرفى هو : أن الكاتب «إنسان قبل أن يكون حامل قلم وصائغ كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة مدركة لا فضيلة لسان وعبارة ، وأحسن مواهبة تبقى له كاملة ناطقة إذا هو ترجم من لغة أو حيل بين قارئه وبين بلاغة لفظه وأسلوب أدائه.

***

فى كل كاتب شيء من طبيعة النبوة ، لأنه يحمل رسالة «خاصة» من لدن

الحياة إلى أخوانه فى الحياة ، ولهذا كان لابد للكاتب من هبة خارقة بها مالا يحسه سواد الناس ويفهم بها ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة.

***

أنت لا تعرف إنك فى أمة أحرار حقًا كارهين للاستبداد حقًا إلا إذا رأيتهم بينهم لعظماء المطربين شأنا لا يقل عن شأن أندادهم ذوى المواهب والأعمار والأقدار.

العقيدة هى الثقة بالنفس أو بالكون وليست هذه الثقة مستمدة من العقل، وإنما هى مستمدة من طبيعة تركب الإنسان ومن كونه متصلا بهذا الكون الذى هو فيه بصلة الوجود والحياة.

***

إن حرية اختيار الزوج حق للمرأة إن شاءت تولته بنفسها وإن شاءت تركته لأوليائها ، على أننى لا أغالى بهذا الحق مغالاة الذين يحسبون أساس السعادة كلها فى الزوج

***

كل إصلاح فى شأن من شؤون الأمم لا يتناول تصحيح مقاييس الحياة فيها فهو عبث فارغ لا يستحق عناءه وفى مقدمة ذلك إصلاح الآداب والفنون.

***

أصدق ما تمتحن به مقاييس الحياة فى الأمم أن تعرف الفضائل التى يزنون بها مقادير الرجال : ماذا يبتغون منهم وفى أية هيئة يحبون أن ينظروا إليهم؟!

***

ليس من الصدق للتاريخ أن يقال : إن «ابن الرومي كان خاملا فى زمانه أو بعد زمانه بعد هذا المعنى الشائع من الخمول الذى يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين ، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجائين خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء ، فقد ذهب شعر بشار إلا أقله ، وبقى ديوان ابن الرومى كله فلم يذهب منه إلا أقله! وهذه محاباة من الشهرة لم يرزقها فى العربية شاعر هجاء ، ولم يرزقها ف عصر الطباعة إلا أفراد معدودون بين سائر الشعراء!

على الأوراق المالية رسوم ونقوش وأرقام وحروف ، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوى درهما إن لم يكن وراءها الذهب فى خزانة المصرف!

فالإحساس هو الذهب المودع فى خزانة النفس ، وهو الثورة الشعرية التى يقاس بها ثراء الكلام ، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة ولا أكثر لا أقل ... وقد تغنى بها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط.

نظام الإقطاع نظام معيب ، ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوه القائمين وإذا ضعفوا فهو الشر المستطير يشفى به الحاكم والمحكوم، وينخر فى أركان الملك فلا يدعه إلا وهو مفكك الأجزاء معتور بأسباب الفناء

المعاصر فى بعض الوجوه أصلح للناس للحكم على عصره، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحًا لإنصافه والإحاطة بجميع نواحيه، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل فى رؤية البعيد، فهناك أشياء يحبط بها البعيد ولا يلمح منها القريب إلا اليسير ، كالنظر إلى القمر فى المنظار يرى جزءًا منه كبيرًا مفصلًا ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظره على ما حوله، ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة – معاصر ابن الرومى فى زمنه – حين تناول المقياس ليقدر ، فأخطاء فيما قدر!

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهم لها على وجه من الوجوه وهذه مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغراء!

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله، ولهذا أحارب كل دكتاتور بها أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان.

وأنا أطالب الكرامة من طريق الأدب والثقافة ، وأعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصحابها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية بل بين أرفع المقامات الإنسانية استثناء.

***

إن الظنون عط ى قوية السلطان ، وعلة ذلك عندى معالجة التفكير المنطقى فى كل شيء ، فليس أسهل فى المنطق من فتح أبواب الاحتمالات ، أما إغلاقها – أما الجزم بنفيها – فلا يكون إلا ببرهان قاطع ، والبراهين القاطعة قليلة .

***

كلما ازددنا خبرة بالحياة ظهر أن أصعب ما فيها من المصاعب عادات تعودناها ويمنعنا ما لف طالما آوينا إليها – فلو مات نصف الناس – بل لو مات الناس جميعًا دون أن يغيروا لنا عادة فى الحس أو فى العقل لما تحركنا لهذا المصاب ولا هالنا أن تنقضى كل تلك الحياة ، ونحن نضيق صدرًا بحياة واحدة مألوفة لدينا تفارقنا وينقطع ما بيننا وبينها . ولو رجفنا إلى مصائب النفوس كلها لم نجد بينها ما هو تغيير لعادة نحس به فجأة أو على تراخى الزمن حسبما فيه من مصادقة أو كمجاراة.

***

الشاعر الطليق القدير هو الذى يريك القيود حيث لا تكون حرية ولا انطلاق

`لو كان للجسد نعيم ! لو كان للجسد سماء !

إذن لكان الراقصون والراقصات هم الأبرار المقربون فى ذلك النعيم وهم الملائكة الكروبيون فى تلك السماء !

إذن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادل إلى الأكثرين فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذى يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وإن البطل الذي

يقدسه عشاق البطولة فى غيره ، وإن التطلع إلى الأعمال صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ... ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين، ومن هم أكبر قدرًا وأحق بالإعجاب!

***

وهذا الآبدة آخر ما كتب العقاد.. كتبها قبل وفاته بيومين اثنين ولم يكتب بعدها سطرًا واحدًا.

عند الحب سهر أحلى من حلم النوم ، ونوم أيقظ من سهر الخلود.

عند الحب نور يطوى الشمس والقمر ، وموعد ينسى الليل والنهار.

عند الحب حياة يهون من أجلها الموت ، وموت تباع من أجله الحياة.

من مأثورات العقاد

الظواهر والبواطن [1]

ليس بين ظواهر الأشياء وبواطنها حد فاصل ، فكل البواطن ظواهر مكشوفة أو أحسن النظر إليها من الجهة المثلى ، وكل الظواهر بواطن خفية لو أسى النظر إلى تلك الجهة منها . ومن البديهيات عند قوم ما يعد أسرارًا مغلقة عند قوم آخرين.

الشر الدخيل

من الناس من يفعل الخير لأنه يجد حجة يسوغ بها عمل الشر أو يوار بها فعل السوء وليس يرعه عند اختلاف تلك الحجة إلا بلادة حس وجمود عقل، أما من هم أمهر من ذلك من الأشرار وأطبع على الأذى فيخلفون الحجة فى كل حين ويفعلون الشر كلما وجدوا حجة له!

دم الحياة

إن الذين يذمون الحياة هم الراغبون فى حياة خير منها لا الراغبون فى الموت كما يتوهم الكثيرون وربما كان ذو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون فى صفوها ونعيمها ، كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين فى ملازمة مائدة اللعب إلى النهاية!

كل ذى عاهة جبار

يؤثر الإنسان أن يكون عرضة للمقت والغيظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف ، وهذه على ما يرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة

(١) من كتاب الفصول. وكتاب الأستاذة عبير عامر العقاد : قراءة بين السطور لحياة العقاد. وراجع كتاب المرحوم الأستاذ عامر العقاد: آخر كلمات العقاد.

من تعمد إسخاط الناس واستنفاد صبرهم ، يحاولون الهرب من رحمتهم إلى نقمتهم ، ومن إحسانهم عليهم بالعطف إلى مساواتهم لهم بالمنازلة.

الشـرق والغرب

الفرق بين أساليب الشرقيين والغربيين فى التفكير كثير، ولكن لعل أوجزها وأجمعها فرق واحد : هو أن الشرقى طبع على النظر إلى غايات الأشياء ، وأن الغربى طبع على النظر إلى عللها ، وربما كان سبب هذا الاختلاف أن الشرقى وجد ثمرات الطبيعة مجهزة أو سهلة التجهيز فنظر إلى معناها وفحواها، وأن الغربى احتاج استخراجها فنظر إلى أسبابها ومنشئها.

العدل والقوة

أيها خير للناس جميعًا وللأقوياء والضعفاء معا : أن يكون القوى عادلا ينصف الضعفاء من نفسه ولا يستأثر بحظ من حظوظ الحياة دونهم فيظل قويا بلا منفعة له من قوته ويظلون هم ضعفاء بلا ضير عليهم من ضعفهم؟ أما أن يكون مفتئتا طاغيًا يورث باستعلائه وكبريائه نيرانهم ويتغلل بسطوته فى دخيلة نفوسهم حيث يخامر الذل قلوبهم فلا يدع ثم موضعا من مواضع الدعة إلا زلزله ولا عدة من عدة النهضة إلا شحذها ، حتى يضطرهم إضطرارًا إلى تنكب أسباب الضعف والأخذ بأسباب القوة؟

نشـر الدين

الغيرة على نشر الدين مقصورًا على الموحدين ولا أظن الوثنيين كانوا يرتاحون إلى مشاركة الأجناس الأخرى لهم فى نحلهم وأديانهم، لأنهم يعتزون بامتيازهم بدين خاص لهم اعتزازهم بجنسهم ومنبتهم ولغتهم ، ويرون ألهتهم كآبائهم وأجدادهم ينبغى أن تكون لهم بلا شريك.

محاكاة الطبيعة

القول أن الشاعر يغرد محاكاة للطير فى شدوه لا قل فى الغرابة عن القول بأن الإنسان يطهى الأطعمة محاكاة لأكله البرسيم ونهشه اللحوم من الدواب ! إن حاجة الشعر إلى الغناء كحاجة الطير إلى التغريد فهل يكون أحدهما حاكيًا؟!

حكم طبيعة المرأة عليها

الله مذكر فى اللفظ ، ولو أمكنك أن تخطف أجوبة الرجال والنساء من قرارات أفكارهم وعلى انتباه منهم واسألهم : هو الله مذكر أم مؤنث؟ لأجابوك على الفور : بل هو مذكر ، فالإله صفة الذكورة الوهمية فى بدائه الرجال والنساء على السواء ! ونعنى بالبداثة ذلك الجانب الذى لا يعيه الذهن ، حث مستودع التصورات والأخيلة التى لا سلطان للجنس ولا للروية عليها، فالمرأة لن تستطيع أبدًا أن تتصور فى أبعد خبايا نصفها أن يكون هذا الإله الفرد بصورة الأنثى ولن ترى من حق تنزيه الإله عليها أن تتصوره كذلك ، فكيف تراها تصدق ف الأعراب عن حكم طبعها إذا قالت : إنها لا ترى فرقًا بين الرجل وبينها؟!

شواغل الحاضر

شواغل الحاضر الضئيلة قادرة على أن تحجب عن بصيرة الإنسان جلال الأزل والأبد بما تهيج من عواطفه وتبلبل من خواطره ، كما تحجب الكف القريبة من العين اتساع الفضاء الذى لا نهاية له!

الشر النافع

لا يندر أن يكون القضاء على رجل شرير قادر فى شره أضر بالعالم من القضاء على رجل غفل لا يرجى نفعه ولا يرهب له أذى.

العصبية

لا يقدر أحد على أن يخدم الناس جميعًا ، وإذا نصب نفسه لذلك أوشك ألا يخدم أحدًا ، فلابد من العصبية التى تجعله قوة فاعلة فى جانب من الجوانب فيؤدى ما عليه من واجب عام من طريق الواجب الخاص.

أنانية الإنسانية

العالم الإنسانى شديد الأثرة ، فهو لو علم أنه ينال الخير ممن يسديه إليه ولكن بعد تحطيه وإتلافه لم يحجم عن ذلك ولم يذكر للمحسن إليه حق الشكر ولا خطر له أنه مدين به لذلك المحسن المغمور، وكثيرًا ما يكون الانتفاع بالخير وإهلاك جالبه أقرب طرق الإنسانية إلى اغتنام ذلك الخير!

بين الموت والحياة

أقمت زمنًا فى «الإمام وكنت أرى الموت هناك فى كل ساعة فكان يتمثل لى كأنه وحش فتك لكنه من الدواجن التى تقيم بين البيوت، وكان يخالجنى فى معظم الأوقات شعور لا أدرى أهو الاستهزاء بالموت أو بالحياة ، ولعل الشعور أنهما متقاربان ، فما استهزأ أحد بالموت إلا كان للحياة نصيب من ازدرائه.

وكان يوم عيد، فقيل لنا : إن هذه المدافن كثيرًا ما تكون مواخير للفجور يغشاها الفاسق أيام الأعياد والمواسم قضاء للباءات الهوى بين العظام النخرة والجثث البالية والذكريات المحزنة ، فقال أحد المحاضرين ولعله كان متهكمًا: هذا حسنٌ هذا انتصار للحياة على الموت.

حب المرأة

كل اهتمام وشيك أن ينقلب فى نفس المرأة إلى حب ، حتى الاهتمام

بالاحتقار.. على أن الاحتقار شعور قلما يتفق للمرأة أن تطيل فيه إلى أن يبلغ حده، لأنها إذا أخذت فى احتقار رجل لم يلبث أن يتحول احتقارها إلى مقت أو شفقة وبين المقت والشفقة وبين الهوى فى نفس المرأة حجاب لا تطر شقته، ولاسيما إذا كان المحتقر رجلا لبق اللسان بصيرًا بأهواء القلوب!

جناية آداب المدنية

كل اضطراب نفسانى شديد لا يظهر أثره على العضلات والأعضاء ينقلب إلى شعور مكظوم ، ومن هنا نرى جناية المدنية على الأخلاق إذا تضطر الناس إلى كتمان غضبهم وامتعاضهم فتغرس فى نفسهم الحقد والضغينة وتبدلهم من عدوان الغضب ما لم يكن مظهرًا من مظاهر ضبط النفس وغلبة الإدارة على الأهواء فهو هزيمة لا انتصار ورذيلة اضطرارية لا فضيلة مختارة.

طلب السعادة

إن طلب السعادة – إن صح أن العامل الوحيد فى حياتنا – لا يفسر لنا لماذا تكون سعادة هذا الرجل فى إيذاء الناس بينما يلتمس غيره السعادة فى الترفيه عنهم؟ فلابد أن يكون هناك غرض آخر وراء السعادة إذا اصطدم بها أهملها الإنسان مختارًا أو مكروهًا لأجله ، وقوام هذا العرض الضمير.

الكد والترف

إن فى الشغل الشاق من البهيمة بقدر ما فى الترف والتهالك على الشهوات، وما أقرب الكادح المستغرب فى عمل بدنه من الترف المخلد إلى ذاته!! وذلك يحتمل التعب لأنه جسد صرف وهذا يخلد إلى الدعة واللذة لأنه كان جسد صرف ، فهما شبيهان على بعد ما بينهما فى الظاهر ، ولذلك يوجدان جنبا إلى جنب فى المدنية المضمحلة، وكلاهما تنبئك حاله عن روح ميتة لا نطلب لها وراء مطلب اللحم والدم!

الدم المهدر

كان الملوك الأقدمون يهدرون دم من يغضبون عليه فلا يطالب أحد بحقه

وهذه العادة باقية، فالعرف اليوم بهدر دم من يخرجون عليه ولا يقرونه على عيوبه، فإذا حقوقهم كلها مضيعة وإذا الإساءة إليهم محللة لمن يشاء ، وكأنما الناس لا ينتظرون إلى الترخيص من العرف ليستجيزوا هذه الإساءة التى لا تجوز.

المذبذبون

إذ كان الرجل خليطًا من الشرف والنذالة لم يكد يصنع فى الحياة شيئًا ذا خطر، لأن الخلقين يتجاذبانه من ناحيتهما فيقف فى موضعه كالمشلول أو كمن شد إلى الحبل بن متنازعين على قوة متقاربة، وإنما يندفع إلى الأعمال الكبيرة من غلب عليه الشرف أو غلبت عليه النذالة.

***

نحن لا نعلم من آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا «فلسفة» تبحث فى أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية، ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقلاع تفكيرهم فى مدة البحوث ولا بقصورهم عن إدراك مداها ، لأنهم لم يتركوا لنا كذلك كتبا مفصلة عن علوم الفلك والرياضة والكيمياء التى لا شك فى اشتغالهم بها وتطبيقهم لها فى بناء الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب وسياسة الأنهار وكل ما نستطيع أن نجزم به أنهم لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم له جهلهم إياه .

ولسنا نريد بإثبات فضل الشرق أن نبخس فضل اليونان فى ترقية الفلسفة ، ولكننا نقرر الواقع حين نقول : أبن الذين يتخذون الفلسفة اليونانية ذريعة إلى اتهام الشرق بالقصور ينحرفون عن سنة الإنصاف ويتورطون فى ادعاء لا دليل عليه .

***

لا نزاع فى الصلة الوثيقة بين ووزن الشعر العربى ، فإن لم يكن كل ما نظمه العرب حداء يتغنى به الحداة فعك فهو ورن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغماته وأعارضه.

والمرجح إلى جانب هذا أن حداء الإبل كان له عمله المحسوس فى التزام القافية ، سواء بدأت فى سجع الكهان كما يرى الكثيرون أو كان ابتداؤها فى غناء الحدأة .

الفن العربي

إن طابع الذوق العربى هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ، وفروعها التى تلاقى فى عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة فى هندسة البناء ، حيثما طبعته بطيبته بطابعها على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى.

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء ، ولكن العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية – فسمى البحر كله باسم بحر العرب ، وسمى الشاطئ الشرقى من سواحل أفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الأفريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها ما بلغه العرب فى الهند وإندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

إنها بلغت على أيديهم أن تكون فتحًا فى عالم الروح ، ولم تكن فتحًا فى عالم المال وكفى ، إذ أصبح فى تلك البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك التجار الناجحين.

إذا كان من حقنا نحن الشرقيين جميعا أن نؤمن بالفكرة الصالحة فمن واجبنا أن نحترس من مغبة الاغترار بها ومن سوء الفهم الذى يخشى أن

تسوقنا إليه .

فمن سوء فهمها أن نفهم أننا مبرؤون من السر ب معصومون من الخطأ أو نفهم أن عيوبنا هينة لا تكلفنا المشقة فى إصلاحها » وأن أخطاءنا قليلة لا تعاودنا فى كل آونة من حياتنا مم أنفسنا أو حياتنا مع أقوامنا .

كلا بل لنا عيوب غير هينة ، ولنا أخطاء غير قليلة ، غاية ما يعزينا فيها أن نؤمن بأننا قادرون على تصحيحها وعلى اجتنابها ، وأنها ليست بالأبدية التى لا تفارقنا كما زعم المفترون علينا .

أما تلك العيوب التى تفترى علينا فهى التى تفرض وطائعين كما يزعمون ، وهى التى نعرفها أو نجهلها على حد سواء ، لأن الحيلة فيها عبث ، والأمل فى الخلاص منها مفقود .

تلك العيوب ننكرها ونشت فى إنكارها ، وليس قصرنا فى تبرئة أنفسنا فيها أننا نحب أنفسنا ، وأننا نشتهى أن نحمدها بحقها أو بغير حقها، وإنما ننكرها ونشتد فى إنكارها لأننا نستند إلى خير سند من الواقع الذى لا ريب فيه، ولأننا نعلم من هذا الواقع أننا سبقنا السابقين إلى ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة قبل أربعين قرنًا، وأننا أعطينا العالم حظًا منهما لا يزالون منذ أربعة عشر قرنًا، وأن ما كان فى ماضى الزمن غير مرة ليكونن غير مرة فى الزمن القريب، وفى الزمن البعيد!

***

إن الإحساس إلى ذوى الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الإنسانية وأقربها إلى الصفات الإلهية، لأنها قوة ف العظيم تعمل عملها فى إعانة الضعيف ولا تعمل عملها فى إذلاله وإرغامه، على ديدن العظمة التى قد توصف بأنها قوة فرد عظيم ولكنها لا تنسب إلى الإنسانية ولا تسمو إلى مقاربة

الصفات الإلهية.

***

من دأب الإيمان الديني في الطبائع أن يقارب بين الروح المثالي والفكر العلمي، على غير المألوف في أكثر المفكرين بين العلميين من غير المتدينين ، أو غير إيمان اليقين فإن القيم الأخلاقية العليا والأريحية المثالية خيال يحلم المصلحون المثالبون بتحقيقه في المستقبل إن صح أنه قابل للتحقيق في وقت من الأوقات، ولكنها واقع مقرر في كل وقت عند المصلح المؤمن ، لأنه مقترن بوجود الإله الكامل السرمدي في كل لمحة من لمحات الزمن ، حاضر بحضوره في كل مكان ، غير ميئوس من إدراكه بإرادة الله وإرادة خالقه مع صدق النية واستقامة الطريق على هداه.

الطاعة

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الأمم القوية ، والأمم التى لا طاعة فيها يعرف أفرادها الواجب ولا يلتزم أحد لنفسه ولا لغيره يحترمه ، وحيث لا واجب ولا تبعة لا يكون عمل شريف ولا فضيلة نبيلة ء على أن فرقًا بين الخوف والطاعة فإن الخوف اضطرارى والطاعة اختيارية .

المذاهب الحديثة

إذا نجم لمذهب أعداء فقد ولدت فيه جرثومة الأنصار لأنه يصير عملة صحيحة مقومة يقبلها كل إنسان جزاء لأعماله .

وهناك ضرب من الاقتصاد الشعورى غير مقصود فى حركات الجماهير من هذا القبيل ، فالطبيب كإنسان يفيد بعمله ولو لم يلق هتافا وتهليلا، أما شارلى شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل؟

أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذى يضحك الناس فيه والوقت الذى

يهللون له فيه ويهتفون؟!

الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات : عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التى يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة ، تكن قد عشت فى وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت ! والوقت أيها القارئ أصناف : فمنه ما يبخل به الإباء على غير سكان السموات ومنه ما يطرحه للأبقار والحشرات ! فإذا قلنا لك أحبب الشعر فكأننا نقول لك عش وإذا قلنا: إن أمة أخذت تطرب للشر فكأننا نقول إنها أخذت تطرب للحياة .

وها نحن أولاء نرى اليوم فى آدابنا نهضة فعسى أن تكون آداب طبائع لا آداب ذكاء ، لأن كل أدب الطبائع غيره فمين أن يناط به الرجاء.

النور

طهرت بماء سمائها أمم	وبه تطهر روحها الهند
والروح أولى بالطهور لها	نور يحف بها ويمتد
فيض يشف فما به كدر	ومدى يفيض فما له حد

إيه يا دهر

إيه يا دهر هات ما شئت وانظر	عزمات الرجال كف تكون
ما تعسف فى بلائك إلا	هان بالصبر منك ما لا يهون

الشيء من غير معدنه

ليس أضحى لفؤادي	من عجوز تتصابى
ودميم يتحالى	وعليم يتغابى

وجهـــــــول يمبـــــــأ الأر ض ســـــــؤالا وجوابـــــــا

ما أشبه أخلاق الجمهور بأخلاق المرأة والطفل ، فإنه لينتظر من يتأله عليه فيعبده، وقد كان ذلك شأنه من نابليون.

كان هذا الرجل يسبح فى لجة من الدم والناس تنظر إليه فلا يعنيهم من أمره إلا أن يشاهدوا براعته فى السباحة.

***

يراد الإنسان على بعض الأشياء

ويريد هو بعض الأشياء

والأشياء التى يراد عليها ويساق إليها التى تكشف لنا دخيلة نفسه وحقيقة أطواره ، لأنها صادرة من غيره وإنما تنكشف لنا دخائله وأطواره من الأشياءالتى يريدها هو حسب مشيئته ووفق مناه ، وبخاصة ما كان منها فى معيشة البينية التى يخلو فيها لنفسه ويتصرف فيها بو حى هواه.

***

يرضى عنك من ينتظر منك عشرة فتعطيه عشرين ، ويسخط عليك من ينتظر منك ألفًا فتعطيه خمسمائة.

إن الإنسإن يرضى ويسخط على الناس بحسب ما ينتظره منهم ، لا بحسب حسناتهم وسيئاتهم.

ولهذا كان سخط الناس على القادرين أشد من سخطهم على العاجزين ، وكان سخطهم على الأخيار أشد من سخطهم على الأشرار.

***

شر من الأعداء صديق يغار على صداقتك فلا يحب أن يشاركه النإس فيها ،

إنه يحرمك صداقة الناس أجمعين.

***

المثل الأعلى للطبقة الوسطى فى أوربة هو الجنتلمان وريث «الفارس» فى القرون الغابرة.

ومن آداب الفارس أن يقرض السيدة ولا يرفض رجاءها.

لهذا اتفق الضدان على ضلالة العصور الحديثة وهى مساواة النساء للرجال فى الحقوق السياسية.

اتفق أنصار المجتمع من أبناء الطبقة الوسطى، وأعداء المجتمع من الشيوعيين.

هؤلاء لأنهم يخالطون بين مجاملات الأندية وحقائق الطبيعة وهؤلاء لأنهم يدمرون المجتمع ويثيرون المرأة على قداسة البيت وحصانة الأسرة.

صاحب الفضل المشكوك فيه أقرب إلى ثناء الناس من صاحب الفضل الثابت الذى لا شك فيه.

لأنك تشعر وأنت تثنى على صاحب الفضل المشكوك فيه، إنه محتاج إلى ثنائك الثابت الذى لا شك فيه.

لأنك تشعر وأنت تثنى على صاحب الفضل المشكوك فيه ، أنه محتاج إلى ثنائك ، والإنسان يحب أن يشعر باحتياج الناس إليه.

ولأنك تثنى عليه وأنت تعلم أنك قادر على إنكار فضله ، والإنسان يحب حرية الاختيار.

أما صاحب الفضل الثابت فلا حاجة به إلى ثنائك ، ولا أنت قادر على إنكار فضله .

أنت مرغم هلى الشهادة له إن شهدت، والنفس تأبى الإرغام وتتحاشاه ، والثناء المكتوم فى كثير من الأحيان هو نصيب المستحقين للثناء بغير جدال.

إذا رجح الحاسد عظيمًا على عظيم ، فأعظم الاثنين هو الذى ينحى عليه ولا يزكيه، لأنه هو المحسود.

مقتل ألف ألف فى حرب طاحنة ، لا يحيرنى فى تعليل حكمة الوجود كما يحيرنى ميلاد طفل واحد ممسوخ العقل والجسد.

إن الناس لا يعيشون أبدًا ، ومن لم يمت منهم فى ميدات قتال مات على الفراش، ولكن الطفل الذى يولد وهو مسلوب الحق فى الحياة – ما وجه الحكمة فيه؟!!!

***

- هل لك أمل فى مستقبل الهيئات العالمية؟

- نعم.

- ولكنها قد أخفقت فى جميع التجارب الماضية!

- لو يئسنا من التجارب الماضية ليئسنا من كل تجربة ، لأن قولك: «تجربة ماضية كقولك: «تجربة مخفقة».

إنما التجربة الناجحة هى التى تأتى بعد إخفاق كثير.

***

الرجل الذى يحبه جميع الناس لا يحب جميع الناس ، لأن المحب يصادق ويعادى فى سبيل المحبوبين ، ومن صادق وعادى لم يسلم من الأعداء

***

فى وليمة الحياة يدخل أناس واثقين كأنهم ينتظرون الترحيب والتكريم،

ويدخل أناس متهيين كأنهم ينتظرون الطرد والإقصاء.

من هنا يأتى الشعور «بالخطيئة» أمام متع الحياة.

أثنيت على رجل عظيم أمام سيدة حسناء ، فقالت لى : ولكنى رأيت عظيمك هذا فلم يعجبني!

قلت : وهل أعجبته أنت؟

قالت : نعم ، لا لى ذلك فى عينيه!

قلت : هو قد عرفك وأنت لم تعرفيه!

***

لسان الحال عند طالب الحق

إذا رضيت عنى لئام عشيرتي　　فلا أزال غضبانًا على كِرامها

أما طالب الحق والسلامة فقد أخطأ الحق وأخطأته السلامة، وفاته الرضا من الكرام ومن اللئام!

***

الناس يفهمون من يعمل لنفسه، والمفهوم قريب.

والناس لا يفهمون من يعمل لهم ، وغير المفهوم غريب.

لا جَرَم يبغضون الجدير بالحب ويحبون الجدير بالبغضاء.

***

أمثال الأمم سجل التجارب وليست سجل الحكمة ، وتجارب الأمم شاملة لما يجربه الحكماء وما يجربه السفهاء.

***

لا يكفى أن تكون فى النور لترى ، بل ينبغى أن يكون فى النور ما تراه.

***

من نقائض الرمزية فى الأدب والفن أن الذين يدافعون عنها يكتبون دفاعهم بالقول الصريح ولا يرمزون.

***

لا يغرك كل محارب للباطل، فقد يحاربه بباطل مثله ، أو باطل أمضى منه فى البطلان.

***

أنا وابن عم على الغريب .. وأنا وأخيى على ابن عمى ، مقالة لها وجه آخر. ووجهها الآخر : أنا والغريب على ابن عمى وأنا وابن عمى على أخي.

لأن الغريب لا يطمع فيك طمع ابن عمك، وابن عمك لا يطمع فيه طمع أخيك.

***

ماذا يقول الناصح العاقل للمنصوح الغوى يقول له: أتنصحنى وتزعم أنك عاقل؟ لو كنت ذا عقل لما أسديت الخير لمن لا يريده، ولما نصحت من لا يستمع إلى نسحك ، ومن لو استمع إليه شق عليه أن يشكره وود لو ينكر نفعه!!

الحق أن الناصح قد يعقل فى كل شيء إلا فى إسدائه للنصحية.

وإنما هو يسديها لما عنده من الرحمة وحب الخير ، لما لا عنده من العقل والحكمة.

***

خير الشر ما أصاب الأشرار ، وشر الخير ما أصابوه.

***

ربما يكون من تصغير الحقيقة أن تقول: إنها معروفة لجميع الناس.

إنها الحقيقة الكبرى هى التى يدركها أكبر العقول وتعجز عن دركها العقول الصغار.

يصل حق الصلاة من يتوجه إلى الله ولا يشعر بشيء فى صلاته غير حضور الله وحده.

وصلاتك فى الجماعة لا تحجب عنك الحضور الإلهية، فقد تلقى فى خلدك أن الجنس البشرى كله يتوجه فى نفس واحد إلى مقام الله.

إنها صلاة «الإنسان وليست صلاة هذا الإنسان أو ذاك.

***

قد يكره المعجب بك من يعجبون بك مثله لأنهم يبطلون امتيازه ويشاركونه فى حقه عندك وفى غيظ الغيبطين منه لأجلك.

***

صلاة الصبح مع الفجر إيذانا للإنسان بأن التوجه إلى الله حرية له أمام سلطان الطبيعة : يختم بيده غاشية الليل ويغلب بإرادته غالب النوم ولا ينتظر الإذن بختام الظلام من شمس النهار

***

من معاذير البخيل لنفسه إذا هم بشراء شيء يؤكل أو يلبس تم لم يجده أن يخاطبها قائلا : افرضى أنك أكلتيه وافرضى أنك لبستيه ثم يرد المال إلى موضعه.

ومن معاذير المسرف إذا بذل المال لشراء شيء ثم لم يجده أن يخاطب نفبسه قائلا : قد ضيعت ثمنه ..فضيعه إذن على أية حال.

يندر جدا فى بلادنا من يقدر اللازم لعمل من الأعمال فيعطيه حقه من الاستعداد كما ينبغى على القدر المطلوب لتحقيق الغرض منه إما أن يزيد وهو يعتقد أنه إكرام وإما أن ينقص وهو يعتقد أنه قصد وتدبير، وهيهات أن تقنعه بغير ذلك ولو ضاع النفع المقصود بالعمل كله.

الحاكم القدير هو الذى يتقبل المشاركة فى أوامر ، ولا يتقبل المشاركة فى تبعاته و تكاليفه .

***

المروءة تأبى عليك أن تحقد على اللئيم ولكنها لا تأبى عليك أن تعرفه وتحذره.

***

كن نارًا ولا تكن حريقًا.

***

الذين قالوا : إن الإنسان طلب السرور لم يقولوا شيئا ، لأن سرور إنسان حزن آخر.

وإذا قلت لى عن أحد : إنه يطلب السرور لم تعرفنى به ، ويبقى أن تقول: إنه يسر بكذا ويحزن لكيت وكيت ، فهذ هو التعريف.

***

مذهب «السروريين» تحصيل حاصل ، كأنهم يقولون : إن الإنسان يطلب ما يطلبه ، ومن قال: إن الإنسان يطلب ما يسره ، فهو كمن قال : إن الإنسان ما

يطلبه : دوران ينتهى إلى حيث يبدأ ، ويدور فى مكانه بلا انتهاء.

طلاب «المظاهر» يطلبونها من أجل الناس لا من أجل أنفسهم.

وأغنياء المظاهر هم فقراء النفوس: هم أفقر الناس إلى الناس.

تصدق على هذا المعنى المسكين بنظرة حسد ، فهو محتاج إلىيها.

وتصدق على هذا الفقر المسكين برغيف خبز ، فهو محتاج إليه.

***

من العزة أن تترك الدنيا...

ومن الهوان أن تتركك الدنيا...

فاختر لنفسك بين العزة والهوان...

قد يحسدك الحاسد ليصبح نظيرك ، وقد يحسدك الحاسد لتصبح نظيره، وهو آلام الحاسدين.

***

قال أبو العلاء :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض، وإن لم يشعروا، خَدَمُ

ولوق قال: «سادة» لم اختلف المقال!

إذا أحبك القوم مخدوعين فلا تفرح...

وإذا كرهك القوم مخدوعين فلا تحزن...

بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات...

الحكومة التى تحمى الشعب من الفوضى حكومة ضرورة واضطرار.

والحكومة التى تبغض الفوضى إلى الشعب حكومة حرية واختار.

البساطة واضحة كالنور.

ولكن ما الذى يجدى النور نفسه من ليست له عينان ، أو من يغمض عينيه، فلا تبصران.

***

قال أفلاطون : إيقاع الظلم أدى إلى الخزى والعار من احتماله.

صدق أفلاطون ، لماذا؟

لأن إيقاع الظلم شر ، واحتمال الظلم ضعف ، والشر أقبح من الضعف!

أمقتنع؟

كلا ... لماذا؟

لأن فى الدنيا من يخجل من الضعف الذى يعرضه لظلم الناس ولا يخجل من القوة التى تعرض الناس لظلمه.

***

يقول المعري:

إن الغنى العزيز حين تطبه والفقر فى عنصر التركيب موجود

ولك أن تقول: إنهم لهذا يطلبون الغني لذى يحتاج إلى طلب، ولا يطلبون الفقر الذى لا حاجة بهم إليه.

***

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت فى مرادها الأجسام

هكذا قال أبو الطيب.. فهل تستريح النفوس الصغار؟ كلا

ولا ريب ... أنها تستكبر ما هو صغر ، وتستبعد ما هو قريب ، وتشتغل بما لا يستحق عناء الاشتغال.

الفضيلة والرذيلة كلمتان لما اصطلح جماعات لما اصطلح جماعات الناس على الاعتراف به وإنكاره باعتبار نفعه أو ضره ، والمعروف والمنكر وهما من مرادفاتهما فى العربية تؤديان هذا المعنى تمام الأداء

فما كان يعد فضيلة عند قوم يعد برذيلة عند قوم آخرين تبعا لما ينجم عنه من النفع أو الضرر عند كل منهما ، وربما كان العمل الواحد فى الأمم الواحدة يعتبر فضيلة فى هذا الزمن أو ذاك ، ورذيلة فى زمن آخر .

***

ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه ما لا يعرفه وهو كثير بتشبيه لشيء مما يعرفه وهو قليل ، ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحاضرين وسكان الأمصار ، ولقد كان الشاعر دائما أسبق من العالم فى التاريخ ، فإن الإنسان يحس أولا ثم يفكر ، فتسخو القرادح فى عهد البداوة وينبغ الشعراء فى الأنحاء التى لم يستبحر فيها العمران أكثر مما ينبغون فى غيرها .

***

ليس الفيلسوف صاحب المذهب الشاذ أو المبدأ الغريب ولا هو بالرجل الواسع الاطلاع أو المتفوق على غيره فى ملكاته ومواهبه.

ليس الفيلسوف الحقيقى هو الباحث الذى لا ينشد إلا الحقيقة : ينشدها لا ليراها فى شكل منتظر أو هيئة مرموقة أو ينظر إليها فى ظل مبدأ من المبادئ فيكيفها كما ترسم مخيلته وتوحى إليه موروثاته ومعتقداته وأغراضه ولكن لتظهر أمامه كما هى بالوجه الذى تظهر به فى كل آن عارية من غواشى البراقش والزركشات .

***

ليس الحاسد هو الذى يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك ، بل هو الذى يريد أن تساويه بأن تنزل إليه ، ومن هذا القبيل الرجل العياب الذى يتتبع عورات الناس وسقطاتهم لينزع بهم إلى مستواه ويتغافل عن حسناتهم عمدًا لأنه يعلم من نفسه العجز عن الإتيان بمثلها.

التجارب لا تقرأ فى الكتب ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب

***

النساء أسوع تقليدًا لأنهن أشد غيرة ، وهن أشد غيرة لأن المشاكلة بينهن فى المناقب والمفاخر أقرب مما هى بين الرجال .

***

طالما تذكرت أغنام السودان وأنا أقرأ نظرية جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع ´´ إن الجماعات أسلس قيادًا من الأفراد ´´ فإن قيادة شاة واحدة من تلك الأغنام عمل شاق يعيا به أشداء الرجال مع سوق قطيع كبير منها لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أطفال صغار.

***

العالم بأسره يشترك فى تمثيل رواية مضحكة وأدعى مناظرها إلى النفس تقابل القدرة بالإعجاب والقوة بالخشوع.

***

لا يعترف الإنسان بشيء مما يشعر بنقصه إلا إذا كان يريد أن يتوصل من ذلك إلى الاشتهار بنوع ما من الكمال . فروسو والقديس أو غسطين وهينى لم يذيعوا كل تلك الأسرار الخفية التى سردوها فى اعترافاتهم - من غير أن يخشوا أن ينقلها سواهم على غير حقيقتها أو تكون هناك ضرورة ماسة

بإذاعتها – إلا طمعا فى الاتصاف بمزية الصراحة الفلسفية أو الدينية وهى أكبر فى نظرهم من جميع تلك المزايا التى جردوا أنفسهم عنها بمحض اختيارهم.

***

لا يمتدح الرحل بأكبر من نسبة القوة إليه كيفما كان مذهبه نى تفسيرها ، ولا يعير بأكثر من اتهامه بالضعف كيفما كان مذهبه فى تفسيرها ، ولا يعير بأكثر من اتهامه بالضعف كيفما كان مذهبه فى تفسيره ، والرجل يشتد حنقه للاعتداء على عرضه لأنه دليل استضعافه ووهن جانبه فقد كان الرجل يحمى النساء من قديم الزمن لأنه أقوى منهن وكان المنتصر فى عهد القبائل لا يعتز بقوته ويؤيد ظفره وتمام غلبته بأفضل من سبى نساء القبيلة المغلوبة ، وقد كان النساء يعجبن بالرجال بقدر حظه من الصفات اللازمة لحمايتمن كالنخوة والبسالة والفروسية والبطش والقوة فكان ميل المرأة إلى غير رجلها أو إغوا. امرأة فى حوذة رجل اتهامًا له فى ذات رجولته .

ولذلك تشتد الغيرة على العرض فى الأقوام الذين تنحصر صفات الرجولة بينهم فى هذ» المزايا الجسدية ولذلك أيضا كانت الأم أكثر إغضاء عن زلة فتاتها من أبيها وبعض قبائل البجاة تغض عن المعتدى على عرضها متى خرج من باب الخص لأنهم يعتبرون ذلك إقرارًا منه بالعجز عن مواجهتهم بالعدوان .

***

الموت أعم المصائب وقوعًا ولا يزال أشدها إيلامًا وأقلها قبولا للعزاء.

على أن ذلك لا يفيد أنه غير مألوف، ولكنه يدل على أن الإنسان لا يجزع لمصاب غيره كما يجزع لمصاب نفسه.

***

ما رأيت مرائيًا إلا وجدته مغتابًا نمامًا والجراءة على الناس فى غيبتهم كالتزلف إليهم فى حضـرتهم ، كلاهما علامة الجبن والصغار

***

حاولت أن أقف على صورة العالم فى مخيلة غلام أكمه فقال لي:

إن يراه كأنه هيولى مضطربة فى ظلمة قائمة لا أول لـه ولا آخـر ، فقلـت : لا تأس يا بنى : إن أنفذ الناس بصرا أو بصيرة لا يرى منه أكثر من ذلك.

***

الرقى العصـرى كفيل بأن يصل الإنسان إلى درجة تكون فيها إرادتـه قانونًـا وترفع عنه كثيرًا من سلطة الحكومات عليه.

***

المرأة ألطف وأفطن إلى تشابه الملامح من الرجـل ، فقـد رأيـت النسـاء يـرين الطفل الصغير قبل أن تتشخص ملامحه فيحكمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية ، وقد يبدو لغير المتأمل أن بيـنهما أدنـى شـبه والظـاهر أن كثـرة اشتغالهن بتجميل الملامح قد أكسبهن هذه الخبرة فيها.

***

إن أكثرنا يظن أن المرأة من متمات زينة البيت فكما أن فى البيت متاعًـا وأثاثًـا من كل صنـف ، كذلك يحسن أن تكون فيـه واحـدة أو أكثـر مـن صـنف النسـاء وأن بعضـهم ليغير زوجته مرارًا ولا يغير مرارًا ملاءة سـريره!!!

من حسن حظ العلماء أنهم وحدهم الذين يترفعون على الـدنايا التـى يـتلطخ بها طلاب المجد الكاذب.

***

انظر إلى ما قيل لا إلى من قال . قاعدة لا يصح إطلاقها فى كل حال ، فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائلها:

لا تحسدن غنيًا فى تنعمه ... قد يكثر المالُ مقرونًا به الكدر

تصفو العيون إذا قلت مواردها ... والماء عند ازدياد النيل يعتكر

***

الصبر قوة .. لأنه تغلب على الأمر الذى يفرق منه غير الصابر وعدة يتدرها بها الصابر فى الملمات.

والرحمة ضد القسوة قوة ، لأنها لا تكون إلا من الأقوياء على الضعفاء ومن الوادعين على المبتلين.

والكرم قوة ، لأنه علامة استغناء الرجل عن الناس بقدر احتاجهم إليه ، كما أن بذل المال علامة القدرة على اكتسابه فى كل آن.

والقناعة قوة ، لأنها تدل أيضًا على استغناء الإنسان بنفسه عن الناس.

***

أيهما أحق بالحَجْر؟! ذلك المسرف الذى يدفع دنانيره أولا فأولا إلى من هو أعرف باستعمالها؟ أو هذا الشحيح الذى يلتقط من الثروة العمة درهمًا بعد درهم ثم يحرمها من الانتفاع بها طول حياته؟!

عدم الاكتراث لازمة من لوازم النوابع العبقريين، فالرجل العبقرى عالمه فى نفسه له بداية وأطوار غير التى يألفها الناس ولكنه لا يتخلى عنها.

وللناس شعائر وتقاليد يقدسونها ولكنه لا يلتفت إليه، مثله فى ذلك مثل السائح الأوروبى أو الأفريقى يهبط الصين فإنه ينظر إلى أزياء القوم وأحوالهم بعين الاستغراب وإن كانت مألوفة عند كل فرد غيره فى الصين!

الخال أشد عطفا من العم لأن الرجل ينافس أخاه بأبنائه ولا ينافس أخته بهم، والعمة أشد عطفا من الخالة لأن المرأة تنافس أختها بأبنائها ولا تنافس أخاها.

***

من أراد أن يقرأ عن الناس والعالم ما يسره فليخلق للكتاب ناسًيا جددًا فى عالم جديد.

ذهبت الماضية ولم أودع فيها شيئا ، وأقبلت الآتية ولم أنتظر فيها شيئًا .

وهذه فاتحتها. .

فليكن ختامها كما شاء أن يكو ن .

***

قد تختصم القوة الصغيرة والحق الصغير ،وقد يختلف الجمال المحدود والحق المحدود ، ولكن القوة الكبرى والحق الأكبر لا يختصمان . والجمال الشامل والحق الخالد لا يختلفان على أنه لا حق وراء هذه الحدود ينفرد عن قوة ولا جمال .ولكنها كلها عناوين شتى بصورة واحدة :هى القدرة التى يبدأ منها كل شيء واليها يعود .

***

إنه خير لنا أن يكون منا مجانين متهوسين من ألا يكون بيننا مجازفون على الإطلاق فيقتلنا حب السلامة وتحسبنا ناجين وادعين ونحن فى الحقيقة نعرض أنفسنا لأرذل الأخطار .وأى خطر أرذل من استكانة النفس وتقلصها من قشورها.

***

إنـى لأصـغر شـأن هـذه العلـوم والآداب القائمـة التـى تقـوم بوجـدانيات الإنسان ولا يحس بها .و يحمى بها ولا يعبر عنها و يعبر عنهـا ولا تـصل برمتهـا إلى عقل سامعها فيتأكد لى أن الناس فى حاجة إلى تفاهم أرقى من هذا التغـاهم اللغوى .

***

الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا مـن يعـددها ويحـصى أشـكالها وألوانهـا وليست.

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

أصحيح هذا؟

إن صح على وجه فأصبح منه على وجه آخر : إن رجل الدنيا من تعول عليه ... لأن عظمة الإنسان بمن يعالون عليه ، لا بمن يعول عليهم.

***

قالوا : إن الفيلسوف «يحب الحكمة .. فهل قالوا: إنها استجابت لحبه؟

***

الفيلسوف محب الحكمة فهو يسعى إليها.

والشاعر محبوب الحكمة فهى تسعى إليه!

***

خرج أرشميدس من الحمام عاريًا لأنه وجد فكرة كانت مستعصية عليه.

***

كثيرًا ما يعيش الناس فى الدنيا عراة لأنهم يجدون الأفكار التى يبحثون عنها.

***

إذا سبنى قوم سألت عمن يمدحون ، فإن رضيت أن أكون ممدوحهم ، لا أكون سبابهم ، وإن لم أرض كان سبابهم عندى خيرًا من الثناء.

***

نحب المنفعة مضطرين.

ونحب الجمال مختارين.

المنفعة قيد والجمال حرية.

الكلمة القصيرة يطلبها السامع بالتأمل والروية.

والكلمة الطولة يختزمها السامع للوعى والذاكرة.

***

حلوى رمضان رِشوة الضمائر للمعدات وتعويض للجوع بالتخمة.

***

لا تنصح من تغالبه بالرأى ويغلبك بالإعراض عن نصحك ، ولا تنصح من يغيررأيه فيحسبك مهينا لغروره بحكمتك.

انصح من يثق برأيك ويثق بقصدك.

***

ليعلم من تعلمه أنك مستغن عن قبوله التعليم منك .. فلا تعلمه متوسلا ولا آمرًا وعلمه محبة وتأديبا.

***

العادة قصد فى التفكير تعمل عمله ، ولا تعيد جهده ، نحمدها إذا ه وصلت إلى نتيجة بغر مقدمات ونخشاها إذا هى سخرتنا الآلات بغير نتائج ولا مقدمات.

***

مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو وكشف عن لبابه وصلة الحياة به.

الشعر حياة أو سلعة؟

إن يكن حياة من الروح وإن يكن سلعة فهى من السوق.

***

يومنا الجديد

فى سنتنا المقبلة

لتكن دَرجًا فى سلم ولا تكن دركا إلى منحدر.

***

هَمُّ الغد حيطة نافعة وهمة محمودة وهمُّ الزمن كله حماقة خاسرة وعجز ذميم.

***

ليست السرعة كلها نشاطًا.. قد يسرع الكسلان ضيقا بالعمل وشوقا إلى الكسل.

***

ما حاجتنا إلى تسجيل اللامعقول

أنخشى أن يزول.

حب الحق أكرم من حب الصواب

حب الحق غيره وحب الصواب حساب.

***

الغيظ سم لفظه أسلم من مضغه ، ومضغه أهون من اجتراره من لا يغضب بليد وليس بحليم وإنما الحليم من يغضب ويملك عنان غضبه .ومن يخشى ظلم غضبه على غيره كما يخشاه على. نفسه .

***

من المستغرب أن تجمع الشجاعة وخليقة الشح فى بعض العظماء ... لأن الحرص على النفس أولى من الحرص على المال .. ولكن الخصلتين تلتقيان فى خلق واحد وهو خلق الصرامة وضبط الشهوات ، وقد يزين الشرح للشجاع الطامع أن المال لازم فى سبيل السطوة وهى التى فى سبيلها ستهين بالحياة .

والمتنبي. وهو من الشجعان الأشحاء يقول :

ولا مجد فى الدنيا لمن قل ماله

ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

***

القلق أخطر على العقول وعلى الأجسام من الجهد :

الجهد توجيه للقوة فى السرعة أو يقتصد ولكن القلق حيرة بلا وجهة تستنفذ القوة فى مكانها وتفنيها بتشتيت أجزائها .

***

الحب فى فيضانه يغمر الكثير من المساوئ والسيئات ،نقع فى غماره فيخيل إلينا أنها غير واقعة ولا متوقعة .ثم ينحسر المد ويبتدئ الجزر فإذا بالرءوس المغمورة ترتفع إلى القمم ء وإذا بالعشب فى القاع والذؤابة على الطرد سواء نحسبها كأنها بنت ساعتها .ونعلم أننا لم نغفل الانتباه إليها فى حينها ولكننا شغلنا عنها بما غمرها وأخفاها.

***

شهدت أساليب التربية فى بيوت الدهاة الحكماء من الآباء :أسلوبهم فى تربية أبنائهم هو أسلوب اللعب على المكشوف ، وأسلوب اللعب على المكشوف فى تربية الصغار هو أن تعرض لهم العيوبب العارية مغطاة كالعيوب المستورة ثم يلهمون الكياسة فما يسبل وفيما ينزع من الغطاء.

***

العناد والثبات على الرأى نقيضان :

العناد إصرار بغير سبب أو لسبب ظهر بطلانه

والثبات إصرار على رأى يؤمن به صاحبه ولم يظهر له ما يدعوه إلى التحول عنه والمعاند من يطلب إلى ذى رأى أن يتركه لأنه هو لا يقبل المناقشة فى رأيه.

***

كلها حَيْرة

ولكن فى الحيرة خيار

والحيرة التى تختار هى كل حيرة تسمح للحائر بالمجازفة فى انتظار النتيجة ، لو كانت من نتاج القنوط الذى لا تردد فيه .

***

آله محسوب فى تركيبها حساب سبعين سنة

وآله محسوب فى تركيبها حساب ألف سنة

وآله محسوب فى تركيبها حساب الزمان كله

هذا هو الفارق الذى يرحع إليه فى قياس غايات الناس ومقاديرهم من السمو بين الفشل والنجاح.

***

فرجل نجاحه نجاح فرد، ورجل نجاحه نجاح قوم، ورجل نجاحه نجاح بنى الإنسان أجمعين وعلى هذه القاعدة كل منهم بين الخسائر والأرباح ويوازن بين الفنل والنجاح .

***

التواضع نفاق مزدول إذا أخفيت به مالا يخفى من حسناتك توسلا إلى الثناء.

***

الاستخفاف بكل ملحظة ما لم تؤد إلى نتيجة هو قرين الاستخفاف بكل شيء ما لم يؤد إلى طعام يؤكل ومال يقتنى كلاهما علامة الحيوانية الهابطة أو علامة الحياة الترابية .

لاحظ وإن لم تعرف نتيجة الملاحظة فى حينها لأن الملاحظة هى عمل الحياة ولو لم يعقبها جزاء وأنت لا تؤجر على أن تحيا إلا إذا كانت حياتك سخرة كسخرة الأحرار والعبيد .

***

احتمال التبعية والقدرة على المعونة هما أعلى ما ترتفع إليه أخلاق الشعوب : خليقتان إحداهما لازمة للنهوض بعملك والأخرى لازمة لإنهاض عمل الآخرين ، وبالخليقتين مما تتم فضيلة العمل التى هى خير ما فى الحياة القومية وليس للشعوب المتداعية من هذه الفضيلة نصيب.

من الأمل ما هو كراهة للحاضر، ومغامرة على المستقبل هذا أمل لا خير فيه وهو كثرة المفلس التى يرجوها من ورقة اليانصيب .

ومن الأمل ما هو إيمان بالحاضر وإيمان بالمستقبل وهذا هو الأمل الصحيح

وهو كثروة صاحب الكنز الذى يحمل مفتاحه ويطمئن إليه .

***

المرأة تخاف الرجل الذى يمضى مع غضبه وتخاف أكثر منه .الرجل الذى يملك غضبه وتخاف من هذا وذاك الرجل الذر يملك غضب الآخرين ويسيطر عليهم وهم غاضبون .

***

خوف الموت كلمة مرادفة لخوف الحياة ،وكلاهما شيمة الضعفاء لأن الأقوياء لا يخافون الموت ولا يخافون الحياة ، ولكنهم يكرهون الموت كما يكرهون عدوا ويحبون ألحياة كما يحبون عشيقة ، وليس من الضرورى حين يكره المرء عدوه أن يخافه ، وإنما خوف الأعداء دأب الضعفاء وإذا خاف المرء الموت فذلك ضعفه . والضعيف يخاف الوجود كما يخاف الفناء لأنه لا يقوى على هذا ولا ذاك .

الإخلاص أصناف فليس كل الإخلاص جديرا بالثقة والتقويم وإن كان اسمه الإخلاص ولا شك فى إنه إخلاص.

***

الأنانى لا يحب نفسه لسبب بسيط :هو أنه ليست له نفس تحب.

الأنانى مسخر لما يفعل ،يأتى بما يضره كما يأتى بما يفيده ولا دخل للحب والبغض فى الحالتين .

***

ليس الطبيب البيطرى أصلح الناس للفروسية ، وليس العالم الاجتماعى

أصلح الناس لولاية الحكومة . هذه صناعة وتلك صناعة .

***

كلما أمعنت فى الحى والتفكير تبين لى أن النور هو سر الأسرار وأننا سنكشف حقيقة الدنيا يوم نكشف حقيقة النور.

فالنور ينسخ كل شيء وكل شيء ينتهى إلى النور وهنا ينبغى أن يرتفع الستر وينقشع الغمام.

***

أكثر الناس استخفافا بالظواهر السطحية هم السطحيون لأنهم لا يستطيعون أن ينفذوا من السطوح إلى الأعماق ولا أن يفقهوا دلالات الأشكال ولا الفرق بين دلالة ودلالة.

صاحب المكانة الأدبية الكبيرة بغير جاه مادى ولا سلطان على الأرزاق هو عرضة أبدا لإيذاء اللئام لأنه محسود على مكانته وهو فى الوقت نفسه غير محذور على المنافع المادية التى يحسب اللئام حسابها ولا يشعرون بالحاجة إلى غيرها.

***

إن للتاريخ الإنسانى وجهة تدل عليها العقبات والعوائق كما تدل عليها الدوافع والممهدات وإن تاريخ الآلة من عهدها الحجرى إلى عهد الذرة لمعالم قائمة تهدينا إلى تلك الوجهة من البداية للنهاية .

***

كنت أبصر سعد زغلول فى أيام الأزمات والأخطار فأبصر الحوت فى بحره والطائر فى سمائه :لا كرب ولا وجوم يكون هناك مراس ونضال ، وإنما الكرب والوجوم حين يكون الفراغ والسكون .

***

إن الزهرة المتفتحة التى تطويها فى يدك قد تروى لك من فخامة هذه الأسـرار ما تمتلئ به آفاق الأرض وأبراج الشموس والأقمار فإذا أخذتها بين إصبعك فاذكر أنها رمز الحب وإذا ذكرت الحب فاذكر أنه فى كل ما يحيط بنا من الظواهر والخفايا هو رمز الجمال الإلهى والخلود السرمدي.

***

إن الـصحراء تريـك نفسك فى منظـار الحقيقـة مـن طرفيـه المتقـابلين تريكهـا كأعظم ما تكون وكأصغر ما تكون وهى لا تعرفك إلى أحد ولكنها تعرفك إلى نفسك ولا تقدم إليك صديقًا جديدً ا ولكنها تقـدمك إلى صـديقك الـذى بـين جنبيك على غير ما تراه كل يوم .

***

أنا أطلب الكرامة من طريق الأدب والثقافة وأعتبر الأدب والثقافـة رسـالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شـرفه بـين أعـلى الطبقـات الاجتماعيـة بـل بـين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء .

***

إننا نهاب ألم الجسد ولا نصبر على عنت البلوى وتبريح العذاب هذا هو الداء فما هو الدواء؟ الدواء كما يقول الأطباء من جرثومة الداء : رياضة عـلى المـشقة والبأس وصـراع بالأيدى وجلاد بالسيوف ثم تخفيف لوطأة الزحام تشترك فيه حكمة الحكماء ، وسلطان المشـرعين!

***

الناس أحباء ما ألفوا أعداء ما جهلوا :هذا صحيح وقد يكون صحيحا مثله أن الناس أعداء ما ألفوا أحباء ما جهلوا فإننا لا نزال على ما فينا من الاستراحة إلى المألوف الذى نهواه مدفوعين إلى المجهول الذى لا نراه ولا نـزال نـألف ثـم

نترك ثم نألف فنشقى بهذا النقل ولا يلوى بنا الشقاء .

***

الشهرة والتقدير قلما يتفقان فالشهرة هى ضوضاء وأصداء تتساوى فيها أعلام الأماكن والأناس وأسماء الجديرين بالتنويه والإعجاب والجديرين بالمقت والنسيان .

أما التقدير فهو وزن وقياس ومعرفة وعاطفة ولا يكون إلا عن علم وفهم وشعور . . . فهو لباب الشهرة وجوهرها والمعنى الذى به تكون الشهرة فضلا ونعمة يغتبط بها من ينالها وبغيره تكون الشهرة أصواتا تناسب دعاء الناس وعواء الكلاب.

***

إن الصغير لا حاجة به إلى تَصَاغُر لأنه صغير ، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعور الدخيل بتفخيم الرواء وتزويق الطلك ، والتخايل بالمسكن والكساء .

العقاد فى ميزان الخلود

كان الأستاذ العقاد هو القارئ الأول في مصر برمتها فقد أمعن فكره وأنعم نظره في كل مجالي الفكر وكل صنوف المعرفة

وقد أصبح العقاد عقاداً لأنه أستحق ذلك كما عبر الفيلسوف زكي نجيب محمود .

كان عبقريًا في ثقافته وعملاقًا في شخصيته وكان صالونه الأدبي في مصر الجديدة أشهر صالون أدبي في زمانه تدور فيه المناقشات الثقافية بين العقاد وبين رواد هذا المنتدى الأدبي ، وكان العقاد دائمًا هو نجمه الأول علمًا وثقافة وذكاءًا وألمعيةً ، ومن يود أن يتأكد من ذلك فليقرأ كتاب المفكر الأديب الأستاذ أنيس منصور كانت لنا أيام في صالون العقاد ليعرف المزيد عن عبقرية العقاد.

.. كتب الأديب صلاح صيام عنوان خمسين عامًا على رحيله متسائلًا .. أين أعمال العقاد من الدراما المصرية؟

.. ويردف ، حدثني الراحل الدكتور عاطف العراقي الذي كان شاهد عَيَان عن عبقرية العقاد وقد شارك في صالون العقاد طوال خمس سنوات أن المفكر الكبير زكي نجيب محمود كان يعتز اعتزاز كبيرًا بالعقاد .. يحدثنا بهذا حين يتحدث عن ظاهرة عملقة الأقزام أي كيف يصبح القزم عملاقًا .. وفي صالون العقاد سمعت أشياء تعبر عن الجرأة إلى حد كبير من بينها أنه تنبأ بفشل الوحدة بين مصر وسوريا . وأنها لابد أن تنتهي عاجلًا أو آجلًا ، فصدق العقاد . كما كان يبدي اعتراضات جوهرية على أفعال جمال عبد الناصر

ولذلك لم يذكر اسمه مطلقًا في خطابه بعد حصوله على جائزة الدولة التقديرية وعلى محاربته للشيوعية .. ونضيف نحن كذلك أن أستاذنا العقاد قد تنبأ بإضمحلالها وزوالها وفشلها ولقد صدقت نبوءته .

وإذا كان العقاد قد غاب عنا بشخصه أو ظله فالعقاد الشمس والعقاد الشعر والفكر والرأي والموقف والسيرة والشخصية فهو حياة ممتدة ومتجددة باق في تاريخ الفكر الأدبي.

فنحن نستطيع في العقاد أن نؤخر فنًا ونقدم غيره وأن نفضل الشاعر عن الكاتب مثلًا أو الكاتب على الشاعر ، والفيلسوف لكننا لا نستطيع أن ننفي واحدًا من هؤلاء أو ننكر وجوده ونهمله .

فنحن نتحدث عن رجل جمع فأوعى. رجل يصدق فيه ما قاله الشاعر العربي القديم عن نفسه :

ولقد علمت فلا أسائل واحدًا

عن علم واحدة لكي أزدادها !

.. فهذا البيت لا يصدق على أحد كما يصدق على العقاد.. فهل اجتمع إلا للقلة النادرة ما اجتمع للعقاد من مواهب اكتملت كلها واجتمعت في واحد : الشاعر والناقد و المؤرخ و الفيلسوف و كاتب السيرة وكاتب المقالة والروائي .

.. والعجيب أن تجتمع هذه المواهب وأن تكتمل في رجل واحد اعتمد على نفسه اعتمادًا تامًا في تحصيل ما حصله وبلغ في امتلاكه ما لم يبلغه كثيرون . انصرف الجميع بفن واحد ثم لم يصل فيه إلى ما وصل إليه العقاد في هذه الفنون كلها .. كأنه كلما طلب استجيب له .

.. وإن كنا نعرف كيف نبغ أبناء جيله أمثال طه حسين و قاسم أمين و علي عبد الرازق ، وهيكل ، وكيف أتيح لهم أن يحصلوا ما حصلوه وأن يبلغوا ما

بلغوه .. لكننا لا نعرف للعقاد أستاذًا إلا نفسه فهو الواهب والموهوب ، والعجيب أن تنفجر هذه المواهب والعقاد دون سن العشرين .

وأستطيع أن أقول إن العقاد كان هو نفسه وجهًا من الوجوه التي عبرت بها مصر عن نفسها في ثورة ١٩١٩ فالعقاد فرد في جيل من العبقريات التي تفجرت مرة واحدة في مصر بعد جدب طويل

وكأنها كانت معجزة أو قيامة . تلك التي رأيناها في مصر تنهض لتقرأ وتكتب وتنظم وتروى وتمثل وتغني وترسم وتنحت كأنها تواصل إبداعها القديم ، وكأنها لم تتوقف عن الإبداع لحظة ولم تمكث عشرين قرنًا خامدة هامدة !.

هذه النهضة هي المعجزة التي نبع منها العقاد وجيل العقاد ، لكن العقاد يدل على المعجزة أكثر مما يدل عليها غيره ، لأنه هو أيضًا نهض من الرماد الذي نهضت منه مصر .

نعم العقاد يدل عى المعجزة ويدل على مصر ، وهل انتصر أحد على الموت . كما أنتصرت عليه مصر وكما انتصر عليه العقاد؟ .

العقاد أنتصر على الموْتين . انتصر عليه في البداية ، وانتصر عليه في النهاية، فقد خرج من العدم كما يخرج المارد من القمقم ، وهاهو يعود اليوم بعد رحيله أكثر عنفوانًا . يعود مع الرواد التي عادت مع الثورة التي تفجرت من جديد ، مع مصر التي انتصرت هي الأخرى على الموتين ، في يناير وفي يونيو ، وعادت لتواصل نهضتها وتستأنف سيرتها .

أحمد عبد المعطي حجازي دبي الثقافية ص ٢٥ .

هذا هو العقاد الكاتب العبقري الذي عبثت بوجهه الليالي وماجت به الظلم ، وحقد عليه الشانئون وتربص به المتربصون فما فلحوا أن يقسوه أو

يقعسوه عن هدفه وما نجحوا أن يسعفوه بهوائهم المضطرم بهوجه وزفيره .

وكان لسان حاله يقول آنذاك :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم   الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

العقاد العبقري الذي خاض غمار المعارك الفكرية بكل شجاعة الفرسان كما أسلفنا وانتصر في جل معاركه بالثقافة الرفيعة والعقل الوهاج والقلب السليم

كانت الكتب هي سلاحه وهي زاده ومعينه مضى في موكب علمه الجرار وطرحوا صخرًا على دربه فتحطم الصخر وتحطموا وما أعاق ذلك ضياء شمس العقاد أن تسطع وأن تبهر الناس بضيائها كما تفعل شمس أسوان.

.. يقول الأستاذ كامل الشناوي عن أسوان وعن العقاد :

أسوان في دين السماحة كعبة   بحداتها والغر من حجاجها
أنت الوميض من السراج إذا   ومضاته العليا إلى محرابها
يامنهل الشعر يروينا ويظمئنا   إليه ... فاعجب لراو منه
إنا نكرم فيك المجد منتزعا   من قبضة الدهر .. لا من كف
والعبقري الذي دانت لطاعته   اسمى معاني .. وماهمت
تقلبت حولك الأيام ..   وأنت أنت رفيع القدر والشان

يقول الأستاذ أنيس منصور :

ثلاثة من الأدباء الكبار يتمزق قلبي حزنا على ما أصابهم: الأستاذ العقاد وأبو حيان التوحيدي وابن حزم الأندلسي..

أما أستاذنا العقاد فلم ينل ما يستحقه من التكريم العظيم، وكان يضاحكنا

ويقول: إن مصر بلد عجيب، إذا أرادوا تدعيم الإسلام نشروا كتبي، وإذا أرادوا أن يهاجموا الشيوعية نشروا كتبي، وإذا رشحوا أحدا لجائزة نوبل رشحوا طه حسين!! وعاش العقاد كما مات فقيرا وحيدا، وقد عرف الفقر ومحاولة الانتحار، ومد يده إلى أصدقائه.. فردوها كثيرا، وأعطوه قليلا!

وأبو حيان التوحيدي أديب وفيلسوف وناقد وعالم وكتابه «الإمتاع والمؤانسة من روائع الأدب الفلسفي أو الفلسفة الأدبية، وقد ضاق أبو حيان بالناس وبالحكام ووقف بأبوابهم ولعنهم، وقد كان (خطه جميلا) و (حظه سيئا)، فقد كان يعيش على نسخ الكتب، وقد حاول أحد الوزراء أن ينسخ له مؤلفاته فرفض. وتعيس آخر مثله رفض أن يتلو قصائد الشعراء بأدائه الجميل لأنه شاعر، وهو كامل الشناوي.. وقد طرد أبو حيان من كثير من القصور الأميرية والملكية، وفي آخر أيامه أحرق كتبه يأسا من الكتابة ومن القراء ومن الزمان.. وقد مد يده ولسانه، ولم يفز إلا بالقليل من المال والطعام.. ولا يعرف كيف عاش وكيف مات وأين دفن، وهو نموذج كامل الأوصاف للفيلسوف اللامنتمي!

وكذلك ابن حزم الأندلسي.. الشاعر الرقيق الحزين الذي يدخل السجن ويخرج ليدخل سجنا آخر.. وإذا تكلم فهو سليط اللسان، ولذلك عاش هاربا من وزير وأمير.. وتردد بين المذاهب، وتردد عليها، ولم نعرف له مذهبا أو رأيا.. لم ينقذه الشعر من السياسة ولم ترحمه السياسة فتفرغ للأدب والشعر والعلم.. وبين العقاد وأبو حيان وابن حزم حوالي الألف سنة، وكأنهم جميعا يعيشون في زمن واحد، فنصيبهم جميعا من التكريم قليل، ولذلك لم يكن التفكير في الانتحار بعيدا عنهم.. إن حياتهم وغضبهم وسخطهم ليست بعيدة عن عيني وعن قلمي وقلقي أيضا! .

وهكذا يا أستاذ أنيس منصور كان هؤلاء الثلاثة بالنسبة لنا أيضًا ونختم هذه الرسالة بهذه الأبيات التي عبر فيها العقاد عن نفسه وهو لما يزل في بواكير حياته صغير السن غض الإهاب من فوق منبر الجامع وهو مقيم في أسوان :

عباس من هو في الأشعار مدرار	عباس من هو في الميدان مغوار
عباس من هو في الحق الذي ظهرت	إبانه ، منطق للحق جبار
عباس من ليس يثنيه أخو رهب	بالصولجان وبالأسياف قهار
وليس يغويه عن حق أخو رغب	له بجدواه أحلاه وأمرار
القائل القول يعي كل ذي لسن	له على القول معيار ومسبار
والفاعل الفعل لا يبغي لمطمعة	إذ كل ما فيه إعطاء وإيثار
والعاشق الحسن لا يبغيه منفعة	كما ابتغى الحسن مستام وسمسار
الأخذ الدين أخذ العقل يدرسه	فلا هراء ولا حجب وأستار
والأخذ العقل أخذ الذين يخدمه	وكعبة العقل فيها الضيف والجار
قضي سدانته في قدس مكتبة	أملاكها كتب تهدي وأسفار
يرى الحقيقة بالعين التي علمت	وبالفؤاد الذي هيهات يحتار
ويبصر الحق عن بعد وإن غشيت	عنه عيون كليلات وأبصار
ويشحذ السيف سيف الحق يعمله	في أرؤس الإفك ماماروا وما جاروا
لا يستكين لأمر ليس يقبله	وليس يقبل أمرا فيه إهدار

عاش العقاد طوال عمره وخلال سني حياته الممتدة وهو يقرأ ويكتب وديدنه ألا يترك شاردة ولا واردة في بستان الفكر إلا وقطف منها حتى أضحى

مفكرًا عبقريًا قل أن يجود الزمن بمثله وتسنم قمة الأدب المصري مع قرنائه من أساطين الأدب ومن مبدعي الفكر بيد أنه بزهم جميعًا في تنوع ثقافته وآصالة فكره وبعد نظره وإيغاله في بحور العلم والأدب فأطلق عليه عملاق الفكر المصري وأطلق عليه الأمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ جامع الأزهر عملاق الفكر العربي

وأصبح على قمة هرم المفكرين المصريين والعرب ، التزم بقضية مصر منذ بواكير حياته كما أسلفنا ولم يكن هزليًا مثل هؤلاء الذين عبر عنهم الكاتب البريطاني الشهيرجراهام جرين raham Greene في قصته أو روايته التي أثارت أزمة دبلوماسية بين بريطانية وجزيرة هايتي التي كانت تحت حكم بابا روك ديكتاتور هايتي التي أصدر أمرًا باعتقاله وإعدامه .

وإذا كان روك قد أصدر أمرًا باعتقال جراهام جرين .. فقد أصدر الملك فؤاد كذلك أمرًا باعتقال العقاد وسجنه بعد ذلك .. كما هو معلوم لدفاع الأستاذ العقاد عن مصر وعن دستورها .

.. كان العقاد كاتبًا جادًا وأديبًا ألمعيًا .. ومفكرًا عبقريًا .. يتميز أسلوبه بجودة الحبك وامتياز السبك.

.. وهذا هو العقاد .. في ميزان الفكر .. وفي ميزان الخلود .

نبذة عن حياة العقاد
(١٨٨٩- ١٩٦٤)

-ولد في مدينة أسوان في ٢٨ من يونيو سنة ١٨٨٩ حيث كان عمل والده أمينا للمحفوظات بها.

-تلقى مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في كتاب، حتى إذا بلغ السابعة من عمره التحق بمدرسة أسوان الابتدائية حيث بانت ملامح ذكائه وفطنته، كما تبدت ملامح اعتزازه بكيانه وشخصيته، ووضحت فيه معالم ميله إلى الجدل والنقد والتصدي لهما في كل مناسبة تقتضيهما.

-صحبه والده وهو مازال غلامًا إلى مجالس الأدباء والمتفقهين، فأفاد من ذلك معرفة وتبصيرًا كما غنى بدعوة جمال الدين الأفغاني وتأثر بها، وسمع عن الشيخ محمد عبده! كأكبر شخصية إسلامية في ذلك الحين حتى إذا زار مدرسته طرحت عليه كراسة إنشاء العقاد كأحسن نموذج لكتابة في صغير، فأعجب به محمد عبده! إعجابًا شديدًا وتكهن له بأنه سيكون كاتبًا له شأن عظيم.

- اعتز العقاد بهذا التقريظ الساحر من الإمام محمد عبده! ، فرسم مستقبله على هديه، كما واتته الفرص لتنمية ملكاته الشعرية والأدبية، وقرأ كثيرًا، كما قرأ لعبد الله النديم خطب الثورة العرابية والصحفي البارع ونهج نهجه وهو ما زال صبيًا، فأخرج العرابية والصحفي البارع ونهج نهجه وهو ما زال صبيًا، فأخرج صحيفة أسماها التلميذ! معارضًا بذلك صحيفة النديم الأستاذ!.

-تهيأت الفرصة للعقاد لكي يتقن الإنجليزية، لأن المواد كانت تدرس بالإنجليزية في المدارس الابتدائية آن ذاك، كما أن ظروف مدينة أسوان وغيره.

-كما تيسر له إتقان الإنجليزية، قرأ في الأدب الإنجليزي كثيرًا، وأتيحت له الفرصة لكي يقف على أحدث ما أخرجته المكتبات الإنجليزية، فتوافرت له من جراء ذلك حصيلة أدبية باهرة.

- تخرج في المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ ولما لم يجد عملًا تطوع بالتدريس في المدرسة الإسلامة الخيرية بأسوان، وفي سنة ١٩٠٤ زار المدرسة الزعيم مصطفى كامل! وفي صحبته مدام جوليت آدم! وكاتبة إنجليزية، وفي تلك الزيارة لم يستحوذ العقاد على إعجاب مصطفى كامل! الذي تهجم وجهه وأعرض عنه بسبب تفسير العقاد لبيت من الشعر لم يرض عنه مصطفى كامل!.

- وكان لهذا الإعراض صداه في نفس العقاد الذي جعله يعرض هو الآخر فيما بعد عن مصطفى كامل! وعن الحزب الوطني ويقبل عى محمد عبده! وتلاميذه القائلين بفصل مصر عن السيادة العثمانية، وكان العقاد ممن يشايعون اتهام الحزب الوطني بالتعلق بأذيال السيادة العثمانية.

- في سنة ١٩٠٥ عمل تلميذًا بالقسم المالي في مدينة قنا، ثم نقل منها إلى الزقازيق في العام نفسه، وأخذ يتردد على القاهرة كل أسبوعين لينهل من محافلها الأدبية والمسرحية ويقتني الكتب القيمة التي غذت مواهبه الأدبية حتى استحالت حصيلتها الوافرة منها إلى رحيق أدبي رائع.

-وفي سنة ١٩٠٦ استقال من عمله والتحق بمدرسة الفنون والصنايع! بالقاهرة ثم تركها وعمل بمصلحة البرق، ثم ترك عمله هذا واشترك مع الكاتب والمؤرخ الإسلامي محمد فريد وجدي! في تحرير جريدة الدستور! سنة ١٩٠٧ وهي السنة التي توفي فيها والده.

- في سنة ١٩٠٨ التقى سعد زغلول! وهو وزير المعارف وأجرى معه

حديثًا صحفيًا كان الأول من نوعه في تاريخ الصحافة المصرية، وكان في إجرائه بارعا وموفقا، واستحوذ على إعجاب سعد زغلول! تلميذ محمد عبده!، وهنا تبدت ملامح الصحفي البارع فيه، كما تهيأت له الفرصة فنشر في صحيفة الدستور كثيرًا من ترجماته لقراءته في الكتب الإنجليزية لأشهر كتاب الغرب وأعظمهم شأنا.

- منذ نعومة أظفار العقاد وهو يكره العابثين بحقوق المواطنين، وكان في نفسه كره متأصل للخديو والخليفة العثماني ومن يلوذون بهما، وحوكم العقاد بتهمة العيب في الذات الخديوية بسبب تعرضه في كتاباته بالخديوي الذي يعوق نهضة إصلاح الأزهر التي كان يدعو لها الإمام محمد عبده!.

- سنة ١٩٠٩ أغلقت صحيفة الدستور! بسبب الضيق المالي، فتعطل العقاد ونضب معين رزقه فباع كتبه ليقتات من ثمنها، وحل به ضيق شديد حتى لم يتمكن من تسديد إيجار مسكنه، كما داهمته العلة فبارح القاهرة إلى بلدته أسوان، ولكن العلة اشتدت به حتى ظن نفسه قد أصبح فريسة لمرض الصدر، وكان في حقيقة الأمر فريسة للوهم والفقر والجوع.

- في سنة ١٩١١ يمم وجهه نظر القاهرة محاولًا بإرادته وعزمه أن يصرع أوهامه فاشترك في تحرير مجلة البيان، وقدم فيها ترجمات قيمة استرعت إليه أنظار الكاتب المشهور محمد المويلحي! مدير قسم الإدارة بديوان الأوقاف، فاختاره مساعد كاتب بالمجلس الأعلى للأوقاف، فتيسرت له أمور الحياة وبدأ يكتب وينشر، فنشر خلاصة اليومية! ، كما نشر كتيبًا عن المرأة أسماه الإنسان الثاني!.

- ومن سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٤ كان يكتب مع المازني وشكري! فصولًا نقدية في مجلة عكاظ ! ، واختص نفسه بكثير من الترجمات الغربية لكارل!

ومالكولي! و أرنولد! وأمثالهم، وكان مازال يعمل في الأوقاف حيث وقف على اختلاسات الخديو لأموال الأوقاف الخيرية، فهاله الأمر ولم يسكت فكتب في الصحف بدون توقيع يقترح الاقتراحات ورد الاختلاس، فضاقت به بطانة الخديو، وحاول رجال قصر الدوبارة الإنجليز الاتصال به لمناوأة الخديو الذ كانت علاقته بهم قد ساءت، ولكنه أعرض عن السكرتير الشرقي الإنجليزي ونفر منه ومن مصانعته له ، غير أن رجال الخديو كادوا له وأخرجوه من عمله بالأوقاف، فعاد إلى البطالة والحاجة والعوز.

-عاد إلى بلدته أسوان يستجير بها في سنة ١٩١٤ (*) وعكف على الكتابة ف الشعر، كما ألف طائفة من الخواطر أسماها الشذور! وأعلنت الحماية على مصر بعد الحرب العالمية الأولى، كما أعلنت الأحكام العرفية، وكان العقاد قد تصدى لمدير أسوان الذي أساء لأهل بلده وتسلط عليهم في عنت وإرهاق مما جعل المدير يستعدى مفتش الداخلية الإنجليزي على العقاد، فحددت إقامته ووضع تحت الرقابة الشديدة ، ولكنه تحين الفرصة وهرب إلى القاهرة سنة ١٩١٥ حيث التقى بجعفر والي باشا! وكيل وزارة الداخلية الذي يقدر الأدباء والصحفيين، فأجاره من مدير أسوان ومفتش الداخلية الإنجليزي وألحقه بعمل في رقابة الصحف، ولكنه لم يمكث به سوى عام واحد.

-بعد سنة ١٩١٦ وبعد استقالته من الرقابة اشتغل بالتدريس في المدارس الحرة مع زميله المازني، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وظهرت الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري انخرط العقاد في هذا النضال الذي بدأ بثورة سنة ١٩١٩ بدأه كاتبًا ومحررًا في جريدة الأهالي، ثم في الأهرام ، ثم اشترك في ترجمة مشروع لجنة ملنر! الموفدة للمفاوضة مع المصريين، كما انضم لجماعة اليد السوداء! ، واشترك في وضع منشوراتها الثورية الملتهبة.

(*) المستشار أنور حجازي - عمالقة ورواد.

-في شتاء سنة ١٩٢١ عاوده المرض فعاد به إلى بلدته أسوان حيث أقام بها شتاء ١٩٢٢، وفي تلك الأثناء نشر الجزء الثالث من كتابه الديوان في النقد والأدب! ، وهاجم شوقي! هجومًا عنيفًا، واشترك مع عبد القادر حمزة! في تحرير صحيفة الأفكار المؤيدة للوفد المصري، كما اشترك في تحرير الأهرام بفصول أدبية ، ونشر كتابه الفصول!.

- ومنذ ذلك الحين بدأ يبعث في نهضة مصر الأدبية روحًا جديدة متألقة، كما أسهم في النضال الوطني بروح الفكر الوثاب الحصيف، وجمع بذلك بين موهبة الأدب الفذة التي عمقت جذورها فيه وبين موهبة النضال السياسي التي تبدت في كتاباته ودفاعه عن قضية الوطن مؤمنا بها إيمانًا شديدًا ، وقد نشر في صحيفة البلاغ فصولا قوية وتاريخية في هذا المجال، فصولا ناصر فيها الوفد ضد الأحزاب المناوئة له.

-كان قلم عباس العقاد! أقوى سلاح استعان به سعد زغلول! لمناصراه، ووصفه سعد زغلول! بأنه : كاتب جبار المنطق!، ومع ذلك يم يحرم الأدب نشاطه الفكري الذي نضج واستوى، فنشر مؤلفه مطالعات في الكتب والحياة! و مراجعات في الأدب والفنون! ، كما نشر قصته المشهورة سارة !، وبلغ الذروة في مجده الأدبي الأصيل ، وطرح على الناس فيضها زاخرًا من مطالعاته التي دلت على تمكنه من أصول الفكر الغربي والفكر الشرقي على السواء نثرا وشعرًا، وعدت صحيفة البلاغ! آنئذ مدرسة يتعلم فيها ناشئة الأدباء الكتابة والتحرر والنقد ومعلمها الأكبر العقاد!.

كان العقاد شديد الاعتزاز بنفسه، شديد الاعتزاز بمكانته الأدبية، فخالف سعد زغلول! ووقف مع طه حسين! في قضية الشعر الجاهلي! وناصره سنة ١٩٢٦ ، كما وقف ضد أحمد شوقي! وهاجمه بعتف برغم أن سعد زغلول! رأس مهرحان سنة ١٩٢٧ الذي أقيم لتنصيب أحمد شوقي! أميرًا للشعراء!

-مضى العقاد في جهاده الأدبي الفياض وفي نضاله السياسي مشايعًا للوفد المصري بعد وفاة سعد زغلول! ، فنشر في سنة ١٩٢٨ الجزء الرابع من ديوان شعره ، كما نشر كتابه الحلم المطلق في القرن العشرين!، وكتابه ساعات بين الكتب! ، وفي سنة ١٩٣٠ صاح صيحته المشهورة في مجلس النواب وهو عضو فيه وقال فيها: إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه!! فعد ذلك عيبًا في الملك وحوكم العقاد بعد تعطيل الحياة النيابية عن تلك التهمة وقضي بحبسه تسعة أشهر.

-ظل العقاد يجمع بين جهاده السياسي وعبقريته الأدبية المثمرة، فهاجم صدقي! هجومًا عنيفًا جبارًا في أثناء توليه الوزارة، كما أخرج للمكتبة العربية فيضًا زاخرًا من الأدب الرفيع، فنشر تحليلات بارعة لابن الرومي!، ونشر كتابه تذكار جيته! للفيلسوف الألماني، كما نشر كتابه وحي الأربعين! وهدية الكروان!.

-وفي ٢٧ من أبريل سنة ١٩٣٤ أقيم حفل أدبي كبير على مسرح الأزبكية لتكريم العقاد الأديب الفحل، اشترك فيه كل أعلام الفكر والأدب اعترافًا منهم بما قدم للمكتبة العربية والعرب من غذاء أدبي مثمر ومفيد.

-وفي سنة ١٩٣٥ اصطدم العقاد برئيس حزب الوفد مصطفى النحاس وظهيره مكرم عبيد! لما لمسه من انحرافهما في مقاومة القصر والإنجليز وقال يومئذ كلمته المشهورة : إنني كاتب الشرق بالحق الإلهي! وظل يهاجمهما في مجلة روزاليوسف! ، ولكن سرعان ما أغلقت أبوابها، فتعطل من الكتابة، ولم تسعفه موارده المالية من كتبه فأطبق عليه الإملاق بمخالبه!

- وفي سنة ١٩٣٦ نشر كتابه عن سعد زغلول! ، وفي سنة ١٩٣٦ أيضا عقد النحاس معاهدة مع الإنجليز سماها معاهدة الشرف والاستقلال!، ولكن العقاد هاجمها في عنف في صحيفة حزب مصر الفتاة!.

-في سنة ١٩٣٧ نشر ديوان شعر ونشر كتابه عالم القيود والسدود! من وحي الشهور التسعة التي قضاها في السجن، ثم انضم إلى صحيفة (البلاغ) التي انقلبت على النحاس وصار يهاجمه على صفحاتها في عنف واقتدار.

في سنة ١٩٣٨ عين عضوا في المجمع اللغوي فكسب المجمع بهذا التعيين أديبًا متمكنًا غذاء ببحوثه الدموية القيمة وآرائه السديدة في المصطلحات العلمية، ونشرت له عدة مؤلفات قيمة.

- في سنة ١٩٤٠ شن حربًا على هتلر والنازية، ونشر كتابه هتلر في الميزان! و النازية والأديان! حتى إذا بدت طلائع الجيش الألماني على حدود مصر سنة ١٩٤٢ سارع العقاد إلى الهرب إلى السودان، وفي تلك السنة نشر أمجادًا خالدة في عالم الأدب مثل: عبقرية محمد! و عبقرية عمر! ، وسلسلة العبقريات التي تتابعت بعد ذلك ، كما عين عضوًا بمجلس الشيوخ.

-وفي سنة ١٩٤٥ قدم فيضا رائعا من مؤلفاته الخالدة مثل : أبو الشهداء الحسين بن علي! و داعي السماء! و مؤذن الرسول بلال! و عبقرية خالد بن الوليد! ، كما قدم كتابًا عن فرنسيس باكون! و عرائس وشياطين! و في بيتي! ثم كتب كتابه الكبير الله! و الفلسفة القرآنية!.

-في سنة ١٩٥٠ وما بعدها قدم للعربية من مطالعاته الغربية برناردشو! وفلاسفة الحكم في العصر الحديث ، كما أضاف إلى دراسته الإسلامية عبقرية الصديق!.

-وفي سنة ١٩٥٢ وبعد الثورة ألف خمس كتب عن الديمقراطية في الإسلام وحرب الإسكندرية في ١١ يوليو، وكتابا عن الزعيم الباكستاني محمد علي جناح! وغيرها ، مما يؤكد عالميه إطلاعه وتعمقه وإغداقه على العربية معرفة وتبصيرًا وتذكيرًا.

-ثم يعود إلى إسلامياته وأبحاثه الدينية الجديرة بالتقدير فكتب عن فاطمة الزهراء و أبو الأنبياء وإبراهيم الخليل وعن عثمان بن عفان و الإسلام في القرن العشرين إلى مطلع الثورة.

-ثم يتجه إلى المسيحية فيكتب في إفاضة وعمق بارعين عن عبقرية المسيح.

-ثم يتجه إلى الأدب العربي القديم فيكتب عن أبي نواس، و ابن رشد، ثم يقتطف للعربية بعض ثمار القصة الأمريكية فيترجم طائفة منها باسم ألوان من القصة الأمريكية ، ثم ألف في المذاهب العامية، فكتب عن الشيوعية والإنسانية، ثم كتب عن إبليس ، كما كتب عن الصهيونية العالمية.

-وفي سنة ١٩٥٦ اختير عضوًا بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، وكان مقررًا للجنة الشعر، ويضعف بصره وتجرى له عملية جراحية في إحدى عينيه فيتوقف نشاطه الصحفي الذي ظل يطله به على القراء كل أسبوع ثقافة ونوعية وتبصيرًا، توقف لعام أو يزيد ولكنه أخرج من جبعته كتابين عن معاوية بن أبي سفيان وآخر عن جحا!، كما أخرج ثالثا عن الصهيونية العالمية عن الشيوعية والوجودية.

- في سنة ١٩٥٧ نشرت له بنجامين فرانكلين والإسلام والاستعماروالشيوعية والاستعمار وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

-في سنة ١٩٥٨ ظهر ديوان شعر جديد ضمنه مختارات من روائعه، كما أخرج كتابه القرن العشرون في سنة ١٩٥٩، وأخرج آخر عن المرأة أسماه المرأة في القرآن الكريم وكتابا عن عبد الرحمن الكواكبي.

-وفي سنة ١٩٦٠ كرمته الدولة فمنحته جائزة الدولة التقديرية للآداب، تقديرًا منها لجهوده المثمرة في ميدان الأدب، وظل يتابع نشاطه بلا هوادة فيدافع عن الثقافة العربية مؤكدًا سبقها للثقافة اليونانية في مؤلف عميق، وكتاب عن اللغة العربية أسماه اللغة الشاعرة.

- ثم ينتقل من العربية إلى الكتابة عن الشعراء الأجانب فيختص الشاعر الأسباني المعاصر جمنيز! ثم يعود إلى القرآن الكريم ، فيكتب سنة ١٩٦١ الإنسان في القرآن الكريم! ، ثم ينتقل إلى الشخصيات الإسلامية فيكتب عن الإمام محمد عبده!.

-وفي سنة ١٩٦٢ ينشر كتابه التفكير فريضة إسلامية! ، وفي سنة ١٩٦٣ يكتب أشتاتًا : مجمعات في اللغة والأدب! ، و رجال عرفتهم! ، وفي سنة ١٩٦٤ ينشر كتابه عن جوائز الأدب العالمية!.

وفي ١٢ من مارس سنة ١٩٦٤يموت العقاد ، يموت عملاق الأدب الكبير في مصر وفي الشرق كله، يموت بعد أن خلف للعربية وللدنيا بأسرها ثروة أدبية تورث بحق ، ثورة تفيض على وجودنا وأجيالنا الحالية واللاحقة، تفيض على كل هؤلاء معرفة بأمور الدين والدنيا وإدراكًا لكنة الحياة وأسرارها، تفيض على الوجود كله فيضا زاخرًا من العلوم والفنون والإلمام في سراء الكون والبشرية كلها بمذاهبها وأحزابها وأديانها.

-كل ذلك أودعه مؤلفاته المنشورة في كتبه، ومؤلفاته التي دبجتها براعته المجلات الأدبية والصحف اليومية التي أسهم فيها بجد يذكر له منذ فجر الثورة الفكرية في مصر ، قبل الثورة الفكرية في مصر ، قبل الثورة سنة ١٩١٩ وإثر وفاته في ١٢ مارس ١٩٦٤ ، ما ذوى وما انطفأ سراجه بل ظل حيا في ضمير وطنه مما دبجته قريحته من روائع الفكر والأدب.

المستشار محمد مرشدي بركات

رأس سدر

جنوب سيناء

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المقالة نشرت فى صحيفة الجمهورية يوم الجمعة

الموافق ٢٩/يناير/٢٠١٦ - ١٩ من ربيع الآخر ١٤٣٧

عبقرية العقاد

لقد فرغت لتوى من قراءة كتاب (عبقرية العقاد) للأستاذ المستشار محمد مرشدى بركات ولقد طرحت ما عداه جانباً وتفرغت لقراءته وأتممتها فى ساعات قليلة ومما دفعنى لقراءته أن مؤلفه يعتبر من أخر الجيل الذى تعرف على العقاد وراسله وكتب عنه العقاد نفسه وأننى لست كاتباً ولا مثقفاً لكن أزعم أننى قارئ جيد وعندما أكتب عن الأستاذ العقاد وكتابه المعنى والذى استمد المؤلف فى عنوانه كلمة عبقرية أى أن المؤلف رد الجميل للعقاد والذى كتب عن العبقريات (عبقرية محمد – عبقرية خالد – عبقرية عمر ...... الخ) فقال المؤلف أن هذا الرجل الذى كتب عن عبقرية هؤلاء العظماء لا بد أن يكون هو عبقرى وعظيم أيضاً فصال المؤلف وجال وتكلم وسطر كتابه هذا، فبدأه بالعقاد والقلم وملامح عبقرية العقاد والعقاد والفن والعقاد الفارس ومعاركه السياسية ثم تطرق إلى العقاد وهؤلاء إلى أن تطرق المؤلف إلى معرفته هو شخصياً بالعقاد بفضل والده وقد أرسل له العقاد ببرقية رداً على رسالته التى أرسلها له المؤلف حين ذاك ليهنئه بفوزه بجائزة الدولة التقديرية ويصل إنكار الذات للمؤلف وتراوده نفسه فيقول من أنا حتى أهنيء العقاد ثم حزم أمره وأرسل له برقية تقول: (أنى أن كنت أنا أخر المهنئين لك بقلمى ولكنى كنت أولهم بقلبى) وإذا بالأستاذ يرد التهنئة بالشكر والعرفان ثم يتطرق المؤلف قبل ذلك فى كتابه عن لمحات العبقرية عند العقاد والعقاد رئيس

جمهورية الفكر – والأديب العالم – وفن القراءة والأدب المقارن عند العقاد بل سرد واستفاض فى معارك العقاد الأدبية وعبقريته فى النقد وتكلم أيضاً عن سيكولوجية الفكاهة والضحك عند الأستاذ العقاد إلى أن وصل فى نهاية الكتاب عن مأثورات العقاد – والعقاد فى ميزان الخلود – وأننى أقول أننى أمام هذا السفر العظيم الذى تكلم عن العقاد وعبقريته أجد نفسى فى بحر لا شاطئ له أمام العقاد وتلميذه المستشار بركات بل أننى حين أتكلم وأكتب عن هذا وذاك أجد نفسى كأنى مثل

مدرس فى الحضانة أتوا به فجأة ليلقى محاضرة فى الجامعة أو كمن انتقل من الشهادة الابتدائية إلى الدكتوراه دون أن يمر بكل المراحل . ولكن عندما قرأت الكتاب تيقنت أيضاً أن العقاد لم يكن كاتب النخبة فحسب بل أنه كاتب الناس والشعب جميعاً كما كان (يحيى حقى ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، محمود تيمور والمنفلوطى وغيرهم أيضاً من كتاب جميع الطبقات) وأننى أجزم وأقول إذا كان العقاد سحر المصريون ليس فقط بثقافته بل أيضاً بمواقفه النبيلة وصحيح أن سعد زغلول أبو الأمة وحبيب مصر لكن العقاد كان من الذين أوصلوا وهجه إلى الناس وأعتبر ركناً من أركان زعامته وأختم مقالتى بأن – سؤل ساحر الكلمة اللاتينية غابربيل غراسيا مركيز عن أفضل كُتاب بلده كولومبيا ؟ قال من الصعب الإجابة لأن كُتاب كولومبيا لم يدركوا بعد أن أول شيء عليك أن تفعله هو أن تتعلم كيف تكتب وها أنا أن أخوض فى بحر لا شاطئ له لرجل أديب ورجل قانون يعرف كيف يكتب وأقول أيضاً أن أجمل كتاب فى الأدب قرأته هذا العام بل من أعوام هو كتاب (عبقرية العقاد) والذى أرى فيه أرقى أنواع الذوق الأدبى والعمق الثقافى ولقد تيقنت أن العقاد كان أول مؤثر ضخم فى حياة المؤلف الفكرية والأدبية ولكننى أقول له أننى أحببت العقاد مثلك وأنه لا يختلف اثنان عن أنه عملاق الفكر والأدب ولكنى أخشى

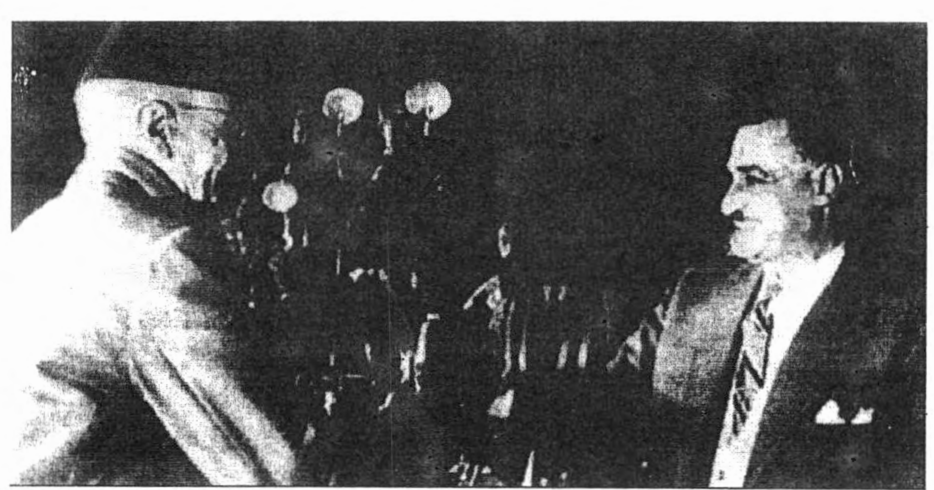
عليك أيها الأديب المؤلف من عبادة الأبطال والذى يرى أن العقاد بلا نقيصة ولا هانة واحدة ذكرتها فى كتابك مع أننى من حقى أن أقول أنى لى على هذا الأديب الفذ مآخذ كثيرة فله ما له وعليه ما عليه مثل جميع البشر تحياتى للمؤلف ورحم الله العقاد وجعله فى الخالدين .

صابر محمد عبد الواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين والآسيويين
سوهاج - أخميم

أرشيف الصور



العقاد في شبابه



عبد الناصر يصافح العقاد عام ١٩٥٨

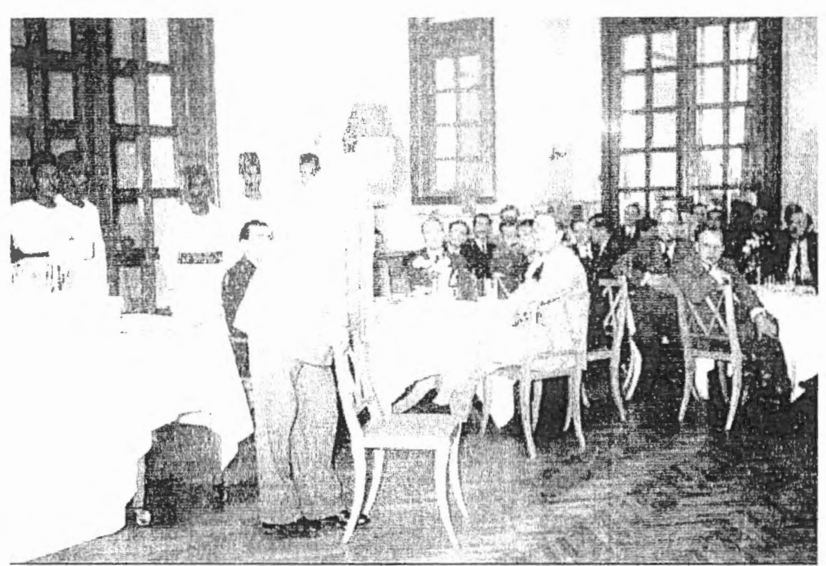


نصائح العقاد لهند رستم فى الدين والفن فى ١٨ ديسمبر ١٩٦٣





العقاد والمرأة



صورة للأديب الراحل عباس محمود العقاد أثناء إلقاء محاضرة أدبية في فندق الملك داوود في مدينة القدس عام ١٩٤٠ بدعوة من جمعية الشبان المسيحيين



العقاد وهيكل والمازنى فى تأبين للكاتب والصحافى المصرى عبد القادر حمزة باشا، صاحب ومؤسس جريدة «البلاغ



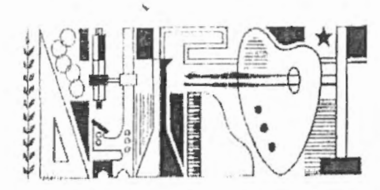


صورة للأديب الراحل عباس محمود العقاد فى آخر حديث

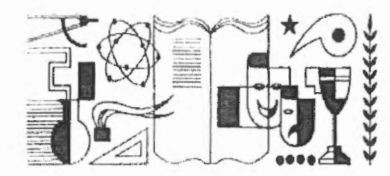
للتليفزيون المصرى مع أمانى ناشد

الشهادات

وزارة التعليم العالى







الادارة العامة للثقافة

قسم الجوائز والمسابقات

بعد الاطلاع على قرار لجنة التحكيم فى مسابقة

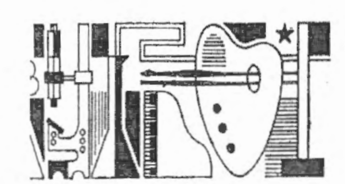
لماذا أجمعت الأمة على ترشيح السيد الرئيس جمال عبد الناصر ؟

والمقدمة للوزارة بتاريخ ٣٠ من يونية عام ١٩٦٥

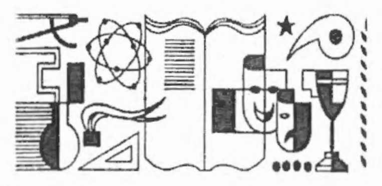
تقرر منح السيد / محمد محمد مرشدى بركات الطالب بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

شهادة فوز فى المسابقات الثقافية القومية

وزارة التعليم العالى







الادارة العامة للثقافة

قسم الجوائز والمسابقات

بعد الاطلاع على قرار لجنة التحكيم فى مسابقة شباب الجامعات والمعاهد العليا والكليات

فى موضوع : البترول العربى سلاح ضد الصهيونية والاستعمار

والمعتمد من الوزارة بتاريخ ٢١ من يوليه سنة ١٩٦٦

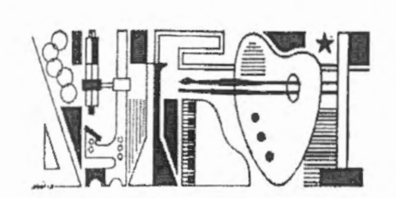
تقرر منح السيد / محمد محمد رشدى بركات الطالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة

شهادة تفوق فى المسابقات الثقافية والقومية

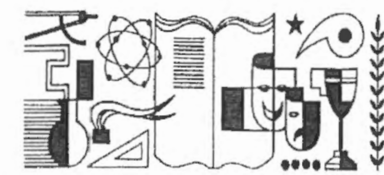
القاهرة فى ٢٠ من رجب ١٣٦٦هـ

وزير التعليم العالى

وزارة التعليم العالى







الادارة العامة للثقافة

قسم الجوائز والمسابقات

بعد الاطلاع على قرار لجنة التحكيم فى مسابقة شباب الجامعات والمعاهد العليا والكليات

فى موضوع : الاستعمار العالمى يهدد البشرية بنوع جديد من السيطرة الاستعمارية

والمقدم من الوزارة بتاريخ ٣٠ يونية ١٩٦٨

فقد منح السيد / محمد محمد رشدى بركات الطالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة

شهادة فوز فى المسابقات الثقافية والقومية

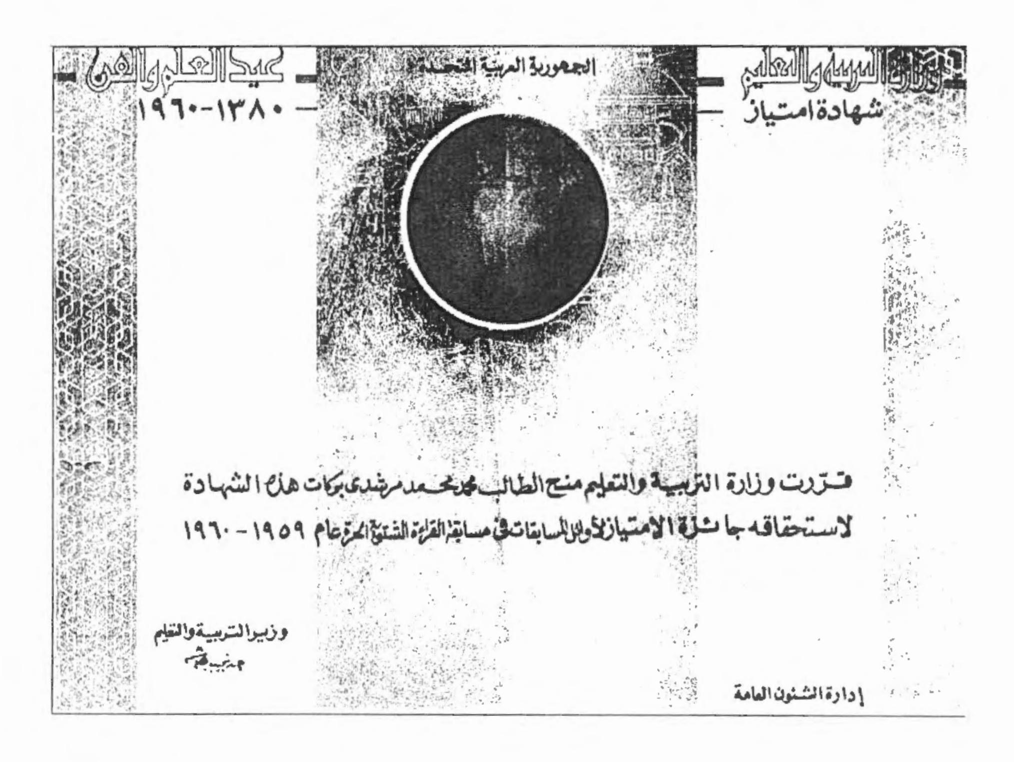
القاهرة فى ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ

الموافق ١٢ أغسطس ١٩٦٨ م

وزير التعليم العالى

الدكتور/ [illegible]

جوائز الامتياز



وزارة التربية والتعليم

شهادة امتياز

الجمهورية العربية المتحدة

عيد العلم والفن

١٣٨٠-١٩٦٠

قررت وزارة التربية والتعليم منح الطالب محمد محمد مرشدي بركات هذه الشهادة لاستحقاقه جائزة الامتياز لأوائل المسابقات في مسابقة القراءة الشتوية الحرة عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠

وزير التربية والتعليم

إدارة الشئون العامة



وزارة التربية والتعليم — عيد العلم والفن

شهادة امتياز — ١٣٧٨ — ١٩٥٩

قررت وزارة التربية والتعليم منح الطالب محمد محمد مرشدى بركات هذه الشهادة

لاستحقاقه جائزة الامتياز لأوائل المسابقات في مسابقة قائد الثورة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩

وزير التربية والتعليم

[illegible]

إدارة الشئون العامة - ١٩٥٩

الدعوات

مدرسة التوفيقية

يتشرف كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

بدعوة السيد محمد محمد مرشدى بركات

لحضور حفل عيد العلم الخامس الذى يقام فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة

يوم الخميس ١٩ نوفمبر ١٩٥٩ وذلك فى تمام الساعة الخامسة مساء .

الدعوة شخصية

الرجا الحضور قبل الموعد بنصف ساعة.

W	١٢٧٦

الرجا التفضل بالرد عند الاعتذار

تليفون ٧٥٨٠٠ - ٢٠٧٥٢

يتشرف كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

بدعوة السيد محمد محمد مرشدى بركات

لحضور حفل عيد العلم السادس الذى يقام فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة يوم الخميس ١٥ ديسمبر ١٩٦٠ وذلك فى تمام الساعة الخامسة مساء

الدعوة شخصية
الرجا الحضور قبل الموعد بنصف ساعة

١٠٢١	ف

الرجا التفضل بالرد عند الاعتذار
تليفون : ٢١٥٩١ - ٢٠٧٥٢

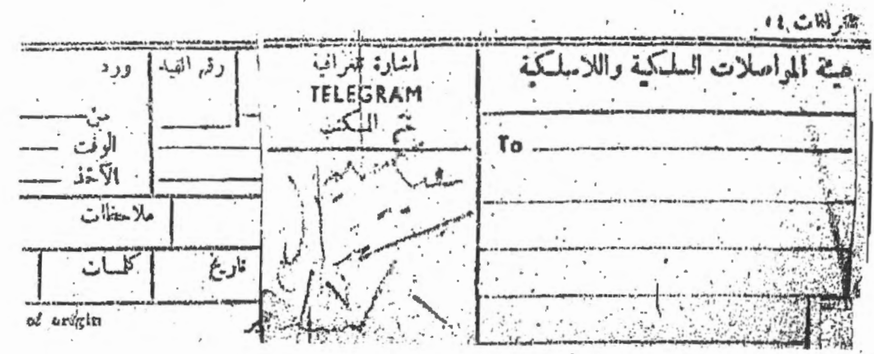
الجمهورية العربية المتحدة
محافظة القاهرة

يتشرف صلاح دسوقى محافظ القاهرة

بدعوة السيد محمد محمد رشدى بركات

لحضور حفل عيد العلم لمحافظة القاهرة الذى سيقام فى كلية المعلمين

بمنشية البكرى الساعة الخامسة من مساء الأحد الموافق ٢٢ يناير ١٩٦١



هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

اشارة تلغرافية
TELEGRAM
ختم المكتب

رقم القيد | ورد

من

الوقت

الآخذ

ملاحظات

تاريخ | كلمات

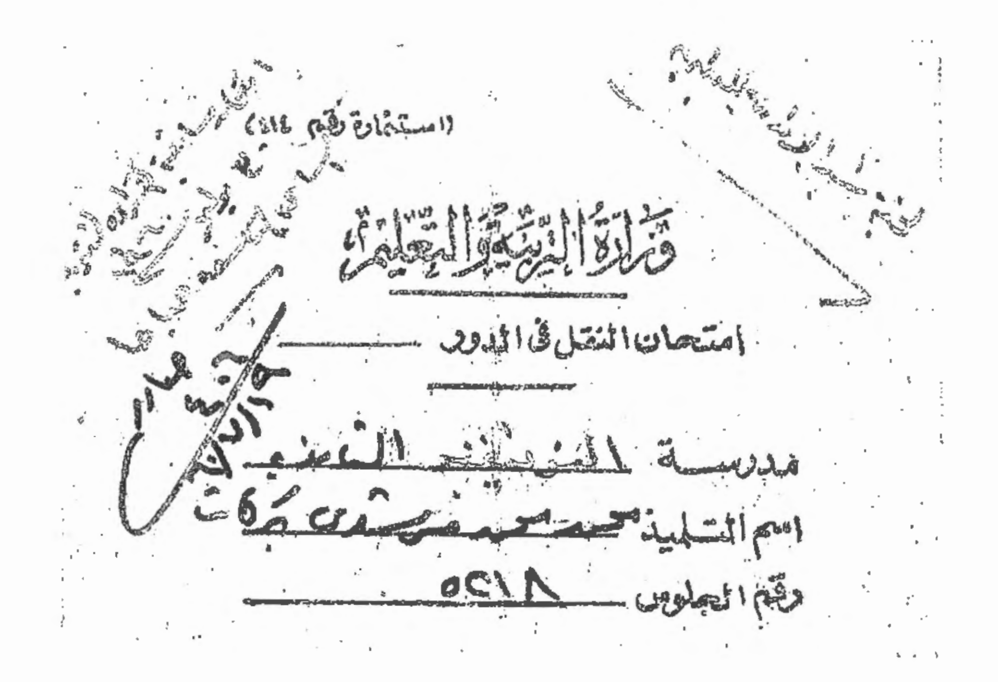
of origin

٢٥

م ٢٥ صلاح الدين مصر الجديده ١٦ ٧/١ ٢٨

السيد محمد محمد محمود مرشدى بركات ٩ العربى عباسيه مصر

ارجو للمرشدى بروح المجد الادبى والخلود الابدى... العقاد



(استمارة رقم ٤١٤)

وزارة التربية والتعليم

امتحان النقل في الدور ______

مدرسة ______

اسم التلميذ ______

رقم الجلوس ______

وزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

المنطقة الوسطى

مجلس الآباء

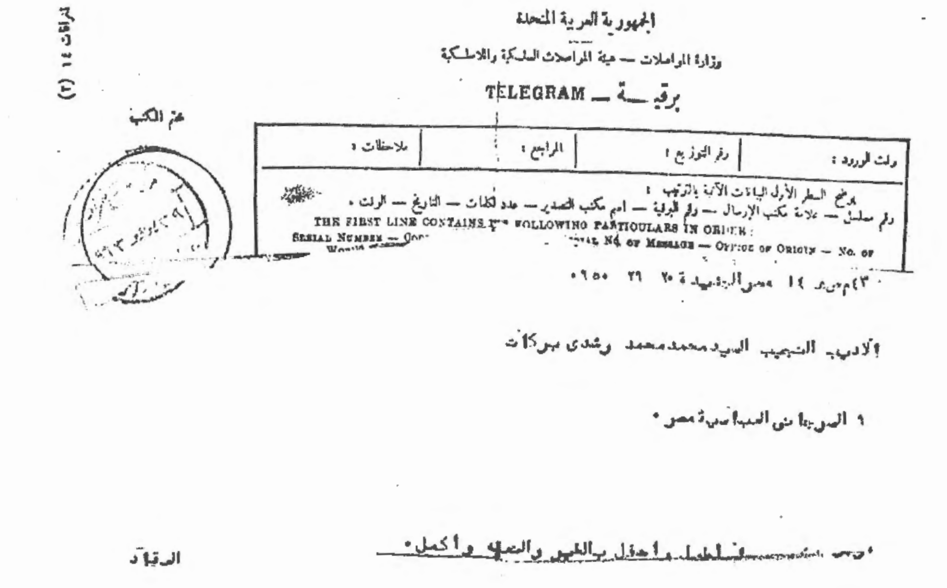
السيد الطالب/ محمد محمد مرسى بركا

يتشرف مجلس الآباء بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا بدعوة سيادتكم لحضور الحفل الذى يقام بالمدرسة فى تمام الساعة السادسة مساء يوم الخميس الموافق ٢٦ / ٥ / ١٩٦٠ بمناسبة انتهاء العام الدراسى وتكريم المتفوقين فى أوجه النشاط المختلفة وتوزيع الجوائز عليهم

ناظر المدرسة ورئيس مجلس الآباء

محمد رشاد عبد المجيد

الدخول بالتذكرة والدعوة شخصية


تلغرافات ١٤ (٣)

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة المواصلات — هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

برقيـــة — TELEGRAM

ختم المكتب

وقت الورود :	رقم التوزيع :	المراجع :		ملاحظات :

يوضع السطر الأول البيانات الآتية بالترتيب :
رقم مسلسل — علامة مكتب الإرسال — رقم البرقية — اسم مكتب الصدور — عدد الكلمات — التاريخ — الوقت .
THE FIRST LINE CONTAINS THE FOLLOWING PARTICULARS IN ORDER :
SERIAL NUMBER — ... NO. OF MESSAGE — OFFICE OF ORIGIN — NO. OF WORDS ...

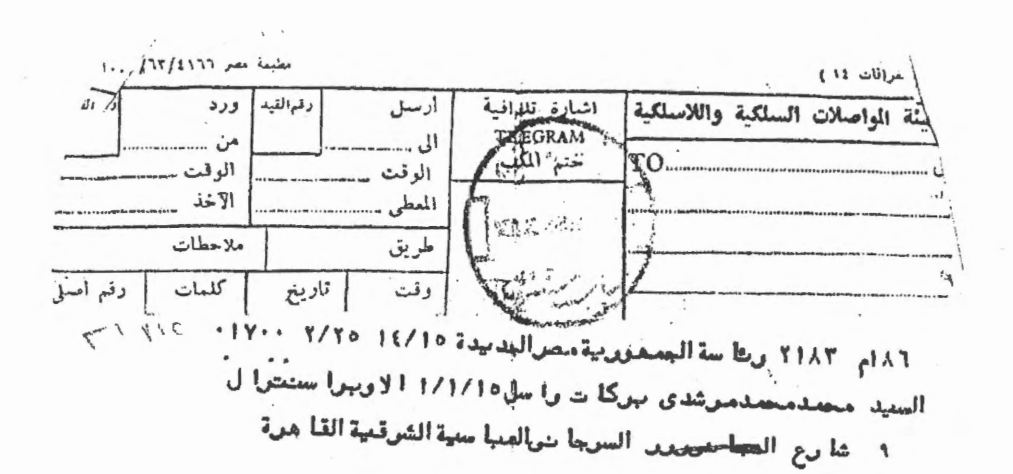
٣٠ ٤٣ مرور ١٤ مصر الجديدة ٢٠ ٢٦ ٠٩٥٠

الأديب النجيب السيد محمد محمد رشدي بركات

٩ الصوربا شي العباسية مصر .

شكرا لك واحتفل بالطيب والصفة وأكمل .

العقاد



عرانات ١٤

مطبعة مصر ٦٣/٤١٦٦/١٠٠

هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

اشارة تلغرافية

TELEGRAM

ختم المكتب

TO

أرسل | رقم القيد | ورد
الى | | من
الوقت | | الوقت
المعطى | | الآخذ

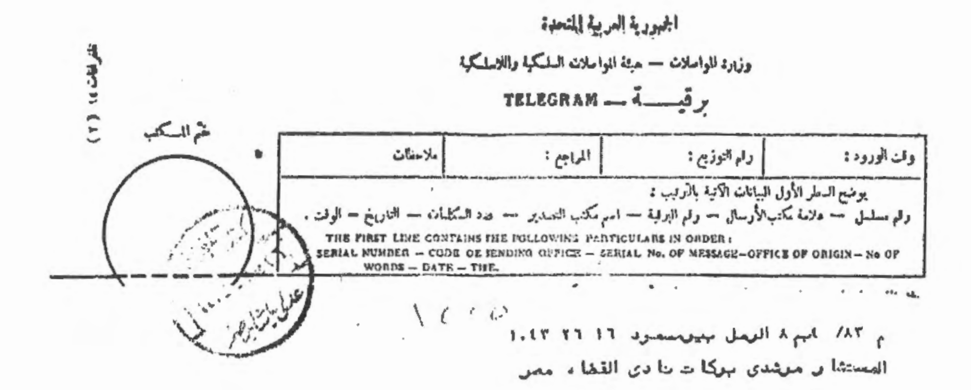
طريق | ملاحظات

وقت | تاريخ | كلمات | رقم أصلي

٨٦ام ٢١٨٣ رئاسة الجمهورية مصر الجديدة ١٤/١٥ ٢/٢٥ ٠١٧٠٠

السيد محمد محمد مرشدى بركات واسل ١/١/١٥ الاوبرا سنترال

٩ شارع السرجانى المباسية الشرقية القاهرة



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة المواصلات — هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية

برقيـــة — TELEGRAM

ختم المكتب

وقت الورود :	رقم التوزيع :	المراجع :	ملاحظات

يوضع السطر الأول البيانات الآتية بالترتيب :
رقم مسلسل — علامة مكتب الأرسال — رقم البرقية — اسم مكتب التصدير — عدد الكلمات — التاريخ — الوقت .
THE FIRST LINE CONTAINS THE FOLLOWING PARTICULARS IN ORDER :
SERIAL NUMBER — CODE OF SENDING OFFICE — SERIAL No. OF MESSAGE—OFFICE OF ORIGIN — No OF WORDS — DATE — TIME.

م ٨٣/ ابم ٨ الرمل ببي مسعود ١٦ ٢٦ ١٠٤٣

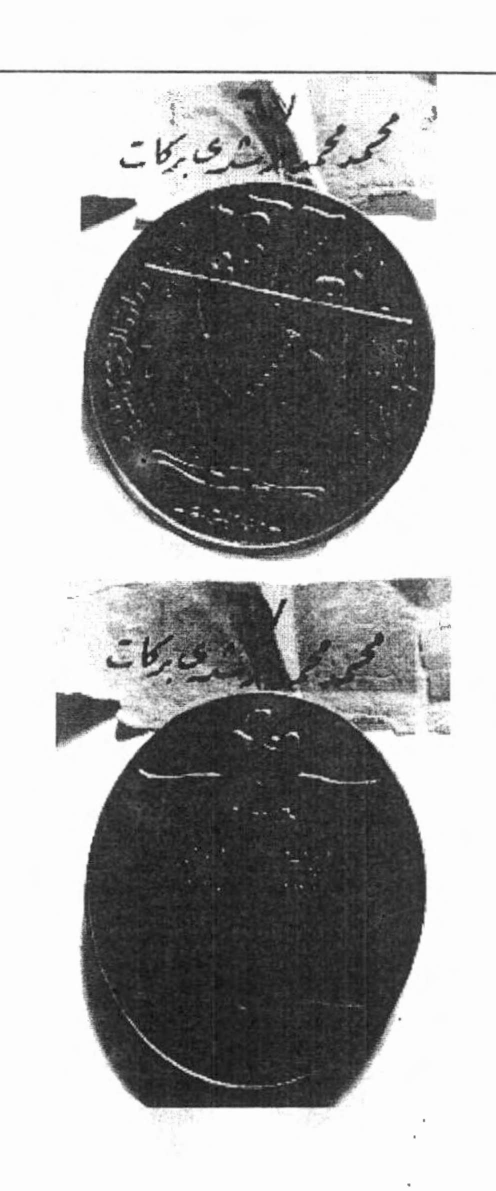
المستشا ر مرشدى بركا ت نا دى القضا ء مصر

اختيا ركم لتمثيل المستشا رين دل على تقدم الوعى فا هنئكم
عبدالحميد الشرقا وى

ميداليات التفوق




محمد محمد مرشدي بركات
محمد محمد مرشدي بركات



نبذة عن المؤلف

.. تخرج المستشار محمد مرشدي بركات في كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ـ وعين وكيلاً لنيابة قوص ، ونيابة نقاده ، ثم وكيلاً لنيابة أسنا ، فوكيلاً لنيابة مركز الأقصر فمديراً لنيابتها ونيابة أرمنت.

.. وعين قاضياً ثم رئيساً لمحكمة الأقصر الوطنية ، فرئيساً لمحاكم الغردقة ، وسفاجا ، والقصير ، والزقازيق ، وبنها ، وطنطا ، وشبين الكوم ، ومحكمة جنوب القاهرة ، فرئيساً لمحكمة مصر الجديدة عام ١٩٨٠

.. انتدب إبان عمله كرئيس لمحكمة جنوب القاهرة مستشاراً للأمانة العامة لمجلس الوزراء لمراجعة قضايا المفصولين من غير الطريق التأديبي .

.. ومفتشًا قضائيًا بوزارة العدل.. بيد أنه اعتذر عن هذا المنصب مفضلا عليه قضاء المنصة.

.. ومستشاراً بمحكمة الإستئناف العالي ببني سويف ، ثم المنيا ، فسوهاج ، فالسويس ، والإسماعيلية ، وبورسعيد .

.. فنائباً لرئيس محكمة إستئناف القاهرة ، فرئيساً للمحكمة بها .

.. ورحل إلى قطر للعمل في القضاء هناك ، ثم عاد منها حيث أسند إليه رئاسة مركز التحكيم الدولي الأفريقي .

****

.. حاز على جائزة الدولة في التفوق الاجتماعي وهو ينتظم في الصف الثالث

الثانوي بمدرسة الفيوم الثانوية ، وكانت هذه الجائزة تتيح له الإلتحاق بالجامعة دون التقيد بدرجات المجموع ، وكذلك الإعفاء من المصاريف المدرسية مع زميليه المرحوم الدكتور محمود أدهم والأستاذ محمود عارف نائبا رئيس تحرير جريمة الأخبار.

.. حصل على العديد من الجوائز الأدبية : أولاها الجائزة الأولى في أول عيد للعلم عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ عن بحث في تحليل شخصية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وطبع بحثه على نفقة الدولة مع الفائزين الأربعة الأخر ، وكرمه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في قاعة الاحتفالات الكبري بجامعة القاهرة وسلمه شهادة امتياز ميدالية تقدير وشيك بمبلغ من المال في هذا الاحتفال الذي كان على رأس المحتفى بهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين .

****

.. في السنة التالية فاز أيضاً في عيد العلم الذي كان يحضره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في نفس المكان السالف ذكره وسلمه الجوائز الخاصة به عن بحثه في مشكلة تنظيم الأسرة وكان على رأس المحتفى بهم في هذا العيد الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد الذي فاز بجائزة الدولة التقديرية في الأدب.

****

.. فاز بالجائزة الأولى في بحثه عن (احتكار العلم) وكذلك الجائزة الأولى عن بحثه (٢٣ يوليو ثورة عربية) . وسلمه جوائزه الأستاذ الدكتور حسين سعيد وزير التعليم العالي .

****

.. وكذلك سلمه المرحوم صلاح دسوقي محافظ القاهرة جوائزه في بحثه الذي فاز فيه بالجائزة الأولى عن : (البترول العربي) سلاح ضد الاستعمار

والصهيونية .

٧- فاز بالجائزة الأولى من جامعة القاهرة عن بحثه في (مشكلة السكان في مصر) وسلمه الجائزة الأستاذ الدكتور حسين فوزي وكيل جامعة القاهرة وأمر بطبع البحث على نفقة الجامعة

****

٨- كما نال الجائزة الأولى في القراءة من وزارة التعليم العالي وسلمه جائزته عن هذا البحث الدكتور وزير التعليم العالي .

****

٩- إثر الإعلان عن الراغب في الالتحاق في قسم الدراسات العليا ، كلية الإعلام، و كان مسموحاً لحاملة الليسانس و البكالوريس ، ناهيك عن الحاصلين علي درجة الماجيستر و الداكتورة في الإلتحاق بهذه الكلية شريطة اجتياز الاختبارات التحريرية و الشفاهية المقررة ، قدم أوراقه إليها و اجتاز الاختبارات المقررة و جاء ترتيبه متقدماً علي جميع المتقدمين ، ورشحه المرحوم الدكتور جمال العطيفي وزير الإعلام الأسبق و الكاتب بالأهرام لإتمام دراسته بباريس.. بيد أنه بعد أن ألتحق بالدراسة عاماً كاملاً، عين بالنيابة العامة... فترك الدراسة بكلية الإعلام آسفاً.

****

١٠- و الأستاذ الكبير حافظ محمود نقيب الصحفين الذي أرسل إليه خطاباً يشيد فيه بما كتبه عن الدكتور محمد بهي الدين بركات باشا الوصي السابق علي عرش مصر و رئيس مجلس النواب المصري من قبل بخصوص كتابه صفحات من التاريخ

١١- كتب في جميع صحف مصر والمجلات المختلفة ، وكانت أولى مقالاته

في المنبر الحر بجريدة الأهرام ومن قبلها بجريدة الأخبار.

****

١٢- نشر له المرحوم الأستاذ الكبير أحمد الصاوي محمد مقالات مختلفة له في بابه ما قل ودل

****

.. وله مقالات عديدة في صحف الأخبار والأهرام والجمهورية والشعب والقاهرة قبل احتجابها و الحرس الوطني والتحرير (قبل احتجابها) و روزاليوسف والمصور وأخر ساعة وجريدة المساء .

****

.. شارك في العديد من البرامج التليفزيونية منها قناة دريم - والتليفزيون المصري - وقناة الغد - وقناة تي في - وقناة سي بي سي CBC - قناة Nil family ، وكذلك في الإذاعة المصرية في البرنامج العام .

****

.. صادق العديد من كتاب مصر على رأسهم عملاق الفكر الأستاذ عباس محمود العقاد الذي أرسل له برقية في إحدى المناسبات قال له فيها :

نرجو للمرشدي ذروة المجد والخلود الأبدي كما أرسل برقية أخرى قال له فيها : أهنئكم نرجو لكم مئات التهنئات بأسعد الأعياد ، ونشر له العديد من المراسلات في يومياته بجريدة الأخبار المصرية.

.. والأساتذة توفيق الحكيم ومحمد ذكي عبد القادر و أحمد بهاء الدين وأحمد الصاوي محمد و يوسف جوهر و الشاعر صالح جودت وغيرهم .

.. متزوج وله ابنان خالد محمد مرشدي بركات وقد حصل على ليسانس

الحقوق جامعة عين شمس ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ بدرجة جيد جداً ـ ثم تحصل على الماجستير من ذات الجامعة ، ثم دبلوم في Arbitration ، وكذلك دبلوم من الجامعة الأمريكية ، ودبلوم العلوم الإدارية ، ويعمل قاضياً بمجلس الدولة .

.. و سارة محمد مرشدي بركات وقد حصلت على ليسانس الحقوق جامعة عين شمس ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ بتقدير جيد جداً ، ثم تحصلت على الماجستير من ذات الجامعة ، وكذلك على دبلومة من الجامعة الأمريكية ، وتعمل وكيلاً للنيابة الإدارية .

****

مؤلفات المستشار:

١- بحث عن الرئيس جمال عبد الناصر طبع في كتاب مع أخرين عام ١٩٥٩ على نفقة وزارة التربية والتعليم في طبعتين. (نفدتا)

٢- خواطر قاضٍ . دار المعارف ـ القاهرة .

٣- هموم مصرية . دار المعارف ـ القاهرة .

٤- محمد أنور السادات ـ سيرة ومسيرة دار المعارف ـ القاهرة

٥- عبقرية العقاد جزيرة الورد ـ القاهرة .

تحت الطبع

٦- قراءات ومشاهدات في الواحات

٧- جمال عبد الناصر .

٨ -معجزة القرآن.

الفهرس